مواهب الرحمن في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرس

عُني بنشره

محمد علي القره داغي

المجلد السابع

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

سورة غافر، مكية وهي خمس وثمانون آية

نزلت بعد الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) مَا يُجَادِلُ فِي آَيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (4) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (5) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (6)

قوله حم بتفخيم الألف أي قراءتها على الاستقامة لا على وجه الإمالة وسكون الميم، والكلام فيه هو الكلام في نظيره تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ إما خبر عن حم، أو خبر مبتدأ محذوف، راجع إلى القرآن الكريم المعهود المعروف بين المسلمين، والعزيز العليم نعتان، وكذلك

قوله ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ والأوصاف لكونها مستعملة بدون قصد الحدوث بل بقصد الاستمرار كانت كالأسماء الجامدة فإضافتها معنوية مفيدة للتعريف مصححة لكونها نعوتا لاسم الجلالة. وذكرها كذلك للترغيب والترهيب. والتوب مصدر بمعنى التوبة. وتوسيط الواو بين الاولين لإفادة الجمع بين الوصفين وأن مغفرة الذنوب ليست متوقفة على التوبة، فإن شاء عفا بدون التوبة، واذا تاب العاصي جاز ردها وعدم قبولها، والطول الفضل بترك العقاب عن المستحق ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو المعبود لانه هو الخالق المستحق للمعبودية من حيث أنه واجب الوجود وما سواه مستفاد من ارادته وقدرته فلا يُعْبَدُ قطعا و﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فقط لا إلى غيره.

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آَيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ما يجادل في آياته تعالى لغرض ردها والطعن فيها ومنع الناس عن الايمان بها الا الذين كفروا بها ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ﴾ ونفوذ أقاويلهم في قلوب أمثالهم من الجهلة ومشايعتهم لهم بعضهم لبعض ووصول أخبارهم أو نفوذ كلامهم ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ فإن البلاد قيمتها بأهل الرشاد لا بأهل السفه والبغي والعناد. وهم يمهلون مدة من الزمن ولكن لا يهملون فيؤخذ منهم من جانب العزيز المنتقم وهو شديد الأخذ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي وكذبت الأحزاب من بعدهم يعني الكفار المتحزبين على معاداة الرسل كعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم فأهلكهم الله وأبادهم وكذلك من يمشي مشيتهم يغشاه من العذاب ما غشيهم ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي ليتمكنوا من ايقاع ما يريدون به من السوء ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي ليزيلوا به دين الله الحق ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾كان عقابا صارما خارجا عن الحساب ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي وكما وجب حكمه على

الكفار الذين سبقوا ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه بـالإهلاك ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَـرُوا﴾ في عهـدك ﴿أَنَّهُمْ أَصْـحَابُ النَّارِ﴾ أي لأنهم أصـحاب النـار ومستحقون للتعذيب فيها.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَـهُ يُسَـبِّحُونَ بِحَمْـدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُـونَ بِـهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَـا وَسِـعْتَ كُـلَّ شَـيْءٍ رَحْمَـةً وَعِلْمًـا فَـاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَـذَابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنَـا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَـدْنٍ الَّتِي وَعَـدْتَهُمْ وَمَنْ صَـلَحَ مِنْ آَبَـائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَـدْ رَحِمْتَـهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَـرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10)﴾

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَـرْشَ﴾ مبتـدأ يـأتي خـبره، والعـرش في عرف الشرع جسم عظيم له قوائم، ومعرفة حقيقته موكولـة إلى اللـه العليم، وهـو في الكـبر بحيث يعـد الكرسـي ومـا فيـه ومـا تحتـه من السـماوات والأرض بالنسـبة اليـه كحلقـة في فلاة ﴿وَمَنْ حَوْلَـهُ﴾ أي والذين من حول العرش وهم ملائكة ولا يعلم عددهم الا الله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي يسبحون الله ويحمدونه ويؤمنون به إيمانا كاملا بمعنـاه التام وهذا التقييد للتشريف ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آَمَنُـوا﴾ فـإن المؤمـنين إخوة ولو كان أخ وليد عالم الخلق والآخر وليد عالم الأمر قائلين: ﴿رَبَّنَـا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ يعني

لا يفوت من علمك شـيء ولا تقصـر رحمتـك عن شـيء ﴿فَـاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أي رجعوا إليك من الكفر الى الايمان ومن العصيان الى الطاعــة والاحسـان ﴿وَاتَّبَعُـوا سَـبِيلَكَ﴾ أي واسـتقاموا على سـلوك سـبيلك وهـو الصــراط المســتقيم ﴿وَقِهِمْ﴾ أي واحفظهم ﴿عَــذَابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنَـا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ﴾ أي ووعدت بـه من صـلح ﴿مِنْ آَبَـائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيـزُ﴾ أي الغـالب المطلـق ﴿الْحَكِيمُ﴾ ذو الحكمة في كل تصرفاتك ﴿وَقِهِمُ السَّـيِّئَاتِ﴾ أي واحفظهم من العذاب الـوارد على السـيئات، أو احفظهم من العقوبـات الـتي هي سـيئات وأمـور صـعبة غـير مرغوبـة على الانسـان ﴿وَمَنْ تَـقِ السَّـيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ ومن تحفظه من العقوبات يوم القيامة فقـد رحمتـه ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي الظفر بالسعادة ظفرا عظيما جليل القدر عند كل مؤمن برب العـالمين. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا يُنَـادَوْنَ﴾ يـوم القيامـة عند تعذيبهم في جهنم ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَـكُمْ إِذْ تُـدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُـرُونَ﴾ المقت البغض الشـديد. يعـني إنكم كنتم عنـدما يدعوكم الرسول إلى الإيمان بالله وحده فتكفرون بـه بـدلا عن الإيمـان أبغضتم أنفسكم وعاديتموها أو لما دعي انسان الى خير فامتنع فمعنــاه أنه يعادي نفسه بنفسه فأبغضكم الله سبحانه جـزاء لـذلك، ولكن بغض الله لكم أكـبر وأشـد وأشـق عليكم من بعضـكم لانفسـكم لان بغضـكم لانفسكم كان بمنعها عن الايمان ولكن بغض الله لكم صار عـذابا ووبـالا ونكالا عليكم في دار الآخرة الى الابد.

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِـذُنُوبِنَا فَهَـلْ إِلَى خُـرُوجٍ مِنْ سَـبِيلٍ (11) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْـدَهُ كَفَـرْتُمْ وَإِنْ يُشْـرَكْ بِـهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12) هُوَ الَّذِي يُـرِيكُمْ آيَاتِـهِ وَيُنَـزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِـينَ لَـهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14) رَفِيـعُ الـدَّرَجَاتِ ذُو الْعَـرْشِ يُلْقِي الـرُّوحَ مِنْ أَمْـرِهِ عَلَى مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَـادِهِ لِيُنْـذِرَ يَـوْمَ التَّلَاقِ (15) يَـوْمَ هُمْ بَـارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَـيْءٌ لِمَنِ الْمُلْـكُ الْيَـوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِـدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَـوْمَ تُجْـزَى كُـلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَـبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَـوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17)﴾

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أي خلقتنا أمواتا في بدء الخليقة حيث كُنّا نطفة في صلب الآباء وترائب الأمهات، وأحدثت فينا الموت مرة ثانية عند انقضاء آجالنا ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ إحياءة عند نفخ الروح فينا في بطون أمهاتنا، وإحياءة عند البعث من القبور ولما أحييتنا للمرة الثانية للبعث والنشور وكنا قد أنكرناها في الدنيا ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِـذُنُوبِنَا﴾ واجرامنا من حيث نكار البعث الذي علمناه قطعا ﴿فَهَـلْ إِلَى خُـرُوجٍ مِنْ سَـبِيلٍ﴾ أي فهل هناك سبيل وطريق الى خروجنا من هذه النار ورجوعنا إلى الحياة السابقة حتى نطيع رسولك ونؤمن بكل ما أتى به من عندك وجواب هذا الاستفهام بالنفي القطعي، أي لا سبيل لكم إليه، ويجب عليكم الاستمرار في العذاب ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْـدَهُ﴾ بلا ملابسة الشريك ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيده ﴿وَإِنْ يُشْـرَكْ بِـهِ تُؤْمِنُـوا فَـالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ وهذه الجملة اما مخرجة في مقام اظهار الأسف كما هو المعتاد أي ماذا نقول بعد أن تحقق القضاء بكفركم؟

أو معناها فما دام أنتم كفرتم بالتوحيد وآمنتم بالإشـراك على خلاف مـا هو المشروع فالحكم بوجوب بقائكم في النار الله العلي الكبير الجبار.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آَيَاتِهِ﴾ أي يجعلكم بحيث ترون آياته الدالة على شـئونه العظيمة الموجبة لتفرده بالألوهية ﴿وَيُنَـزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ رِزْقًـا﴾ أي سـبب رزق وهـو المطـر وبـه تنبـع الميـاه من العيـون وينبت النبـات والاشجار المثمرة والزراعات والفواكه ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات البينات ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أي يرجع إلى الله سبحانه وتعالى ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

وقوله ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ خبر لمبتدأ محـذوف أي هـو رفيـع الـدرجات أي درجات صعود ملائكته من الارض الى السماوات فـإلى العـرش. وقيـل: درجات ثوابـه لأهـل طاعتـه من أنبيائـه الى أوليائـه الى صـلحاء عبـاده، فهناك درجات، وكل قوم واقع على درجة، وكل شـخص متصـف بمقـام خاص كما قالت الملائكة ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ وقيل معناه رفيع الصفات، وقيل معناه رفيع الدرجات أي لـه درجـات لعبـاده في معرفـة ذاتـه وصـفاته، فمنهم من يعرفـه بوجـوه واعتبـارات وضـيعة حسـب مستواه العلمي، ومنهم من يعرفه بشئون أعلى من ذلك، فمثلـه كمثـل جوهر معدني له آثار وصفاتٌ خاصة مختلفة لا يعرفهـا الا المتخصصـون بها. وقيل: انه عـالي الجـاه ومرتفـع المقـام، ومن العبـاد اليـه مقامـات معنوية كثيرة لا تتناهى ولا يمكن طيهـا، فغايـة مـا يصـل اليـه العبـد هـو العـرش وهـو ﴿ذُو الْعَـرْشِ﴾ وصـاحبه وخالقـه ولا يناسـب مقامـه لأنـه موصوف بوجوب الوجود فلا علاقة له بما هـو ممكن خـاص يسـتوي في حقه العدم والوجود ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ أي الوحي ﴿مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أن يكون مظهرا لتلك الـروح ﴿لِيُنْـذِرَ يَـوْمَ التَّلَاقِ﴾ أي لينـذر عباده بعذابه يوم لقائه في الآخرة ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أي ظاهرون

ذاتا وأعمالا ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أما ذواتهم فبذواتهم، وأما أعمالهم فبما كتب في سجلهم ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي يقال من جـانب العزيز الجبار: لمن الملك اليوم؟ ويجيب عنه ذاته المتعال فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِـدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَـوْمَ﴾ أي في هـذا اليـوم ﴿تُجْـزَى كُـلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآَزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَـا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّـدُورُ (19) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ لَا يَقْضُـونَ بِشَـيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِـيرُ (20) أَوَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُـوَّةً وَآَثَـارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِـذُنُوبِهِمْ وَمَـا كَـانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (21) ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ كَـانَتْ تَـأْتِيهِمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ فَكَفَـرُوا فَأَخَـذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَـوِيٌّ شَـدِيدُ الْعِقَابِ (22)﴾

قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآَزِفَةِ﴾ الآزفة القريبة، أي وأنذرهم بمـا يقـع من العذاب يوم الساعة الآزفة ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ بدل من يـوم الآزفة، أي زمان كون القلوب لدى الحناجر يعني أنهم من شدة خـوفهم تقرب قلوبهم من حلاقيمهم ويكاد أن يموتـوا. وقولـه ﴿كَـاظِمِينَ﴾ حـال من القلوب بتقدير أصحابها أي حالكون أصحاب القلوب ماسكين عليهـا حتى لا تخرج من فزعهم ﴿مَـا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي ليس لمن ظلم نفسه في الدنيا بالكفر والاشراك من قريب

مشفق ينفعه بماله أو مقاله ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ من الله في شفاعته لهم ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ أي النظرة الخائنة كالنظر الى وجه المرأة الأجنبية عمداً ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أي وما تخفيه الصدور من العزم على العداء بغير حق، واضرار شخص بلا موجب مشروع ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لانه يقضي على علمه بالحقائق قضاء موافقا للعدل، فهو دائما يقضي بالحق ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ رحم الله من قال ان السالبة لا تقتضي وجود الموضوع، فالقضاة في هذه القضية جمادات لا وجود لهم بصفة كونهم قضاة في الحقائق حتى يقضوا بشيء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقرير بعلمه بخائنة الأعين.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مآل الذين كذبوا الرسل من قبلهم ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي من قريش وأشياعهم ﴿قُوَّةً﴾ في المال والعَدَد والعُدَد وكانوا مسيطرين على بلاد غنية بالحاجيات والكماليات ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ مثل المدن المحصنة، والقلاع المستحكمة، والأرزاق المُوَفرة ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي حافظ يحفظهم من تلك الأخذة الشديدة ﴿ذَلِكَ﴾ الاخذ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي المعجزات أو الآيات الواضحات ﴿فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أعاذنا الله من سوء الحساب.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (25) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا﴾ هي معجزاته الباهرة القاهرة لأكبر طاغ في البلاد ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي قوة قوية واضحة، إما تفسير وبيان لما قبله، وإما عبارة عن الحجج الظاهرة منه عند الكلام مع فرعون ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ وزيره ﴿وَقَارُونَ﴾ وكان مقدم جنود فرعون. وخصهم بالذكر لانهم كانوا أصحاب الأمر والرأي ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي هو ساحر في إبداء هذه الأمور المعجزة، وكذاب في دعوى أنه رسول الله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي فلما استمر على دعواه وبلغهم من جانب الله تعالى ما أمر بتبليغه ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ أي أعيدوا عليهم ما تعودتموه من القتل والفتك والإزعاج والإزهاق والإرهاب وحرب الأنفس والأعصاب ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ من المطلوب ولا يصل إلى جانب المقصود.

ولما رأى فرعون موسى عليه السلام قوة العزيمة وشدة الشكيمة وأنه لا تلين عريكته في هذا الميدان ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لملائه ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ لنخلص من شره ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ لينصره أو يخلصه مني ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾

الذي أنتم عليه ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَـادَ﴾ بإشـاعة الهرجـة بين الشباب والناس المتفرجين وتضعف به شوكة الدولـة ﴿وَقَـالَ مُوسَـى﴾ لما سمع بـذلك ﴿إِنِّي عُـذْتُ بِـرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُـلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُـؤْمِنُ بِيَـوْمِ الْحِسَابِ﴾ مخاطبا به قومه ومقويا به قلـوبهم حـتى لاتتفسخ عـزائمهم أمام الدين ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾ بالله تعالى وبدين موسى عليه السـلام وهو ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَـهُ﴾ منـه وممن معـه ﴿أَتَقْتُلُـونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ يختص به ولا يتخطاه ﴿وَإِنْ يَـكُ صَـادِقًا يُصِـبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِـدُكُمْ﴾ من المواهب الدينيـة والدنيويـة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْـدِي مَنْ هُـوَ مُسْـرِفٌ كَـذَّابٌ﴾ جملة جميلة ذات وجهين لكن أقرب الى فرعون من موسى والا ذكرهـا مع الأولى.

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْـكُ الْيَـوْمَ ظَـاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُـرُنَا مِنْ بَـأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَـوْنُ مَـا أُرِيكُمْ إِلَّا مَـا أَرَى وَمَـا أَهْـدِيكُمْ إِلَّا سَـبِيلَ الرَّشَـادِ (29) وَقَـالَ الَّذِي آمَنَ يَـا قَــوْمِ إِنِّي أَخَـافُ عَلَيْكُمْ مِثْـلَ يَـوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَـادٍ وَثَمُـودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْـدِهِمْ وَمَـا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَـافُ عَلَيْكُمْ يَـوْمَ التَّنَـادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْـلِلِ اللَّهُ فَمَـا لَـهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَـاتِ فَمَـا زِلْتُمْ فِي شَـكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْـدِهِ رَسُـولًا كَـذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُـوَ مُسْـرِفٌ مُرْتَـابٌ (34) الَّذِينَ يُجَـادِلُونَ فِي آيَـاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَـعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)﴾

قوله تعالى ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ يتبين من الآية الشريفة أنه كـان من الجماعة المالكة واشتهر أنه كان ابن عم فرعون وصاحب شـرطته وفي محل ولي العهد، وقد هداه الله للايمان قال يا قوم لكم الملـك أي السلطان اليوم ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ عالين على الرعايـا من الأقبـاط وبني اسرائيل ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ يعـني لا تفسـدوا في الأرض وأطيعوا الله ورسوله حتى يرحمكم، وان كفرتم أتاكم بأسـه وعذابه ومن ذا الذي ينصركم ويحفظكم من بأس اللـه إن جاءنـا، وهـذا الكلام خاطب به فرعون وملأه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعـد سـماع ذلـك: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أي ما أشير عليكم الا بما أريـده وأختـاره وأستصـوبه لنفسي ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي طريق الصلاح ﴿وَقَالَ الَّذِي آَمَنَ﴾ يعـني المنـادى المـذكور بعـد سـماع كلام فرعـون: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ وفسـره بقولـه ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لـوط كفـروا باللـه وكـذبوا رسـله فدمرهم الله شر تدمير وكل ما فعلـه فهـو حـق ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أي فما فعله بهؤلاء كـان جـزاء لكفـرهم وعنـادهم، واذا كفـرتم أتاكم مثل ما أتاهم، وليس ذلك الا احقاقا للحـق وازهاقـا للباطـل ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ أي العـذاب الـوارد يـوم ابتلاء الكفـار في الآخرة ونداء بعضـهم بعضـا اسـتغاثة واسـتنجادا للخلاص ولات حين منـاص قطعـا. ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي يـوم تولـون عن الموقـف منصرفين الى النار ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي من عذاب الله ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي حافظ يحفظكم منه ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾

أي في الدنيا ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الحق واذا لم يهتد ضل ضـلالا بعيدا، وإذا ضل كذلك أذاقه الله في الآخرة عذابا شديدا.

ثم أخذ يقص عليهم قصص الزمان السابق للاعتبار فقال ﴿وَلَقَدْ جَـاءَكُمْ يُوسُـفُ﴾ بن يعقـوب بن اسـحاق بن ابـراهيم ﴿مِنْ قَبْـلُ﴾ أي من قبـل مجيء موسى وهارون ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بأعمال صالحة وأخلاق عالية تـدل على صدقه في دعوى النبوة ﴿فَمَـا زِلْتُمْ فِي شَـكٍّ مِمَّا جَـاءَكُمْ بِـهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ﴾ الاضلال ﴿يُضِـلُّ اللَّهُ مَنْ هُـوَ مُسْـرِفٌ مُرْتَـابٌ﴾ أي شـاك في دينـه حـتى ولـو شـهدت عليـه البينات. وظاهر قوله ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينـات أن فرعـون موسى كان فرعون زمـان يوسـف فقـد ذكـر بعض أصـحاب التـأريخ أن وفاة يوسف عليه السلام كانت قبل ولادة موسى عليهما السـلام بـأربع وستين سنة. واستظهر في البحر أن فرعون يوسف هو فرعون موسى عليهما السلام، وأن عمره كان أربعمائة وأربعين سنة. ولكن الذي ذكره أغلب المـؤرخين أن فرعـون موسـى غـير فرعـون يوسـف، وأن اسـم فرعون موسى (الريان) وان فرعون يوسف اسـمه الوليـد وأن يوسـف مات في زمنه والله أعلم، وقوله ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَـاتِ اللَّهِ﴾ بـدل من الموصول السابق في قوله من هو مسرف مرتاب يعني يضل اللــه الذين يجادلون في آيات الله ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي من جهـة البـاري تعالى اما على أيدي الرسل عليهم السلام، وامـا بطريـق الافاضـة على عقولهم وقوله ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ توكيد وتقرير لمــا أشعر به الكلام من ذمهم، وفاعل كبر راجع الى الجدال الـذي دل عليـه يجادلون، أي كبر الجدال في آيات الله بغير حجة مقتا عند اللـه ﴿كَـذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ بإضافة القلب الى متكبر أي على كل قلب كل متكبر جبار

بتقدير كل، والا لزم أن يكون لمتكبر واحد قلوب متعددة. وأما اذا قـرئ بالتنوين فلا حاجة فيه اليه.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْـبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَـوْنَ إِلَّا فِي تَبَـابٍ (37) وَقَـالَ الَّذِي آَمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَـادِ (38) يَـا قَـوْمِ إِنَّمَـا هَـذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَـرَارِ (39) مَنْ عَمِـلَ سَـيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِـلَ صَـالِحًا مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) وَيَا قَـوْمِ مَـا لِي أَدْعُـوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَـا لَيْسَ لِي بِـهِ عِلْمٌ وَأَنَـا أَدْعُـوكُمْ إِلَى الْعَزِيـزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَـرَمَ أَنَّمَـا تَدْعُونَنِي إِلَيْـهِ لَيْسَ لَـهُ دَعْـوَةٌ فِي الـدُّنْيَا وَلَا فِي الْآَخِـرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَـا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْـحَابُ النَّارِ (43) فَسَـتَذْكُرُونَ مَـا أَقُـولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَـا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآَلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَـا غُـدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آَلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَـرْحًا﴾ أي بنـاء مكشـوفا عاليا ﴿لَعَلِّي أَبْلُـغُ الْأَسْـبَابَ﴾ أي الطـرق ولمـا كـانت مهمـة بينهـا بقولـه ﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ قيل: أمـر بـذلك لأنـه كـان منجمـا فـأراد أن يبـني رصدا يصعد عليه فيترقب مع أعوانـه أحـوال النجـوم كي يعـرف عاقبـة ماداهمه من دعوة موسى عليه السلام. وقيل: بل أراد أن يوهم النــاس أنه إله الأرض فيصعد الى برج يمكنه هناك أن يتفـاهم مـع إلـه السـماء كما قال ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ هـل يوجـد في السـماء لانـه اذا كـان موجودا فهـو إمـا في الارض او في السـماء، وليس في الارض بحسـب اطلاعه فلابد أنه يكون في السماء، ولم يفهم أن من كان موجـودا قبـل الأرض والسماء لا استقرار لـه في الأرض ولا في السـماء ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ في دعواه أن ربـه رب الأرض والسـماء أو أنـه مرسـل منـه الى العباد لارشادهم إلى الله ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُـوءُ عَمَلِـهِ﴾ وزعم أن ذلـك ينفعـه ويوصـله إلى الحقيقـة، ولم يـدر أن اللـه نـور السـماوات والأرض ولا يهتدي إلى النور الا بالنور، وبذلك كـاد قومـه وأغفلهم ﴿وَمَـا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي في انقطاع ويبس وخسار.

﴿وَقَـالَ الَّذِي آَمَنَ﴾ باللـه ورسـوله في مقابلـة مـا يـدبره فرعـون من المكيدة ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾ بحذف ياء المتكلم ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي سبيل الوصول الى الله فإنـه هـو العبـادة للـه المتعـالي لا بنـاء الصـرح العالي ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَـا هَـذِهِ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا مَتَـاعٌ﴾ يتمتـع بـه فيسـتهلك ولا يسـتملك ﴿وَإِنَّ الْآَخِـرَةَ هِيَ دَارُ الْقَـرَارِ﴾ لخلودهـا ودوام مـا فيهـا. ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِـلَ صَـالِحًا مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُـوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَـا بِغَيْـرِ حِسَـاب﴾ وتقـدير منهم ولمـا رأى من قومـه نـوم الغفلـة عن الحـق ولا يريـدون الا مـا أراده فرعون من الضلال قال ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَـاةِ وَتَـدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾

أي بوجوده الحقيقي أو باشتراكه مع الله علم ولا ظن ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ الذي يدل عليه كل ما تعلمون من الانفس والآفاق والآثار ﴿لَا جَرَمَ﴾ لا شك ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ أي لا يستحق أن يدعى لاتباعه، وليس له قابلية الدعوة ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ المنصرفين من الحق الى الباطل ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ. فَسَتَذْكُرُونَ﴾ في المستقبل القريب عند هلاك فرعون وجنوده، أو في القيام عند توقيف كل عامل على حدوده وتطلعون وتفهمون ﴿مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ الآن ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ في عدم افادة ارشادي لكم ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ بأهل الارشاد وبأهل العناد ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ من متاركتهم له أو معاندتهم له ﴿وَحَاقَ بِآَلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي بفرعون وآله ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ الغرق بالماء والحرق بالنار كما قال تعالى ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ في عالم البرزخ بعد زهوق أرواحهم وانغراق أشباحهم، ومعنى عرضهم عليها احراقهم بها. ولو فرضنا أن العرض هو الاظهار أمامهم في مقام تذكيرهم بأنكم ستعذبون بذلك في الآخرة فهو عذاب أي عذاب. والجمهور من المسلمين على أن تعذيب الأموات في عالم البرزخ أي مدة ما بين الموت والبعث هو على مجموع الروح والجسم البرزخي.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (48) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (50) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ﴾ منصوب على المفعولية لأذكر المحذوف أي أذكر زمان تحاجهم واستدلالهم بعض على بعض ﴿فِي النَّارِ﴾ وتخاصمهم فيها ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ في الدنيا ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ اتباعا كالخدام ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ بتحمل بعض عذابها عنا ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ للضعفاء ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي في النار ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ فجعل الجنة لأهلها والنار لأهلها وما دام كل أخذ حقه ومستحقه من قضاء الباري تعالى فلا حق لكم علينا ولا يمكن لنا التحمل عنكم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ عندما ضاقت بهم الحيل ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي للقائمين عليها المأمورين بتعذيب أهلها ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ(49) قَالُوا﴾ في جوابهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى﴾ أي أتونا بالبينات فعاندناهم واستكبرنا ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي اذا كان الأمر كذلك فلا نقدر نحن أن ندعو لكم فادعوا أنتم لأنفسكم ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي في ضياع وبطلان. وهذه الجملة اما من المحولين للدعاء الى أنفس الطالبين أو من كلام الباري سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ كلام مستأنف من الله سبحانه وتعالى لتأييد الرسول وأمته، فيقول: انا لننصر رسلنا والذين آمنوا ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالحجة والتأييد ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي يوم القيامة الذي فيه جمع الأولين والآخرين وشهادة الاشهاد للرسل بالتبليغ وعلى الكفرة بالتكذيب. ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾

أي الطـرد في عـالم الـدنيا والآخـرة من مراحمـه الباطنـة والظـاهرة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي ولهم الدار السيئة وهي دار جهنم.

﴿وَلَقَـدْ آَتَيْنَـا مُوسَـى الْهُـدَى وَأَوْرَثْنَـا بَنِي إِسْـرَائِيلَ الْكِتَـابَ (53) هُـدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَـابِ (54) فَاصْـبِرْ إِنَّ وَعْـدَ اللَّهِ حَـقٌّ وَاسْـتَغْفِرْ لِـذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ بِالْعَشِـيِّ وَالْإِبْكَـارِ (55) إِنَّ الَّذِينَ يُجَـادِلُونَ فِي آَيَـاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيـهِ فَاسْـتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّـمِيعُ الْبَصِـيرُ (56) لَخَلْـقُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَـرُ مِنْ خَلْـقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُـونَ (57) وَمَـا يَسْـتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (58) إِنَّ السَّاعَةَ لَآَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ أي ما يهتدي به هـو وأتباعـه من المعجـزات البـاهرة الـتي تطمئن بهـا نفسـه وتتـذلل بهـا اعـداؤه، ومن الصحف والشرائع ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ وأعطينـا ذلـك الهـدى المتمثل في الكتاب أنبيـاء بـني اسـرائيل يسترشـدون بـه هم وأتبـاعهم ﴿هُـدًى وَذِكْـرَى لِأُولِي الْأَلْبَـابِ﴾ ليكـون ذلـك الكتـاب وسـيلة الرشـاد والوصول الى الحق ومذكرا بحقوق الله على عباده، وذلك انما يسـتفاد لاصحاب العقول الخالصة ﴿فَاصْـبِرْ﴾ أنت ايضـا مثلـه على أداء رسـالتك وان ابتليت بمـا لا يطيقـه الا أولـو العـزم ﴿إِنَّ وَعْـدَ اللَّهِ﴾ ايـاك بـالظفر والنجـاح وإعلاء الكلمـة وسـعادة الـدارين ﴿حَـقٌّ﴾ لا شـبهة فيـه أبـدا ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ واطلب السماح والمغفرة من الله تعالى

لما صدر منك مما لا يناسب علو مقام الرسالة أو ما يكون عائقا عن الفكر والذكر الروحي لك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ والمراد بالعشي والإبكار إما الوقتان الخاصان أو الأوقات جميعا بذكر الطرفين، وعلى كل فالمراد بالتسبيح والتحميد معناهما المعروف، والمراد دوامه صلى الله عليه وسلم على التسبيح والتحميد وأن لا يكون غافلا عن ذكر ربه تعالى وليس المراد الصلاة المفروضة لانها فرضت ليلة الإسراء والمعراج. ومن الناس من قال: إن المراد ركعتان مفروضتان عليه صلى الله عليه وسلم بكرة، وركعتان عشية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِ اللَّهِ﴾ أي في الآيات المنزلة من الله بقولهم إنها ليست من آياته وانما هي قول شاعر أو كاهن أو مجنون، أو أنها أساطير الأولين، أو أنها أخذت من بعض الأعجمين وتلك المجادلة منهم ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ من النقل أو العقل ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ ليس في صدورهم شيء الا كبر وتكبر وتعظم وترفع فارغ غير مبني على موجب معقول و﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ أي بواصلين نتيجة ذلك الكبر، فإن ما يريدونه منها إمحاء الرسالة الاسلامية واطفاء نور الله وإفناء رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وازالة التوحيد، وابقاء الشرك، وقد أراد الله أن لا يبقى كذلك، فقد جاء الحق وزهق الباطل ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شرهم وافسادهم والوصول إلى مآربهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعائك واستعاذتك ﴿الْبَصِيرُ﴾ بحالات الطرفين وحركاتهما. ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ فاذا كنا قادرين على خلق العلويات والسفليات وقد خلقناها فعلا فكيف لا نقدر على بعث الموتى للحشر والحساب؟ وهذا هو أساس إنكارهم للتوحيد وبقائهم على الإشراك. أو إذا قدرنا على خلق العالم فكيف لا نقدر على اماتة

أولئك المشركين وخلق أنـاس آخـرين موحـدين؟ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقيقة، ولذلك عموا عن إبصار طريق الحق.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي الكافر والمؤمن والمشرك والموحـد ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِـيءُ﴾ بتبـديل الإيمـان بـالكفر والأعمـال الصـالحة بالسـيئات. ﴿قَلِيلًا مَـا تَتَـذَكَّرُونَ﴾ أي في قليـل من الأوقات تذكرون فتذكرون الحق ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وهنـاك يتبين الحق ويتميز المفسد من المصلح ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُـونَ﴾ أي لا يصدقون بذلك لقصر نظرهم.

﴿وَقَـالَ رَبُّكُمُ ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْـتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَـادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْـلَ لِتَسْـكُنُوا فِيـهِ وَالنَّهَـارَ مُبْصِـرًا إِنَّ اللَّهَ لَـذُو فَضْـلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لَا يَشْـكُرُونَ (61) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَـالِقُ كُـلِّ شَـيْءٍ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ فَـأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذَلِكَ يُؤْفَـكُ الَّذِينَ كَـانُوا بِآَيَـاتِ اللَّهِ يَجْحَـدُونَ (63) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَـاءً وَصَـوَّرَكُمْ فَأَحْسَـنَ صُـوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَـاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَـارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـالَمِينَ (64) هُـوَ الْحَيُّ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ فَـادْعُوهُ مُخْلِصِـينَ لَـهُ الـدِّينَ الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ (65) قُـلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُـدَ الَّذِينَ تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي أعبدوني وحدي أثبكم، وأطيعوني واطلبوا الخير مني، وكونوا مع عبادي أعطكم في الدنيا قريرة وفي الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي مُحقرين أذلاءَ.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي لتستريحوا فيه بالمنام والمقام وتستعيدوا قوتكم المعتادة وتستعدوا للعمل المشروع في النهار ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي وجعل لكم النهار مبصرا أي ذا إبصار، وهذا الإسناد مجازي والمراد مبصرا فيه، اسم مفعول لانه في الحقيقة زمان الأبصار وظرفه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لمولى النعم وفياض الكرم على البر والفاجر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمته وفضله وكرمه ورحمته لجهلهم بصاحب النعمة وفياض الرحمة ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ أي ذلكم المنعوت بما ذكر ربكم ومولاكم، فتبارك الله رب العالمين ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من النعمة والمنعم عليه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ وتصرفون ولأي سبب ينحرفون عن الاتجاه السليم والصراط المستقيم ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي مثل ذلك الإفك بلا داع مبرر ولا حجة وبرهانٍ مقرر ﴿يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فهذه الخصلة القبيحة ماشية فيهم وفيمن سبق من الكافرين.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي محل قرار ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي قبة مضروبة عليكم علق بها المصباح المضيء والمنور ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي المستلذات المقبولة للاقتيات والتفكه والتداوي ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَيُّ﴾ المنفرد بالحياة الذاتية ﴿لَا إِلَهَ﴾ حق ﴿إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ﴾ أي فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه أحدا حالكونكم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي العبادة، ولا تشركوا به غيره.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَـاتُ﴾ أي التجليات الربانية والوحي السماوي والإلهامات القدسـية، والبصـيرة القلبيـة، بحيث لم يبـق لي مجـال أي شـبهة حيث وصـلت الى الدرجـة العالية من اليقين ﴿مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأنقاد لـه قلبا وقالبا، روحا وشبحا.

﴿هُـوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُـرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَـةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَـةٍ ثُمَّ يُخْـرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُـوا شُـيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَـوَفَّى مِنْ قَبْـلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُـونَ (67) هُـوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَـإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ (68) أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَـادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَـابِ وَبِمَـا أَرْسَـلْنَا بِـهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيـلَ لَهُمْ أَيْنَ مَـا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَـلْ لَمْ نَكُنْ نَـدْعُو مِنْ قَبْـلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (74) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُـونَ (75) ادْخُلُـوا أَبْـوَابَ جَهَنَّمَ خَالِـدِينَ فِيهَـا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَـقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (77)﴾

قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي في ضـمن خلـق أبيكم آدم منه ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ اسـم جنس يقـع على القليـل والكثـير. وبـذلك تحصل المطابقة بين الحال وصاحبها ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي ثم يبقيكم ويـربيكم لتبلغـوا أعلى درجـات قـوتكم ﴿ثُمَّ لِتَكُونُـوا شُـيُوخًا﴾ ثم يبقى بعضا منكم لتكونـوا شـيوخا ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَـوَفَّى مِنْ قَبْـلُ﴾ أي من قبـل الشيخوخة ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى﴾ متعلق بفعـل مقـدر أي ويفعـل ذلـك لتبلغوا أجلا مسمى هو ما قـرر لانتهـاء أمـد حيـاتكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُـونَ﴾ معطوف على قوله لتبلغوا، أي ويفعل ذلك لعلكم تعقلـون مـا في تلـك التنقلات والأحوال من نسبة الآثار المختلفة الى فاعل قادر مختار يفعل ما يشاء ويحكم مـا يريـد. ﴿هُـوَ الَّذِي يُحْيِي﴾ الأمـوات ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحيـاء ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ أي أراد حدوثه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُـونُ﴾ من غـير احتياج الى مساعد ومعاون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَـاتِ اللَّهِ﴾ أي لأجـل رفعهـا أو اهمالهـا ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ على أي حال يمنعون عنها مع ظهورهـا وقوتهـا ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي بجنس الكتب السماوية ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُـلَنَا﴾ من سائر الشرائع ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ما فعلوا ومقدار ما ارتكبوا من المعاصي والآثام ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ فيها ﴿يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ﴾ أي الماء الحار ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي يسحبون فيهـا أو يحرقون بها ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي تبين لنا اليوم أنـا لم نـدع شيئا موجودا قائما بذاته نافعا لنفسه أو غيره فكأنّـا دعونـا المعـدومات ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي هكذا يحيرهم حتى يفزعوا بـالآخرة إلى الكـذب ﴿ذَلِكُمْ بِمَـا كُنْتُمْ تَفْرَحُـونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَبِمَـا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي تتوسعون في الفـرح ﴿ادْخُلُـوا أَبْـوَابَ جَهَنَّمَ خَالِـدِينَ فِيهَـا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي فبئس مأوى ومستقر المتكبرين عن

قبول الحـق جهنم ﴿فَاصْـبِرْ إِنَّ وَعْـدَ اللَّهِ﴾ أي بـدحر أعـدائك في الـدنيا وبتعـذيبهم في الآخــرة ﴿حَــقٌّ﴾ لا شــبهة فيــه ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من الخزي والنكال فتراهم بعينك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبـل ذلـك واذا كان الأمر الثاني ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة وتعلم أحـوالهم وعـذابهم هناك.

﴿وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنَا رُسُـلًا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْـنَا عَلَيْـكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَـإِذَا جَـاءَ أَمْـرُ اللَّهِ قُضِيَ بِـالْحَقِّ وَخَسِـرَ هُنَالِـكَ الْمُبْطِلُـونَ (78) اللَّهُ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُـوا عَلَيْهَـا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَـاتِ اللَّهِ تُنْكِـرُونَ (81) أَفَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُـوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَـانُوا بِـهِ يَسْـتَهْزِئُونَ (83) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَـا بِمَـا كُنَّا بِـهِ مُشْـرِكِينَ (84) فَلَمْ يَـكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِــرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِـكَ﴾ أي رسـلا أولي قـدر وخطـر من قبل ارسالك ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْـنَا عَلَيْـكَ﴾ أي أنزلنـا عليـك أخبـارهم في القرآن

كآدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وهم أكثر الرسل عليهم الصلاة والسلام. أخرج الإمام أحمد عن ابي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله كم عدد الانبياء؟ قال ((مأة ألف وأربعة وعشرون ألفا؛ الرسل من ذلك ثلثمأة وخمسة عشر جما غفيراً)).

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآَيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بآية من الآيات المنزلة أو بمعجزة من المعجزات الا باذن الله ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي بالعذاب والنكال في الدنيا أو الآخرة ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ أي حكم باثبات الحق وازهاق الباطل ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي وخسر وقت مجيء أمر الله تعالى المتمسكون بالباطل ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ كالإبل ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كالانعام كلها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي غير الركوب كالأكل والشرب واللباس وسائر وجوه الاطعام ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ كحمل الاثقال من محل الى آخر ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي على تلك الأنعام باعتبار بعض منها أعني الابل وهي سفن البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ وهي سفن البحر ﴿تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آَيَاتِهِ﴾ يعني ويريكم ويظهر لكم الله آياته ودلائله الدالة على كمال حكمته في أفعاله ﴿فَأَيَّ آَيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ فإن وجود الآيات وظهورها بديهي غني عن الحاجة الى الإثبات وكونها من آثار الصانع الواجب الوجود وآثاره الناشئة من العلم والإرادة والقدرة ثبت بالعقول السليمة من الآفات.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي أقعدوا في دورهم مكتفين بقلة الشعور ﴿فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ العربية التي فيها آثار دمار الأمم الظالمة ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ بالابصار ويتفكروا بالبصائر ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أحوال الكافرين ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وعاندوا الرسل الكرام ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عددا ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآَثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ من الدور المستحكمة،

والقلاع الحصينة، والمخـابئ والمخـازن المسـتورة، حـتى يتوسـلوا بهـا لدفع ما يرد عليهم من المضار؟ ﴿فَمَـا أَغْنَى عَنْهُمْ مَـا كَـانُوا يَكْسِـبُونَ * فَلَمَّا جَـاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ﴾ من الآيـات والمعجـزات ﴿فَرِحُـوا بِمَـا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ المحدود الناشئ من السيطرة على العبـاد والحريـة في الاعمال وتصديق الضعفاء والعجزة والجهال، ومن المدارس المبنية لترصد الافلاك وادارة الأملاك ورعاية التقاليد الجاريـة الـتي تميـل اليهـا قلوب النـاس بحيث غـدوا أنفسـهم من نوابـغ العصـر، ولم ينظـروا إلى اكتساب العلوم الربانية المسـيطرة على النفـوس لحفـظ النفـوس عن الشهوات الفاسـدة، وقتـل الأبريـاء وهتـك الأعـراض، واتبـاع الأغـراض، فعانـدوا الرسـل واتبعـوا مـا عنـدهم من السـبل، فغضـب اللـه عليهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْـتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَـنَا﴾ أي شـدة عـذابنا النازل من السـماء أو الناشـئ من الأرض ﴿قَـالُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَحْـدَهُ﴾ ولا نشرك به شيئا ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَـانُهُمْ﴾ لخلاصهم من العذاب المحتم الموارد عليهم ﴿لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ لان التوبة المقبولة انما هي عند الاختبار لا الالجاء والاضطرار ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَـدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ من أن الإنذار أعذار، فإن لم ينفع لم ينفع الرجوع إلى المقصـود بالاضـطرار ﴿وَخَسِـرَ هُنَالِـكَ﴾ أي زمـان رؤيتهم البـأس ﴿الْكَافِرُونَ﴾ المعاندون لله ولرسوله المبلغ الأمين. <29>

سورة فصلت، وتسمى حم السجدة، وهي مكية، وآياتها أربع وخمسون نزلت بعد غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آَذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)

قوله تعالى ﴿حم﴾ كنظائره واذا جعلناه أسما للسورة فاما خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره ﴿تَنْزِيلٌ﴾ على المبالغة، أو تأويله بمتنزل، وقوله ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ متعلق به ومؤكد لما أفاده التنوين من العظمة وقوله ﴿كِتَابٌ﴾ بدل منه وصف بقوله ﴿فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ﴾ أي بينت آياته بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله، أو أوضحت آياته، فإذا كانت آية مطلقة وجد القيد في آية أخرى وهكذا. وقوله ﴿قُرْآَنًا عَرَبِيًّا﴾ إما حال أو منصوب على المدح. وقوله ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لانتفاع قوم يعلمون معناه ويعملون به، لأن العلم بلا عمل لا نفع له إلا الامتياز عن الجهل لو كان في نفس الامتياز فضل، وكذلك ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ منصوبان أيضا على الحالية أو على المدح، وقوله ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني به ذم الكفار المعرضين عن الخير يريد أنه مع حيازته لتلك المحاسن أعرض أكثر الناس المشركين عنه ولم يؤمنوا به، فهم لا يسمعون المواعظ والارشاد ولا يريدون الخير لأنفسهم ولا لغيرهم من العباد.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي أغطية متكاثفة ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله ورسوله أي بينه وبين قلوبنا حواجز تمنعه عن الوصول اليها ﴿وَفِي آَذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي ثقل وصمم من سماعها لكلامك ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يحجبنا عن رؤيتك أي لا نراك مطلقا، أو لا نراك بعين المحبة يعني

أن الأمر بيننا هو الفصل لا الوصل ﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك و﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ على ديننا. وهذا الكلام اما متاركة مثل لكم دينكم ولي دين، واما معاركة، والمقصود أعمل أنت للانتصار علينا ونحن نعمل للانتصار عليك، لنعلم أي الجانبين أقوى في عاقبة الأمر، قل في جوابهم ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ لست ملكا ولا ملكا ولا جنيا حتى لا يمكنكم الوصول إليّ وفهم ما أقوله والعمل به ﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وهذا الأمر ليس شيئا غير معقول حتى يتحاشى عنه القلوب، بل أمر يدعو الناس الى وحدة المبدأ ووحدة الطريق، وهذا الاله الواحد موصوف بصفات الكرم والرحمة الواسعة ﴿فَاسْتَقِيمُوا﴾ على الحق سالكين ﴿إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما صدر منكم من الذنوب يغفر لكم ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين من صفاتهم اللؤم والبخل بما في أيديهم ومنعه عن المستحقين ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ أي أمثالا شركاء له من الملائكة والجن وغيرهم ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وموجدهم من العدم إلى الوجود.

﴿وَ﴾ لما خلق الأرض ﴿جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبالا عالية ﴿مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي بين أي تعلق علمه الشامل بالمرتزقة عليها، وبكمية أرزاقها من مختلف الوجوه فقدرها لهم للمستقبل الى نهاية الحياة الاعتيادية ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي في تتمة أربعة أيام وهي يومان. والخلاصة أن خلق الأرض في يومين، وتقدير أقواتها وأرزاقها للمرتزقة فيها من النبات وسائر الأطعمة في يومين ﴿سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ حال من أربعة أيام أي حالكونها عبارة واحدة غير مشوبة بالخلاف بالنسبة الى كل من يسأل عن مدة زمان خلق الأرض والأقوات ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي توجه الى خلقها ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي مادة ظلمانية وهي التي تركبت السماوات منها والله أعلم بحقيقتها

﴿فَقَالَ لَهَا﴾ أي للسماء ﴿وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا﴾ أي تحققا واتصفا بالهوية الشخصية أو ائتيا بما خلقت فيكما من المنافع المخزونة فيكما ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي طائعات أو مكرهات أو طائعين أو مكرهين ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أي فخلق السماء سبع سماوات، أو جعلها سبع سماوات في يومين، والمراد باليوم في هذا الخلق والتقدير اما اليوم المعروف عندنا أي زمان وجود الشمس فوق الأفق فلابد أن يقدر المقدار لان الشمس لم تكن مخلوقة في ذلك الوقت واما اليوم الذي قال تعالى في بيانه ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي خلق في كل منهن ما استعدت له واقتضت الحكمة وجوده فيها مما يعلمه الله سبحانه ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ من تلك السماوات السبع ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ مشرقة لماعة بالذات أو باستنارة بعضها من بعض كما يقال نور القمر مستفاد من الشمس، وكذلك سائر الكواكب ﴿وَحِفْظًا﴾ مفعول لفعل مقدر أي وجعلناها وسيلة حفظ وصيانة للسماء من الشياطين المسترقة. وظاهر الآية الكريمة أن جميع الكواكب اللماعة الموجودة التي يشاهد بعضها بالعين المجردة وبعضها بالمجاهر، والتي لم يكتشف لحد الآن بواسطة تعد المسافة كلها في السماء الدنيا أي القربى من الأرض، وأما السماوات الست الباقية فلا يعلم ما فيها وما عليها الا العليم الخبير. وفي ذلك الخلق هيبة ورهبة عظيمة ولذلك قال سبحانه وتعالى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي جميع ما ذكرناه من الأعمال المدهشة كخلق الأرض والمواد السفلية من الماء والهواء معها، وخلق السماوات والكواكب تقدير وتأثير للاله العزيز الغالب على كل شيء العليم بكل موجود ومعدوم بوجه الامتياز.

﴿فإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (14) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (16) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (18)﴾

قوله تعالى ﴿فإِنْ أَعْرَضُوا﴾ مرتبط بقوله السابق ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ﴾ أي فان أعرضوا عن التدبير فيما ذكر من عظائم الأمور التي تدعو الانسان الى الايمان ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ صيغة الماضي في محل المضارع مجاز لإفادة التحقق الأكيد. والصاعقة في الاصل جثة وهي قطعة نار تنزل من السماء فتحرق، وبما أنه لم تنزل الصاعقة على قوم عاد وثمود، وانما هلاك عاد بالريح وثمود بالبركان أو بصيحة جبريل عليه السلام قالوا ان المراد من الصاعقة لازمها وهي العذاب. وقال بعض: أن الصاعقة جاءت بمعنى العذاب، وعلى كل فالمراد من الآية الكريمة: فقل أنذركم أيها المعرضون بعذاب مثل ما جاء على قوم عاد وثمود فأدمركم كما دمرتهما ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ﴾ أي جاءت قوم عاد وثمود الرسل ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي من الجهات الكثيرة، والمراد بالرسل هود وصالح ومن معهما من المؤمنين المعاونين لهما كل في عصره. قائلين: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ * قَالُوا﴾ أي قوم عاد في مقابل هود، وقوم ثمود في مقابل صالح: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾

إلينا فإنكم بشر لا تستحقون رتبة الرسالة من الله ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ من الشريعة ﴿كَافِرُونَ﴾ لانها لا يأتي بها البشر.

ثم أخذ في تفصيل ما لكل واحدة من الطائفتين فقال ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ إذ لا يجوز لأحد ولا يحق له أن يتكبر في مقابل الرسول ﴿وَقَالُوا﴾ لبيان أساس تكبرهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي لا أشد منا قوة، فلا أحد يقاومنا وكانوا غافلين عن قدرة الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فانه تعالى قادر قدرة ذاتية متناهية ولا تتمثل في أناس يحاربون عادا حتى يظنوا أنهم أقوى منهم بل له جنود كثيرة، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي شديد الحرارة السموم، وفسره بعضهم بشديد البرد والأول أنسب بالمكان ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ مشئومات بالنسبة اليهم. قيل: ان هذه الأيام كانت من آخر شباط الشرقي وتسمى أيام العجوز، وكانت في ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما آخر شوال من الأربعاء الى الاربعاء، وانما أرسلناها عليهم ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ فيها بأي وجه من الوجوه.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي فأرسلنا إليهم صالحا فأرشدناهم بإرشاده وبينا لهم طريق الحق والسلامة والسعادة في الدارين ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى﴾ والبقاء على الضلال بدون البصيرة ﴿عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ واضافة الصاعقة الى العذاب بيانية، وإضافته إلى الهون لامية سببية، أي أخذهم عذاب كان سببا لخذلهم وذلهم وحقارتهم في الدنيا ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي وذلك بسبب ما كانوا يكسبونه من اختيار الضلالة على الهدى ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ وهم للاولين هودٌ ومن معه، وللآخرين صالح ومن معه من أهل الإيمان ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَيَـوْمَ يُحْشَـرُ أَعْـدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُـونَ (19) حَتَّى إِذَا مَـا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا كُنْتُمْ تَسْـتَتِرُونَ أَنْ يَشْـهَدَ عَلَيْكُمْ سَـمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَـارُكُمْ وَلَا جُلُـودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِـيرًا مِمَّا تَعْمَلُـونَ (22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِـرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْـبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِـرِينَ (23) فَـإِنْ يَصْـبِرُوا فَالنَّارُ مَثْـوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24) وَقَيَّضْـنَا لَهُمْ قُرَنَـاءَ فَزَيَّنُـوا لَهُمْ مَـا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَـقَّ عَلَيْهِمُ الْقَـوْلُ فِي أُمَمٍ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَـانُوا خَاسِـرِينَ (25) وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَا تَسْـمَعُوا لِهَـذَا الْقُـرْآنِ وَالْغَـوْا فِيـهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُـونَ (26) فَلَنُـذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذَلِكَ جَـزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآَيَاتِنَا يَجْحَـدُونَ (28) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29)﴾

وقولـه تعـالى ﴿وَيَـوْمَ يُحْشَـرُ أَعْـدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ شـروع في بيـان عذابهم يوم القيامة، ويوم منصوب بأذكر مقـدرا، أو بفعـل مسـتفاد من قوله ﴿فَهُمْ يُوزَعُـونَ﴾ أي اذكـر زمـان حشـر الكفـار المشـركين الـذين عـادوا ربهم الـذي خلقهم الى نـار جهنم فهم يوزعـون، ويحبس آخـرهم الى مجيء أولهم، أو يوقف أول جمع واصل منهم الى مجيء آخر جمـع منهم ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَـا﴾ سـئلوا من جـانب الزبانيـة عمـا أجرمـوا أو سئلوا عن جمعهم للمحاسـبة عنـد اللـه ثم إرسـالهم الى النـار فـأنكروا تحقق الاجرام منهم وعند ذلـك ﴿شَـهِدَ عَلَيْهِمْ سَـمْعُهُمْ﴾ باسـتماع مـا لا يحل استماعه ﴿وَأَبْصَارُهُمْ﴾ بابصار ما يحرم النظر اليه ﴿وَجُلُـودُهُمْ﴾ أي جلود أبـدانهم، وأيـديهم وأرجلهم بمسـاس مـا لا يحـل مسـه وبالمشـي والحركـة والبطش للمحرمـات والمعاصـي وللقـول الحـرام والفعـل الحرام، وبغير ذلك ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَـهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ وانما العذاب يمسكم ويصـيبكم ﴿قَـالُوا أَنْطَقَنَـا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَـقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَـرَّةٍ﴾ بلا مـادة، فـإخراج الشـيئ من العـدم إلى الوجــود أهم من اجــراء الكلام على مــا لا يعتــاد التكلم ﴿وَإِلَيْــهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء فلابد من اثبات موجبات العقوبة حتى تجزون بما كنتم تعملون وسؤالهم من الجلود فقط يمكن أن يكون لعظم الـذنوب الـتي تحصل من مساس الجلود أو للاشارة الى أن الشهادة جرت مما يعـذب بادئ بدء، فان الجلود تنضج فتحرق ويتأذى صاحبها، ومع ذلـك لمـا كـان الاستشـهاد من اللـه لم تكن لهـا طاقـة الكتمـان فشـهدت بجميـع مـا حصلت من الأجرام الموجبة للعقاب والآلام.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ هذا من قول الباري تعالى لهم يوم القيامة بعد شهادة الاشـهاد، فيقـول لهم: ما كنتم تستترون في الدنيا عند الاتيان بالفواحش مخافة أن يشهد عليكم اليوم سمعكم وأبصاركم وجلودكم

﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فكنتم تستترون عن أعين الناس لبعض الاعتبارات فقط. ﴿وَذَلِكُمْ﴾ الظن الفاسد ﴿ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أي أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ على رأس مال الحواس والجوارح التي أعطاكم الله تعالى لكسب السعادة بها فصارت وسيلة لكسب الشقاوة ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾ على عذابهم ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي محل ثواء واقامة ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي يسألوا العتبى أي الرجوع إلى ما يحبونه ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي من المجابين اليها ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ في الدنيا لسوء أدبهم وجسارتهم على الله بالاشتراك وعلى رسوله بقصد الإهلاك ﴿قُرَنَاءَ﴾ أخدانا وأحباء من شياطين الإنس والجن ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ما أمام عيونهم من متاع الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من الأهواء المأمولة في المستقبل ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي فتوغلوا فيها وعاندوا الحق فحقت عليهم مقتضى قولي لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ أي مع أمم كافرة خاسرة باغية طاغية قد خلت من قبلهم من الجن والانس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ في صرف نقد حياتهم بموجب عقوباتهم ولبئست التجارة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي وأتوا بلغو الكلام عند قراءته لتشوشوا على الناس المستمعين ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ بعملكم ذلك على الطالبين له ولمنهاجه ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فوالله لنذيقن أولئك الذين كفروا وتآمروا على القرآن بما سمعتم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لنحبطن أعمالهم الحسنة ظاهراً حيث لم تقترن بالايمان بالله الكريم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ على السيئات بأسوأ الاعمال التي كانوا يعملونها، لانه لما قارن الكفر بالله استحق العذاب عليه ﴿ذَلِكَ﴾ أي الجزاء المذكور ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ وأعداء رسوله وهو ﴿النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي لهم في الساحة الواسعة الممتلئة بالنار مواقع خاصة

هي دار الخلد الابدية لهم أو لهم فيهـا أي في تلـك الـدار دار فالنـار في شدتها وقوتها تجرد منها دار أخرى ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآَيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم منقلبون في النار: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَـلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَـا تَحْتَ أَقْـدَامِنَا﴾ ندوسـهما بأقـدامنا ﴿لِيَكُونَـا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ ذلا وحقارة فمن كان لـه القلب الـواعي يعلم مـا هي نتيجـة البطر والغرور والخروج من استماع الحق والدين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَـةُ أَلَّا تَخَـافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِـرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَـدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَـاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَـا تَشْـتَهِي أَنْفُسُـكُمْ وَلَكُمْ فِيهَـا مَـا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَـا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْـلِمِينَ (33) وَلَا تَسْـتَوِي الْحَسَـنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَـدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَـبَرُوا وَمَـا يُلَقَّاهَـا إِلَّا ذُو حَـظٍّ عَظِيمٍ (35) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ (36) وَمِنْ آَيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّـمْسِ وَلَا لِلْقَمَـــرِ وَاسْـــجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُـــدُونَ (37) فَـــإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ وَهُمْ لَا يَسْـأَمُونَ (38) وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَـا عَلَيْهَـا الْمَـاءَ اهْتَـزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ شـروع في بيـان أحسـن أحـوال المؤمـنين فيقـول ان الـذين قـالوا قـولا موافقـا للقلب ربنـا اللـه ﴿ثُمَّ اسْـتَقَامُوا﴾ على ذلـك ومقتضـاه من تـرك المحرمـات وأداء الواجبـات متوجهين إلى الله ومتوكلين عليه غير غافلين ﴿تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَـةُ﴾ عند الموت. وقال بعض عند البعث، وبعض عند نزول القبر ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ ما تقدمون عليه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتم وأن مصدرية ولا ناهيــة او نافية أو مخففة من المثقلة، واسمه ضمير الشأن، والجملـة تفسـير لـه وفي محل الخبر ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَـدُونَ﴾ بهـا على ألسـنة الرسل الكـرام عليهم السـلام والمبلغين لكم منهم ﴿نَحْنُ أَوْلِيَـاؤُكُمْ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا﴾ أي أعـوانكم في المهمـات والملمـات بالإعـداد. وإلهـام الصـبر والطمأنينـة وتـذكير التوكـل على اللـه ﴿وَفِي الْآَخِـرَةِ﴾ نمـدكم بالشـفاعة والشـهادة لاعمـالكم الحسـنة ونتلقـاكم بـالإكرام عنـد تلقي الكـــافرين بالإهانـــة ﴿وَلَكُمْ فِيهَـــا مَـــا تَشْـــتَهِي أَنْفُسُـــكُمْ﴾ من الملاذ والمشتهيات الطيبـة في الطبـاع السـليمة ﴿وَلَكُمْ فِيهَـا مَـا تَـدَّعُونَ﴾ أي تطلبون لانفسكم من الرحمة والرضوان ولقاء ذات المنان حالكون ذلك كله ﴿نُزُلًا مِنْ غَفُـورٍ رَحِيمٍ﴾ سـتار للعيـوب غفـار للـذنوب. ثم أخـذ في الثناء على أهل الإيمان والدعوة الى الله المنـان والـتزام الإسـلام وأداء الواجبات وترك العصيان فقال ﴿وَمَنْ أَحْسَـنُ قَـوْلًا مِمَّنْ دَعَـا إِلَى اللَّهِ﴾ أي الى الاعـتراف بوجـوده ووحدتـه ﴿وَعَمِـلَ صَـالِحًا﴾ أي عملًا صـالحًا ﴿وَقَالَ﴾ متحدثًا بنعمة ربه ﴿إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

ثم استأنف لبيان الفرق بين أحوال الناس واختلاف درجاتهم فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ وكلمة لا الثانية زائدة للتأكيد والتحسين أي

لا تستوي الأعمال الحسنة والسيئة فهما أمران متباينان يتباين الموصوفون بهما وللموصوف بالحسنات درجات كما أن للموصوف بالسيئات دركات ﴿ادْفَعْ﴾ أيها المؤمن المحسن ادفع ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي واذا اعترضتك من أحد الناس أو من أحد أعاديك الخصلة السيئة من أي باب كانت بالخصلة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي أحسن الوجوه وأحسن الطرق في دفعها فاذا قابلك بالشتام فقابله بالسكوت أو بالسلام أو بالإكرام ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ انقلب عن حاله وغرق في انفعاله ويواجهك بوجهه ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي قريب أو صديق حار الصداقة ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ أي هذه الخصلة الجميلة المباركة في دفع السيئة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على مكابدة المحن والإحن بحيث صار الصبر من غرائزهم ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ونصيب جسيم من الله الكريم ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ وهو في الأصل المس بطرف أصبع أو قضيب بعنف مؤلم، والمقصود به هنا وسوسة فاسدة مؤثرة في القلب حاملة له على ارتكاب أمر غير محمود العاقبة ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ الحافظ من شره ولا تطعه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لاستعاذتك اذا كانت لفظية، والعليم بها اذا كانت نفسية.

ثم شرع في عظمة ذات الخالق البارئ المصور الواحد القهار، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي آيات عظمته وأدلة توحيده ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ تعاقبهما بطول الزمان ودخول الليل في النهار والنهار في الليل ﴿وَالشَّمْسُ﴾ التي هي آية النهار ﴿وَالْقَمَرُ﴾ الذي هو آية الليل فكلها مخلوق لله تعالى ومن آثار قدرته ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما لا يستحقان أن تسجد لهما ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فان الخالقية هي المبدأ للمعبودية ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي أولئك الكفار المشركون عن السجود له فلا تهتم بهم ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ومقربون من حضرة قدسه كالانبياء والرسل وسائر

الخلائق في العالم من جنه وإنسه ﴿يُسَبِّحُونَ لَـهُ بِاللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ وَهُمْ لَا يَسْـأَمُونَ﴾ لا يملـون من ادامـة التسـبيح والـذكر والحمـد لـه والقنـوت والركـوع والسـجود ﴿وَمِنْ آَيَاتِـهِ أَنَّكَ تَـرَى الْأَرْضَ خَاشِـعَةً﴾ أي يابسـة متطامنة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَـاءَ اهْتَـزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي فـإذا أنزلنـا المطر تحركت بالنبات وانتفخت ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ بانزال المطـر عليهـا لمحي الموتى بالبعث ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آَيَاتِنَا لَا يَخْفَـوْنَ عَلَيْنَـا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْـرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آَمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَـا شِـئْتُمْ إِنَّهُ بِمَـا تَعْمَلُـونَ بَصِـيرٌ (40) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَـابٌ عَزِيـزٌ (41) لَا يَأْتِيـهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42) مَا يُقَـالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَـابٍ أَلِيمٍ (43) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآَنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آَيَاتُـهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَـرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ فِي آَذَانِهِمْ وَقْـرٌ وَهُـوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَـادَوْنَ مِنْ مَكَـانٍ بَعِيـدٍ (44) وَلَقَـدْ آَتَيْنَـا مُوسَـى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ أَسَـاءَ فَعَلَيْهَـا وَمَـا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَـرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آَذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْـلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آَيَاتِنَا﴾ أي ينحرفون في تأويـل آيـات القرآن عن جهة الصحة والاسـتقامة ﴿لَا يَخْفَـوْنَ عَلَيْنَـا﴾ فنجـازيهم على إلحـادهم، أي نجعلهم في نـار جهنم ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْـرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آَمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَـا شِـئْتُمْ إِنَّهُ بِمَـا تَعْمَلُـونَ بَصِـيرٌ﴾ والامـر للتهديد، وهذه الآية للوعيد على الملحدين ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ أي بالقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ﴾ أي والحال أنـه لكتـاب ﴿عَزِيـزٌ﴾ نـادر الوجود وليس له مثيل ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وخبر ان محذوف أي معاندون متعنتون. وقوله تعـالى ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ تسلية للرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم عمـا أصـابه من كلمات الكفرة المشركين وتعنتهم وعنادهم فيقول ﴿مَا يُقَالُ لَـكَ إِلَّا مَـا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُـلِ مِنْ قَبْلِـكَ﴾ من الكلام الـذي لا واقـع لـه، وكمـا صـبروا عليها ينبغي أن تصبر عليها ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي هذا الكتاب المنزل ﴿قُرْآَنًـا أَعْجَمِيًّا﴾ أي قرآنـا مكتوبـا بلغة العجم ﴿لَقَالُوا﴾ أي أولئك المتمردون ﴿لَوْلَا فُصِّـلَتْ آَيَاتُـهُ﴾ أي لـولا بينت وأوضحت لنـا. أي ولـو لم يـنزل بعبـارة عربيـة واضـحة ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾؟ أي أكلام أعجمي ورسول عربي ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آَمَنُـوا هُـدًى﴾ يهـدي إلى الحـق ﴿وَشِـفَاءٌ﴾ لمـا في الصـدور ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ فِي آَذَانِهِمْ وَقْـرٌ﴾ أي ثقـل ﴿وَهُـوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي القـرآن واسـطة العمى لهم. ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَـانٍ بَعِيـدٍ﴾ أي أولئـك الـذين في آذانهم وقـر من استماع القرآن الكريم كأنهم ينادون من

مكان بعيد لا يبلغ اليهم صوت الدعاة، فلا تبتئس أيها الرسول الكريم بما يعاملونك في شأن الكلام المنزل عليك، فان لك سلفا فيه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ من جانب الإسرائيليين فمنهم من يصدق بأنه كتاب الله ومنهم من لا يصدق ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في حق أمتك وهي الوعد بتأخير عذابها ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بابادة المكذبين ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي وان كفار قومك لفي شك من كونه كلام الله مريب موجب للقلق ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضره لا يتجاوز الى غيره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ﴾ أي بذي ظلم ﴿لِلْعَبِيدِ﴾ لا من القديم ولا من الجديد.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي اذا سئلت عن الساعة فقل: علمها عند ربي. وفيه وعيد للكافرين أي ان الساعة التي فيها عذابهم معلومة لله وهي قريبة فينالون عذابهم الموعود ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي واليه يرد علم ما يخرج من الثمرات من أوعيتها، ومن عنده ذلك العلم، فعنده العلم بأعمال المعاندين للرسول ولكتابه ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ أي حمل ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ من الرحم الى الارض ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي ملابسا بعلمه ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أي شركائي المزعومون ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي قال الذين نودوا: أعلمناك ياربنا ما منا من أحد يشهد لهم بالشركة معك. والمراد بالاعلام الأخبار، فان الله تعالى يعلم كل شيء بلا اعلام أحد ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وغاب عنهم أو ضاع شركاؤهم الذين كانوا يدعونهم من قبل ويرجون نفعهم لهم ﴿وَظَنُّوا﴾ أي وأيقنوا أنه ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي مهرب يهربون اليه فيخلصون من العذاب والعقاب.

﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (52) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)﴾

قوله تعالى ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أي لا يمـل ولا يفـتر من طلب الخير ووسعة العيش ورغده ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي فهو يؤس قنوط من رحمـة اللـه. وهـذا صـفة الكـافر والآيـة نـزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل في عتبـة بن ربيعـة، وإلا فـالمؤمن على رجـاء من رحمته وفضله في كلتا الحالتين.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـاهُ رَحْمَـةً مِنَّا مِنْ بَعْـدِ ضَـرَّاءَ مَسَّـتْهُ﴾ أي لئن وسـعنا عليـه بصحة بعد مرض أو بغنى بعد فقر أو بعز بعد ذل ﴿لَيَقُولَنَّ هَـذَا لِي﴾ أي هذا الأمر العـارض هـو اسـتحقاقي ولابـد أن يحصـل لي ولا ينسـبه الى فضل الله ورحمته ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ﴾ أي يوم القيامة ﴿قَائِمَةً﴾ حاصلة في المستقبل ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي﴾ على فرض مجيئ يـوم القيامـة ﴿إِنَّ لِي عِنْـدَهُ لَلْحُسْـنَى﴾ ان لي عنـده للعاقبـة الحسـنى من النعمـة والكرامة وانما يقول ذلك للبطر وعدم

اعترافه بالدين وأصوله ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي لنخبرنهم في المستقبل بحقيقة أعمالهم ولنفهمنهم أن الأمر على عكس ما اعتقدوا ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي شديد لا يمكنهم الهرب منه ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ عن ربه وطاعته وشكره ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ وابتعد عن الحق بجانبه أي اذا دعي الى عمل خير يعمله يعطف وينقلب على جانبه الآخر معرضا عن الحق ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ واذا مسته نقمة ونكبة فله دعاء كثير مستمر جدا.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ أي القرآن الكريم ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ مع قوة جانب الايمان به ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ وخلاف مع القرآن ومن بلغه ومن أنزله. أي ان ذلك الكافر بالقرآن ضال بل أضل الضالين. فإذا استمروا في هذا الضلال فقل لهم ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي آيات عظمتنا وقدرتنا، وأن القرآن كلامنا، وأنه أنزل على رسولنا ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ فنريهم أن الله مقتدر، وأن الإسلام ينتصر، ورسوله يفتح البلاد، ويؤمن به العباد، ويكون القرآن نبراس الهدى والرشاد ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فيرون بالعيون انهزامهم أمام الحق وان كثيرا منهم يتراجعون ويؤمنون ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿الْحَقُّ﴾ لا كلامهم وأقاويلهم. والشاهد على تحقق هذه الإراءة هو الله وهو خير شاهد. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ومن الشيئ المشهود عليه خذلانهم وخزيهم، وعلو الاسلام وانتصاره ﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ أي أن أولئك الكافرين المارقين ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ وشبهة ﴿مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ يوم الدين ﴿أَلَا إِنَّهُ﴾ أي الباري تعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ فيعلم كفر الكافرين وايمان المؤمنين.

سورة الشورى، مكية وآياتها ثلاث وخمسون

نزلت بعد فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم (1) عسق (2) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4) تَكَـادُ السَّـمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَـوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَـةُ يُسَـبِّحُونَ بِحَمْـدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُـوَ الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ (5) وَالَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِـهِ أَولِيَـاءَ اللَّهُ حَفِيـظٌ عَلَيْهِمْ وَمَـا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيـلٍ (6) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْـذِرَ أُمَّ الْقُـرَى وَمَنْ حَوْلَهَـا وَتُنْـذِرَ يَـوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (8) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِـهِ أَوْلِيَـاءَ فَاللَّهُ هُـوَ الْـوَلِيُّ وَهُـوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9)﴾

<47>

قوله تعالى: ﴿حم * عسق﴾ الكلام في أنهما اسمان للسورة أو اسم واحد لها، وفي المراد بهما.. مفوض الى الله العليم بالاسرار. وقوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ جملة مستأنفة وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما في تضاعيف الكتب المنزلة على سائر الرسل، إذ معناها مثل ذلك الإيحاء يوحي اليك والى الذين مضوا من قبلك من الرسل إلهكم وإله العالمين المعلم بالاسم المقدس الله الواجب الوجود العزيز الغالب على كل شيء الحكيم في صنعته ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي يتشققن تشققاً بادئا ﴿مِنْ﴾ جهة ﴿فَوْقِهِنَّ﴾ أي يتشقق الأعلى فالاعلى الى أن تتشقق الأرض فتصير العوالم أجزاء متفرقة بل ذرات منتشرة في الجوّ من هيبة ذات الباري وعظمته ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ تسبيحهم لله على وسعته في الرحمة والإحسان واستغفارهم لمن في الأرض على ابتلائهم وعصيانهم وزيادتهم في النقصان ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ اذ ما من مكلف الا وله نوع من الذنب الداعي للمغفرة بمعناها الواسع، وحفظ من رحمته تعالى، فهو المبالغ في المغفرة وافاضة الرحمة.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءَ﴾ وجعلوهم شركاء وأندادا ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ ورقيب على أعمالهم وعقائدهم وسيجزيهم جزاء وفاقا ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي بموكول اليك أمرهم ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أي أهل أم القرى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي جميع أهل الأرض لانا اذا جعلنا مكة نقطة انطلاق الدين ومركز الدائرة الاسلامية فجميع أهل الأرض يقع تحت مدار من المدارات الدائرة حولها، سواء كانت مكة سرة الأرض أو لا، لأنا جعلناها نقطة القطب بالنسبة الى كرة الإسلام لا بالنسبة إلى كرة الأرض وفهم هذا يحتاج الى تأمل صادق ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي ولتنذر الناس من

هول يوم الجمع وهو يـوم القيامـة اذ فيـه تجمـع الخلائـق كلهـا ﴿لَا رَيْبَ فِيـهِ﴾ أي في يـوم الجمـع ﴿فَرِيـقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيـقٌ فِي السَّـعِيرِ﴾ أي فريق من أولئك الناس المجموعين في يوم القيامـة في الجنـة وفريـق منهم في السعير ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مهتدين أو ضـالين ﴿وَلَكِنْ يُـدْخِلُ مَنْ يَشَـاءُ فِي رَحْمَتِـهِ﴾ فيجعلهم من المهتـدين لعلمـه بحسـن توجيـه اسـتعدادهم الى السـعادة ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ الـذين شـاء أن يدخلهم في نقمته وعذابه لعلمه الأزلي بسوء توجيهاتهم وسوء تصرفهم أولئك ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي صديق يتولى أمورهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرهم ويدفع عنهم العذاب. وانما غير الباري أسلوب المقابلـة للدلالـة على أن العلة هي ظلمهم على أنفسهم في توجيهاتهم السيئة. ومن المفسـرين من قال ان المراد ولو شاء الله لجعلهم أمة واحـدة مهتديـة على غـرار قوله تعالى فلو شاء لهداكم أجمعين وأمثاله لانـه قـادر على كـل شـيء ممكن من الممكنات، ولكن لم يشأ ذلك بل شاء أن يدخل بعض الناس في رحمتـه وهم المطيعـون، وبعض النـاس في نقمتـه وهم العاصـون الظالمون.

وقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ جملـة مسـتأنفة مقـررة لمـا قبلها من انتفاء وجود الولي والنصير للظـالمين من حيث أنهم اكتسـبوا أفظع الجرائم وهي أنهم اتخذوا من دونه أوليـاء شـركاء وأنـدادا مـع أن عملهم ذلك عمل باطل عاطل فاسد ﴿فَـ﴾ الحق أن ﴿اللَّهُ هُوَ الْـوَلِيُّ﴾ الحميد والمحصي المبدئ المعيـد كمـا قـال ﴿وَهُـوَ يُحْيِي الْمَـوْتَى﴾ يـوم البعث ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا معنى ولا وجه لاعتبار الأولياء من دونه، وتعالى عن ذلك علوا كبيرا.

﴿وَمَـا اخْتَلَفْتُمْ فِيـهِ مِنْ شَـيْءٍ فَحُكْمُـهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْـهِ تَـوَكَّلْتُ وَإِلَيْـهِ أُنِيبُ (10) فَـاطِرُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَـلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـيْءٌ وَهُـوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11) لَهُ مَقَالِيدُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُـطُ الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12)﴾

قوله تعالى ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين، أو خطاب من الله سبحانه وتعالى لرسوله وأمته، أي وما خالفكم الكفار فيه من أمور الدين ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، أي فاتبعوا فيه ماجاءكم من الله ولا تميلوا إلى ما يعتقدونه، أو المعنى فحكمه وفصل الحق من الباطل فيه الى الله، أو المعنى فجزاؤه موكول إلى الله يجزي كلا من الطرفين جزاء وفاقاً ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في كافة أموري لا على غيره ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي ارجع لا إلى من سواه ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خبر آخر لقوله ذلكم ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي يكثركم بسبب هذا الجعل والتأثير على طريق التوالد والتناسل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لا ذاتا ولا صفة ولا فعلا ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ المحيط سمعه بكل المسموعات وبصره بكل المبصرات لا يخرج منها شيء ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خزائنها ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بسطه له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي ويضيق الرزق على من يشاء ضيقه عليه ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهو في كل ما يفعله من البسط والقبض حكيم.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (16)﴾

قولـه تعـالى ﴿شَـرَعَ لَكُمْ مِنَ الـدِّينِ﴾ لمـا قـرر أن اللـه لـه مقاليـد السماوات والأرض، بين أن خلقه لها لم يكن عبثا بل كان حسب علمــه وارادته الازليين التشريع الاحكام وارسـال الرسـل لإرشـاد الأنـام حـتى يكونوا على معرفة بالخالق وعبادة له على الوجه اللائق فقـال: ﴿شَـرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ وقوله ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أن فيه مصـدرية على أنـه مفعول شرع وما عطف عليه أو مرفوع على أنـه خـبر مبتـدأ محـذوف، أي وهو إقامة الدين وقوله ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُـوا فِيـهِ﴾ الخطـاب شـامل للنـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم وأصـحابه وسـائر الأنبيـاء والمرسـلين، أي ولا تتفرقوا في الدين الذي هو الاعتقاد باللـه وكتبـه ورسـله وبـاليوم الآخـر وبالقدر خيره وشره، فـإن الاصـول عبـارة عن ذلـك وأمـا الفـروع فهي أحكام عملية تختلف بحسب الزمان وأحوال الأمم، وأساس هـذا الـدين هو التوحيد لرب العالمين، ويؤيده قوله تعالى ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَـا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾

على الاستمرار من التوحيد لرب العالمين، واذا كبر عليهم ذلك وعاندوك فلا تهتم بذلك ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ويختاره لأعباء الرسالة ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ اليه ويريد طاعته ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ أي أمم الانبياء بعد وفاة أنبيائهم ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ من أنبيائهم بأن الفرقة ضلال وفساد وكان ذلك ﴿بَغْيًا﴾ وعداءً ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فهذا الفريق لم يقبل داب فريق آخر. وتجسمت العداوة واستفحلت حتى كفرت الأمم السابقة بالرسل اللاحقين ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ من تأخيرهم إلى ﴿أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال كل مبطل ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد القدامى منهم، وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهده صلى الله عليه وسلم ﴿بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ ﴿فَلِذَلِكَ﴾ التفرق وعدم الثبات على الهدى ﴿فَادْعُ﴾ الى الألفة والاعتصام ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي اثبت على الدعاء الى الله كما أوحى إليك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلة ﴿وَقُلْ آَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي من جنس الكتاب أي بجميع ما أنزله الله ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي أمرني ربي لأعدل بينكم في تبليغ الشرائع فلا أخمص جمعا بشيء أبدا ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي خالق الكل ومعبود الكل ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ لا يعاقب أحد بمعصية أحد ولا يثاب أحد بحسنة أحد ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا يحتج بعض على آخر على وجه الخصومة والتفرق لأن الحق قد ظهر فلم يبق للاحتجاج ثمر ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ أي يخاصمون في دينه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي من بعد ما قبل الناس دينه ودخلوا فيه ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ عظيم من الله لمكابرتهم ولهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يقادر قدره.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (18) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (21) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23)﴾

قوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي أنزل جنس الكتاب بالحق اذ لا ينزل من الحق الا الحق ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي العدل أعني رعاية الحقوق على الاطلاق، أو الميزان بين الله وعباده وبين الرسول وأمته وبين أولي الأمر والمؤتمرين بأوامرهم، وكذلك كل من عليه حق الاطاعة لغيره كالعبد بالنسبة الى مولاه، والمتعلم بالنسبة الى معلمه، والاولاد بالنسبة الى

آبائهم. ويفسر هذا المفهوم الحديث الشريف: ((إن لنفسك عليك حقـا، ولربك عليك حقا...)) الحديث أو الآلـة المعروفـة المسـتعملة لمعرفـة التسـاوي والاختلاف في المـوازين. وإنـزال الكتـاب ومـا بعـده لشـعور العاقل بالمسئولية، والجزاء يتبين في الآخرة، ولذلك عقبه بقولـه ﴿وَمَـا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي لعل حلولها قـريب وهنـاك يتـبين النـاس كل مـا يحكم اللـه رب العـالمين ﴿يَسْـتَعْجِلُ بِهَـا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ بِهَـا﴾ اسـتعجال اسـتهزاء واسـتنكار ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُـوا مُشْـفِقُونَ﴾ أي خـائفون ﴿مِنْهَا﴾ لإيمانهم بوجودهـا ﴿وَيَعْلَمُـونَ أَنَّهَـا الْحَـقُّ﴾ من ربهم بلا ارتيـاب ومـراء ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَـارُونَ فِي السَّـاعَةِ﴾ أي يجـادلون في مجيئهـا وزمانه ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ عن الصراط المسـتقيم ﴿بَعِيـدٍ﴾ جـدا، لا يرجعـون الى الصراط السوي الا بلطف رب العالمين وقوته.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بكافة الوجـوه الماديـة والمعنويـة، وأفضل الأرزاق المعنوية العقل فالعلم، وأهمه الايمان بالله ايمانا كـاملا فالصحة في القلب وطاقة إدارة الناس وتوجيههم إلى السعادة، وأفضل الأرزاق المادية الصحة في الجسم، والكفاف، وموافقـة الأهـل والأولاد، والجار العاقل الامين ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ ذو القوة المـتين القـادر على تنفيـذ ما أراده ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب أبدا.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَـرْثَ الْآَخِـرَةِ نَـزِدْ لَـهُ فِي حَرْثِـهِ﴾ والحـرث في الأصـل إلقاء البذر في الأرض، يطلق على الزرع الحاصـل منـه، ويسـتعمل في ثمرات الاعمال ونتائجهـا. وحاصـل معـنى الآيـة: من كـان يريـد ثمـرات الاعمال الحسنة في الآخرة أي يعمل في الدنيا بأمل حصول ثوابهـا في الآخرة نَزدْ له في ثمرات أعماله ونعطه جزاء فوق مـا تقتضـيه أعمالـه ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ أي اللذة الحاصـلة من مكاسـبها الدنيويـة التي ليس فيها ابتغاء مرضات الله وانما المقصود العيش حسب الهـوى في الدنيا ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي

شيئا منها يتمتع بها في دنياه ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ يتمتع به في الآخرة.

وقوله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ كلمة أم منقطعة بمعنى الهمزة وبل الإضراب عن مضمون شرع لكم من الدين الآية... يقول: أضرب عن ذلك فان الراعي لتلك الآية من رافقته العناية الربانية من الموحدين وأما أولئك الكفار المشركون فقد قرروا بلا أصل وأساس شركاء لله تعالى واقروها لهم و﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ وهو دين الهوى ودين الكفر ودين الضلالة والجهالة بحيث استجلب مقت الله عليهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي القضاء من الله في سابق الزمان بتأجيل عذاب الكافرين إلى الأوقات المحدودة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الكافرين في الدنيا واستعجل عذابهم فيها، ولكن القضاء جرى بأن يكون عذابهم في وقت محدود وهو يوم القيامة الذي هو يوم الفصل بين العباد في كافة الأعمال. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ذكرناهم ومن حذا حذوهم من المشركين أو مطلق الظالمين بالمعاصي ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. ويحتمل أن يكون العذاب منتشرا في دنياهم وأخراهم بقدر ما قرر الله لهم ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين خوفا شديدا ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي من السيئات ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي والعذاب وارد عليهم وواقع لهم بلا ريب ﴿بِهِمْ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي انه هو المقرر لهم ﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء الطيب ذلك الجزاء ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي به.

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي لا أسألكم على ما أعمله وأتكلفه لكم أجرا يصل إليّ إلا المودة في القربى، أي الا مودتكم في من لهم معكم صلة القرابة، فودادكم لهم هو أجري أو المودة في ذوي

قربـاكم ومعـاونتهم وأنـا من ذوي قربـاكم أي لا أطلب منكم أجـرا الا مودتي فان لم تعرفوا حقي لنبوتي وكوني رحمة عامة ونعمـة تامـة فلا أقل من مودتي لاجل حق القرابة وصـلة الـرحم الـتي تعتنـون بحفظهـا ورعايتها. والخطاب لقريش وذلك أنهم جمعوا له مالا وأرادوا أن يرشوه على أن يمسك عن سب آلهتهم فلم يفعل ونزلت. وله صلى الله عليـه وسلم في جميعهم قرابة. أخرج أحمد والشيخان والترمذي وغيرهم عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى الا المودة في القربى، فقال سـعيد بن جبير: قربى آل محمد صلى الله عليه وسلم.

فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي عليـه الصـلاة والسـلام لم يكن بطن من قريش الا كان له فيه قرابة أو للانصار بناء على مـا قيـل أنهم أتـوه بمال ليستعين به على ما ينوبه، فنزلت فرده. وله عليه الصلاة والسلام قرابـة منهم لأنهم أخوالـه فـان أم عبـد المطلب وهي سـلمى بنت زيـد النجارية منهم وكذا أخوال آمنة أمه صلى الله عليه وسلم كانوا على ما في بعض التواريخ من الأنصار أيضا.

وفي روح المعاني: وذهب جماعـة إلى أن المعـنى لا أطلب منكم أجـرا الا محبتكم أهل بيتي وقرابتي. وفي البحر أنـه قـول ابن جبـير والسـدي وعمـرو بن شـعيب. و﴿في﴾ على هـذا المعـنى للظرفيـة المجازيـة، والقربى بمعـنى الاقربـاء، والجـار والمجـرور في موضـع الحـال. أي إلا المودة ثابتة في أقربائي متمكنة فيهم. ولمكانة هذا المعـنى لم يقـل الا مـودة القـربى. وذكـر أنـه على الأول كـذلك وأمـر اتصـال الاسـتثناء وانقطاعه على ما سبق.

والمراد بقرابته عليـه الصـلاة والسـلام في هـذا القـول قيـل: ولـد عبـد المطلب وقيل علي وفاطمة وولدها رضي الله تعالى عنهم، وروي ذلـك مرفوعا.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق ابن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قل لا اسئلكم، قالوا: يا رسول الله من قرابتك الذين وجبت مودتهم؟ قال: ((علي وفاطمة وولدها صلى الله تعالى على النبي وعليهم)) وسند هذا الخبر على ما قال السيوطي في الدر المنثور ضعيف، ونص على ضعفه في تخريج أحاديث الكشاف ابن حجر. وأيضا لو صح لم يقل ابن عباس ما حكي عنه في الصحيحين وغيرهما. وقد تقدم الا أنه روي عن جماعة من أهل البيت ما يؤيد ذلك.

ثم قال: والحق وجوب محبة قرابته عليه الصلاة والسلام من حيث انهم قرابته صلى الله عليه وسلم كيف كانوا، وما أحسن ما قيل:

داريت أهلك في هواك وهم عِدا ولاجل عين ألف عين تكرم

وكلما كانت جهة القربى أقوى كان طلب المودة أشد فمودة العلويين الفاطميين ألزم من محبة العباسيين على القول بعموم القربى، وهي على القول بالخصوص قد تتفاوت أيضا باعتبار تفاوت الجهات والاعتبارات. وآثار تلك المودة التعظيم والاحترام والقيام بأداء الحقوق أتم قيام. انتهى باختصار.

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي ومن يكتسب أيّ حسنة كانت نزد له فيها حسنا بمضاعفة الثواب عليها. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر الذنوب ويغفرها و﴿شَكُورٌ﴾ يجزي من أطاع منهم بمزيد الثواب.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَـإِنْ يَشَـأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِـكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَـلُ التَّوْبَـةَ عَنْ عِبَـادِهِ وَيَعْفُـو عَنِ السَّـيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَـا تَفْعَلُـونَ (25) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26) وَلَـوْ بَسَـطَ اللَّهُ الـرِّزْقَ لِعِبَـادِهِ لَبَغَـوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَـادِهِ خَبِـيرٌ بَصِـيرٌ (27) وَهُـوَ الَّذِي يُنَـزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُـرُ رَحْمَتَـهُ وَهُـوَ الْـوَلِيُّ الْحَمِيـدُ (28) وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَـا مِنْ دَابَّةٍ وَهُـوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْـدِيكُمْ وَيَعْفُـو عَنْ كَثِيرٍ (30) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَـا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (31)﴾

قوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى﴾ أي بل أيقولون افترى محمد صلى الله عليه وسلم على الله كذبا بدعوى الرسالة منه وانـزال القـرآن عليـه !! والاستفهام للاستنكار ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ فكيف يوسع لـك المجال ويعطي القوة والقابلية حتى تفتري على الله، أو أنك انسـان ذو بصيرة فائقة وذو سريرة لائقة والافتراء لا يناسب انسانا مثلك فان يشأ الله أن تفتري عليـه يختم على قلبـك يجعلـك مختومـا على القلب غـير منشرح الصدر حتى تكون مثل أولئك الناس الفاسـدين المنقبضـين في العقل والمشاعر وتقدر أن تفتري على الله، فان هذا العمـل الفاسـد لا يحصل الا من الفاسدين. وقوله تعالى ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ تسلية للرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم أي لا تهتم بقـولهم ان محمـدا افترى على الله الكذب، وهو ليس برسـول منـه، وليس القـرآن كلامـه، فان الله يمحو كل قول باطل

مثل أقوال أولئك المشركين الطاعنين فيه ﴿وَيُحِقُّ الْحَـقَّ﴾ ويثبت الحق ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ وهـو أنـك رسـوله الأمين، وأن القـرآن كلام نـزل بـه جبريـل الأمين لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين، والمراد بكلماته قضـاؤه وتأييـده للرسـول من كـل الجهـات حـتى يسـتقر أمـره ويتحقـق نصـره ويجوز أن يزاد بالكلمات الآيـات الـتي نـزلت بعـد ذلـك وأيـدت رسـالته صلى الله عليـه وسـلم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِـذَاتِ الصُّـدُورِ﴾ يعـني ان اللـه عليم بالخيـالات الجاريـة في القلـوب الـتي في الصـدور فيؤيـدها ان كـانت متوجهة إلى الخير ويمحيها اذا كانت متوجهة إلى الشر.

﴿وَهُـوَ الَّذِي يَقْبَـلُ التَّوْبَـةَ عَنْ عِبَـادِهِ وَيَعْفُـو عَنِ السَّـيِّئَاتِ﴾ صـغائرها وكبائرها ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازي التائب ويتجاوز عن غيره اذا شـاء ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ﴾ أي يجيبهم ويقبـل دعـاءهم وينصـرهم ويقهـر أعـداءهم ﴿وَيَزِيـدُهُمْ مِنْ فَضْـلِهِ﴾ الواسـع جـل شـأنه ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَـوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لتكـبروا وتعـاظموا على الفقراء، أو طغوا وبغـوا وتجـاوزوا الحـدود المقـررة ﴿وَلَكِنْ يُنَـزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ أي بتقديره ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أي ما اقتضته حكمته ورحمته ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ خبير بالخفيات بصـير للجـدليات ﴿وَهُـوَ الَّذِي يُنَـزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أي المطر الذي يغيثهم من الجدب ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي يئسـوا منـه ﴿وَيَنْشُـرُ رَحْمَتَـهُ﴾ أي مطـره على أكنـاف البلاد وأطرافهـا حـتى تصـبح الأرض مخضرة، أو ينشر ما نتج من المطر وهـو الحبـوب ﴿وَهُـوَ الْـوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الذي يتولى عباده باللطف والاحسان.

﴿وَمِنْ آَيَاتِهِ﴾ أي ومن دلائل رحمته وقدرتـه ﴿خَلْـقُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ وظاهر الآية الكريمة أن ما يسـمى بالدابـة في اللغة

أو العرف موجود في كل من السـماوات والأرض ولا داعي الى تفسـير الآية بوجود الملائكة في السماوات والانسـان والحيـوان في الأرض لأن الملائكة لا تسمى بالدابة لا في اللغة ولا في العرف، وكـذلك لا يسـمى الانسان بالدابة عرفا ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أي والله تعالى قادر على حشرهم بعد البعث للمحاسبة أينما كـانت ويحتمـل أن يكـون المعنى والله تعالى قادر على جمع ما في السماوات والأرض في صعيد واحدٍ لان العلـوم الكونيـة أخـذت تتطـور فيمكن أن يصـل الانسـان الى بعض الكواكب السـماوية المعمـورة بالـدواب وينزلهـا من السـماء إلى الأرض في المستقبل.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِـيبَةٍ﴾ ممـا عرضـت عليكم في الـدنيا من الأشـياء الخارجة عن المعتاد كالسـيل والجـدب والآفـات الـواردة على المـزارع والأشجار والامراض الفاسدة والحروب الحاصدة ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي بسبب معاصـيكم الـتي اكتسـبتموها، ونسـبتها الى الايـدي لانهـا آلـة البطش والأخذ. ومن أهم تلك المعاصي الجالبة للمآسـي انتشـار فسـاد الاعتقاد بالمعتقدات الاساسية وكثرة القتل وارتكاب الفواحش ﴿وَيَعْفُـو عَنْ كَثِيرٍ﴾ من الذنوب الجالبة للكروب ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ولستم بقادرين على تعجـيز البـاري سـبحانه وتعـالى ومنعـه من أن يصيبكم بالمصائب فهو قـادر عليكم أينمـا كنتم ﴿وَمَـا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتـولى أمـوركم بـاللطف والرحمـة ﴿وَلَا نَصِـيرٍ﴾ يـدفع عنكم المصائب بالقوة.

﴿وَمِنْ آَيَاتِـهِ الْجَـوَارِ فِي الْبَحْـرِ كَـالْأَعْلَامِ (32) إِنْ يَشَـأْ يُسْـكِنِ الـرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَـكُورٍ (33) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِنَـا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35) فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَـاعُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَمَـا عِنْـدَ اللَّهِ خَيْـرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آَمَنُـوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُـونَ (36) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِـرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِـرَبِّهِمْ وَأَقَـامُوا الصَّـلَاةَ وَأَمْـرُهُمْ شُـورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقُونَ (38) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) وَجَزَاءُ سَـيِّئَةٍ سَـيِّئَةٌ مِثْلُهَـا فَمَنْ عَفَـا وَأَصْـلَحَ فَـأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَـرَ بَعْـدَ ظُلْمِـهِ فَأُولَئِكَ مَـا عَلَيْهِمْ مِنْ سَـبِيلٍ (41) إِنَّمَـا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43)﴾

قوله تعالى ﴿وَمِنْ آَيَاتِهِ الْجَوَارِ﴾ أي ومن آيـات علمـه وحكمتـه وقدرتـه إلهام عباده صـنع السـفن الشـراعية الـتي تسـتعمل للسـير في البحـار الجارية فيهـا حالكونهـا مرتفعـات ﴿كَـالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَـأْ﴾ اللـه ﴿يُسْـكِنِ الـرِّيحَ﴾ الـتي تجـرى بقوتهـا السـفن ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِـدَ عَلَى ظَهْـرِهِ﴾ أي فتصير تلـك السـفن المتحركـة واقفـة ثابتـة على ظهـر البحـر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الأمر المأخوذ مما ذكـر من إلهـام صـنع السـفن، وركـوب النـاس عليهـا، وسـلوكها على البحـر، وجريانهـا بالريـاح الموافقـة للمقصـد او ايقافها على ظهر البحر.. ﴿لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكـل إنسـان وقـف على أحوال السفن الشـراعية وركبهـا فتـوقفت بسـكون الـريح، وصـبر حتى تحركت، أو ركبها فتحركت نحو المقصد وشكر

الله على ذلك ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ عطف على يسكن أي أو يهلكهن ويغمسهن في أعماق البحر ﴿بـ﴾ سبب شؤوم ﴿مَا كَسَبُوا﴾ أي ركابها ﴿وَيَعْـفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِنَا﴾ عطف على مقدر مقــرون بلام العلة أي لينتقم منهم ويعلم الذين أو ليظهر عظيم قدرتـه تعـالى ويعلم الذين ﴿يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِنَا * مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي مهرب ومخلص من العـذاب ﴿فَمَـا أُوتِيتُمْ مِنْ شَـيْءٍ فَمَتَـاعُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا﴾ أي فهـو متاعهـا وتتمتعون بها مـدة محـدودة فقـط ﴿وَمَـا عِنْـدَ اللَّهِ﴾ من ثـواب العقيـدة السليمة والأعمال الصالحة ﴿خَيْرٌ﴾ في ذاته لانه لا يشــوبه ألم روحي أو مادي ﴿وَأَبْقَى﴾ زمانا حيث لا يفنى ﴿لِلَّذِينَ آَمَنُـوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُـونَ﴾ لا على غيره تعالى أصلا. وعن علي كرم الله وجهه أنه اجتمع لأبي بكــر مال فتصدق به كله في سبيل الله، فلامَه المسلمون وخطأه الكـافرون فـنزلت ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُـونَ كَبَـائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَـوَاحِشَ وَإِذَا مَـا غَضِـبُوا﴾. أي على شخص ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

وفي الكبائر آراء فمنهم من قال: هي ما ترتب عليه الوعيـد، ومنهم من قـال: مـا يـوجب الحـد. ومنهم من قـال: كـل مـا دل على عـدم مبـالاة مرتكبه بالدين. وقيل: كل ما نهى الله عنه كبيرة بالنسبة إلى عظم من نهى عنه؛ فيشمل الذنوب كلها. وظاهر قوله تعالى ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْـهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَـيِّئَاتِكُمْ﴾ يـدل على أن بعض مـا نهى عنـه من الصغائر. وقيل: المراد بالكبائر ما يتعلق بالبدع، وبـالفواحش مـا يتعلـق بالشهوات. وبقولـه واذا مـا غضـبوا مـا يتعلـق بـالقوة الغضـبية. وقولـه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ نزلت في الانصار دعـاهم اللــه تعـالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم للايمان به وطاعته فاسـتجابوا له، فأثنى عليهم جل وعلا بما أثـنى بـه، والآيـة ان كـانت مدنيـة فـالامر ظاهر، وان كانت مكية فالمراد بالانصار من آمن بالمدينة قبـل الهجـرة، أو المراد بهم أصحاب العقبة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾

أي ذو شورى لانها مصدر كالبشرى. والأمر ما تشاوروا فيه.

قال الراغب: والمشورة استخراج الرأي بمراجعة البعض الى البعض، من قولهم شُرْتُ العَسَلَ وأشرته استخرجته. والشورى الأمر الذي يتشاور فيه. انتهى. فعليه لا يحتاج الى تقدير المضاف لانه ليس بمصدر حينئذ. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي في سبيل الخير، وقد يستأنس به على أن أهل الشورى هم الأغنياء من أهل الحل والعقد.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله لهم ولكن لا يعتدون. يدل على هذا قوله تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ والجزاء على المماثلة انتصار، وعلى الزيادة ظلم، والأحسن ما أفاده بقوله ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ فيجزيه أحسن الجزاء وأعظمه ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ تأكيد على اعتبار المماثلة ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ اى بعد أن ظلموه فصار مظلوما ثم انتصر عليهم فلا سبيل عليه كما قال تعالى ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ لأي أحد لذكرهم بسوء أو أخذهم بعمل سيء لأنهم حازوا حقهم، ومن حاز حقه فقد فاز.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي يتكبرون فيها ويتجبرون ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جزاء وفاقا ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ في ما أوذي ﴿وَغَفَرَ﴾ عند قدرته على الانتقام والانتصار ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي لمن أصحاب عزائم الأمور وله أجر موفور. أو أن عمله وحالته من الصبر والمغفرة لمن عزم الأمور، ومن كان له ذلك فهو على أوفى الأجور. قالوا: النجاة في الصدق، قلنا والصدق في الصبر، وتحقق بعد تجاريب الأمور أن من صبر ظفر، والعاقبة للصابرين.

﴿وَمَنْ يُضْـلِلِ اللَّهُ فَمَـا لَـهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْـدِهِ وَتَـرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَـرَدٍّ مِنْ سَـبِيلٍ (44) وَتَـرَاهُمْ يُعْرَضُـونَ عَلَيْهَـا خَاشِـعِينَ مِنَ الـذُّلِّ يَنْظُـرُونَ مِنْ طَـرْفٍ خَفِيٍّ وَقَـالَ الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (45) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَـاءَ يَنْصُـرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَـهُ مِنْ سَـبِيلٍ (46) اسْـتَجِيبُوا لِـرَبِّكُمْ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَـا لَكُمْ مِنْ نَكِـيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْـكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِـبْهُمْ سَـيِّئَةٌ بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُـورٌ (48) لِلَّهِ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُـقُ مَـا يَشَـاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًـا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَـاءُ الـذُّكُورَ (49) أَوْ يُـزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًـا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50)﴾

قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْـدِهِ﴾ أي مـا لـه من ناصر يتولاه من بعد أن خذلـه اللـه ﴿وَتَـرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَـذَابَ﴾ يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَـرَدٍّ مِنْ سَـبِيلٍ﴾ أي هـل لنـا من وسـيلة لرجوعنا الى الـدنيا حـتى نـؤمن ونعمـل صـالحا يرضـاه البـاري تعـالى؟ ﴿وَتَـرَاهُمْ يُعْرَضُـونَ عَلَيْهَا﴾ أي على النـار ﴿خَاشِـعِينَ﴾ متنكسـين ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾ والهوان ﴿يَنْظُـرُونَ مِنْ طَـرْفٍ خَفِيٍّ﴾ الى من يأخـذهم للتعـذيب ﴿وَقَـالَ الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّ الْخَاسِـرِينَ الَّذِينَ خَسِـرُوا أَنْفُسَـهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ للحمل على الكفر ومعاندة الرسول حتى

يلحقهم العذاب ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ اما من تتمة قول الذين آمنوا، أو اعلان من الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ والله سبحانه وتعالى لا يرفع عنهم العذاب لانه لا يغفر أن يشرك به ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ الى الهدى في الدنيا أو النجاة في الآخرة.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ اذا دعاكم على لسان رسوله ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي لذاته ولا لما يقع فيه من العذاب والعقاب ﴿مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ﴾ يومئذ تلتجئون إليه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي انكار ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلغت كاملا ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ على مقتضى فطرته الانسانية ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من السيئات ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ مبالغ في الكفر بنعمة ربه ونسيانها.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ على حسب اختياره وارادته ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ من الاولاد ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ بنين وبنات ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ لا تلد أبدا ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ مبالغ في العلم والقدرة.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)﴾

قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي ومـا صـح لفـرد من أفراد البشر أن يتكلم معه ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ أي تكلمـا متحققـا في ضـمن الوحي، وهو القاء المقصود في قلب من يتكلم معـه بصـورة خفيـة عن الناس، ويختص به كليمه سواء كان في المنـام كمـا كـان مـع الرسـول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في أوائل النبـوة سـتة أشـهر، وكمـا كان مع سيدنا ابراهيم عليه السلام في قضية ذبح سيدنا اسماعيل عليه السلام، أو في اليقظة كايحائه تعالى الى أم موسى عليهما السـلام ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي أو كلاما باللفظ المسموع من وراء حجاب كما وقع مع سيدنا موسى في الطور، ولسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليلـة المعراج عند فرض الصلوات الخمس ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي أو إلا وحيـا بأن يرسل رسولا وهو جبريـل عليـه السـلام ﴿فَيُـوحِيَ﴾ أي فيلقي ذلـك الرسول ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بإذن الله ﴿مَا يَشَـاءُ﴾ أي مـا يشـاء اللـه تعـالى أن يلقيه اليه كجميع ما أوحي الى سيدنا محمد صلى الله عليـه وسـلم في ماعـدا الأشـهر السـتة الابتدائيـة الـتي كـان الـوحي بالرؤيـا الصـادقة. فوصول القرآن اليه صـلى اللـه عليـه وسـلم وحي بـالمعنى الثـالث أي تكلم الله مع رسوله، بتوسط جبريل بعين الألفاظ الواصلة بأمره تعالي اليـه بـدون تغيـير وتبـديل، وبـدون تصـرف من جبريـل عليـه، وكـذلك الأحاديث القدسية فكلها جـاء بهـا الملـك جبريـل اليـه صـلى اللـه عليـه وسلم والفرق بينها وبين آيات القرآن أن الآيات وصـلت درجـة الإعجـاز دون الاحاديث القدسية. وأن القـرآن متعبـد بتلاوتـه دونهـا، وأن القـرآن أحكام وقصص وغيرها دون الأحاديث القدسية. ومن الناس من

قال: ان الأحاديث القدسية لم ترد عليه صلى الله عليه وسلم بالالفـاظ وانما ألهم معناه. وأما اللفظ فمن الرسول وهذا الرأي مرجوح لا قيمـة له، والحق هو الأول. وصرح به أحمـد بن حجـر الهيتمي رحمـه اللـه في الفتح المبين ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ﴾ متعال عن صـفات المخلـوقين ﴿حَكِيمٌ﴾ تجـري أفعاله على سنن الحكمة.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي ومثـل ذلـك الإيحـاء المـذكور أوحينـا وأرسـلنا اليك ﴿رُوحًا﴾ أي ملكا مقربا وهو جبريل ﴿مِنْ أَمْرِنَـا﴾ من إرادتنـا لتأخـذ حقائق الشريعة الالهيـة في ضـمن الآيـات البينـات حالكونـك ﴿مَـا كُنْتَ تَدْرِي﴾ سابقا قبل الإيحاء ﴿مَا الْكِتَـابُ﴾ المـنزل من اللـه ﴿وَلَا الْإِيمَـانُ﴾ برب العالمين وبسائر ما يؤمن به ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي ذلك الروح أو مـا معه وهو القرآن الكـريم الـذي نـزل بـه ﴿نُـورًا نَهْـدِي بِـهِ مَنْ نَشَـاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ بهذا الروح وذلك النـور البـاهر عبادنـا ﴿إِلَى صِـرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو الاسلام وشرائع الأحكام من الأصول الاعتقاديـة والفـروع العملية ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾. أي أمـور من فيهمـا ابـداعا ورعايـة وحفظـا وابقـاء، سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة والى الله تعالى العلم بتفاصـيل الامور التي ترجع اليه.

سورة الزخرف، مكية وهي تسع وثمانون آية

نزلت بعد الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُـونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَـدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4) أَفَنَضْـرِبُ عَنْكُمُ الـذِّكْرَ صَـفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًـا مُسْـرِفِينَ (5) وَكَمْ أَرْسَـلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَمَـا يَـأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَـانُوا بِـهِ يَسْـتَهْزِئُونَ (7) فَأَهْلَكْنَـا أَشَـدَّ مِنْهُمْ بَطْشًـا وَمَضَـى مَثَـلُ الْأَوَّلِينَ (8) وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُـولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيـزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْـدًا وَجَعَـلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَـدُونَ (10) وَالَّذِي نَـزَّلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً بِقَـدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِـهِ بَلْـدَةً مَيْتًـا كَـذَلِكَ تُخْرَجُـونَ (11) وَالَّذِي خَلَـقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَـا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَـا هَـذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (14)

قوله ﴿حم﴾ الكلام فيه كما في نظيره ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي القرآن الواضح لمن أنزل عليهم لكونه بلغتهم ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ جواب للقسم بالكتاب، ومعنى كونه عربيا عربية مفرداته وتراكيبه وأسلوب تنسيقه بنوع عجز عنه البلغاء ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تفهموه بسهولة ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾أي اللوح المحفوظ الثابت ﴿لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ﴾ رفيع الشأن ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة. ووجه كونه عليا اعجازه ببلاغته وسائر وجوه الإعجاز، ووجه كونه حكيما أنه ثابت لا ينسخ. وأما أحكام غيره فمنها ما نسخ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ مفعول مطلق لقوله نضرب على غير لفظه.

أي فنعرض عنه إعراضا بتبعيده عنكم ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ أي لكونكم منهمكين في الإسراف وتجاوز الحدود يعني أن الحكمة تقتضي انزال القرآن فيكم وتذكيركم به، ولو كنتم مسرفين غاية الاسراف مصرين عليه.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ أي في الأمم المتقدمة ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي من القوم المسرفين الذين أرسلناك اليهم ﴿بَطْشًا﴾ أي قوةً وهجمةً ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سلف وسبق في القرآن الكريم مرارا كثيرة قصة الظالمين الأولين والكافرين السابقين ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي محل استقرار ونموّ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ للعبور والمراد يسلكونها بسهولة ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بسلوكها الى غاياتكم ومقاصدكم ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي بمقدار

تقتضيه الحكمة ﴿فَأَنْشَرْنَا﴾ فأحيينا ﴿بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ خالية من النماء. وتذكير ميتا لان البلدة في معنى البلد، أو باعتبار المكان ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي مثل ذلك الانشاء والاخراج للنبات تخرجون أي تبعثون من قبوركم ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي أصناف المخلوقات ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي تركبونه ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ وتستريحوا عند مروره ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ وذلله لنا ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي راجعون أي تذكروا عند علوكم واستوائكم على ظهوره نزولكم وانحطاط منزلكم في القبر.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25)﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ مرتبط بقوله السـابق ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يقول سبحانه وتعالى أنظروا الى هؤلاء الكـافرين المعانـدين كيـف يناقضـون أنفسـهم بأنفسـهم، فهم اذا سألتهم من خلق الكائنات أجابوا بـأن اللـه هـو الخـالق وهـو المسـيطر على السـماوات والأرض، ومعـنى ذلـك أنـه غـني عن العـالم وأجزائـه، وخالق للكل مع أنهم جعلوا لله تعالى من عباده المخلوقين له جـزء اي ولدا هو لوالده كـالجزء من وجـوده كمـا اشـتهر أن أولادنـا أكبادنـا ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ بالله الحق كفرانا واضحا لا يحتاج الى البيان. ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ﴾ أي واختاركم ﴿بِالْبَنِينَ﴾. (وَ) الحال أنهم ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي والحـال أنهم بحيث اذا بشـر أحـدهم باحـدى البنـات الـتي ذكروهـا للباري تعالى ونسبوها اليه صار وجهه مسودا من شدة ما أخبر به عنده ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي ممتلئ غضـبا وحزنـا وألمـا ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّـأُ فِي الْحِلْيَـةِ﴾ استفهام آخر استنكاري تقريرا وتأكيـدا للاول، يعـني أو جعلـوا من تنمـو وتتربى في كسوة الحلية من القلادة والسوار والخلخال وغيرها مبتعـدة عن أعمـال الرجـال ﴿وهُـوَ﴾ مـع مـا ذكـر من النقص ﴿فِي الْخِصَـامِ﴾ والجدال الدائر بين الناس عادةً ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي غير موضح جعلوه جـزء الله ومن بناته مع القصورين في الفعل والقـول؟ ثم قـرر مـا اسـتنكره عليهم بقوله الكريم ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًـا﴾ أي اعتبروها بناتٍ الله تعالى عن ذلك علوا

كبيرا، وجعلهم ذلك مما يوجب العجب لكل عاقل ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي أحضروا خلق الله تعالى لهم ذلك والجواب: لا.

ولما كانت دعواهم لها كذبا وافتراء على الله تعالى فـ ﴿سَتُكْتَبُ﴾ في ديوان أعمالهم ﴿شَهَادَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة من كونهم اناثا وبنات لله تعالى ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنها يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي وقالوا: نحن نعبد الملائكة وعبادتنا لهم أمرٌ حسن اعتيادي داخل تحت المشيئة ولو شاء الرحمن أن لا نعبدهم ما عبدناهم. وقولهم ذلك باطل عاطل ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ويخمنون ويقولون ذلك رجما بالغيب. وقوله تعالى ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ اضراب عن نفي العلم بذلك، أي لا تبحثوا عن عدم علمهم وانظروا هل آتيناهم كتابا من قبل بعث الرسول صلى الله عليه وسلم أو من قبل القرآن، وفي ذلك الكتاب أمرناهم بعبادة الملائكة ﴿فَهُمْ بِهِ﴾ أي بذلك الكتاب ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ويعتصمون به ويجعلونه عمدة وسندا لعقيدتهم ﴿بَلْ﴾ اضربوا عن ذلك أيضا فانه ليس لهم علم بذلك ولا نزل عليهم كتاب يتمسكون به وانما نهاية أمرهم أن ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي على دين وملة ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي حاصل قولهم أنهم وجدوا آباءهم على تلك العقيدة، وهم يهتدون بهم ويقتدون بهم، أي أنهم أناس مقلدون على العمى بآبائهم الضالين، ولا حجة لهم أبدا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي متنعموها ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي ملة ودين ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ بهم ﴿قَالَ﴾ حكاية لما جرى بين الرسل المنذرين وبين اممهم المقلدين: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ من الأمور المفتعلة المزعومة ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾

أي ولما آل الأمر إلى هذه الدرجة من الوقاحة وسوء المقال انتقمنا منهم شر انتقام (وجعلناهم) عبرة للايام ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ من الاستئصال وإبادة الناس من النساء والرجال.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (30)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي واذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لأبيه آزر وقومه المتهالكين على عبادة الأصنام كيف تبرأ من عقائدهم وأعمالهم وقال ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وبراء صفة مشبهة أي بريء، أو مصدر كالطلاق والعتاق وصار خبرا بطريق المبالغة. ولذلك يستوي فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء متصل ان كانت ما عامة لذوي العقول وغيرهم، وان كانت مختصة بغير ذوي العقول فمنقطع، ويجوز أن تكون الا صفة بمعنى غير على أن ما في وما تعبدون نكرة موصوفة، والتقدير: انني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني وخلقني ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ يثبتني على الهداية، فالسين للتأكيد لا للاستقبال لانه جاء في الشعراء يهدين بدونها ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي كلمة الاستثناء باعتبار ما يستفاد منها، أو جعل جملة انني براء مما تعبدون الا الذي فطرني أو كلمة التوحيد المستفادة من الآية ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي في ذريته وفي من تبعه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الى التوحيد وهو تعليل للجعل أي جعلها باقية في عقبه كي يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحد منهم ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾

الكفار المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَآَبَاءَهُمْ﴾ السابقين بطول العمر ومزيد النعمة ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي دعوة الحق أو القرآن أو الموت والكل سائغ في المعاصرين ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر الرسالة بما له من الآيات البينات ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ فزادوا كفراً على كفر.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35)﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ﴾ بيان لبعض آخر من أقاويلهم الباطلة المبنية على الهوى فقالوا: كيف نزل القرآن على هذا الرجل الذي ليس له مال وثروة؟ ولم لم ينزل على رجل عظيم الشأن عليّ المقام نافذ الامر من احدى القريتين الكبيرتين: مكة أو المدينة؟ ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ فيرد عليهم الباري سبحانه وتعالى ويستنكر كلامهم، ويقول: أهم يقسمون رحمة ربك حتى يعطوا المقام لمن يريدونه أم نحن ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾

أي أسباب معيشتهم وكـذلك أسـباب عـزهم وكـرامتهم وشـرفهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـاتٍ﴾ في الـرزق وسـائر مـا يتفاوت فيه الناس من المكارم والمعالي وغيرها، وذلك ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُـهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليستعمل بعضهم بعضا في مصـالحهم ويسـتخدموهم في مهمات أمورهم ليحصل بينهم ترابط وتحابب وتالف فينتظم بذلك نظام الحياة الاجتماعية. وفي بعض التفاسير ليتخذ بعضـهم بعضـا محـل هـزء ومسخرة فتتفكك عرى المحبة وينتقم الله منهم. وقوله تعالى ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْـرٌ مِمَّا يَجْمَعُـونَ﴾ معنـاه أن نظـرهم الى أهـل القـرى الكبـيرة وعظمة مقام رجالها أمر دنيوي سر لا قيمة لها في سعادة البشـر عنـد ربه، ورحمة ربك واعزازه للناس في الآخرة وشرف لقائه فيها خير مما يجمعونه في الدنيا.

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِـدَةً﴾ أي ولـولا كراهـة أن يكـون النـاس كلهم أمة واحدة كافرة بها بواسطة النظـر الى تنعم الكـافرين ﴿لَجَعَلْنَـا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَـارِجَ﴾ أي مصـاعد منهـا ﴿عَلَيْهَا يَظْهَـرُونَ﴾ أي يعلـون على السـطوح ﴿وَلِبُيُـوتِهِمْ أَبْوَابًـا﴾ نفيسـة ثمينة ﴿وَسُرُرًا﴾ من قوائم عالية غالية ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا﴾ وزينـة في أجزائها وفرشها ونواعمها وغيرهـا ﴿وَإِنْ كُـلُّ ذَلِـكَ لَمَّا مَتَـاعُ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا﴾ أي إلا متاع الحياة، وان نافيـة أو أنـه لمتـاع الحيـاة الـدنيا واللام فارقة، ومـا زائـدة على تخفيفهـا ﴿وَالْآَخِـرَةُ عِنْـدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ومعـنى العندية الاعتبار، أي والآخرة المعتبرة المرضية عند ربك للمتقين.

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْـرِ الـرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَـهُ شَـيْطَانًا فَهُـوَ لَـهُ قَـرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُـدُّونَهُمْ عَنِ السَّـبِيلِ وَيَحْسَـبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَـدُونَ (37) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَـكَ بُعْـدَ الْمَشْـرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَـرِينُ (38) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39) أَفَأَنْتَ تُسْـمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَـانَ فِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ (40) فَإِمَّا نَـذْهَبَنَّ بِـكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ (43) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـأَلُونَ (44) وَاسْـأَلْ مَنْ أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آَلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)﴾

قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ يعني أن من يتعـام ويعـرض عن ذكر الرحمن، أي عن هذا القرآن الذي هو ذكر لله تعالى حيث نـزل بتسبيحه وتحميده وتوحيده ودعوة الناس الى طاعته وعبادته في ركاب رسوله الذي أرسله رحمة للعـالمين ﴿نُقَيِّضْ لَـهُ شَـيْطَانًا﴾ أي نهـيئ لـه شيطانا ماردا ليسـتولي على قلبـه ويجعلـه وكـره لإلقـاء مكـره وفكـره الفاسد حتى يحركه للاعتقاد الباطل والعمل العاطل ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ أي فذلك الشيطان قـرين لـذلك الشـخص المعـرض عن ذكـر اللـه ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُـدُّونَهُمْ عَنِ السَّـبِيلِ﴾ أي وان تلـك الشـياطين لا شـك أنهم يمنعـون أولئك الناس عن السبيل أي عن سلوك سـبيل الحـق ﴿وَيَحْسَـبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَـدُونَ﴾ أي أن أولئــك الشــياطين مهتــدون لطريق الحــق ولــذلك يتبعـونهم، أو الضـمير عائـد الى العاشـين أي ويحسـب أولئـك النـاس المتعامون عن ذكر الرحمن أنهم باتبـاعهم للشـياطين مهتـدون لطريـق الخير ﴿ولا يَعلْمُون﴾ أن أولئك الشياطين غربان.

إذا كـان الغـراب دليـل قـوم　　　سـيهديهم طريـق الهالكينا

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾ أي فيستمر مقارنة ذلك الشيطان لذلك الانسان العاشي حتى اذا جاءنا ذلك العاشي أي مات وتحول الى الله، ورأى يوم القيامة بأمّ عينه واطلع على حقيقة الحال وأن نفع الشياطين له محال ﴿قَالَ﴾ ذلك الانسان العاشي لذلك الشيطان ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ في الدنيا ﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ والمراد بهما المشرق والمغرب على التغليب أو بعد مشرق الصيف عن مغربه وبعد مشرق الشتاء عن مغربه ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أنت وقد ملكتني وأهلكتني. ويقول الله سبحانه وتعالى لذلك الانسان المتندم عما ارتضاه في دنياه ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ هذا التمني فإن وقت الندم قد فات وقوله تعالى ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ بدل من اليوم بتقدير مضاف اليه أي اذ صح أنكم ظلمتم أو تبين أنكم ظلمتم في الدنيا، وقوله ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ بفتح الهمزة مقدر بلام العلة لعدم النفع، أي لن ينفعكم الندم والتمني في هذا اليوم يوم القيامة زمان تبين ظلمكم في الدنيا لتقرر أنكم في العذاب مشتركون مع الشياطين. وقرئ بكسر الهمزة فتكون جملة مستأنفة مقررة لعدم النفع.

وقوله اذ ظلمتم يكون علة لعدم النفع، أي لن ينفعكم التمني اليوم لانكم ظلمتم أنفسكم بالاشراك في الدنيا والاشتراك مع الشياطين فيه انكم اليوم أنتم وقرناؤكم الشياطين في العذاب مشتركون كما كنتم في الدنيا في الظلم مشتركين، وقوله ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ مصدر بهمزة الاستفهام الانكاري ليستريح الرسول صلى الله عليه وسلم عن اتعاب النفس في ارشادهم فيقول: أبعد ما جرى من الكفار المشركين في مكة أنت تقدر أن تسمع القوم الصم عن سماع الحق، أو تهدي القوم العمي عن ابصاره ﴿وَ﴾ تهدي ﴿مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ واضح بعلم اليقين؟ ! أي فلا تبال بهم ولا تهتم.

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ونتوفينك الينا فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ بعدك أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَـدْنَاهُمْ وننصـرك عليهم فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَـدِرُونَ * فَاسْتَمْسِـكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ من القرآن نزل عليك إِنَّكَ عَلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ أي وان ما أوحي اليك لذكر وبيان حـال وكمـال ونضـال في سـبيل الحـق وشـرف عنـد اللـه وعنـد النـاس العقلاء لـك ولقومك الذين أجابوا دعوتك من المهـاجرين والأنصـار وسـائر الصـحابة الأخيار وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ يوم القيامة أنت وقومك المجيبون عن مـدى القيام بأعباء الرسالة وكفاح أهل الضلالة وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَـلْنَا أي أمم من أرسلنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آَلِهَةً يُعْبَدُونَ أي هل حكمنا بعبادة غير الله رب العالمين.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَـى بِآَيَاتِنَـا إِلَى فِرْعَـوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَـالَ إِنِّي رَسُـولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآَيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آَيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَـذْنَاهُمْ بِالْعَـذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَـا رَبَّكَ بِمَـا عَهِـدَ عِنْـدَكَ إِنَّنَـا لَمُهْتَـدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِـهِ قَـالَ يَـا قَـوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْـكُ مِصْـرَ وَهَـذِهِ الْأَنْهَـارُ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِـرُونَ (51) أَمْ أَنَـا خَيْـرٌ مِنْ هَـذَا الَّذِي هُـوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَـادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَـاءَ مَعَـهُ الْمَلَائِكَـةُ مُقْتَـرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَـانُوا قَوْمًـا فَاسِـقِينَ (54) فَلَمَّا آَسَـفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَـلَفًا وَمَثَلًا لِلْآَخِـرِينَ (56)

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا﴾ أي متلبسا بآياتنا أي معها معية استعدادية قريبة ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أشراف قومه الذين يملأون ديوانه ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ اليكم لإطاعة الله الجليل وإطلاق الحرية المعقولة لبني اسرائيل ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآَيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي استهزءوا به وبالآيات التي أتى بها استهزاء عميقا بحيث جاءهم الضحك الناشئ من التعجب عن مجيئه وقوله ذلك، وهو أضعف انسان، عندهم ولم يصدقوا بأن معه آيات ربانية ومعجزات خارقة وتعاليم موافقة للعادات التي مشوا عليها ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آَيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ يعني وقد أريناهم آياتنا الدالة على كمال قدرتنا بتتابع تكون الثانية منها أكبر وأوقع في النفوس من الأولى، بحيث تدهش العقول وتأخذ بالألباب فلم تفدهم ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ أي بالقحط سنين وبالجراد والقمل وغيرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الى رشدهم ويأخذون طريق رشادهم في الدين واعتقدوا به أنه ساحر.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي بعهده الموجود عندك وهو عهد النبوة والرسالة منه الى عباده، ومعناه أن من كان ثقة مأمونا مختارا عند صاحبه لمهمة عالية عالمية فله وجه عنده، واذا دعاه وترجاه لمهمة تقبل دعاءه وأجابه، فان دعوته وأجابك فـ ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ الى سلوك سبيل الإيمان والطاعة لربك ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ أي فدعانا موسى لكشفه فأجبناه ولما كشفنا العذاب كان الحق أن يؤمنوا فلم يؤمنوا واذا هم ينكثون ذلك القرار الجاري بينهم وبين موسى ونقضوه.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ أي جمعهم، ونادى فيهم كمن يطلب تصويت الأمة للانتخاب: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أي الجداول والفروع المأخوذة من النيل في كل جانب وأراد بملك مصر كل البلاد من اسكندرية شمالا إلى أسوان جنوبا مع ما يليهما شرقا وغربا، وكان ملك مصر عندهم كملك الدنيا وقوله ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ اما المقصود تجري تحت مستقره وعرشه وساحة جلوسه، أو المراد من تحت تصرفي للاستثمار والاستغلال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ كل ذلك. وأراد من وراء ذلك أن يشتهر خضوع الأمة له واعترافها بأن الملك ملكه وتخويف الناس من الايمان بموسى وأتباعه في أهدافه التي كان يتزلزل بها عرشه وقوله ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ أم فيه منقطعة أي بل أنا خير وأفضل وأشرف ﴿مِنْ هَذَا﴾ الرجل الذي ﴿هُوَ مَهِينٌ﴾ أي ذليل حقير ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي ولا استعداد له أن يأتي بعبارة فصيحة يظهر منها مقصوده بسهولة وراحة ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ قال مجاهد: كانوا اذا سودوا رجلا سوروه بسوارين، وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسؤدده. فيقول فرعون للناس في اغفالهم عن الحق: ان كان موسى أميرا وملكا دنيويا فلم لم يسور بأسورة من ذهب كما هو العادة؟ وان كان ملكا دينيا ربانيا فلم لم يجيء معه الملائكة مقترنين له ومحيطين به؟ ولم يدر هو وأتباعه الفاسدون أنه رسول من رب العالمين فلا حاجة له الى اقتران الملائكة كما أنه لا يدعي الملكية الفرعونية حتى يلبس الأسورة وشعائر السلطنة. ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي فطلب فرعون من قومه الخفة في اطاعته بهذه الكلمات الاحتيالية فأطاعوه واعترفوا بأن ملك مصر له وان موسى لا يعتمد عليه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن اطاعة الله وبذلك دخلوا في طاعة الكافر الذي لا شرف له عند الله.

﴿فَلَمَّا آَسَفُونَا﴾ أي أسخطونا وجعلونا في ما لا نستحبه من الاعتقادات الفاسدة والأقوال الفارغة والأعمال الكاسدة ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي من فرعون وملأه ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ في نهر النيل ﴿أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ أي اماما للكفار الذين يتمردون بعدهم ﴿وَمَثَلًا﴾ أي قصة ذات شأن وعظة ذات قيمة ﴿لِلْآَخِرِينَ﴾ بأن يقال لمن يتمرد بعده مثلك مثل فرعون يأتي عليك ما أتى عليه.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقَالُوا أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي ولما ذكر عيسى ابن مريم مثلا وشبيها لآلهة الكفار، أي قيل انه يعبد من طرف النصارى كآلهتنا فإذا كان حَصبًا لجهنم فلتكن آلهتنا أيضا حَصبًا لها، وجواب لما قوله تعالى 81 ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي يضجون ويفرحون ويبطرون. ﴿وَقَالُوا﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ﴾ من عيسى ﴿أَمْ هُوَ﴾ أي عيسى خير من آلهتنا. وفي واقع الحال تقول يا محمد انه خير من آلهتنا فاذا صار هو حصب جهنم فلتكن آلهتنا حصبها ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي ما جاؤا بذكر عيسى عليه السلام الا للجدال والزامك واسكاتك ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أبطال أقوالهم اجمالا، وانتقال الى بيان أنهم قوم مبالغون في الخصومة والعداوة مع الحق. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي عيسي ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ وشرفناه بشرف النبوة والرسالة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ أي عبرة ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي لخلقنا ملائكة في الأرض ﴿يَخْلُفُونَ﴾ لكم كما يخلفكم أولادكم، أو يكونون خلفا ونسلا لكم ليعرف تميزنا بالقدرة الباهرة وليعلم أن الملائكة ذوات ممكنة تخلق توليدا كما تخلق ابداعا، فمن أين لهم استحقاق الألوهية والانتساب اليه سبحانه وتعالى بالبنوة له؟ تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي

وان نزول عيسى من السماء إلى الأرض لعلامة تكون سببا للعلم بقرب حلول الساعة فلا تشكن في الساعة وحلولها، أو أن وجود عيسى من الأم بلا أب له علامة لقدرة الله تعالى على خلق الانسان بلا والد ولا والدة وبلا والد كعيسى، وبلا والدة كحواء، وعلى خلق الانسان واعادة حياته وبعثه من القبور يوم الساعة فلا تشكن بها. أو أن وجود عيسى واحياءه للموتى بإذننا علامة لتحقق الساعة لانا اذا أقدرنا عبدا على احياء الموتى فنحن أقدر منه على احيائهم عند البعث وحلول الساعة فلا تشكن فيها ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ فيما أبلغه اليكم من أن الله واحد لا شريك له وأنه لا يعبد سواه، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن كل مكلف له دفتر حساب يحاسب على <82>

مقتضاه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ موصل الى الحق القويم ﴿وَلَا يَصُـدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي ولا يمنعنكم الشيطان عن اتباعي ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿وَلَمَّا جَـاءَ عِيسَـى بِالْبَيِّنَـاتِ﴾ أي بـالمعجزات الواضـحات أو بالإنجيـل ﴿قَالَ﴾ أي لبني اسـرائيل: ﴿قَـدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَـةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أمـر الـدين والشـريعة وحسـاب المـوتى بعـد البعث والنشور ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يا بني اسرائيل ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أقول لكم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ لا غيره ﴿هَـذَا صِـرَاطٌ مُسْـتَقِيمٌ﴾ أي هـذا التوحيد والتزام الحق صراط مستقيم لا يضل من سلك فيـه ﴿فَـاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ في أن عيسى ورسالته وعبوديته لله ﴿فَوَيْـلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من المختلفين بالانكار لرسـالته أو بـالقول بأنـه ابن اللـه ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هو يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَـأْتِيَهُمْ بَغْتَـةً وَهُمْ لَا يَشْـعُرُونَ (66) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَـوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آَمَنُوا بِآَيَاتِنَـا وَكَـانُوا مُسْـلِمِينَ (69) ادْخُلُـوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَـرُونَ (70) يُطَـافُ عَلَيْهِمْ بِصِـحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَـذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73)﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الضمير عائد الى قريش وقولـه ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل من ﴿السَّاعَةَ﴾ و﴿يَنْظُرُونَ﴾ بمعنى ينتظرون. أي هل

تنتظر قريش شيئا الا حلول الساعة واتيانها عليها مفاجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ باتيانها وغشيانها عليها كما تغشى سائر الناس، وحاصل الآية: ان أولئك الكفار لا يقبلون آية نصيحة ولا يخافون من أي انذار ولا يرفع رءوسهم الا حلول الساعة في حال لا يشعرونها فيه كما روى أبو سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعجة، والرجلان يطويان الثوب)) ثم قرأ عليه الصلاة والسلام ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ والآية نزلت في أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط، ومعناها أن المحبات تنقطع يوم اذ تأتيهم الساعة، ولا تبقى الا محبة المتقين، وهم المتصادقون في الله عز وجل لما أنهم يرون ثواب التحابب في الله عز وجل ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي ويناديهم الباري سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ إما صفة للمنادى، أو بدل، أو مفعول لمقدر أي أمدح ونحوه. وأفاد بقوله آمنوا اتصافهم بالعلم بما جاء به الرسول من الله تعالى وبقوله ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ اتصافهم بالإذعان الفعلي وهو الانقياد النفسي لما جاء به صلى الله عليه وسلم ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أي تسرون سرورا ظاهرا يعرفه الناس ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ بعد دخولهم الجنة ﴿بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ والصحاف جمع صحفة قيل هي كالقصعة ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب بمعنى المشربة الصغيرة التي ليس فيها عرى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أي تستلذ وتقر بمشاهدته وتستطيبه العقول السليمة ﴿وَأَنْتُمْ﴾ يا عبادي ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ أي أوتيتموها إيتاء قسريا كإيتاء المواريث، وذلك ﴿بِ﴾ سبب ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

وكثرة الفواكه بحسب تعدد الأنواع، وقوله منها يعني لا تأكلون الا بعضـا منها وذلك لكثرتها.

﴿إِنَّ الْمُجْـرِمِينَ فِي عَـذَابِ جَهَنَّمَ خَالِـدُونَ (74) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيـهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَـاهُمْ وَلَكِنْ كَـانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنَـادَوْا يَـا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِـالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَكُمْ لِلْحَـقِّ كَـارِهُونَ (78) أَمْ أَبْرَمُـوا أَمْـرًا فَإِنَّا مُبْرِمُـونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُـلُنَا لَـدَيْهِمْ يَكْتُبُـونَ (80) قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَـرْشِ عَمَّا يَصِـفُونَ (82) فَـذَرْهُمْ يَخُوضُـوا وَيَلْعَبُـوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي ان الراسخين في الاجرام وهم الكفار ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِـدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفف العذاب عنهم ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ حزينـون ﴿وَمَـا ظَلَمْنَـاهُمْ﴾ بـذلك ﴿وَلَكِنْ كَـانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسـهم لسـوء اختيـارهم ﴿وَنَـادَوْا﴾ أي المعـذبون في جهنم خازنهـا وقـالوا: ﴿يَـا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَـا رَبُّكَ﴾ أي ليمتنـا ﴿قَـالَ إِنَّكُمْ مَـاكِثُونَ﴾ أي مقيمـون في العذاب لابد لكم من ذلـك ﴿) لَقَـدْ جِئْنَـاكُمْ بِـالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَكُمْ لِلْحَـقِّ كَارِهُونَ (78) أَمْ أَبْرَمُوا﴾ أي الكفار ﴿أَمْرًا﴾ أي أم أبرموا أمرا وجعلـوه مقطوعا في الاضرار بالرسول صلى الله عليه وسلم

﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أي كدنا حقيقة نحن لا هُم ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ المراد بالسر حديث النفس، وبالنجوى ما يتناجون به بينهم بالاخفاء عن غيرهم ﴿بَلَى﴾ نسمع ونعلم ونطلع على كل ذلك وغيره ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما أمروا بكتابته لا لعلمنا فإننا لا نحتاج الى كتابتهم بل للاحتجاج به عليهم يوم القيامة عند الميزان والحساب. وظاهر الآية الشريفة أن حديث النفس مسموع للباري تعالى، كما أنه يدل على أن الكتبة مطلعون أيضا على حديث النفس، والكلام السري في النجوى، ولا مانع من أن يكشف الله ذلك لهم حتى يحيطوا بما في باطنهم وظاهرهم.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ كما تدعون أن الملائكة بنات الله ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لذلك الولد، فإن تعظيم الوالد يوجب تعظيم الولد، وحاصل الكلام أنه ان صح وثبت وجاز أن يكون للرحمن ولد فأنا أول وأقدم العابدين، وكانت عبادة ذلك الولد أنسب بحالي لأني أعلمكم بالله وبما يناسب مقامه من تعظيمه وتنظيم علاقته، ولكن ليس له ولد ولا يصح له، فإنه واجب الوجود وغيره ممكن الوجود، ولا يتناسبان في الحقيقة والماهية بأي حال. وقد ظهر أن وجه الملازمة كونه صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بشئون الباري وتعظيمه. ومما يجب أن يعلم أن صحة الشرطية لا تتوقف على إمكان الشرط والجزاء لجواز تركيبها من محالين، كما تقول: لو كانت الثلاثة زوجا لانقسمت بمتساويين بلا كسر. ولو كانت النار باردة ما أحرقت اليد الماسة لها، ولو كان زيد أسدا كان مفترسا ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عن الذي يصفونه به من تحقق الوالد له ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم غافلين عما يحتاجون اليه في عقابهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة. وقال جمع انه يوم بدر ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ الظرفان متلعقان

بمـا في الـه من معـنى المعبوديـة ﴿وَهُـوَ الْحَكِيمُ﴾ في تأجيـل العقـاب وتعجيله ﴿الخبير﴾ بأعمال كل عامل وما يستحقه.

﴿وَتَبَـارَكَ الَّذِي لَـهُ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَـا وَعِنْـدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ الشَّـفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86) وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُـولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87) وَقِيلِـهِ يَـا رَبِّ إِنَّ هَـؤُلَاءِ قَـوْمٌ لَا يُؤْمِنُـونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)﴾

قوله تعالى ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَـا﴾ أي السلطنة والتصرف في كل ذلك، لأنه الخالق له والخالق حقه التصـرف المطلق ﴿وَعِنْدَهُ﴾ لا عند غيره ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ووقت تبدل عـالم الـدنيا بعالم الآخرة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ كما زعم المشركون أنهم شفعاؤهم عند اللـه ﴿إِلَّا مَنْ شَـهِدَ بِالْحَقِّ﴾ وهو التوحيـد فهم لاعـترافهم بالتوحيـد والـتزامهم الطاعـة للـه تعالى يستحقون الشفاعة ممن أذن له الرحمن. وقوله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُـونَ﴾ دليل على أن اعتبار الشهادة بـالحق والتوحيـد انمـا ينفـع اذا كـانت من علم وتصديق ذاتي، وان كـان بـدليل مجمـل لا من تقليـد صـرفٍ ﴿وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُـولُنَّ اللَّهُ﴾ لتعـذر المكـابرة في ذلـك ﴿فَـأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي وما دام هم معترفون بأن الله خلقهم وأخرجهم من العدم الى الوجود فأنى يؤفكون، أي فكيف يصرفون عن

طاعته الخالصة وتوحيده ﴿وَقِيلِهِ﴾ معطوف على الساعة، أي وعند اللـه علم قيله أي قول الرسول محمد صلى الله عليـه وسـلم وندائـه بـ ﴿يَـا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ المشركين ﴿قَـوْمٌ لَا يُؤْمِنُـونَ﴾ فمـا دام اللـه يعلم بـذلك القـول وذلـك النـداء فلا تهتم ولا تحـزن. ﴿فَاصْـفَحْ﴾ وأعـرض ﴿عَنْهُمْ﴾ لتسـتريح ولا تطمـع في ايمـانهم ﴿وَقُـلْ سَـلَامٌ﴾ أي أمـري معكم سـلام ومشاركة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جزاءهم جزاء وفاقا.

سورة الدخان، مكية وآياتها تسع وخمسون آية

نزلت بعد الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْـذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْـرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْـرًا مِنْ عِنْـدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِـلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَـائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8) بَـلْ هُمْ فِي شَـكٍّ يَلْعَبُـونَ (9) فَـارْتَقِبْ يَـوْمَ تَـأْتِي السَّـمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَـذَابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَـا اكْشِـفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّى لَهُمُ الـذِّكْرَى وَقَـدْ جَـاءَهُمْ رَسُـولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْـهُ وَقَـالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُـونٌ (14) إِنَّا كَاشِـفُوا الْعَـذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16)﴾

<89>

قوله تعالى ﴿حم﴾ الكلام فيه كما سبق ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي أقسم بالكتاب المبين الواضح الموضح للحقائق والمقسم به قوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي ذلك الكتاب المبين ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ هي ليلة القدر بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدر﴾ اذ يتركب من هاتين الآيتين الكريمتين قياس من الشكل الثالث تقريره: القرآن الكريم أنزل في ليلة مباركة، والقرآن الكريم أنزل في ليلة القدر، والنتيجة أن تلك الليلة المباركة هي ليلة القدر. وهذه النتيجة إذا لوحظت مع قوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ﴾ يظهر بحق أن ليلة القدر ليلة من ليالي شهر رمضان فطوبى لمن أحياها بطاعة الرحمن ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ أي ومبشرين بذلك الكتاب جميع المكلفين ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك الليلة المباركة ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾

ويفرق بمعنى يفصل ويلخص والحكيم بمعنى المحكم لأنه لا يبدل ولا يغير بعد إبرازه للملائكة عليهم السلام بخلافه قبله وهو في اللوح المحفوظ، فإن الله تعالى يمحو منه ما يشاء ويثبت.

وأخرج محمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في ذلك: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر حتى يكتب: يحج فلان... وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال: كنت عند الحسن فقال له رجل: يا أبا سعيد ليلة القدر في كل رمضان هي؟ قال: أي والله انها لفي كل رمضان، وانها لليلة يفرق فيها كل أمر حكيم فيها يقضي الله تعالى كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها. وأخرج البيهقي عن أبي الجوزاء ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ هي ليلة القدر يجاء بالديوان الأعظم السنة الى السنة فيغفر الله تعالى شأنه لمن يشاء.

وفي كثير من الأحاديث الشريفة أن الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان بحيث لا يمكن انكارها، فقال بعض الأجلة: كون التقدير في هذه الليلة يشكل عليه قول كثير أنـه ليلـة النصـف من شـعبان وهي المـراد بالليلة المباركة التي قال الله تعالى فيها يفرق كـل أمـر حكيم، وأجـاب بـأن ههنـا ثلاثـة أشـياء: الأول نفس تقـدير الأمـور، أي تعـيين مقاديرهـا وأوقاتها وذلك في الأزل. والثاني اظهـار تلـك المقـادير للملائكـة عليهم السـلام بـأن تكتب في اللـوح المحفـوظ، وذلـك في ليلـة النصـف من شعبان، والثالث: اثبات تلك المقادير في نُسخ وتسليمها إلى أربابها من المدبرات، فتدفع نسخة الأرزاق والنباتات والأمطـار الى ميكائيـل عليـه السلام ونسخة الحروب والرياح والجنود والزلازل والصواعق والخسـف الى جبريل عليه السلام.

ونسخة الأعمال إلى إسرافيل عليه السلام.

ونسخة المصائب الى ملك الموت وذلك في ليلة القدر. هذا وسيأتي ان شاء الله تعالى في تفسير سورة القدر مزيد تفصيل للموضوع.

وقولـه تعـالى ﴿أَمْـرًا مِنْ عِنْـدِنَا﴾ منصـوب على الاختصـاص وتنكـيره للتفخيم، والجـار والمجـرور في موضـع الصـفة لـه ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِـلِينَ﴾ وقوله ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ تعليل ليفرق أو لقولـه تعـالى أمـراً من عنـدنا، ورحمة مفعـول بـه لمرسـلين وتنوينهـا للتفخيم، والجـار والمجـرور في موضوع الصفة لها ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل مسموع ﴿الْعَلِيمُ﴾ لكل معلوم ﴿رَبِّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَـا إِنْ كُنْتُمْ مُـوقِنِينَ﴾ أي من أهـل الايقان ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُـوَ﴾ أي لا الـه حـق إلا هـو ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من رب السماوات.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَـكٍّ﴾ اضـراب ابطـالي حـالكونهم ﴿يَلْعَبُـونَ﴾ مـا يقولـون بشيء مطابق للواقع ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أي يــوم تأتي بجدب

ومجاعة فان الجائع يرى ما أمامـه الى السـماء كهيئـة الـدخان. أو يـوم ظهور الدخان المعدود في أشراط الساعة، لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((أول الآيات الدخان، ونزول عيسـى، ونـار تخـرج من قعـر عَدَنٍ أبين تسوق الناس الى المحشر)) قيل: ومـا الـدخان؟ فتلا رسـول الله صلى الله عليه وسلم الآية وقال: ((يملأ ما بين المشرق والمغـرب يمكث أربعين يوما وليلة، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام، وأما الكـافر فهو كالسكران يخرج من منخره وأذنيه ودبره)). ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يحيط بهم وقولـه ﴿هَـذَا عَـذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَـا اكْشِـفْ عَنَّا الْعَـذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُـونَ﴾ مقدر بقول وقع حالا، وانا مؤمنون وعـد بالايمـان ان كشـف العـذاب أو اعتراف به وتضرع وتشفع به عند اللـه تعـالى. وقولـه تعـالى ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ بين لهم واجبهم وثـوابهم على تقـدير الاجابة وعقابهم على تقدير العناد، وذلك الرسول هو محمـد صـلى اللـه عليه وسلم ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَـالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُـونٌ﴾ أي قـال بعضـهم: انـه معلم من أعجمي، وقال بعضهم: انه مجنون.

وقولـه ﴿إِنَّا كَاشِـفُوا الْعَـذَابِ﴾ أي انـا كاشـفوه ورافعـوه عنكم بـدعاء الرسول، فانه لما دعا رفع القحط ﴿قَلِيلًا﴾ كشفا قليلا أو في زمان قليل ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ هذا جواب من جانب الباري سبحانه وتعالى عن قـولهم واخبـارهم بـالعود على تقـدير الكشف، وقولـه ﴿يَـوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَـةَ الْكُبْرَى﴾ ظرف لقوله ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُـولٌ كَـرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَـادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لَا تَعْلُـوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آَتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُـونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُـوا لِي فَـاعْتَزِلُونِ (21) فَـدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَـؤُلَاءِ قَـوْمٌ مُجْرِمُـونَ (22) فَأَسْـرِ بِعِبَـادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُـونَ (23) وَاتْـرُكِ الْبَحْـرَ رَهْـوًا إِنَّهُمْ جُنْـدٌ مُغْرَقُونَ (24)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ تذكير للكافرين المشركين بما جرى قبلهم على فرعون وقومه على أثر عنادهم مع موسى عليه السلام لعلهم يتعظون ويعتبرون فقال ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ وامتحنا وابتلينا ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل أولئك المشركين المعاصرين لك ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي فرعون وقومه لكن لما كان قوامه بقومه قد اكتفى بهم ﴿وَجَاءَهُمْ﴾ أي قوم فرعون ﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ مكرم محترم عند الله وهو موسى عليه السلام ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ أي قائلا أن أدوا إلي وسلموا إلي عباد الله أي بني اسرائيل المعذبين لانهم اشتهروا بأنهم عباد الله أي يعبدونه ويوحدونه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي لا تستكبروا على الله باستكباركم على رسوله ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بحجة ظاهرة تدل على سلطنة الباري وقدرته على الممكنات، يتصرف فيها كيف يشاء فيقلب العصا حية مثلا. ولما أدرك موسى عليه السلام سوء نيتهم قال ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أي التجأت وتحصنت به من أن تؤذوني بالضرب أو القتل ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي فكونوا بمعزل مني لا لي ولا عليّ ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ أي فلما علم بقصدهم السيئ دعا ربه ﴿أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ مصرون على العداء والعناد. وقوله تعالى ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي فأوحى اليه ﴿أن أَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ أي بقطع من الليل ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾.

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي ولما وصلت البحر انفتح لك وانفرج فيكون طريقا لعبورك بسلامة، ولما عبرت فلا تضرب البحر بالعصا حتى يعود الى حاله القديم، واتركه رهوا أي منفتحا منفرجا ليطمع فرعون وجنوده في عبوره، فاذا خاضوه انطبق عليهم وهلكوا ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ في علمي، ولابد أن يغرقوا في هذا السفر. فسرى موسى بقومه، ولما وصل النيل وجده

على ما ذكرنا فعبروا منه، وتركه على حاله رهـوا، ولمـا وصـله فرعـون وجنوده على تلك الحالة اقتحموه، ولما وصلوا كلهم الى ما بين حافتيــه انطبــق عليهم فصــاروا مغــرقين. وعلى هــذا تكــون جملــة انهم جنــد مغرقون علة لتركه رهوا.

﴿كَمْ تَرَكُـوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَـامٍ كَـرِيمٍ (26) وَنَعْمَـةٍ كَانُوا فِيهَا فَـاكِهِينَ (27) كَـذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَـا قَوْمًـا آَخَـرِينَ (28) فَمَـا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَـذَابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَـوْنَ إِنَّهُ كَـانَ عَالِيًـا مِنَ الْمُسْـرِفِينَ (31) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَـالَمِينَ (32) وَآَتَيْنَـاهُمْ مِنَ الْآَيَـاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (33)﴾

قوله تعالى ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ كم منصوب محلا على المفعولية لما بعـده، أي تركوا كثـيرا في مصـر ﴿مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَـامٍ كَـرِيمٍ﴾ أي مواقع حسنة للبقاء فيها ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا﴾ أي فرعون وأتباعـه ﴿فِيهَـا﴾ أي في تلك النعم ﴿فَاكِهِينَ﴾ أي أصحاب فاكهـة أو طيـبي الأنفس ﴿كَـذَلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ﴿وَأَوْرَثْنَاهَـا قَوْمًـا آَخَـرِينَ﴾ وهم بقايـا بـني اسـرائيل من الذين كانوا موالين لفرعون ومـا أمكنهم أن يخرجـوا مـع موسـى عليـه السلام أو المراد قوما آخرين ممن ملك مصر بعد هلاك فرعون وقومه. وتفسيره ببني اسـرائيل الخـارجين مـع موسـى عليـه السـلام لا يوافـق الواقع لانهم لم يرجعـوا إلى مصـر ﴿فَمَـا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّـمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ كناية عن عدم الاكتراث بهم، فانه اشتهر بين العامة أن كل قوم شريف اذا هلكوا تبكى عليهم السماء والأرض بنزول نوع من الندى من السماء أو بظهور بعض الصعيق على سطح الأرض، فيقول

انه بعد هلاك فرعـون وقومـه لم يتحقـق ذلـك. والمقصـود الإهانـة كمـا ذكرنا.

﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ ممهلين مؤجلين الى وقت آخر يهلكون فيه.

﴿وَلَقَـدْ نَجَّيْنَـا بَنِي إِسْـرَائِيلَ﴾ بتلـك الحادثـة ﴿مِنَ الْعَـذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَـوْنَ إِنَّهُ كَـانَ عَالِيًـا﴾ متكـبرا جبـارا ﴿مِنَ الْمُسْـرِفِينَ﴾ في الشـر والاضـرار بالنـاس ﴿وَلَقَـدِ اخْتَرْنَـاهُمْ﴾ أي بـني اسـرائيل ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ باستعدادهم واستحقاقهم أو مـع علمنـا بعـواقبهم ﴿عَلَى الْعَـالَمِينَ﴾ أي من الموجودين في زمانهم فلا يلزم تفضيلهم على أمة محمد صلى الله عليه وسـلم لنص قولـه تعـالى ﴿كُنْتُمْ خَيْـرَ أُمَّةٍ أُخْـرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وأدلـة أخرى ﴿وَآَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآَيَاتِ﴾ كفلق البحر، وتظليل الغمام، وانـزال المن والسـلوى وغيرها.. ﴿مَـا فِيـهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ أي اختبـار ظـاهر لننظـر كيـف يعملون.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَـا نَحْنُ بِمُنْشَـرِينَ (35) فَأْتُوا بِآَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (36) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (37) وَمَا خَلَقْنَا السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39) إِنَّ يَـوْمَ الْفَصْـلِ مِيقَـاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَـوْمَ لَا يُغْنِي مَـوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (41) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42) إِنَّ شَـــجَرَةَ الزَّقُّومِ (43) طَعَـــامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْـــلِ يَغْلِي فِي الْبُطُـونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُـذُوهُ فَـاعْتِلُوهُ إِلَى سَـوَاءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِـهِ مِنْ عَـذَابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيـزُ الْكَرِيمُ (49) إِنَّ هَـذَا مَـا كُنْتُمْ بِـهِ تَمْتَـرُونَ (50) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَـامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ (52) يَلْبَسُـونَ مِنْ سُـنْدُسٍ وَإِسْـتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (53) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آَمِنِينَ (55) لَا يَـذُوقُونَ فِيهَـا الْمَـوْتَ إِلَّا الْمَوْتَـةَ الْأُولَى وَوَقَـاهُمْ عَـذَابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57) فَإِنَّمَـا يَسَّـرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ أي ان كفار قريش ﴿لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى﴾ أي ما العاقبة الا موتتنا الأولى القريبة منا وهي الموتة بعد الحياة الدنيوية، أي ليست القصة التي نتلقاها من الرسول من الموت ثم البقاء في البرزخ الى الساعة، ثم البعث والحشر والميزان والحساب، ثم السوق الى النار أو إلى الجنة متحققة في المستقبل الا جزء منها وهو الموت وهو انمحاء كلي بلا أثر ولا خبر ولا حشر ولا نشر ولا مسئولية في الآخرة، ولا ثواب ولا عقاب، فاذا كفرت أو آمنت أو صدقت أو كذبت، وعدلت أو ظلمت، وقتلت أو أبقيت، وزنيت أو تعففت، وأصلحت أو أفسدت فالكل لا جزاء وراءه، وهذا تفصيل قولهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ أي بمبعوثين بعدها، فانظروا أيها العقلاء هل يستوي الخير والشر؟ والنور والظلمة؟ والعدل والجور؟ وسائر المتقابلات؟ والذي خلق العقل والشعور لا يقول بالاستواء من له مستوى في العقل والشعور ومن في عين قلبه نور. وكانوا يقولون في مقابل من وعدهم بالنشور من الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين: ﴿فَأْتُوا بِآَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم وانظروا أيضا إلى

هذا الكلام الفارغ الغير الموجه في مقابل الرسول القائل بأن الله الذي خلقكم يميتكم ثم يحييكم لمحاسبة أعمالكم فهو كما قدر على خلقكم واماتتكم قادر على بعثكم ومحاسبتكم، ولم يقل أنا قادر على إحياء الموتى حتى يتوجه طلبهم في فأتوا بآبائكم ان كنتم صادقين؟ فلم يكن كلامهم ذلك الا ناشئا عن عناد للحق واستكبار على الخلق.

ولما كان المنشأ تلك العظمة رد عليهم الباري وقال ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي في الحال والمال والعدد والعدة التي تكون داعية إلى التكبر ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو تبع الاكبر الحميري، واسمه أسعد بهمزة، وكنيته أبو كوب، وكان باليمن وسار بالجيوش، وحير الحيرة، وبنى سمرقند وقيل: هدمها وكان مؤمنا وقومه كافرين. وقيل لملوك اليمن: التبابعة لانهم يتبعون كما قيل لهم الاقبال لانهم يتقيلون (بصيغة المجهول أي يقتدى بهم. وعن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تسبوا تبعا فانه كان قد اسلم)) ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي قبل قوم تبع كعاد وثمود، أو قبل قريش ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ فليحذر كفار قريش من الإهلاك اذا بقوا متمردين مجرمين، وكيف نتركهم كذلك بلا نصيب في الدنيا ولا عذاب في الآخرة.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ أي عابثين والعابث هو الذي يعمل بدون حكمة في عمله وغاية في تصرفه ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما خلقنا في حال من الاحوال الا في حال رعاية الحق والعدل وتشريع للنظام ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي أكثر قريش أو أكثر الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، وأقلهم وهم المؤمنون يعلمون. ولذا قال المؤمنون: ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار. ثم هددهم بقوله المبين: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي يوم فصل الحق عن الباطل وهو يوم القيامة ميقاتهم

للحساب ونيل الجزاء بلا استثناء ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَـوْلًى شَـيْئًا﴾ والمولى الصاحب الذي من شأنه أن يتولى معونة صـاحبه على أمـوره، فيدخل في ذلك السيد والخـادم وابن العم والصـديق والمعاهـد. ويغـني من الإغناء بمعنى الإجـزاء، وشـيئا مفعـول بـه، أي لا يجـزي مـولى عن مولى شيئا قليلا أو كثيرا ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ من أي ناصـرٍ ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ وهو الذي كان مؤمنا وترحم عليه ربه وعفا عنه بذاتـه أو بشـفاعة من يقبـل شـفاعته ﴿إِنَّهُ هُـوَ الْعَزِيـزُ﴾ الغـالب ﴿الـرَّحِيمُ﴾ بمن أراد أن يرحمه.

ثم ذكر الباري مـا لأهـل النـار من الفجـار، ومالأهـل الجنـة من المتقين الأبــرار فقــال: ﴿إِنَّ شَــجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَــامُ الْأَثِيمِ﴾ أي الكثــير الآثــام ﴿كَالْمُهْلِ﴾ وهو خلط الزيت ﴿يَغْلِي﴾ من حرارته ﴿فِي الْبُطُونِ﴾ فيقطـع الأمعاء ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ أي الماء الحار الشـديد الحـرارة فيقـول مالـك النار ﴿خُـذُوهُ فَـاعْتِلُوهُ﴾ أي وجـروه واسـحبوه إِلَى ﴿سَـوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي وسـطه ﴿ثُمَّ صُــبُّوا فَــوْقَ رَأْسِــهِ مِنْ عَــذَابِ الْحَمِيمِ﴾ أي من الحميم المورث للعذاب ﴿ذُقْ﴾ بجميع أجزاء جسدك ما يصـب عليـك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ فيما كـان والآن أنت الـذليل المهـان، أو يقـال لـه ذلـك باعتبار حال الآخرة اهانة له وتحقيرا ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي هذا العذاب ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تشـكون وتمـارون وتجـادلون المسـلمين فيـه ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَـامٍ أَمِينٍ﴾ من المكـاره ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ محيطــة بــه من الجــوانب ﴿وَعُيُونٍ﴾ لكـل منهـا تلـك لمنـاظرهم ومـآكلهم ﴿يَلْبَسُـونَ مِنْ سُـنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ من ناعم الحرير وغليـظ يختـارون مـا ﴿يختـارون مُتَقَـابِلِينَ﴾ في مجالسهم يستأنس بعضهم ببعض وذلك إذا أرادوا ﴿كَذَلِكَ﴾ أي الأمر ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ والحور جمع الحوراء وهي البيضاء، وقيل شـديد سواد العين وبياضها، وقيل الحـور سـواد المقلـة كلهـا كمـا في الظبـاء. والعين جمع العيناء وهي عظيمـة العيـنين. ﴿يَـدْعُونَ فِيهَـا بِكُـلِّ فَاكِهَـةٍ﴾ يريدونها ﴿آمِنِينَ﴾ من الضرر الناتج من أكلها.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ وهي الموتة عقب الحيـاة في الـدنيا والاسـتثناء مقيـد أي ان كـانت الموتـة الأولى يستقيم ذوقها هناك وليس فليس ﴿وَوَقَاهُمْ عَـذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْـلًا مِنْ رَبِّكَ﴾ قيـد للوقايـة والرعايـة أي أن مـا أعطـوا في الجنـة كـان فضـلا ووقايتهم عن الجحيم كانت فضلا ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الرعايـة والوقايـة ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ولا ينال الفـوز العظيم الا من الـرب العظيم لعبـده الكريم ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ أي القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ الموافق للسانهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويتعظون ويتوبون ويؤمنون فيـؤتيهم اللـه أجـرا غـير ممنـون ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي فان لم يتـذكروا فـانتظر مـا يحـل بهم من الجـزاء ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بك ولا يحل بهم الا ما أعـد اللـه لهم من العـذاب ولا يحل بك الا ما آتاك الله من حسن الثواب. <99>

سورة الجاثية

مكية وآياتها سبع وثلاثون، نزلت بعد الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6)﴾

قوله تعالى ﴿حم﴾ أن جعل اسما للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هذه السورة مسماة بحم، أو مبتدأ خبره ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ﴾ استئناف للتنبيه على الآيات الكونية التي تدل دلالة ظاهرة على وجود صانع قادر، وتلك الآيات فيها دلالة على المقصود ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمن

هو الذي يتفكر بالبصيرة السليمة وأما الكافر فليس له بصر يحس بما لا يشتهيه وبصيرة ترشده الى حقيقة ما يبتغيه ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ على بسيط الأرض مع القوة العقلية والحواس والمشاعر الدقيقة ﴿و﴾ في ﴿مَا يَبُثُّ﴾ أي وفي خلق ما ينتشر عليها ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ تدب على الأرض على أحوال مختلفة وأوجه متنوعة ﴿آَيَاتٌ﴾ على عظمة الله ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي لأناس من شأنهم النظر في النسب العقلية حتى يحصل لهم الإيقان بها، والتوسل بمعرفتها الى أمور هامة يجب ادراكها والتوسل بمعرفتها الى سعادة الدارين ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي وفي اختلافهما ومجيء الواحد تلو الواحد، أو في اختلاف مقدار أوقاتهما بحسب المدارات المختلفة ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ أي من مطر يحصل منه الرزق للانسان وغيره مما يعيش على الأرض ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي بعد جمودها وعدم انباتها نباتا ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ أي وفي تصريفها من جهة الى جهة ومن حال إلى حال واثارتها السحاب ﴿آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يدركون بالعقل مبادئها وعواقبها ومنشأها ومصرفها ﴿تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي نتلوها عليك متلبسين بمحبة الحق واستفادة الناس منها، أو نتلوها تلاوة بالحق ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آَيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آَيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (9) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (10) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ نزلت في أبي جهل وقيل في النضر بن الحرث وكان يشتري حديث الأعاجم ويشغل به النـاس عن اسـتماع القرآن لكنها عامة كما هو مقتضى كل ويدخل فيه من نزلت فيه دخولاً أوليا أي ويل لكل كذاب كثير الآثم ﴿يَسْمَعُ آَيَاتِ اللَّهِ﴾ الجملة صفة بعـد صفة لأفاك ﴿تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ عن قبـول معانيهـا ﴿كَـأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آَيَاتِنَـا شَـيْئًا اتَّخَـذَهَا هُـزُوًا﴾ بـادر الى الاسـتهزاء بالآيـات كلهـا ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَـذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي مـذل محقـر لهم ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي من قـدامهم في مسـتقبلهم جهنم ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ من عذاب الله أو شيئا من الإغناء ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ عطف على ما كسبوا أي ولا يغني عنهم ما اتخذوه أولياء من دون الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا هُدًى﴾ أي هذا القرآن هدى للمكلفين اذا اهتدوا به وآمنـوا ﴿وَالَّذِينَ كَفَـرُوا بِآَيَـاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي من أشد العذاب.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ بأن جعله أملس السـطح ﴿لِتَجْـرِيَ الْفُلْـكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ أي بامر الله ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ أي من اللـه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التصرف البارز البديع ﴿لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15) وَلَقَدْ آَتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16) وَآَتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20)﴾

قوله تعالى ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ حذف المقول لدلالة يغفروا عليه، يعني قل للذين آمنوا اغفروا للذين لا يرجون أيام الله يغفروا. وفي مورد نزول الآية روايات فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في عمر رضي الله عنه، شتمه مشرك بمكة قبل الهجرة فهم أن يبطش به فنزلت. وهذا ظاهر في كونها نزلت بمكة. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر يقال له المريسيعُ، فأرسل عبدالله بن أبي غلامه ليستقي فأبطأ عليه، فلما أتاه قال له: ما حبسك؟ قال: غلام عمر قعد على طرف البئر فما تركَ أحدا يستقي حتى ملأ قرب النبي صلى الله عليه وسلم وقرب أبي بكر رضي الله تعالى عنه.

فقال ابن أبي: ما مثلنا ومثل هؤلاء الا كما قيل: (سمن كلبك يأكلك) فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فاشتمل سيفه يريد التوجه اليه، فأنزل تعالى الآية. وحكاه الإمام عن ابن عباس وهو يدل على أنها مدنية. وروي عن ميمون بن مهران أن فنحاص اليهودي قال لما أنزل الله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ احتاج ربُّ محمدٍ! فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فاشتمل سيفه وخرج فبعث النبي صلى الله عليه وسلم في طلبه حتى رده فنزلت، وهذا أيضا يدل على مدنيتها.

ومعنى الآية قل يا رسولي للذين آمنوا: اغفروا للذين لا يرجون أيام الله، أي لا يتوقعون أن يأتي يوم القيامة وهو يوم الله الذي يجزي فيه الناس حسب أعمالهم ويعصون الله ورسوله، ويتكلمون بالباطل ويشتمون الناس حتى لا يحصل شغب بين الناس، ويأتي يوم الجزاء فينالون عقابهم كما يستحقون، واذا كانت الآية مكية كان هذا الامر لضعف المسلمين اذ ذاك، وكان الرسول يخاف من المقابلة النزاع والفتنة وعذاب المؤمنين. وأما اذا كانت مدنية فالوجه أن هذه الأمور التافهة تقع كثيرا بين الناس لاسيما بين الفريقين المتخالفين فيجب حينئذ السماح وصرف النظر حتى لا يتزلزل النظام ولا يبتلى الناس بالمحن والآلام، وقوله تعالى ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تطمين للمؤمنين بأن الله تعالى لا يهمل شأن أولئك الناس الفاسدين ويجزيهم جزاء حسب أعمالهم، ولا حاجة إلى أخذهم في الدين بالبطش والإيلام. وكذلك قوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي التوراة، وفي الحقيقة أنها هي الموسوعة المفيدة في ذلك العصر لبني اسرائيل وكل أنبيائهم يعملون بها، وزبور داود عليه السلام كان فيه القصص والمواعظ، وأما الأحكام

فكانت كما في عهد موسى عليه السلام. وأما الانجيل فقد كان فيه من الأحكـام الطارئـة ولكنهـا كـانت قليلـة. ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي القضـاء وفصـل الخصومات، وذلك لأن الملك كان فيهم. واختاره أبو حيان، أو الفقه في الدين وخصه بالذكر مع دخوله في التوراة للاهتمام به لوسعة الفقه في الأحكام على عهد موسى عليه السلام. ومنه مـا هـو منصـوص التـوراة، ومنه ما جـرى على لسـان موسـى عليـه السـلام ﴿وَالنُّبُـوَّةَ﴾ حيث كـثر فيهم الأنبياء ما لم يكثر في غيرهم، وسره كـثرة المشـاجرة والمنازعـة وابداء الآراء بينهم فما كان يعالجها الا الأنبيـاء عليهم السـلام ﴿وَآَتَيْنَـاهُمْ بَيِّنَـاتٍ مِنَ الْأَمْـرِ﴾ أي دلائـل ظـاهرة واضـحة تطمئن بهـا القلـوب، أو معجزات تندهش عندها الأعداء، أو آيات ظـاهرة في رحمـة اللـه عليهم كالمن والسلوى عندما كانوا بالتيه ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْـدِ مَـا جَـاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وهذا من سوء الحظ ومن النكبات الأمميـة اذ لا نـزاع بعـد العلم الا من العناد والكفر والاستكبار وذلك دليـل الـدمار للـديار أعاذنـا اللـه. ولذلك عقبه بقوله ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ يعـني كـان الاختلاف ناشـئا من البغي لا من الجهل بالاحكـام وكـانوا يعلمـون الحـق ويعاندونـه ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِـي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَـاكَ﴾ وأنت الرسـول الوحيـد من بـني إسـماعيل من عليهمـا السـلام ﴿عَلَى شَـرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْـرِ﴾ أي أمـر الـدين وأحكامـه الأصـلية والفرعية الاعتقادية والعملية ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ وأمر أمتك تتبعها بنشـر العلمـاء العـاملين واسـتنباطاتهم من المنطـوق والمفهـوم، من عبـارة النص، ودلالة النص، واقتضاء النص، واشارة النص... كمـا أنزلنـا عليـك ﴿فَلَـوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَـةٌ لِيَتَفَقَّهُـوا فِي الـدِّينِ﴾ ويتبعـوا النصـوص الداعية الى الاعتصام والاجماع، وكونوا على حذر من الجمود والجحـود، ولا يغرنهم البساطة

والتنازل والتسافل، فإن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها، واعلموا أن الشيطان وأعوانه لكم بالمرصاد والله عليكم بالمرصاد ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق ويكتفون بما عندهم من الخيالات السافلة والخزعبلات الباطلة، لاسيما الأجانب الذين لا يرقبون فيكم الا ولا ذمة، ويتربصون بكم الدوائر، فإنهم ظالمون، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار. ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ من الاشياء لا في الدين ولا في الدنيا، أما في الدين فظاهر، وأما الدنيا فلأنهم لا ينفعونهم بقيمة درهم حتى ينتفعوا بقيمة دينار ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فالظلم صفة سخيفة واحدة وجريمة كبيرة واحدة وأصحابها أمة واحدة ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وأهل التقوى هم أهل الحق وماذا بعد الحق الا الضلال.

﴿هَذَا﴾ أي هذا القرآن وهذه الشريعة الشريفة ﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ أي أسباب تنوير البصائر فهو كحل لعيون القلوب وشفاء لأهل الامراض والكروب ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي فائزون باليقين.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (22) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)﴾

قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾استئناف سيق لبيان حال المسيئين والمحسنين بعد بيان حال الظالمين والمتقين. وأم منقطعة، والاضراب للانتقال من بيان الى بيان، واجتراح السيئات كسبها بالجوارح، والمراد هنا أعم من ذلك فان أهل الاعتقاد الفاسد ليسوا مع أهل الاعتقاد السليم متساوين. والمعنى أبل حسب الذين اكتسبوا السيئات ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وقوله ﴿سَوَاءً﴾ بدل من الكاف في كالذين فانه بمعنى المثل. و﴿مَحْيَاهُمْ﴾ فاعل سواء بمعنى مستو، و﴿وَمَمَاتُهُمْ﴾ عطف عليه. وقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ انشاء لذم حكمهم بالمساواة بين الفريقين، فانه يعارضه الشرع الإلهي في كل عهد وعصر، كما يعارضه العقل البهي في كل زمان ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي متلبسا ذلك الخلق بالحق. ومعنى تلبسه بالحق موافقته للحكمة ورعاية الإنصاف ومراعاة العدالة في الأمور وقوله ﴿وَلِتُجْزَى﴾ معطوف على مقدر اي ليدل به على قدرته ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ تعجب من أحوال من اتبع الهوى فصار يتبعه كما يتبع الصبي الرضيع ثدي أمه. والهوى ما تحبه النفس من مستلذاتها حقا أو باطلا، وفساد النفس الأمارة وعداؤها للانسان انما هو لانها الأمارة بالهوى، وفيها من ذم اتباع هوى النفس ما فيها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما ذكر الله الهوى الا ذمه، فالهوى اذا توجه الى الحق صار الانسان مؤمنا كاملا. قال صلى الله عليه وسلم ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)) وكفى في مدح تسخيره للحق قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ قال سهل التستري رضي الله عنه: هواك داؤك فان خالفته فدواؤك. فيقول الباري جل شأنه:

أخبرني عن حال ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾

أي اتخذ هواه الها له ومعبودا يطيعه في كل ما يأمر به وينهاه ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ عن سلوك سبيل الخير ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ به، فلو كان جاهلا أمكن أن يكون معذورا، ولكنه عالم واتبع الباطل مغرورا ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ﴾ فلا يسمع آيات الذكر الحكيم ولا مواعظ المرشد السليم ﴿وَقَلْبِهِ﴾ فلا يتفكر في عاقبته ولا يسعى في عافيته ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ غطاء يمنعه عن ابصار ما أمامه من المستوي والمعوج، والشارع المستوي والطريق المنهار فيصل الى شفا جرف هار فينهار به في النار ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ﴾ أي فمن يهدي ذلك الهاوي في نار جهنم ﴿مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ فهل هناك هادٍ أهدى من الله للعباد؟ لا حاشا وكلّا لا يوجد الى يوم التناد ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تلاحظون الأدلة حتى تتذكروا ما ينفعكم في الدارين.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (26) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29) فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (31)﴾

وقوله تعالى ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الضمير ضمير مبهم مفسر بالحياة أي ما الحياة الا حياتنا الدنيا، أي هـذه الحيـاة المعلومـة في هـذا العالم عالم التعب والألم عالم الأكل والشرب والمنام والمقام ولا حياة جديدة في عالم آخر يسمى بعالم الآخرة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي نموت نحن معاشر الآدميين الموجودين فنفنى ولا يبقى منا أثـر، ونحيـا. أي باعتبـار جيـل ينـوب منـاب الأمـوات سـواء كـانوا من أولادهم أو من غـيرهم. والحاصل أنه يعيش جيـل في قـرن فيموتـون، وينبعث جيـل ثـان لقـرن آخـر وهكـذا الى الابـد. وعلى هـذا المعـنى لا يبقى مجـال للقـول بـأن المناسـب أن يقـول نحيـا ونمـوت. ﴿وَمَـا يُهْلِكُنَـا إِلَّا الـدَّهْرُ﴾ أي الزمـان الطويل المستمر﴿وَمَا لَهُمْ بِـذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ مسـتند الى عقـل أو نقـل أي كلام يخرج من الأفواه مستند الى الأوهـام ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ظنـا مـأخوذا من تقليـد آبـاء بنـوا تقليـدهم على تقليـد آخـر، والتقاليـد اذا لم تصـحب نوعـا من البصـيرة آل أمرهـا إلى خيـالات فارغـة.﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ في معارضتها ورفضـها ﴿إِلَّا أَنْ قَـالُوا ائْتُوا بِآَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى البعث بعد الموت. ومعلـوم أن ما جعلوه حجة كخيط العنكبوت لأن الرسول لم يـدع أنـه يـأتي بـالبعث بعد الموت، وانما يقول ان الله يبعثكم فصارت حجتهم داحضة ساقطة، ولذلك قال سبحانه وتعالى ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ابتـداء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عنـد انتهاء الاجل للحياة ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي فيه

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي في ذلك الجمع ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُـونَ﴾ وذلـك سـهل يسـير على اللـه. ﴿وَلِلَّهِ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَـوْمَ تَقُـومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ اذ لا يبقى عندهم أية شـبهة فضـلا عن حجة.

﴿وَتَـرَى كُـلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَـةً﴾ على ركبهـا أي وتـرى كـل أمـة من الأمم المجموعة يـوم القيامـة جاثيـة أي جالسـة على أطـراف أصـابع رجليهـا مستوفرة للحركة والسير الى حيث يساقون اليـه ﴿كُـلُّ أُمَّةٍ تُـدْعَى إِلَى كِتَابِهَـا﴾ أي تـدعى الى محـل خـاص يـؤتى في ذلـك المحـل كتابهـا من اليمين أو الشمال أو الظهور ويقال لهم ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ * هَذَا﴾ الكتـاب الـذي تؤتونـه. ﴿كِتَابُنَـا يَنْطِـقُ عَلَيْكُمْ بِـالْحَقِّ﴾ أي يشـهد عليكم بالحق ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي نأمر كرام الكـاتبين يستنسخون في دقائق الأعمـال مـا كنتم تعملونـه في الـدنيا وليس في ذلـك شـبهة قطعـا. فالكتـاب ينطـق عليكم بـالحق القـويم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِـهِ﴾ أي في جنتـه الـتي هي دار رحمته ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَـرُوا﴾ فيقـال لهم ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آَيَـاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْـتَكْبَرْتُمْ﴾ عن اسـتماعها وقبولهـا ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (33) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (34) ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آَيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَـقٌّ﴾ أي اذا قيـل ان مـا وعـد اللـه تعالى به من الامور المنتظرة التي تـأتي في يـوم القيامـة حـق ﴿قُلْتُمْ﴾ في الجواب لعنادكم: ﴿مَـا نَـدْرِي مَـا السَّـاعَةُ﴾ أي شـيء هي اسـتغرابا واسـتنكارا ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي ان نظن بوجودهـا ووقوعهـا في المسـتقبل الا ظنـا حقـيرا كـاد أن يلتحـق بالتصـورات ﴿وَمَـا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ لها استيقانا يكون أساسا للتقوى ومبـنى للاعـتراف الثـابت بالساعة وما يقع فيها.

ومما ينبغي التنبيـه عليـه أن أمثـال قولـه تعـالى ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ من استثناء المصدر التأكيدي من الفعل مشكل لانه يوجب اسـتثناء الشـيئ من نفسه أي ما ظننت الا ظننت! وأجيب عن هذا الإشكال بأمرين:

الأول تحويل المفعول المطلق التأكيدي الى النوعي بأن يقال في الآيـة الكريمـة: للظن مـراتب مختلفـة بـالقوة والضـعف ويـراد من المصـدر مرتبة مخصوصة مناسـبة للمقـام فيكـون المعـني مـا ظننـا أو مـا نظن بالساعة آتية الا ظنا ضعيفا حقيرا كما مـر آنفـا. فيكـون هـذا المسـتثنى مرتبة واحدة من مراتب المستثنى منه.

والثـاني أن يقـال مـا دام سـياق كلام المتكلم على تأكيـد تحقـق الظن يؤول نظن بنعتقد أي ما نعتقد بالساعة الا اعتقـاد الظن بـالمعنى العـام الشـامل لمـا عـدا اليقين، ومـا نحن بمسـتيقنين للسـاعة، وعلى اليقين يبنى الاعتراف بالساعة وما فيها. ويؤول نحـو مـا ضـربت الا ضـربا بمـا فعلت شيئا الا ضربا وهكذا.

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي وظهر لهم حينئذ ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ في الـدنيا ﴿وَحَـاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي وأحاط بهم جـزاء اسـتهزائهم في الـدنيا بوعود الباري سبحانه وتعـالى ﴿وَقِيـلَ الْيَـوْمَ نَنْسَـاكُمْ كَمَـا نَسِـيتُمْ لِقَـاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي نـترككم في العـذاب كمـا تـركتم أسـباب حصـول لقـاء يومكم هذا ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِـرِينَ﴾ ينصـرونكم ويـدفعون عنكم العـذاب ﴿ذَلِكُمْ﴾ العـذاب ﴿بِـأَنَّكُمُ اتَّخَـذْتُمْ آَيَـاتِ اللَّهِ هُـزُوًا﴾ أي مهـزوءً بـه ﴿وَغَـرَّتْكُمُ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا فَـالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُـونَ مِنْهَـا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم ارضاء الباري لانـه قـد ولى زمـان التوبـة وارضـاء البـارى تعـالى ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْـدُ رَبِّ السَّـمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تقديم الخبر للحصر وعلة اختصاص الحمد به تعالى على كـل الفقرات أن الكل نعمة منه تعالى. والأول أنه رب السماوات التي ينزل منهـا المطـر الـذي من اسـباب الارزاق. والثـاني أنـه رب الأرض الـتي استقر عليها الحامد أيا كان. والثالث أنه مصدر الخيرات والنعم الكثـيرة وأهمها أنه رب حبيبه محمد الذي أرسله رحمة للعالمين ﴿وَلَـهُ الْكِبْرِيَـاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والكبرياء العظمة والملـك. وقال الراغب: الـترفع عن الانقيـاد. ووجـه تخصـيص الكبريـاء بـالأمرين ظهور آثاره فيهما. ونسـأله أن يسـترنا بسـتار كبريائـه عن الابتلاء بشـر أعدائه، وأن يتعمدنا برحمته وآلائه أنه سميع قريب مجيب.

الجزء السادس والعشرون

<113>

سورة الأحقاف، مكية وآياتها خمس وثلاثون

نزلت بعد الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (6)﴾

قوله ﴿حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ الكلام فيه ما في نظائره ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات المكشوفة لحد الآن أو غير المكشوفة ﴿إِلَّا﴾ خلقا متلبسا ﴿بِ﴾ رعاية ﴿الْحَقِّ﴾ العدل

والحكمــة، ومن الحكمــة الاعــتراف بخالقهــا المســيطر على الوجــود والفياض بالجود ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ باللـه وصـفاته وآثـاره المسـتندة اليـه ﴿عَمَّا أُنْذِرُوا﴾ به ﴿مُعْرِضُونَ﴾ فان الكافر بالذات كافر بالصفات وبالآثار في الكائنات وبطبيعة كفرهم يُعرِضون عن كل ما أنـذروا بـه من البعث للحساب والميزان ودخول النار أو الجنـة مـع الابـرار الى غـير ذلـك من الأمور التي وردت بها الآيات ﴿قُلْ﴾ يا رسولي لهم توبيخا ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أيهــا المشــركون ﴿مَــا تَــدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصــنام والنــار وســائر المعبودات الباطلة ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ترابها أو أحجارهـا معادنهـا أو نباتها أو حيوانها ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أضرب عما تقدم في الأرض هل لهم نصيب مع اللـه سـبحانه في السـماوات ذواتهـا الاثيريـة الخالصة أو كواكبها الدرية الثابتة أو السيارة، أو ما في أي كـوكب منهـا من الأجزاء النافعة والنابعة ﴿اِئْتُـونِي﴾ ان كنتم على بصـيرة في أمـركم ﴿بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ القرآن الناطق بالتوحيد فيه ما تـدعون، أو ان لم يكن لكم كتـاب فـأتونى بـ﴿أَثَـارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بقايـا من علم العلمـاء والحكماء السابقين تعتمدون عليه فيما تتوجهون اليه من الإشـراك. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في مبادئكم ومقاصدكم، فإن الإنسان الصادق مع نفسه أو غيره يجب أن يعتمد في اعتقاده وأقواله وأفعاله على نقـل مسـتقيم أو علم من عقل سليم والا فهو مريض سـقيم، وكـل مـا يدعيـه عاطـل عقيم.

واذا علمنا أنه ما عنـدهم مـدرك من المعقـول والمنقـول فـاعلموا أنهم أهل ضلالة لا ضلالة فوقهـا ﴿وَمَنْ أَضَـلُّ مِمَّنْ يَـدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ في مطلب ولا يؤويه في مهرب من يومنا هـذا ﴿إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَةِ وَ﴾ الحال أنـ ﴿ـهم﴾ أي الذين يدعونهم ﴿عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ لا يسـمعون ولا يبصـرون ولا يفهمـون ولا يعقلـون. وهـذا الـذي ذكرنـا من أحــوال شــركائهم في الــدنيا ﴿وَإِذَا حُشِـرَ النَّاسُ﴾ عنـد قيـام السـاعة ﴿كَانُوا﴾ أي الشركاء المعبودون ﴿لَهُمْ﴾

أي للمشـــركين العابـــدين كـــافرين مكـــذبين ﴿أَعْـــدَاءً﴾ ألـــداء ﴿وَكَـانُوا بِعِبَادَتِهِمْ﴾ لهم ﴿كَافِرِينَ﴾ منكرين مكذبين. قالوا لهم: ماعبـدتمونا وانمـا عبـدتم النفس والشـيطان والهـوى، ومـا كنـا طـالبين منكم أي تـذلل وسجود.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِلْحَـقِّ لَمَّا جَـاءَهُمْ هَـذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) أَمْ يَقُولُـونَ افْتَـرَاهُ قُـلْ إِنِ افْتَرَيْتُـهُ فَلَا تَمْلِكُـونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَـا تُفِيضُـونَ فِيـهِ كَفَى بِـهِ شَـهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُـوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَـا يُفْعَـلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (9) قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَـاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْـرَائِيلَ عَلَى مِثْلِـهِ فَـآَمَنَ وَاسْـتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ (10) وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُـوا لَـوْ كَـانَ خَيْـرًا مَـا سَـبَقُونَا إِلَيْـهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَـدُوا بِـهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَـابُ مُوسَـى إِمَامًـا وَرَحْمَـةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِـنِينَ (12)﴾

قولـه تعـالى ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَـا بَيِّنَـاتٍ﴾ أي واضـحات وموضـحات للطريق ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي في رد ذلـك الحـق ﴿لَمَّا جَـاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي ظـاهر لا شـك في كونـه سـحرا. وانمـا قـالوا ذلـك لانهم لما عجزوا عن معارضـته وهم من العـرب العربـاء ظنـوا أن ذلـك مقرون بسر مانع

للنـاس عن مقابلتـه، وهـذا أيضـا يـدل على جهلهم بالحقـائق، والا كـان الاقـرب الى العقـل أن يتفكـروا في أسـلوبه المخـالف لأسـلوب كلام النـاس، وبـذلك كـانوا يصـلون الى الايمـان بأنـه كلام اللـه تعـالى ﴿أَمْ يَقُولُـونَ افْتَـرَاهُ﴾ أي كـذب على اللـه ﴿قُـلْ إِنِ افْتَرَيْتُـهُ﴾ على الفـرض والتقـدير ﴿فَلَا تَمْلِكُـونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَـيْئًا﴾ أي فـان اللـه يعـاقبني على افترائي عليه كما قال سبحانه وتعالى ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيـلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ واذا عاقبني فلا طاقة لكم على الدفاع عني وترونني من الهالكين أمامكم، فكيف أنا مـع علمي بـذلك أتجاسـر على الافـتراء على الله؟ ولما ردهم وعارضهم بذلك قال ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ بالذي تخوضون فيه من القدح في ذاتي وفيما يوحى الى من كلامه، ولا شك أن الله لا يهملكم وان امهلكم مدة من الزمان ﴿كَفَى بِهِ﴾ أي بالله العليم ﴿شَـهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ حيث يشـهد لي بالصـدق والبلاغ والبيـان، وعليكم بالكذب والعناد والكفـران ﴿وَهُـوَ الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ﴾ لكم اذا تبتم ورجعتم اليه.

﴿قُلْ﴾ يـا رسـولي لهم: ﴿مَـا كُنْتُ﴾ أنـا ﴿بِـدْعًا مِنَ الرُّسُـلِ﴾ أي شخصـا مبتدعا مخالفا لسيرتهم وأعمالهم وآمالهم وآدابهم فقد سمعتم أنه جـاء الرسل، وأوضـحوا السـبل، وبلغـوا للكـل حسـب نطـاق رسـالتهم، وأنـا جئتكم على ذلـك المنهـاج أبلغكم رسـالة ربي أن آمنـوا بـه ووحـدوه واعبدوه ﴿وَمَا أَدْرِي مَـا يُفْعَـلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ في الـدارين على التفصـيل وان اخبرت من الله تعالى بأني وأصحابي منتصرون، وأن نـور اللـه يتم ولو كـره الكـافرون، وأننـا نـدخل الجنـة في الآخـرة، وأن الكـافرين هم أصحاب النار ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ في أعمالي وحركاتي ﴿إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَـا إِلَّا نَـذِيرٌ﴾ لاهـل العصـيان بالعقـاب، ولاهـل الطاعـة بـالثواب، وانـذاري وتبشيري وارد حسب الوحي المبين.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ أي ما يوحى إلي ﴿مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ﴾ ولم يكن سـحرا ولا مفترى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ أي على مثل مـا أوحي الي من القرآن حسـب مـا أخـذه من التـوراة من التوحيـد وبعث الرسول العربي في آخـر الزمـان، وأنـه خـاتم النبـيين ﴿فَـآَمَنَ﴾ أي بمـا أوحي إلي مع أنـه ليس من قـومي ﴿وَاسْـتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم وكفـرتم بـه مـع أنكم من قومي وبني جلدتي. وجواب الشرط وهـو ألا يتـبين أنكم قـوم ظالمون محذوف بقرينة قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي كفـار مكـة أي في شـأنهم ولاجلهم: ﴿لَـوْ كَـانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي لو كان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حقا وسعادة للبشر وسائر المكلفين ما سبقونا اليه أي ما سبقنا محمـد وأتباعه اليه، ولا يعلمون أن الملازمة في كلامهم ممنوعة لان الخير من الرسـالة وغيرهـا عائـد الى اللـه وفي تصـرفه. وهـو أعلم حيث يجعـل رسالته والقرآن والدين خـير، ويختص بـه محمـدا وأتباعـه ولا يؤتيـه من عاند الحق وأشياعه ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِـهِ﴾ أي بـالقرآن ﴿فَسَـيَقُولُونَ هَـذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَـى إِمَامًـا وَرَحْمَـةً﴾ أي أن الكفـار المشركين يعاندون الحق من التـاريخ الثـابت ويعتـبرون دعـوى الـوحي والرسالة افكا قديما وكذبا دارجا في العهود السـابقة مـع أنهم يعلمـون علما قطعيا أنه كان كتاب موسى وهو التوراة من قبـل القـرآن الكـريم والناس يعلمون أنه كان لذلك الكتاب دور مهم في العالم، وكان موسى اماما للمهتدين ورحمة لاهل الدين كمـا كـان كتابـه امامـا لسـائر الكتب النازلة بعده ورحمة للمسلمين في عهده، وهذا أمر محقـق لا ينكـره الا المعانـدون ﴿وَهَـذَا﴾ القـرآن الـذي نـزل ويقولـون في شـأنه انـه كـذب مفترى كلام صدق وحق و﴿كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسـى وسـائر الكتب ﴿لِسَـانًا عَرَبِيًّا﴾ أي ذا لسـان عـربي ﴿لِيُنْـذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُـوا﴾ أنفسـهم بالاشراك بربهم وظلموا

الكعبة الشريفة بتحويلها من بيت التوحيد الى بيت الاشراك، وظلموا الناس لمنعهم عن الاهتداء بالدين المبين، ومع ذلك كله فهـ ﴿وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الى أنفسهم بالتوحيد والى الناس بنشر الدين المجيد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (14) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (19)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي ان الذين جمعوا بين الاعتقاد السليم والدوام على ذلـك الاعتقـاد مـع الأعمـال الصـالحة ﴿فَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحــوق مكــروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُـونَ﴾ من فــوت محبــوب معنــاه أن العبــاد المؤمــنين المســتقيمين على الحــق تـأتيهم البشرى عند الموت بالعافية في العاقبة فلا يرد عليهم بعـد ذلـك خـوف من المحــاذير المســتقبلة ولا حــزن على فـائت، لانهم يسـتغنون بهـذه البشـارة ويكتفـون بهـا ﴿أُولَئِكَ أَصْـحَابُ الْجَنَّةِ خَالِـدِينَ فِيهَـا جَـزَاءً﴾ أي يجزون جزاء ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الحسنات الاعتقادية والعملية.

﴿وَوَصَّـيْنَا الْإِنْسَـانَ بِوَالِدَيْـهِ إِحْسَـانًا حَمَلَتْـهُ أُمُّهُ كُرْهًـا﴾ أي حملا ذا كـره ومشقة وتعب ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي وضعا ذا كره ومشقة وألم ﴿وَحَمْلُـهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ منها أربعة وعشرون شهرا للرضاع لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَـامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَـاعَةَ﴾ ﴿حَتَّى إِذَا بَلَـغَ أَشُـدَّهُ﴾ أي فعـاش واسـتمر حـتى اذا بلـغ واكتهـل وبلـغ أربعين سـنة ﴿قَـالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي وفقني ورغبني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَـكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِـدَيَّ وَأَنْ أَعْمَـلَ صَـالِحًا تَرْضَـاهُ وَأَصْـلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي اجعـل الصلاح ساريا مستمرا في ذريتي ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عما لا ترضـاه ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْـلِمِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَــنَ مَــا عَمِلُــوا﴾ من الطاعات ﴿وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَـيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْـحَابِ الْجَنَّةِ وَعْـدَ الصِّـدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ على لسان الرسـول. والآيتـان نزلتـا في شـأن أبي بكـر الصديق رضي الله تعالى عنه.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾ عند دعوتهمـا لـه الى الايمـان ﴿أُفٍّ لَكُمَـا﴾ اسـم مبني على الكسر مبتدأ ولكما خبر، وأف اسم صوت يصدر عن الانسان عند تضجره ﴿أَتَعِـدَانِنِي﴾ اتعطيـانني الوعـد ﴿أَنْ أُخْـرَجَ﴾ من القـبر بعـد المـوت ﴿وَقَـدْ خَلَتِ الْقُـرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أي مضـت القـرون ولم يخـرج واحد منهم منه

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ أي يقولان الغياث بالله تعالى منك، ومن كلامك، قائلين له: ﴿وَيْلَـكَ آَمِنْ﴾ وأصـل ويـل الـدعاء بـالثبور يقـام مقـام الحث والـترغيب على الفعـل المقصـود للمتكلم، أي خـذ ويلـك ان لم تفعـل، وآمِن فعل أمـر من آمن يـؤمن ايمانـا مشـتق من تـؤمن بحـذف حـرف المضارعة، واعادة همزة القطع المحذوفة وتخفيف الهمزة الثانية بقلبها ألفا وبنائها على السكون ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ أي بالبعث بعـد المـوت ﴿حَـقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَـاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَـقَّ عَلَيْهِمُ الْقَـوْلُ فِي أُمَمٍ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ الكـافرين ﴿إِنَّهُمْ كَـانُوا خَاسِـرِينَ (18) وَلِكُـلٍّ دَرَجَـاتٌ مِمَّا عَمِلُـوا﴾ أي ولكـل من الفـريقين درجـات ممـا عملـوا من النبـيين الى الصـديقين الى الشـهداء والى الصالحين. وكذا لأهل الكفر دَرَكات في جزاء كفرهم وجزاء مـا عملـوا، فالكفر قدر مشترك، وأما باقي الأعمال السـيئة فلهـا حسـاب، فعـذاب الكـافر المسـتور في زاويـة تخـالف جـزاء كـافر داعٍ إلى الفسـاد، داعٍ للباطل، حيال على الأمم، دساس على البلاد والعباد، يُعذب الناس أشد التعـذيب، ويخـرب البلاد أقسـى تخـريب. وكـل من أفـراد الكـافرين اي مقدار من العذاب قرر له لا يخفف ذلـك عنـه قليلا أو كثـيرا ﴿وَلِيُـوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثـواب لمن أثيب أو زيـادة عـذاب لمن عذب وهو الحكم بل أحكمُ الحاكمين.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الـدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20) وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (26) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي اذكر يوم يعذب الذين كفروا بالنار: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ أي فيقال لهم في مقام اللوم والتوبيخ على غفلتهم عن الآخرة: أذهبتم حصتكم من الطيبات في حياتكم الدنيا لانكم استوفيتموها وما تركتم مشتهى الا وأخذتم منه شيئا ﴿وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ فلم يبق لكم منها للآخرة ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾

أي عذابا هو الهوان والحقـارة والـذل ﴿بِمَـا كُنْتُمْ تَسْـتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بغير اسـتحقاق لـذلك ﴿وَبِمَـا كُنْتُمْ تَفْسُـقُونَ﴾ أي تخرجـون من طاعة الله أي بسبب استكباركم وفسقكم المستمرين.

﴿وَاذْكُرْ﴾ لكفار مكة ﴿أَخَا عَادٍ﴾ وهو هـود عليـه السـلام ﴿إِذْ أَنْـذَرَ قَوْمَـهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ جمع حقف وهو رمل مستطيل فيه اعوجاج يقال:

إحقوقـف الشـيئ اذا اعـوج، وكـانوا بـدويين بين اصـحاب خبـاء وعمـد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشـجر من بلاد اليمن ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ أي الرسل ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ﴾ أي من قبلـه عليـه السلام ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ فقد كان قبلـه نـوح وبعـده صـالح عليهمـا السـلام قائلا لهم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَـافُ عَلَيْكُمْ عَـذَابَ يَـوْمٍ عَظِيمٍ (21) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أي لتقلبنا وتحولنـا ﴿عَنْ﴾ عبـادة ﴿آَلِهَتِنَـا﴾ الأصـنام ﴿فَأْتِنَـا بِمَـا تَعِـدُنَا﴾ من معاجلـة العـذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّـادِقِينَ﴾ في وعيدك وتهديدك لنا بنزوله اذا بقينا على الاشـراك. ﴿قَـالَ﴾ هـود: ﴿إِنَّمَـا الْعِلْمُ﴾ أي بـوقت نـزول العـذاب ﴿عِنْـدَ اللَّهِ﴾ وحـده لا علم لي بـذلك ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ ومن أدلة ذلـك أنكم تسـتعجلون عليّ مـا ليس من شأني ولا قدرة لي عليه ولا ادعيته.

وقوله ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًـا مُسْـتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي فأتـاهم العـذاب فلمـا رأوه عارضا أي سحابا مستقبل أوديتهم أي متوجـه أوديتهم ﴿قَـالُوا هَـذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ ولنا فيه منفعة ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِـهِ﴾ من العـذاب ﴿رِيحٌ فِيهَـا عَـذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُـدَمِّرُ كُـلَّ شَـيْءٍ﴾ من الخيـام والـبيوت والأعمدة المسـتحكمة ﴿بِـأَمْرِ رَبِّهَـا فَأَصْـبَحُوا لَا يُـرَى إِلَّا مَسَـاكِنُهُمْ﴾ أي فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصـبحوا لا يـرى إلا مسـاكنهم ﴿كَـذَلِكَ نَجْـزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ أي قررنا وأحكمنا قوم عاد ﴿فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي في شيء من القوة والسلطة والنفوذ ما

مكنـاكم فيـه يـا قـوم قـريش، فـأنتم في الـثرى وهم في الثريـا، فـإن معيشتكم على كد الأكتـاف، وتجـارة الأطـراف، والـبيوع والاستسـلاف، وليس لكم إدارة ولا مَلك من الأشـراف، وهم كـانوا دولـة عاديـة يمنيـة ترضخ لها الأطراف والأكناف، وكانوا مسيطرين على البحر عنـد جنـوب اليمن، وكان لهم نفوذ على البحر، وكانوا أهل عمـارات لم يخلـق مثلهـا في البلاد ﴿وَجَعَلْنَـا لَهُمْ سَـمْعًا وَأَبْصَـارًا وَأَفْئِدَةً﴾ أي كـانوا أهـل شـعور وإحســاس وإدراك يســتفيدون من النظــر العقلي كمــا اســتفادوا من المشاعر والحواس ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَـمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَـارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ﴾ وأحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي وأحاط بهم جزاء إنكار حق والهزء بحق من الرسـالة والقرآن وأحكامه كانوا به يستهزءون.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَـوْلَكُمْ مِنَ الْقُـرَى﴾ كحجـر ثمـود، وقـرى قـوم لـوط، ومدين شعيب وسائر القرى التي تمرد فيهـا سـكانها ﴿وَصَـرَّفْنَا الْآَيَـاتِ﴾ أي كررناها وغيرناها وبدلنا آية بآية ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْلَا نَصَـرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَــذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي فهلا نصــرهم أولئــك الأصــنام الــتي اتخذوها من دون الله ﴿قُرْبَانًا آَلِهَةً﴾ أي آلهـة متقرّبـا بهـا إلى اللـه ﴿بَـلْ ضَـلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي بـل فقـدوهم فلم يبـق أثـر ﴿وَذَلِـكَ إِفْكُهُمْ وَمَـا كَـانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ضلال آلهتهم عنهم اثر افكهم وافترائهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ أي وجَّهنا إليك وأمَلناهُم ورغبناهم في الاقتراب منك والاستماع لما أوحي إليك من القرآن والانتفاع به ﴿نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ أي جمعا منهم. والنفر ما بين الثلاثة إلى العشرة، والنفر من النفير أي الخروج إلى المهمات، فإن القوم إذا داهمهم أمر خطير خرج جمع منهم للمدافعة والمكافحة. والجن أمة خلقها الله تعالى قبل الإنسان، وأبوهم (الجان) خلق من مادة نارية أي أكثر عناصرها النار، وهم جسم لطيف يقبل التشكل بأشكال مختلفة يتوالدون ويتناسلون، وأرسل إليهم الرسل إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وإرساله إليهم معلوم من الدين بالضرورة وإنكار ذلك كفر واضح، ومنهم المؤمن والكافر، ومن المؤمنين أمثال ما في البشر من الأولياء والصالحين والعلماء العاملين، كما أن منهم العامة الفسقة. ومن الكافرين فئة متمردة يسمّون بالشياطين. وإن

الشيطان المعروف بالمنكرات منهم، ولقب بابليس لأن من شأنه الإغواء والتلبيس للباطل بالحق والحق بالباطل.

وفي القرآن الكريم ذكرهم في عدة مواضع، وفي سورة الجن ذكر دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لهم إلى الإسلام، وقد آمن به كثير، وكالانس منهم المؤمن ومنهم الكافر قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ وأن ذلك النفر كانوا من جن نينوى أو نصيبين في ديار بكر جاءوا إليه بوادي النخلة على مسافة ليلة من مكة المكرمة. فقد أخرج أحمد وعبد بن حميد والشيخان والترمذي والنسائي وجماعة عن ابن عباس قال: انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء؟ فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو وأصحابه بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو عليه الصلاة والسلام يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له هذا والله للذي حال بيننا وبين خبر السماء. فهناك حين رجعوا إلى قومهم.

وفي رواية ابن المنذر عن عبد الملك: أنهم ﴿لَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وفرغ صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ مؤمنين لم يشعر بهم حتى نزل ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ إلى ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وأولئك النفر كانوا سبعة ولما ولوا منذرين إلى قومهم جاءوا وافدين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثمأة، فانتهوا إلى الحُجُون فجاء واحد منهم واسمه الأحقب فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

إن قومنا قد حضروا الحجون يلقونك. فواعـده رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم لساعة من الليل بالحجون.

وفي وفادة الجن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم روايـات. وذكـر الشهاب الخفاجي أنه قد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن كانت ست مرات ويجمع بذلك اختلاف الروايات في عددهم وفي غير ذلـك، وقولـه تعالى ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي قراءته صلى الله عليه وسلم للقرآن في صلاة الصبح كما ذكرنا ﴿فَلَمَّا حَضَـرُوهُ قَـالُوا أَنْصِـتُوا﴾ أي فلمـا حضـروا قراءته للقرآن قال بعضـهم لبعض: انصـتوا أي اسـكتوا لسـماعه ﴿فَلَمَّا قُضِـيَ﴾ أي تم وفـرغ صـلى اللـه عليـه وسـلم عن قراءتـه ﴿وَلَّوْا إِلَى قَـوْمِهِمْ مُنْـذِرِينَ﴾ أي مقـدرين إنـذارهم لهم عنـد وصـولهم إليهم. ولمـا وصلوا قـالوا: ﴿يَـا قَوْمَنَـا أَجِيبُـوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أرادوا بـه مـا سـمعوه من القرآن والداعي إلى الله هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآمنــوا به وبما جاء به من عند الله تعالى واعملـوا بـه ﴿يَغْفِـرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُـوبِكُمْ وَيُجِـرْكُمْ مِنْ عَـذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِـزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَـهُ مِنْ دُونِـهِ أَولِيَـاءُ﴾ ينصـرونه من العـذاب ﴿أُولَئِكَ فِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ * أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ﴾ أي لم يتعب ﴿بِخَلْقِهِنَّ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَـوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وبكل شيء خبير بصير.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَـرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَـذَا بِـالْحَقِّ﴾ أي ليس هـذا العـرض على النـار المعـدة للعـذاب حقّـا؟ ﴿قَـالُوا بَلَى وَرَبِّنَـا﴾ تصـديق بحقيقته ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب استمراركم على الكفر في الدنيا ﴿) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الفـاء واقعة في جواب شرط مقـدر أي إذا كـان الإرشـاد لا ينفـع أهـل العنـاد فاصبر على ما يصيبك من جهتهم ليزداد أجرك عند الله كمـا صـبر أولـو العزم من

الرسل للغاية عينها. والعزم يطلق على الجد والاجتهاد في الشيئ وعلى الصبر عليه. واختلف في عدتهم وتعيينهم على أقوال فقال الحسن بن الفضل ثمانية عشر وهم المذكورون في سورة الأنعام لأنه سبحانه وتعالى قال بعد ذكرهم ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ وقيل: تسعة نوح لصبره على أذى قومه طويلا، وإبراهيم لصبره على الإلقاء في النار، وإسماعيل لصبره على الذبح، ويعقوب لصبره على فقد يوسف، ويوسف لصبره على البئر والسجن، وأيوب لصبره على البلاء، وموسى لصبره على إلحاح قومه القائلين إنا لمدركون فقال إن معي ربي سيهدين، وداود لصبره واستقامته على حرب أعدائه، وعيسى لصبره على أذى اليهود حتى أرادوا صلبه فرفعه الله تعالى.

وقال الجلال السيوطي: الأصح أنهم خمسة: نوح، وابراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أي لكفار مكة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي من العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ أي في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ لما يشاهدون من شدة العذاب ﴿بَلَاغٌ﴾ أي هذا الذي يجب عليك هو البلاغ أي وصول القرآن الى المكلفين وقد بلغت بالحق ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن اطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

جاء في بعض الآثار أن هذه الآية لها خاصية في قضاء الحوائج. أخرج الطبراني في الدعاء عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اذا طلبت حاجة وأحببت أن تنجح فقل: لا اله الا الله وحده لا شريك له العلي العظيم، لا اله الا الله وحده لا شريك له الحليم الكريم، بسم الله الذي لا اله الا هو الحي الحليم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها، كأنهم يوم

يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهـل يهلـك الا القـوم الفاسـقون. اللهم اني أسـألك موجبـات رحمتـك، وعـزائم مغفرتـك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بِرٍّ، والفوز بالجنـة، والنجـاة من النـار، اللهم لا تـدع لي ذنبـا الا غفرتـه، ولا همـا الا فرجتـه، ولا دينـا الا قضيته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة الا قضـيتها برحمتـك يـا أرحم الـراحمين. وصـلى اللـه على سـيدنا محمـد وعلى آلـه وصـحبه أجمعين وأتباعـه بإحسـان إلى يـوم الـدين. وآخـر دعوانـا أن الحمـد للـه رب العالمين.

سورة محمد، مدنية وآياتها ثمان وثلاثون

نزلت بعد سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3)﴾

هذه السورة مدنية إلا آية ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ إلى آخرها، فانها نزلت بعد أن خرج صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الغار وتأسف على فراقها.

وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الذين أعرضوا عن الإسلام ﴿وَصَدُّوا﴾ الناس بقدر امكانهم ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي جعلها ضائعة غير مفيدة كمن

ضاع في مفازة لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آمنوا بالله وعملوا الصالحات ﴿وَآَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ من القرآن وخصه بالذكر مع اندراجه في الإيمان بالله بناء على أن الإيمان به كان بسبب دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم اهتماما بمقامه وتنويها بشأنه الشريف، ويؤكده قوله تعالى ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ والموصول مبتدأ وخبره ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي سترها بالايمان والعمل الصالح ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي حالهم في الدارين، أما في الدنيا فبالبصيرة الحاصلة له من التزام نظام الحق، وأما في الآخرة فبالخلود في الجنة والرضوان ﴿ذَلِكَ﴾ الأمر المذكور من اختصاص كل من الفريقين بما خص به ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ وهو سيرة الهوى ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾ النازل ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الذكر الوارد هنا ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي يذكر الله للناس أحوالهم ومآلهم.

﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8)﴾

﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ يعني بعد أن ظهر لكم حال المؤمنين ورشادهم وحال الكافرين وعنادهم وأرادوا أن يناجزوكم، فإذا لقيتم الذين كفروا وهم مستعدون لضربكم فضرب الرقاب أي فبادروا بالعمل واضربوهم ضرب الرقاب ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ﴾ أي أكثرتم فيهم من القتل وتمكنتم من الاستيلاء عليهم ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أي فأسروا من بقي منهم غير مثخن، واحفظوهم وراعوهم بالتداوي والاطعام على العادة بما في الامكان ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أي فاما تمنون عليهم منا بلا شيء وتطلقون سراحهم على أن يبقوا أحرارا في ذمة المسلمين يعطون الجزية كما فعل عمر رضي الله عنه ذلك في أهل السواد، إلا أسارى مشركي العرب والمرتدين، فانهم لا يقبل منهم جزية، ولا يجوز استرقاقهم بل الحكم فيهم اما الاسلام أو السيف، وان اسلم الأسرى بعد الاسر فلا يجوز قتلهم لاندفاع شرهم بالاسلام، ولكن يجوز استرقاقهم، فان الاسلام لا ينافي الرق جزاء على الكفر الأصلي، والحال أنه وجد بعد انعقاد سبب الملك وهو الاستيلاء ﴿وَإِمَّا﴾ تفدون ﴿فِدَاءً﴾ أي تسلمونهم الى أميرهم، أو ترجعونهم الى دارهم فدية لاجل استرجاع الأسرى المسلمين عندهم.

ويجوز أيضا اطلاق سراح الأسرى في مقابل فدية يأخذها منهم الامام حسب مصلحة المسلمين في ذلك. وكما يجوز للامام أن يبقيهم ويسترق الرجال والنساء ويقسمهم بين المحاربين يجعل الكل خمسة أقسام أربعة للمحاربين، وقسم واحد لبيت المال على ما قسمه الله تعالى في القرآن.

ومسألة استرقاق الكافرين فرع لعادة مستمرة ابتدأت من فجر التاريخ الى عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. فكان الغالب من المتحاربين يسترق جانب المغلوب رجالا ونساء، فاذا وقعت أية امرأة في سهم أي محارب تكون مملوكة له ملك اليمين، ويجوز له أن يعتقها ثم يتزوجها كسائر الحرائر،

ويكون لها نكاح وطلاق على الأصول. ويجوز أن لا يتزوجها بل يجامعها بقوة ملك اليمين، لأن الله جعل نكاحها في تملكها كما جعل نكاح الحرائر بالتلفظ بالإيجاب والقبول والشهود والصداق للمرأة. ولما جاء دور الاسلام ما كان ممكنا ابطال هذه القاعدة المقررة من قديم الزمان والغاؤها حيث كان هناك عبيد وجوار للمالكين يعيشون في البيوت كأفراد العائلة وطردهم عنها ليكتسبوا ويعيشوا بأنفسهم كان في ذلك العصر جد عسير عليهم ولكن الاسلام قرر لعتقهم واطلاق سراحهم ليعيشوا أحرارا ستة وثلاثين أصلا شرعيا.

منها: عتق الرقبة في كفارة اليمين، وفي كفارة الظهار، وفي كفارة القتل وفي كفارة الافطار بالجماع في رمضان. إلى غير ذلك من الأصول يطلع عليها المراجع المتتبع للامور ومع ذلك احترمهم الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: ((إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، أطعِموهم مما تطعمون واكسوهم مما تكسون، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون، فان كلفتموهم فأعينوهم)) وأعتقد أنه لو بقي الرسول صلى الله عليه وسلم الى عمر سبعين كان يؤول الامر الى زوال الرق الا ما شذ.

وقوله تعالى ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ غاية للمقررات السابقة، والأوزار بمعنى وزر بمعنى الثقل، والمقصود حتى تنتهي الحرب، وأهمل استعمال آلاتها ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك الذي نزل ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي لانتقم من الكافرين بإبادتهم بدون حرب ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي ولكن أمركم بالقتال ليختبر بعضكم ببعض ويظهر من الذي يحارب ويجاهد في سبيل اعلاء كلمة الحق ومن الذي لا يحارب أو يحارب لغاية أخرى ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي لا يضيعها أبدا بل هي تثبت في دفتر أعمالهم ويجزون عليها في مآلهم ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي سيرشدهم في دار الآخرة إلى مقر استراحتهم ونيل ثوابهم ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾

أي شأنهم بإعلان كرامتهم ﴿وَيُـدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ المخصوصـة المهيـأة لهم و﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي يجعل عليها علامات واضحة بحيث يعـرف كـل محلـه ومنزله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ وتجتهدوا وتجاهدوا في سبيل اعلاء كلمتـه ﴿يَنْصُـرْكُمْ﴾ على أعـدائكم بـالتوفيق على اعـداد العـدة، واتحـاد الكلمة، واطاعـة أولي الأمـر، وتحقيـق المشـورة في المخـاطر، وخلـق المشاكل لـدى أعـدائكم، وتشـتيت قلـوبهم، وتضـعيف كـروبهم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْـدَامَكُمْ﴾ عنــد اللقــاء فتكونــون كالحديــد المغــروز في الأرض ولا تـتزلزلون أمـام الأعـداء ولا تهتمـون بمـا تسـمعون من أسـباب الخـذل وضعف الهمة حتى تنالوا احدى الحسـنيين. ﴿وَالَّذِينَ كَفَـرُوا فَتَعْسًـا لَهُمْ وَأَضَــلَّ أَعْمَــالَهُمْ﴾ والتعس الهلاك، وانتصــابه على المصــدرية لفعــل محذوف واجب الحذف لانه للدعاء كسقيا ورعيا أي فتعســوا تعسـا لهم أي فهلكوا هلاكا لائقا بهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَـطَ أَعْمَـالَهُمْ (9) أَفَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُــرُوا كَيْــفَ كَــانَ عَاقِبَــةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَـوْلَى لَهُمْ (11) إِنَّ اللَّهَ يُـدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَـامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَـةٍ هِيَ أَشَـدُّ قُـوَّةً مِنْ قَرْيَتِـكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُـونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِـنٍ وَأَنْهَـارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُـهُ وَأَنْهَـارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَـرَاتِ وَمَغْفِـرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُـوَ خَالِـدٌ فِي النَّارِ وَسُـقُوا مَـاءً حَمِيمًـا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15)﴾

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي ذلك الاضلال للاعمال والخـزي في المآل بسب أنهم كرهـوا مـا أنـزل اللـه من القـرآن وقـد أنزلـه لارشـاد العقل الى السعادة ﴿فَأَحْبَطَ﴾ الله جزاء لهم ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ ثم أخذ البـاري على لطفـه الجـاري ينصـحهم ويقـول: ﴿أَفَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي أرض ديار العرب حواليهم ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الفاسدة الكارهة لـدين اللـه ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي دمـر اللـه دورهم عليهم ﴿وَلِلْكَـافِرِينَ﴾ النـاهجين منهجهم ﴿أَمْثَالُهَـا * ذَلِـكَ﴾ الأمـر المنتج لنتيجـة الفـرق بين الفـريقين ﴿بِـأَنَّ اللَّهَ مَـوْلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ فينصرهم ويدفع ما حل بهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ بمتاع الدنيا بلا مراعاة للآخرة ﴿وَيَـأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ من الأشـواك والاوراد، ومن الانجـاس والأقـذار، ومن الكسـب والغصـب، ولا ينظـرون إلى الحـق، ولا يتبعـون مـا أنـزل اللـه فعاقبتهم العذاب ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي موضع اقامة لهم يقيمون فيهـا مع العذاب الذي أعد لهم حسب ما تناسـب النفـوس الشـريرة وتكفيهـا ﴿وَكَـأَيِّنْ مِنْ قَرْيَـةٍ﴾ ظالمـة ﴿هِيَ أَشَـدُّ قُـوَّةً مِنْ قَرْيَتِـكَ الَّتِي أَخْرَجَتْـكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾

وستكون عاقبة أهل قريتك كعاقبة أهالي تلك القرى إذا لم يرجعـوا إلى ربهم ومولاهم.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي فمن كان على شـهود عـدول تشـهد بحقية اعتقاده وعمله وتلك الشهود جاءته من ربـه كالآيـات النازلـة من الله على الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَـهُ﴾ من النفس وهواها والشيطان الذي أغواها ﴿سُـوءُ عَمَلِـهِ﴾ من الإشـراك والفسـوق وما والاهـا فاسـتمروا في اتبـاع شـهواتهم ﴿وَاتَّبَعُـوا أَهْـوَاءَهُمْ﴾ وجـواب الاستفهام موكول الى أولى الأفهام، وهو أنه ليس بين الفريقين الا كمـا بين المشرقين، أولئك الأولون من صفوة المختار وأولئـك الآخـرون من شر الأشرار، ولذلك يجزي الأولون بالجنة والاخرون بالنـار ﴿مَثَـلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أنها جنة ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِـنٍ﴾ لم يتغـير لا طعمه ولا لونـه ولا ريحـه ﴿وَأَنْهَـارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُـهُ﴾ لم يحمض ولم يصر قارصا شديد الحموضة، ولا حـاذرا أي فـوق الحـامض ﴿وَأَنْهَـارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ بلا ذهاب عقل ولا صداع ولا غـول ولا تـأليم ولا تأثيم ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَـفًّى﴾ من الشـمع وفضـلات النحـل وغيرهـا ﴿وَلَهُمْ فِيهَـا﴾ أي في الجنـة ﴿مِنْ كُـلِّ الثَّمَـرَاتِ﴾أي كـل فـرد من كـل صنف من كل نوعٍ من الثمرات ﴿وَمَغْفِـرَةٌ﴾ أي ولهم فـوق هـذه الأمـور الماديــة مغفــرة من ربهم أي نعومــة ولطافــة حاصــلة ﴿مِنْ﴾ مغفــرة ﴿رَبِّهِمْ﴾ وقوله ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ خـبر لمبتـدأ محـذوف أي أمن هو خالد في هذه الجنة كمن هو خالد في النار ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًـا﴾ أي حارا ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ من فرط الحرارة. قلنا في الجواب: لا.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19)﴾

قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ استئناف لبيان أحوال بعض من المنافقين فيقول: ومنهم من يستمع اليك، ولكن لا يهتم به ولا يريد أن يستمع استماع فهم وقبول، ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من باب الاسلام أو من استماع كلامه صلى الله عليه وسلم: ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أي قبيل هذه الدقيقة، وليس مقصوده من هذا السؤال فهم المقال بل أراد التحقير والاستهزاء بكلامه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ الى طريق الحق ﴿زَادَهُمْ﴾ الله ﴿هُدًى﴾ اليه ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي وآتاهم سكينة تحملهم على تقويهم ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي مفاجأة ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ من بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم نبي آخر الزمان وانشقاق القمر.

﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أي فأنى لهم ذكراهم، وكيف يحصل لهم التذكر والندم اذا باغتتهم أي لو كانت عندهم بصيرة لتوجهوا الى الله وآمنوا به وبرسوله قبل أن يأتيهم الموت وأنى لهم ذلك؟

وللعلماء في أشراط الساعة كتب مختصرة ومطولة. وثبت من قوله صلى الله عليه وسلم أنه لا تتحقق الساعة حتى تظهر كبريات الآيات منها: الدخان، وخروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وظهور

المهـدي، وخـروج الدابـة، وطلـوع الشـمس من مغربهـا، وقلـة العلم والحياء، وكثرة الجور والهرج والفوضـى.. ولكن الأمـر الـذي يطمئن لـه القلب في قـرب وقوعهـا مـا روي أنـه صـلى اللـه عليـه وسـلم خطب أصحابه بعد العصر حين كادت الشمس تغـرب ولم يبـق منهـا الا أسـف أي شيء قليل فقال: ((والذي نفس محمد بيده مـا مثـل مـا مضـى من الدنيا فيما بقى منها الا مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقى منه، وما بقى منه الا اليسير)). وهذه النسبة المفهومة هنا لا تتحـد الا اذا تحـددت مدتها من الأول، فالعلم بحلولها عند الله العليم الخبير. غير أنـا نعلم أن هذه الاضطرابات والتزلزل لقواعد الدين الموجودة من كل الوجـوه في عصرنا الحاضر تهدد بأن الساعة قريبة جدا والله أعلم.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْـتَغْفِرْ لِـذَنْبِكَ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ﴾ أي واثبت على العلم بالتوحيد كما كنت، واستغفر لـذنبك بالنسـبة الى علـو مقامك من خلاف الأولى، ولـذنوب المؤمـنين كيفمـا كـانت ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في الآخرة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آَمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُـورَةٌ مُحْكَمَـةٌ وَذُكِـرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَـرَ الْمَغْشِـيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْـرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُـوا أَرْحَـامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَـمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23)﴾

قوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ أي حرصا ورغبة في الجهاد ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي هلا نزلت سورة يؤمر فيها بالجهاد ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ بصورة الأمر به، والمراد بقوله محكمة واضحة مبينة لا اشتباه فيها، أو سورة ثابتة لا نسخ عليها ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي نفاق وقيل ضعف في الدين ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾أي نظر المحتضر الذي يشخص بصره ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾.

في قوله تعالى فأولى لهم وجوه من المعاني، والأحسن من بينها أن يكون أولى أفعل تفضيل ومبتدأ ولهم صلته، واللام بمعنى الباء، وطاعة خبرا له، وقول خبر بعد خبر، ومعروف صفته. أي فالاولى والاليق بأولئك الناظرين نظر المغشي عليه من الموت طاعة لله في مباشرة الجهاد، وقول معروف مع العباد ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي جد الأمر وتحقق ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ في دعاويهم ووعودهم بالجهاد ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ ولا خير في هذه الحالة تجدونها فيهم.

ثم خاطب الباري تعالى أولئك الذين في قلوبهم مرض على طريق الالتفات فقال ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمور الناس وصرتم متولين عليها ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ تكالبا على مطامع الدنيا الدنية، أو فهل عسيتم ان توليتم أي استدبرتم عن الاسلام ورجعتم الى حالكم في الجاهلية أن تفسدوا في الأرض بمنع الناس عن الاسلام وتقطعوا أرحامكم بمقاتلة الاقارب وعداء المسلمين؟ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أبعدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق ورعايته ﴿وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ عن النظر إلى الحق والعناية به.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32)﴾

قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ﴾ كلام مع أولئك الناس المرضى القلوب فيقول تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ﴾ أي لا يلاحظونه ولا يتأملون فيه وفي ما اشتمل عليه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا في ما وقعوا فيه ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي أم تدبروا ولكن لم يدخل ما افتهموه في قلوبهم لانه كانت أقفال حديدية على قلوبهم فما كانت تنفتح ولم تدخل المفاهيم فيها حتى ينتفعوا بها ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ أي رجعوا الى ما كانوا عليه من الكفر قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم. وقال بعض: نزلت في اليهود ارتدوا عن

الهدى بعد أن عرفوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم نبي ورسول ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي زين لهم ذلك الارتداد ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ أي ومد لهم الشيطان في الأماني والآمال ﴿ذَلِكَ﴾ أي الارتداد ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب انهم ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ سنطيعكم في بعض الأمر أي في بعض الشئون والاحوال التي ترد عليكم ونعينكم فاغتروا بذلك ولم يفدهم ما قالوه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ﴾ تكون أحوالهم ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي قبضت أرواحهم حالكونهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ وبما أن الجملة حال والأصل فيها المقارنة يستفاد من الآية عذاب عالم البرزخ أي عالم ما بين الموت والبعث للحشر ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من الاعتقاد الفاسد والعمل السيئ ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي ما يرضى به سبحانه وتعالى ﴿فَأَحْبَطَ﴾ الله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ الحسنة التي عملوها قبل الارتداد.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وهم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الفاسدة ﴿أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أم منقطعة والاخراج الابراز والاظهار. والأضغان جمع ضغن بمعنى الحقد. والمعنى بل حسب أولئك الناس المنافقون الحاقدون على الاسلام أن لن يظهر الله أحوالهم للمؤمنين ولا يكشف عن نفاقهم ويبقون متسترين ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ أي لعرفناكهم أو لأبصرناكهم ويؤيد الأول قوله تعالى ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي وكانت سيماهم تؤيد ما علمته. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ جواب قسم محذوف أي والله لتعرفنهم في لحن القول أي في مفهوم كلامهم فانه كان بحيث يستفاد منه مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم.

أو المراد وضع التلفظ بالكلام ولهجته الخالصة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمر بالجهاد والاعمال التي فيها المشقة على النفس ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ على

مشـاق التكـاليف والأعمـال العسـيرة ﴿وَنَبْلُـوَ أَخْبَـارَكُمْ﴾ عن الايمـان وموالاة المؤمـنين ومعـاداتهم، فانـه اذا تتبـع الانسـان أخبـار قـوم أدرك مدى ما بينهم وبين غيرهم من الولاء أو العداء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَصَـدُّوا﴾ أي ومنعـوا النـاس ﴿عَنْ﴾ سـلوك ﴿سَـبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو الاسلام ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ أي نازعوه وصاروا في شق غـير شقه وعلى سبيل غير سبيله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ لما شـاهدوا من نعوته في الأسفار السـابقة ومطابقـة أخبـاره اللاحقـة لهـا، وظهـور أخلاقه الحميدة العالية حتى شهد بحسنها الأعداء الأغبياء والاذكيـاء ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ ولا يقدرون أن يوقفوا ركب الرسالة عن الحركة نحـو الأمـام ﴿وَسَـيُحْبِطُ أَعْمَـالَهُمْ﴾ المكائـد الـتي يكيـدونها لعرقلـة الحركـة الدينيـة، أو أعمـالهم الحسـنة الـتي عملوهـا قبـل الارتـداد عن الأصـول السنية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُـوا أَعْمَـالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَصَـدُّوا عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَـاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِـرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلَا تَهِنُـوا وَتَـدْعُوا إِلَى السَّـلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَـوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْـغَانَكُمْ (37) هَـاأَنْتُمْ هَـؤُلَاءِ تُـدْعَوْنَ لِتُنْفِقُـوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَـلُ وَمَنْ يَبْخَـلْ فَإِنَّمَـا يَبْخَـلُ عَنْ نَفْسِـهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْـتَبْدِلْ قَوْمًـا غَيْـرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُـوا أَمْثَـالَكُمْ (38)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ قيل ان بني أسد أسلموا وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا كأنهم مَنوا بذلك فنزلت فيهم هذه الآية. وقوله تعالى ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ ولذا قيل في تفسير قوله الكريم ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ لا تبطلوها بالمن على الرسول صلى الله عليه وسلم بالاسلام ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ومنعوا الناس عن سلوك سبيل الله وهو دين الاسلام ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ عام في كل من مات على الكفر، وان صح نزوله في أهل قليب بدر من الكفار المشركين المقتولين الذين ألقوا هنالك ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أي إذا علمتم أن الله مبطل أعمالهم ومعاقبهم فلا تشكوا في أن الله خاذلهم، فلا تهنوا أمامهم ولا تظهروا ضعفا عندهم ولا تدعوهم الى السلم حتى يظنوا أنكم تخافون منهم ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي أنتم الأغلبون ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أينما كنتم ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ﴾ أي ولن ينقصكم ﴿أَعْمَالَكُمْ * إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا عاقبة حميدة لها ولا نفع فيها ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي ثواب إيمانكم وتقويكم من الباقيات الصالحات

وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا ﴿أي أموالكم﴾ فَيُحْفِكُمْ ﴿أي فيجهدكم بطلب الكل﴾ تَبْخَلُوا ﴿بإعطائها﴾ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿أي ويظهر للناس حبكم لها﴾ هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ ﴿أيها المخاطبون﴾ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ﴿أي ناس يبخلون بالإنفاق﴾ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴿أي فانما يمنع الخير عن نفسه ولا يسري الضرر الى غيره﴾ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴿الكاملون في الفقر والاحتياج اليه﴾ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا ﴿عن الايمان والتقوى﴾ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴿أي يستبدلكم بقوم غيركم يخلفونكم﴾ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿في التولي عن الايمان والتقوى.

سورة الفتح، مدنية، نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية

وآياتها تسع وعشرون نزلت بعد سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7)﴾

<145>

قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ أخبار عن صلح الحديبية عند الجمهور، قال ابن عطية وهو الصحيح: وأصل الفتح إزالة الاغلاق عن أي عقدة، وفتح البلد ازالة غلق باب سوره وفتحه للظافرين الغالبين الذين يدخلونها من الباب. وقال بعض: ان المراد بالفتح هنا: فتح خيبر. وقال بعض: فتح مكة. وعليه تكون الآية الكريمة وعداً بالفتح، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع. والظاهر أنه اذا حملناه على فتح البلاد. فالمراد به فتح مكة، لانه هو الذي كان نصب العين للرسول صلى الله عليه وسلم والهدف الأشرف، فانه بعد فتح أم القرى ففتح ما سواها سهل يسير والله على كل شيء قدير. واذا حملناه على ازالة الاغلاق فالمراد به الوعد بإزالة الموانع التي كانت أمامه حتى يصل الى غايته القصوى وهي النجاح في مهمته ونشر شريعته واعتناق الامة لدينه والالتفاف حول لوائه في تنوير العباد وتعمير البلاد مادة ومعنى، وهذا هو الفتح المبين والنصر العزيز لسيد المرسلين.

وقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قالوا ان اللام ليست للتعليل لان أفعال الله تعالى ليست معللة بالاغراض، بل بمعنى الفاء التي تدخل على الغايات المترتبة على الأسباب وهذا البحث بحث طويل قد دار بين العباد، ولكن الحق الذي يجب قبوله أن العلل الواقعية موجودة بسيطة أو مركبة، وأنه قد يترتب عليها المعاليل اذا قارنتها الارادة، وقد لا فهي الجزء الاخير من العلة كما أن الغايات المتفرعة والمترتبة عليها موجودة أيضا. وان أفعال الله تعالى يجوز تعليلها بالعلل المناسبة المقرونة بالحكم والمصالح التي يراعيها لكن لا بمعنى أن الفاعل المختار والمبدأ الفياض يحتاج الى تلك العلل لترتب المعاليل عليها، بل بمعنى تطبيق سنته وجريان عادته بها.

وأما تفسير قوله ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فهو عبارة عن

ستر ما يكاد لا يناسب مقامه الشريف ورتبته العالية، ويعبر عنها بخلاف الأولى، وذلك لان النصوص متكاثرة على أن الأنبياء والرسل الكرام هم المصطفون الأخيار وهم صفوة العباد وخيار الأمة على بسيط الارض، والادلة دالة على عصمتهم من الذنوب والمعاصي، ويمكن أن يقال: إن بعض الأمور الاجتماعية التي لابد من ورودها على الانسان ويصعب العدول عنها وقد يراها بعض الناس الضعفاء العقول كالذنوب في الصورة أعلن الله تعالى أنها مغفورة بالنسبة اليك ولا تعتبر جريمة لانسان يقود الناس بأسرهم الى السعادة ويريد تهذيب وتصفية أحوالهم عن المفاسد والعيوب، ولابد من حلق رأس ضربته الجروح وجبر مكسور الأيدي والأرجل، وان حصل منها آلام. ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ باضافة فتح البلاد التي تبعد عن الجزيرة اليها، والملك الى النبوة، وأن يهيئ لك من الأمم التي تدخل تحت لواء الاسلام من يأخذ به ويجعله على كتفه ويوصله الى المشارق والمغارب ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ بقوة الأخلاق العالية والسيرة السامية حتى يسهل سلوك ذلك السبيل عليك وعلى من يتبعك في الحال والاستقبال ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ﴾ على كل من عاداك في عصرك وينصر من ينصر دينك على عدوه في عصره، فان نصره نصرٌ لك وعونه عون لك. ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ في الوجود لم يسبق مثله ولا يتحقق في المستقبل نظيره، وقد كان الأمر كذلك.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قلنا هذه السورة نزلت عند رجوع الرسول صلى الله عليه وسلم من الحديبية إلى المدينة المنورة بعد المصالحة مع قريش على أن يرجعوا للعمرة في السنة الآتية، وفي وقت الصلح كان الأصحاب الكرام منزعجين من عدم الوصول إلى الهدف المقصود أعني العمرة، لكن بعد أن تحلل صلى الله عليه وسلم عن الاحرام تحللوا، وزالت تلك العقدة وذلك الانزعاج عنهم، وتبدلت بالسكينة

والاطمئنان كما قال تعالى هو الذي أنزل السكينة في قلوب ﴿الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي ليزدادوا ايمانا برحمة الله المتوالية عليهم، وأن الله معهم، وانه ناصر الرسول وأصحابه وأتباعه المستقيمين على الحق إلى يوم القيامة.

وهذا الايمان علاوة على ما كان في قلوبهم من الايمان ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما يعلم جنود ربك الا هو، ومن جنوده الإيمان، وقوة المعنويات، وزيادة العدة، والأجهزة والآلات الحربية والعينة والنفقات، وتوجه الناس في الآفاق الى المبدأ المرسوم كما أن من جنوده ملائكة السماوات حيث تنزل عند الحاجة اليها، وقد أنزلها الله تعالى في بدر، وفي حنين، وفي أحد أيضا، وفي مواضع أخرى على المؤمنين لمعونتهم. وكذلك من جنوده تشتت قلوب الأعداء والشقاق والخلاف بينهم وعدم اجتماع اسباب حركاتهم وهجماتهم على المسلمين. والمقصود هنا تنبيه المؤمنين على الرجاء القوي من الله تعالى لمزيد النصر والتأييد في المستقبل وأن الله معهم ما داموا هم مع الله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوال الرسول والمؤمنين وغيرهم ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعاله ونصره للرسول في كل أمر عسره ويسره.

وقوله تعالى ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ متعلق بما يدل عليه ما تقدم، أي ويؤيدكم على ما أنتم عليه ويقهر الكافرين ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ بما عملوا من حسناتهم ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الادخال والتكفير ﴿عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم مقداره الا من قرره وقدره. وقوله ويعذب معطوف على ما قبله أي ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ وهو أن الله لا ينصر الرسول وأصحابه ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ينصر بهم

من ينصر ويقهر بهم من يقهر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ منيعًا لا يغالب في أمره ﴿حَكِيمًا﴾ لا تخلو أفعاله من الحكم والمصالح.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أي على أمتك لقوله تعالى: ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالثواب لاهل الطاعة ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعقاب. على المعصية، وقوله ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ خطاب للنبي وأمته أي لتؤمنوا أنتم أيها الرسول والمؤمنون بالله ورسوله ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تنصروه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تعظموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي تأتون بتسبيحه في الوقتين بأن تقولوا سبحان الله العظيم، أو سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، لان ضم الحمد الى التسبيح توقير وتعظيم مليح.

أو لتصلوا له غدوة وعشيا أي صلاتي الصبح والعصر. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما تفسير الآية بصلاة الصبح وصلاة الظهر وصلاة العصر.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أي يوم الحديبية على الموت في نصرتك، والمبايعة مفاعلة من البيع يقال بايع السلطان مبايعة اذا ضمن بذل الطاعة له. وقد وقعت قبل نزول الآية في الحديبية، والآية نزلت في أثناء الطريق عند رجوعه صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة فصيغة المضارع لاستحضار الصورة ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ لان المقصود من المبايعة إطاعته وإطاعته إطاعة لله تعالى ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي أنه عند جعل الايدي في يد الرسول

كأنهم جعلوا الايدي في يد الله تعالى. ولما كانت اليد مستحيلة الاضافة اليه تعالى فالمعنى أن نصرة الله تعالى لهم فوق قـوتهم ونصـرتهم أي أن الله معكم في هـذه المبايعـة معيـة السـيطرة ومعيـة القـوة ومعيـة المنـة والعطـاء والكـرم الشـامل ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ أي نقض العهـد ﴿فَإِنَّمَـا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي فلا يعـود ضـرر نكثـه الا على نفسـه ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهـو الجنـة ومـا فيهـا ممـا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَـيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُـونَ خَبِـيرًا (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَـدًا وَزُيِّنَ ذَلِـكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّـوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًـا بُـورًا (12) وَمَنْ لَمْ يُـؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَـدْنَا لِلْكَـافِرِينَ سَـعِيرًا (13) وَلِلَّهِ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِـرُ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيُعَـذِّبُ مَنْ يَشَـاءُ وَكَـانَ اللَّهُ غَفُـورًا رَحِيمًـا (14)﴾

قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ قال مجاهد وغيره: المخلفـون من الاعراب هم جهينة ومزينة، وغفار، وأشجع، والديل، وأسـلم. اسـتنفرهم رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسـلم حين أراد المسـير الى مكـة عـام الحديبية معتمرا ليخرجوا معه حذرا من قريش أن يتعرضـوا لهم بحـرب أو يصدوهم عن البيت وأحزم هـو صـلى اللـه عليـه وسـلم وسـاق معـه الهدى ليعلم أنه

لا يريد حربا، ورأى اولئك الاعراب أنه صلى الله عليه وسلم يستقبل عددا عظيما من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورين مكة وهم الأحابيش، ولم يكن الايمان تمكن من قلوبهم فقعدوا عن النبي وتخلفوا، وقالوا: نذهب الى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم.

وقالوا: لن يرجع محمد صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه من هذه السفرة قطعا ففضحهم الله تعالى في هذه الآية وأعلم رسوله بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل اليهم في رجوعه إلى المدينة.

والحاصل أنهم لم يوافقوه في السفر معه الى مكة وظنوا خيبة الرسول، ولما حفظ الله رسوله وأصحابه من القتال وانتهى الأمر بالمصالحة ورجع الرسول إلى المدينة وخاب ظن اولئك الاعراب.. أنزل الله تعالى هذه، وبين له أنهم يعتذرون اليك بكذا وكذا ولكنهم ينافقون.

والأعراب سكان البادية من العرب لا واحد له، أي سيقول لك الاعراب الذين لم يوافقوك في السفر والخروج معك إلى مكة بأنه ﴿شَغَلَتْنَا﴾ عن السفر معك ﴿أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أي لم يكن معنا من يقوم بحفظهم وحمايتهم، وتقديم ذكر الأموال على الاهل للاشارة الى لؤمهم ودناءتهم حيث كان اهتمامهم بحفظ الأموال أكثر من اهتمامهم بحفظ الأهل. ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الله تعالى ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي أن كلامهم هذا غير مطابق لما في قلوبهم، ولو كان لهم ايمان ثابت بالله تعالى لوافقوك في الخروج معك ولم يتخلفوا ﴿قُلْ﴾ لهم يا حبيبي بعد أن وصلت اليهم واعتذروا عندك:

﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ يعني انكم خالفتم خوفا من أن يصيبكم في مكة شيء فهل اذا خلصتم من ذلك تخلصون أيضا من سائر المضرات؟ وهل أسباب الضر والنفع قليلة؟ واذا بقيتم في باديتكم وأتاكم عارض ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ لابتعادكم

عن الفضاء ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ﴾ من الذي يصد باب الخير عنكم ان ﴿أَرَادَ﴾ الله ﴿بِكُمْ نَفْعًا بَلْ﴾ أعرضوا عن هذا الاعتذار الصوري فقد ﴿كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأمور المخالفة لاتباع الدين ﴿خَبِيرًا﴾ فانكم لستم مؤمنين متمكنين، وكان يعجبكم أن لا يرجع الرسول من ذلك السفر ولا أحد من أصحابه.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ﴾ أي عشائرهم ﴿أَبَدًا﴾ وذلك بإبادتكم من جانب أهل مكة ﴿وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من طرف النفس والشيطان ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي ظن الشر ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ جمع بائر أي قوما هالكين، وذلك لعدم تمكن الايمان في قلوبكم ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي فهو كافر ونحن أعتدنا وهيأنا للكافرين سعيرا يعذبون به ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما وفيمن فيهما بما يشاء ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ للعباد.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (15) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (17)﴾

قولـه تعـالى ﴿سَـيَقُولُ الْمُخَلَّفُـونَ﴾.... الآيـة اللام للعهـد إشـارة إلى الاعراب المخلفين عن السفر المـذكورين آنفـا، وذلـك الإخبـار السـابق كان إخباراً عن الغيب، وهذا إخبار آخر يثبت بهما وبأمثالهمـا أن القـرآن كلام الله المنزل على حبيبه المفضل يعني سيقول لك أولئك المخلفون ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ وأرادوا بهـا خيـبر، لان اليهـود كـانوا يعارضـون الاسـلام، وفي خيـبر قـوة ومنعـة وتصـوروا في أنفسـهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحاربهم ويفتح البلـد ﴿ذَرُونَـا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي دعونا ولا تمنعونا حتى نكون في عداد المحـاربين، واذا فتح البلـد يكـون لنا نصيب من الغنـائم ﴿يُرِيـدُونَ أَنْ يُبَـدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ النـازل في شـأن أهل بيعة الحديبية المعروفة ببيعة الرضـوان النـاطق بـأن اللـه وعـدهم مغانم كثيرة يأخذونها، فيكـون هـذا الامـر محـولا اليهم، ويكـون لهم من تلك المغانم حصة ﴿قُلْ﴾ لهم يا حبيـبي ﴿لَنْ تَتَّبِعُونَـا﴾ أي لن تكـون لكم حالة نفسية قدسية مطمئنة راضية بالدخول في الجهاد لاعلاء كلمة الله حتى تستحقوا شيئا من المغانم على تقـدير الفتح، وقـالوا ان النفي في معنى النهي، أي لا تتبعونا ولا نرضى باتباعكم لنـا، فـان من لم يكن لنـا في وقت أردناه لا يكون معنا في وقت لا نريـده ﴿كَـذَلِكُمْ قَـالَ اللَّهُ مِنْ قَبْـلُ﴾ أي من قبـل أن تهيـأتم للخـروج معنا، وذلـك عنـد الانصـراف من الحديبيــة إلى المدينــة ﴿فَسَـيَقُولُونَ﴾ أي أولئـك الاعــراب المخلفــون للمؤمنين ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي أعرضـوا عن أن يكـون عـدم اتباعنـا لكم حكم الله تعالى، وانما هـو ناشـئ من أنفسـكم ولا تحبـون صـحبتنا لكم لانكم تحسـدوننا في أن يكـون لنـا نصـيب من المغـانم ﴿بَـلْ كَـانُوا لَا يَفْقَهُــونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهــذا الاضــراب معنــاه عــدم الالتفــات إلى كلام المخلفين فكل ما يأتون به عاطل باطل وكانوا

لا يفقهون من أمور الدين وحقيقة الاسلام والجهاد في سبيله الا شيئا قليلا، فلا تجادلوهم عند ظهور بوادر الخلاف.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ المعروفين بالتخلف حتى صار سمة لهم ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي ذوي قوة شديدة في الحرب، وهم على ما قاله بعض ورواه الطبراني عن الزهري بنو حنيفة: مسيلمة وأهله وقومه من أهل اليمامة، وعليه جماعة. وفي رواية زيادة أهل الردة. وعن رافع بن خديج: أنا كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم، حتى دعا أبو بكر رضي الله عنه الى قتال بني حنيفة فقلنا: إنهم أريدوا بها. وعن عطاء بن أبي رباح ومجاهد في رواية، وعطاء الخراساني، وابن أبي ليلى: هم الفرس الذين حاربهم عمر رضي الله عنه وبهذه الآية تثبت خلافة الشيخين رضي الله عنهما، لانهما دعوا المسلمين إلى الجهاد مع قوم أولي بأس. أما أبو بكر فدعا الناس الى مقاتلة مسيلمة وأتباعه والى مقاتلة مانعي الزكاة، وعمر رضي الله عنه دعاهم الى قتال الفرس في دور (يزدجرد) وكانوا أولي بأس شديد والداعي الذي تقرر الآية الكريمة دعوته الى القتال هو الداعي المحقق المحق الواجب اطاعته وقبول دعوته، وهذا هو الظاهر منها.

﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ على معنى التنويع لا التشكيك، أي يكون أحد الأمرين اما المقاتلة أو الاسلام لا غير كما دلت عليه قراءة أو يسلموا الان النصب يقتضي أن أو بمعنى الا أن، فان قلت: هذا يفيد أن أمر القوم الذين يقاتلون منحصر في الأمرين فلا يبقى لترك المقاتلة وأخذ الجزية مجال فيفسد الاستدلال بها على خلافة عمر رضي الله عنه لانه قاتل المجوس وكان يصح أخذ الجزية منهم! قلت: ان كان الاسلام على المعنى العرفي قلنا: يكفي اثبات خلافة أبي بكر رضي الله عنه

لانه بعد أن ثبتت خلافته لا يبقى خلاف في جـواز اسـتخلافه لاي انسـان مسلم بعده، وقد استخلف عمر رضي الله عنه. وان كـان الاسـلام على المعنى اللغوي أعني الانقياد والاطاعة فالانقياد كما يكون باعتناق الدين الاسلامي يكون بالتزام الجزية أيضا ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ أي ذلك الداعي إلى القتال وتقاتلوا أولئك القوم لاعلاء كلمة الحق ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَـنًا﴾ يعـني الغنيمـة في الـدنيا والجنـة في الآخـرة ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ عن الـداعي ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ في أمـر الحديبيـة ﴿يُعَـذِّبْكُمْ عَـذَابًا أَلِيمًـا﴾ فيهمـا ﴿لَيْسَ﴾ في التخلف عن تلك الدعوة ﴿عَلَى الْأَعْمَى حَـرَجٌ﴾ أي اثم ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ لوجود العـذر، والعـذر يجعـل العسر يسراً ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ﴾ في الأوامـر والنـواهي ﴿يُدْخِلْـهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْـهُ عَـذَابًا أَلِيمًا﴾ لا يقادر قدره.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَـكَ تَحْتَ الشَّـجَرَةِ فَعَلِمَ مَـا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـابَهُمْ فَتْحًـا قَرِيبًـا (18) وَمَغَـانِمَ كَثِـيرَةً يَأْخُـذُونَهَا وَكَـانَ اللَّهُ عَزِيـزًا حَكِيمًـا (19) وَعَـدَكُمُ اللَّهُ مَغَـانِمَ كَثِـيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُـؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَـا قَـدْ أَحَـاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَـارَ ثُمَّ لَا يَجِـدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِـيرًا (22) سُـنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23)﴾

قوله تعالى ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ روي أنه لما نزل الحديبية بعث خراش بن أمية الخزاعي الى أهل مكة. فهموا بقتله فمنعه الأحابيش، فرجع فبعث عثمان بن عفان، فحبسوه فأرجف بقتله. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، وكانوا ألفا وثلاثمائة أو أربعمائة وبايعهم على أن يقاتلوا قريشا ولا يفروا عنهم، وكان جالسا تحت سمرة أو سدرة، وهذه البيعة سميت بيعة الرضوان لنزول آية الرضا فيها. والحديبية تصغير الحدباة، سمي بها المكان. وخراش بكسر الخاء وفتح الراء المهملة، وأرجف أي أذيع قتله بلا أصل يعتمد عليه، والاحابيش جمع أحبوش، وهم قوم من قبائل شتى سموا به قيل لسوادهم كالحبش، وقيل لتحالفهم عند جبل يسمى حبشي ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الاخلاص ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي الطمأنينة وسكون النفس بالتشجيع أو بالصلح أو بهما ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ فتح خيبر عند انصرافهم وقيل فتح مكة أو هجر بالبحرين ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني مغانم خيبر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هي ما قرر الله للمسلمين من أول القتال الى آخر الايام، فان الغنائم لم تحل لأمة قبل الاسلام وقد أحلت لها الى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أيدي أهل خيبر وحلفائهم وقوله ﴿وَلِتَكُونَ﴾ عطف على مقدر علة لقوله وكف أي وكف أيدي أهل خيبر عنكم لتسلموا ولتكون هذه الكرة آيةً وأمارة للمؤمنين على أنه اذا جاء نصر الله سخر الأعداء ومنع أنصارهم عن التعاون معهم وامدادهم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ هي صراط الثقة بوعد الله تعالى بأن المؤمنين منتصرون ﴿وَأُخْرَى﴾ أي ووعدكم الله مغانم أخرى وهي مغانم

هوازن في غزوة حنين ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ علما وقدرة وستتحقق لا محالة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ماضيا وعاجلا وآجلا.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي من أهل مكة ولم يصالحوكم أو حلفاء يهود خيبر من قبيلة أسد وغطفان ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾ أي لانهزموا وولوا الادبار ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولى أمورهم وينظم جيشهم إذا قاتلهم المسلمون ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويعينهم ليقلبوا على المسلمين ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ أي سن سبحانه وتعالى سنة الله ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا العصر وهي تأييد المؤمنين ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26)﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ أي منع أيدي كفار مكة عنكم ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي وكف أيديكم عنهم ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني به

الحديبية، وكونه ببطن مكة مبني على أن بعضها داخل في الحرم أو على اعتبار قربها منها منزلا منزلة كونها جزء منها. وقوله ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي من بعد أن جعلكم ظافرين وظاهرين وغالبين عليهم.

أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أنسٍ قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا عليهم فأخذوا، فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ﴾... آه ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي بجميع ما تعملون ومنه العفو بعد الظفر ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيكم عليه.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن تصلوا اليه وتطوفوا به ﴿وَالْهَدْيَ﴾ أي وصدوا الهدي ﴿مَعْكُوفًا﴾ أي محبوسا ومربوطا للخير ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ بدل اشتمال من الهدي أي منعوا بلوغ الهدي الى محله المعهود للذبح وهو منى، والا فعند الامام الشافعي رضي الله عنه مكانه لمن منع حيث منع. وعند الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أرض الحرم وبعض الحديبية حرم عنده. ومع ذلك فالمحل المعهود هو منى وقد منعوا وصول الهدي اليه ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ في مكة سبعة من الرجال وامرأتان ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾ بدل اشتمال عن الضمير المنصوب أي لم تعلموا وطئهم ودوسهم بالاقدام ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ﴾ أي فتصيبكم بسبب دوسهم وايذائهم معرة ومكروه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وقوله ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ علة لما يدل عليه الجواب المحذوف أي ولولا ذلك لامرنا بالتعرض لهم لكنه سبحانه كفها عنهم ليؤدي الصلح الى فتح مكة ليدخل الله في رحمته ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ وهم المؤمنون الذين سكنوا في مكة ولم يهاجروا لحد الآن وادخالهم في الرحمة بأن يبقوا أمناء لا يتعرض لهم

كفار مكة انتقاما لمد المسلمين الأيـدي الى الكفـار ﴿لَـوْ تَزَيَّلُـوا لَعَـذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًـا﴾ والتنزيـل التفـرق، أي لـو تفـرق أولئـك المؤمنـون والمؤمنـات وتمـيزوا عن الكفـار السـاكنين في مكـة لعـذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما.

﴿إِذْ جَعَـلَ﴾ منصـوب بـأذكر على المفعوليـة ﴿الَّذِينَ كَفَـرُوا فِي قُلُـوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي حميــة الامــة الجاهليــة فمنعــوا الرســول وأصـحابه الجـائين للاعتمـار ﴿فَـأَنْزَلَ اللَّهُ سَـكِينَتَهُ عَلَى رَسُـولِهِ وَعَلَى الْمُـؤْمِنِينَ﴾ وهـدأت أعصـابهم واسـتراحت قـواهم، فلم يتعرضـوا لأحـد بالسوء، ولم يقـع مـا لا تُحمـد عواقبـه ﴿وَأَلْـزَمَهُمْ كَلِمَـةَ التَّقْـوَى﴾ وهي كلمة التوحيد فيكررونهـا ﴿وَكَـانُوا أَحَـقَّ بِهَـا﴾ أي بتلـك الكلمـة ﴿وَأَهْلَهَـا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم من هو الأحق بالشيئ ومن هو أهله، والفرق بين الأهل والأحق أن الأهل أدخل في الاستحقاق فكان الشــيئ ماله وحاله وملكه الخاص المغروز فيه خلقة كالصـفات الغريزيـة. وأمـا الأحــق فهـو أولى من بـاقي المسـتحقين بوجـه لشـيئ مـا من العلـل المؤيدة في الموضوع. والله أعلم.

وتفصيل تفسير الآية ما روي أنه لما نـزل بالحديبيـة وصـار أمـر قـريش المنـع لـه ولاصـحابه من الاعتمـار وطـواف الـبيت، واهتم بقتـالهم بعث قـريش سـهيل بن عمـرو، وحويبـط بن عبـد العـزى، ومكـرز بن حفص ليسألوه أن يرجـع من عامه على أن تخلي لـه قـريش مكـة من القابـل ثلاثة أيام فأجابهم وكتبوا بينهم كتابا، فقال عليـه الصـلاة والسـلام لعلي رضي الله عنه ((اكتب بسم الله الـرحمن الـرحيم)) فقـالوا: مـا نعـرف هذا، اكتب باسمك اللهم. ثم قـال: ((اكتب هـذا مـا صـالح عليـه رسـول الله أهل مكة)) فقالوا: لو كنـا نعلم أنـك رسـول اللـه مـا صـددناك عن البيت وما قاتلناك، اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله أهل مكـة فقال عليه الصلاة

والسلام: ((اكتب ما يريدون)) فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بـه فأنزل اللـه السـكينة عليهم، فتـوقروا وتحملـوا وألـزمهم كلمـة التقـوى كلمة الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم محمد رسـول اللـه اختارهـا لهم، أو الثبات والوفاء بالعهد، واضافة الكلمة الى التقوى لانها سببها أو كلمة أهلها.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْـجِدَ الْحَـرَامَ إِنْ شَـاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّـرِينَ لَا تَخَـافُونَ فَعَلِمَ مَـا لَمْ تَعْلَمُـوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًـا (27) هُـوَ الَّذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالْهُـدَى وَدِينِ الْحَـقِّ لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الـدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَـهِيدًا (28) مُحَمَّدٌ رَسُـولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَـهُ أَشِـدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَـاءُ بَيْنَهُمْ تَـرَاهُمْ رُكَّعًـا سُـجَّدًا يَبْتَغُـونَ فَضْـلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْـوَانًا سِـيمَاهُمْ فِي وُجُـوهِهِمْ مِنْ أَثَـرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْـرَجَ شَـطْأَهُ فَآَزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُـوقِهِ يُعْجِبُ الـزُّرَّاعَ لِيَغِيـظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِـرَةً وَأَجْـرًا عَظِيمًـا (29)﴾

قوله تعالى ﴿لَقَـدْ صَـدَقَ اللَّهُ رَسُـولَهُ الرُّؤْيَـا بِـالْحَقِّ﴾ رأى رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى الحديبية أنه هو وأصـحابه دخلـوا مكـة آمـنين وقـد حلقـوا وقصـروا. فقص الرؤيـا على أصـحابه ففرحـوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في العـام الـذي هم فيـه، وقـالوا: إن رؤيا رسول الله

صلى الله عليه وسلم حق، فلما تأخر ذلـك قـال عن طريـق الاعـتراض عبدالله بن أبي، وعبد الله بن نفيل، ورفاعة بن الحرث: والله ما حلقنا، ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت الآية.

والمعنى صدقه في رؤياه وقوله بالحق أي متلبسا به فان مـا رآه كـائن لا محالة في الوقت المقدر لـه وهـو العـام القابـل. ويحتمـل أن بـالحق قسما بالحق وهو اسم الله تعالى، وعلى هذا فقوله ﴿لَتَـدْخُلُنَّ الْمَسْـجِدَ الْحَـرَامَ﴾ جوابـه، والا فهـو جـواب لقسـم محـذوف أي واللـه لتـدخلن المسجد الحرام. قوله ﴿آَمِنِينَ﴾ أي من بطش الاعـداء وقولـه ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَـكُمْ وَمُقَصِّـرِينَ﴾ كـل لبعض منهم والمشـتقات أحـوال متواليـة مفردة. وقوله ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ جملة حالية، أو مستأنفة أي لا تخافون بعـد ذلك ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي فعلم الله تعالى ما لم تعلموا من التـأخير في الدخول والحكمة فيه ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ الدخول ﴿فَتْحًا قَرِيبًـا﴾ هو فتح خيبر، أو فتح مكة المكرمة.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ أي متلبسا بالهدى وهو القرآن ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي دين الاسلام الثـابت المطـابق للواقـع ﴿لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الـدِّينِ كُلِّهِ﴾ بانتشـاره في جميـع الـدنيا وبخلـوده الى يـوم القيامـة، وبعمومـه للامم كلها، وبمقارنته للمعجزة المستمرة معه، وبجهـاد منتسـبيه لاعلاء كلمة الحق، وبمماشاته مع الأزمنة بثبات أركانه وأصوله وفروعه الكلية، وبجـواز اجتهـاد المجتهـدين لاسـتنباط الفـروع المتنوعـة، وبعـدم اتفـاق أتباعه على الضلال.. وبتجديده في كل مأة عام مرة بمجدد معه أعـوان كالأطواد والأوتاد الراسخة في العالم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على ذلك.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي ذلك الرسول الذي أرسـل بالهـدى ودين الحـق محمد رسول الله المبعوث رحمـة للعـالمين الى كافـة الثقلين أجمعين. وذلك لانه

ادعى الرسالة العامة من الله تعالى وأظهر المعجزات الكثيرة ومنها القرآن المتواتر بحروفه وكلماته وجمله السليمة وآياته الحكيمة، وتأيدت بالأخلاق العظيمة التي اندهشت عقول العالمين منها كايمانه، وأمانه، واستقامته، وبره، وتقواه، ومثابرته، وجوده، وجهاده، وحلمه للاجانب كعشيرته وحبه لمساكين أمته وخيره الفائض على العالم ودوامه على فضائله، وذكره الدائم لربه، ورحمته بالمستضعفين، وزهده عن الدنيا، وسلامة صدره ولسانه، وسماحته وشكره لله، وشجاعته، وصراحته في البيان، وصبره، وصدقه، وصفائه، وصيامه، واضاءة وجهه للخلق، وطهارة جوارحه، وحواسه وعقله وعلمه وعفوه، وعلو همته، وغيرته على شريعته، وفرط تفقده لفقراء أمته، وقوة قلبه عند تفاقم الأهوال، وقيامه بالليل مع تعب نهاره، وكرامة نفسه، ولين كلامه، وميله الى أيسر الوجوه في معاشرته، ومدده، ومروته، ونجدته، ووفائه بوعوده وعهوده، ووقاره وهدوئه وهيبته وهمته، ويمنه ويقينه... فهذه الأخلاق الحسان معجزة من أهم المعجزات لم يجمعهن الخالق في غيره من البريات، وعلى وجودها له بينة بل بينات، فالصلاة والسلام عليه وعلى آله وأصحابه وسائر أتباعه مادامت الأرض والسماوات. ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ مبتدأ خبره ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي راكعين ساجدين لله رب العالمين ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ﴾ في الدارين ﴿وَرِضْوَانًا﴾ منه لهم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ أي علامتهم في وجوههم من الجباه والخدود وذلك ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ ذلك المذكور من النعوت الجليلة ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي وصفهم العجيب المستحسن عند اللبيب الكائن ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾ الجليل المنزل على موسى رسول بني اسرائيل ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي فروخه ﴿فَآزَرَهُ﴾ أي أعانه وقواه الزرع ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فتحول من الدقة الى الغلظ ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ <162>

أي فاستقام على قصبه ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره.

ومعلوم أن كل هذه النعوت الجليلة والأوصاف الجميلة انما حدثت لهم من الله سبحانه وتعالى وانما جعلهم كذلك ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ ويغبط بهم المؤمنون الأبرار. ويستفاد من الآية الكريمة أن الغائظ لهم كافر بيقين وأن المغتبط بهم مؤمن أمين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً﴾ لهفواتهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ في جناتهم وكلمة من في الآية الكريمة للبيان لا للتبعيض اذ قد تقرر قبلها أن الذين معه أشداء على الكفار فيمتنع أن يكونوا من الكافرين وأنهم راكعون ساجدون طالبون رضوانا من الله. وما دام وصفوا بذلك وعقب ذلك بقوله الكريم سيماهم في وجوههم من أثر السجود لا تبقى شبهة ولا شك من أي عاقل أن كلهم صالحون ومرحومون ومغفورون ومأجورون أجرا عظيما، فاحتمال كونها للتبعيض لا يمكن اعتباره بأي وجه من الوجوه الا من وجه مريض.

وعلى وجه اللطافة أحكي نكتة لطيفة سمعتها من بعض الفضلاء قال: ان هذه الآية الكريمة عمت جميع المؤمنين في العالم، فسيد العالمين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه هم الذين ذكر الله نعوتهم الجليلة وحكاها عن التوراة والانجيل، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين هم المشمولون لآخر الآية فيقول سبحانه وتعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ﴾ أي المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بادئين منهم وكاسبين لها منهم أي متعلمين منهم مغفرة وأجرا عظيما وهذا المفهوم وان لم يتطرق اليه أحد فيه نوع من الملاحة واللطافة المقبولة جعلنا الله بفضله واحسانه من التابعين لهم باحسان الى يوم الدين.

سورة الحجرات مدنية وآياتها ثماني عشرة

نزلت بعد المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذه السورة مدنية الا آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ فهي مكية عند بعض وبالجملة هذه السورة سور محيط بآداب اجتماعية مع الله

ورسوله، ومع المسلمين بعضهم مع بعض، ومع النـاس كافـة، وبـالآخرة ببيان رجوع الكل إلى الله تعالى وأن النعم والفضائل كلها منه، وأهمهـا الاسلام ولا تمنوا على الرسول ولا على غـيره ولا تقـدموا امـا من قـدم المتعدى والمفعول محذوف لقصد العموم أي لا تقدموا أمرا من الأمور الدينية أيا كان في حكمكم فيه ايجابا أو سلبا بين يدي الله ورسـوله أي لا تحكموا فيه قبل حكمهما به أو مـنزل منزلـة اللازم لعـدم القصـد الى المفعول كما تقول: فلان يعطي ويمنع، أي يفعل الاعطاء والمنع، وذلـك لان القصد عدم التقـدم عليهمـا وعـدم المخالفـة لحكمهمـا بتاتـا بـدون تقييده بشيء، أو من قدم اللازم بمعنى تقدم، أي لا تتقـدموا كنايـة عن لا تخالفوهمـا فـان من تقـدم على شـخص في سـيره لا يربـط سـيره بسيره ويتمشى لقصد شخصه وخيره ولا يهتم بغيره.

وقولـه ﴿بَيْنَ يَـدَيِ اللَّهِ وَرَسُـولِهِ﴾ اليـدان مجـازان عن الجهـتين اليمين والشمال مجازا مرسلا بعلاقة الجوار، ثم استعيرت الجملـة الناهيـة عن التقدم في الجانبين إلى معنى النهي عن الحكم بأي شيء قبـل حكمهـا لان المقصود التوقف عن الأحكام مطلقـا الى صـدور الحكم من البـاب العالي، هـذا في ذلـك العصـر، وأمـا بعـده فيجب سـلوك مـا قـرره من التقيد بالنصوص ودلالاتها ثم الاعتبار بالاجماع، ثم بالاستدلال الاجتهـادي لمن هو أهـل لـه لا الحكم الاشـتهائي كمـا هـو سـهل ﴿وَاتَّقُـوا اللَّهَ﴾ أي مخالفتـه عن مراعـاة النظـام فـان الانـام لا قيـام لهم بـدون النظـام، والنظام من أحكام الله الملك العلام والرسول صلى اللـه عليـه وسـلم مبلغ لها ومبينها للانام ﴿إِنَّ اللَّهَ سَـمِيعٌ﴾ لكـل مـا يسـمع و﴿عَلِيمٌ﴾ بكـل المعلومات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ يعني اذا تكلم الرسول صلى الله عليه وسلم في موضوع فلا تتكلموا عند ذلك بصوت جهوري يعلو على صوته فلا يسمعه المستمعون له. واذا تكلمتم

معه صلى الله عليه وسلم فليكن صوتكم همسا، لا جهـارا بحيث يرتفـع على صوته أو يساويه بل أخفضوه رعاية للادب في مكالمته صـلى اللـه عليـه وسـلم ﴿وَلَا تَجْهَـرُوا لَـهُ بِـالْقَوْلِ كَجَهْـرِ بَعْضِـكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي واذا ابتدأتم بالكلام معه فلا تجهـروا لـه بحيث يـؤذي سـمعه ويـؤلم شـعوره كجهر بعض لبعض كأن يناديه للاستنجاد والاستغاثة من بعيـد، فـان ذلـك من آداب البــدويين العائشــين في الصــحارى والجبــال، وأنتم صــرتم متمدنين بمدنية الاسلام الحـاوي للاحكـام، والـداعي للنظـام، والسـالك على طريق الاسلام، وليكن فيكم الدراية والرعايـة كراهـة ﴿أَنْ تَحْبَـطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ وتسقط بما يؤذيه عليه السلام ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بأن هذا النوع من اللا أدبية يرفع الهيمنة والامانة ويجلب الانسـان الى التـوحش عن نظام الدين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْـدَ رَسُـولِ اللَّهِ﴾ سـواء عنـد سـكوته عن الكلام، أو تكلمه مـع غـيره، أو تكلمـه معـه، أو في بـدء الكلام معـه في سـؤال حكم أو استفسـار عن أمــر ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُـوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ أي أعدها وهيأهـا لهـا ﴿لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ وَأَجْـرٌ عَظِيمٌ﴾ على رعايـة الأدب الرفيع مع الشفيع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ أي من خارجها خلفها أو قـدامها ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الفرق بينك وبين غيرك في المناداة وانك قد ينزل عليـك الـوحي في تلـك الأوقـات أو مشـغول بمهمـة من المهمـات. والحجرات جمع حجرة بضم الفاء وسكون العين قطعـة أرض محجـورة أي ممنوعة من دخول غير أهلها فيهـا بحائـط وبـاب أو بـأمر آخـر ﴿وَلَـوْ أَنَّهُمْ صَـبَرُوا حَتَّى تَخْـرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَـانَ خَيْـرًا لَهُمْ﴾ حيث اسـتفادوا العلم بمقصودهم بصورة معتادة مقبولة بدون ازعاج أحد واستفاد النــاس من أدبهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بليغ المغفرة عمـا تقـدم وواسـع الرحمـة لن تأدب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي فتعرفوا وتصفحوا وحققوا الخبر، وأصله حتى لا تقعوا فيما لا تحمد عواقبه. روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد بن عقبة لاخذ الزكاة إلى بني المصطلق، وكان بينه وبينهم سوء تفاهم، فلما سمعوا به استقبلوه فحسبهم مقاتليه، فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فهم بقتالهم، فنزلت. وقيل بعث اليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا اليه الصدقات فرجع.

واستدل بالآية على أن من الصحابة من ليس يعدل لان الله تعالى أطلق الفاسق على الوليد بن العقبة فيها، فان سبب النزول قطعي الدخول وهو صحابي بالاتفاق فيرد بها على من قال انهم كلهم عدول ولا يبحث عن عدالتهم في رواية ولا شهادة. وهذا أحد الأقوال في المسألة.

وثانيها: أنهم كغيرهم، فيبحث عن عدالتهم في الرواية والشهادة الا من يكون مقطوع العدالة أو ظاهرها كأعيانهم.

والثالث: أنهم عدول الى قتل عثمان رضي الله عنه ويبحث عن عدالتهم من حين قتله لوقوع الفتن فيهم، وفيهم الممسك عن خوضها.

والرابع: أنهم عدول الا من قاتل عليا كرم الله وجهه لفسقه والخروج على الأمام الحق والى هذا ذهبت المعتزلة. والحق ما ذهب اليه الأكثرون وهم يقولون: ان من طرأ له منهم قادح ككذب أو سرقة أو زنا عمل بمقتضاه في حقه، الا أنه لا يصر على ما يخل بالعدالة بناء على ما جاء في مدحهم من الآيات والأخبار وتواتر من محاسن أعمالهم فلا يسوغ لنا الحكم على من ارتكب منهم مفسقا بأنه مات على الفسق ولا ننكر أن منهم من ارتكب في حياته مفسقا لعدم القول بعصمتهم، وانه كان يقال له قبل التوبة فاسق، لكن لا يقال باستمرار هذا الوصف فيه، ثقة ببركة محبة النبي صلى الله عليه وسلم ومزيد ثناء الله عز وجل عليهم كقوله سبحانه وكذلك جعلناكم أمة وسطا أي عدولا وقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ إلى غير ذلك.

﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ علة للأمر بالتبين، أي كراهة أن تصيبوا قوما بجهالة أي متلبسين بجهالة بحقيقة الأمر ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ﴾ بايذاء بعض الناس على أثر الخبر الكاذب ﴿نَادِمِينَ﴾ على ما فعلتم مغتمين.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لوقعتم في الجهد والهلاك ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وأمنتم ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ فتركتم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي أولئك الناس الموصوفون بالأمرين هم الراشدون الواصلون الى الرشد، الموصوفون به. والرشد صلاح الدين والمال، وعند بعض الأئمة صلاح المال وليس بمقصود هنا. وقوله ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ مفعول له للفعلين السابقين حبب وكره، وما بينهما معترضة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين ودرجاتهم و﴿حَكِيمٌ﴾ في هباته.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ﴾... الآية روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان متوجها إلى زيارة سعد بن عبادة في مرضه. فمر على عبدالله بن ابي بن سلول فقال ما قال، فرد عليه عبدالله بن رواحة رضي الله عنه، فتعصب لكل منهما أصحابه، فتقاتلوا، فنزلت فقرأها صلى الله عليه وسلم عليهم فاصطلحوا، وكان ابن رواحة خزرجيا وابن أبي أوسيا.

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ أي ان اقتتل طائفتان اقتتلوا، والجمع باعتبار أن كل طائفة جمع والتثنية في قوله ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ باعتبار نفس الطائفتين، والاصلاح يكون بعد فهم ماعند الجانبين، ثم الدعوة الى التزام حكم الله، فان صلحتا فالصلح خير حاسم للشر ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي حتى ترجع الى حكم الله ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ أي بفصل ما بينهما على ما حكم الله، وتقييد الإصلاح بالعدل لانه مظنة الجور ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أي اعدلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ اي العادلين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ من حيث الانتساب الى أصل واحد وهو الايمان الموجب للحياة الأبدية ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ﴾ أي منكم ﴿مِنْ قَوْمٍ﴾ أي من قوم آخرين منكم، والسخر الهزؤ، وفي الزواجر: هو النظر الى المسخور منه بعين النقص، وقد يكون بالقول، وقد يكون بالفعل، وكل ذلك جريمة كبيرة مفسدة للمسلين وموجبة للشقاق والاختلاف، ثم علل النهي بقوله ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا﴾ أي المسخور بهم ﴿خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي من الساخرين ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾ أي ولا تسخر نساء من نساء ﴿عَسَى أَنْ يَكُنَّ﴾ أي المسخور بهن ﴿خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ أي من الساخرات ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ولا تعيبوا آحادا أو جماعات آخرين، فإنهم ما داموا مؤمنين يعتبرون من أنفسكم فتعييبكم لهم تعييب لانفسكم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لما عيب بعض بعضا جاء البعض المعيوب بعيب العائبين، وعند ذلك كان كأن اللامز لَمَزَ

نفسه ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي لا ينادي أحدكم أحدا بالالقاب ولا يدعوه بها، ولا يسميه، ولا يلقبه بما فيه عيب، والمراد بالالقاب ألقاب السوء، والا فالالقاب الحسنة استعمالها على وجه الصدق من الحسنات، وقد لقب أبو بكر بالعتيق وبالصديق، وعمر الفاروق، وعثمان بذي النورين، وعلي وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله وامثالها... نعم اللقب الغير المحبوب اذا كان من المميزات والمشخصات فلا بأس باستعماله ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ﴾ أي بئس الذكر المشهور بين الناس وهو الفسوق، وقوله ﴿بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي بعد دخول ذلك الانسان المذكور باللقب الفاسد في الإيمان أي المناسب للانسان الداخل في الإيمان أن يذكر ويشهر بالالقاب الشريفة الرفيعة لا بالألقاب البذيئة الوضيعة. وعلى ما قلنا فالاسم فاعل، والفسوق مخصوص بالذم. ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾. عن التنابز بالألقاب السيئة الى الناس ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أنفسهم بارتكاب الجريمة التي تنجر إلى جرائم أخرى لان ذلك الاستعمال يحرض الناس على المقابلة والتخاصم والتنابذ. والظالمون غيرهم لانهم يتحقرون في أعين الناس بتلك الكلمات والالقاب التافهة. أعاذنا الله من كل قول وفعل فاسد، وحفظنا من كل نابز حاسد انه هو الحفيظ العليم والرءوف الرحيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾ أي تباعدوا منه وأصل اجتنبه كان على جانب منه، ثم شاع في التباعد. ومما ينبغي علمه أن الظن هو التصديق بالنسبة التامة الخبرية بحيث لا يقطع الطرف الآخر بأن يبقى عنده مرجوحا، كظنك بمن يدور حول الأزقة بالليل خائنا، فهذا الظن اذا كان في الاعتقاديات فهو ساقط لا اعتبار له. فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وان كان في الأحكام العملية، فإن كان حاصلا من اجتهاد إنسان واصل الى درجة الاستنباط فهذا يجوز العمل به، بل يجب. وأما اذا كان

متعلقا بأحوال الناس وأفعالهم مع بعض. فان كان المظنون به مجــاهرا بالفسق، أو مشهورا به فلا بأس في ذلك الظن بل ويجب عليـه نصـيحة النـاس ومنعهم من مجاورتـه واقترابـه. وأمـا اذا كـان متعلقـا بالنـاس الصالحين أو بمن لا يعرف حاله، فهو حرام، وهـذا هـو المـراد في الآيـة الكريمة. وفي ذلك قال تعالى ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وقولـه تعـالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم، ولا تستكشفوا ما هو المستور من عيوبهم. عن أبي برزة الأسلمي قال: خطبنا رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمـان في قلبـه لا تتبعـوا عـورات المسـلمين، فـان من تتبـع عـورات المسلمين فضحه الله تعالى في قعر بيته)).

﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضا بما يكره، سواء كان في دينـه أو دنيـاه، أو خلقـه أو خلقـه، أو مالـه أو ولـده، أو زوجتـه، أو مملوكه، أو خادمه، أو لباسه او غير ذلك...

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تمثيل لما يصـدر عن الغياب بأكل لحم أخيه الميت، وذلك شيء مذموم مكروه جـدا ﴿وَاتَّقُـوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

وقد تجب الغيبة لغرض صحيح شرعي لا يتوصل اليه الا بها وتنحصر في ستة أبواب:

الأول: التظلم فلمن ظلم أن يشـكو لمن يظن أن لـه قـدرة على ازالة ظلمه.

الثـاني: الاسـتعانة على ازالـة المنكـر بـذكره لمن يظن أنـه قـادر على ازالته.

الثالث: الاستفتاء فيجوز للمستفتي أن يقول للمفتي ظلمني فلان بكـذا فهل يجوز له ذلك؟

الرابع: تحذير المسلمين عن الشر كجرح الشهود والرواة والمصنفين والمتصدين للافتاء أو الاقرار مع عدم أهليته، فتجوز اجماعا، بل تجب.

الخامس: أن يتجاهر بفسقه كالمكاسين وشربة الخمور، فيجوز ذكرهم بما تجاهروا فيه.

السادس: التعريف بنحو لقب كأن تقول: قال القاضي الأعمش.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ أي من آدم وحواء عليهما السلام ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ والفرق بين الشعب والقبيلة أن الشعب هو الجمع العظيم المنسوب إلى أصل واحد وهو يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الافخاذ، والفخذ تجمع الفصائل. فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة. وسميت الشعب شعبا لان القبائل تفصل منها. وقوله ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ علة للجعل، أي جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضا، فتصلوا الأرحام وتبينوا الاسباب والتوارث، لا للتفاخر والتشاجر ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي من هو أكثر خوفا من الله ويراعي الحرام والحلال، ويترك المحرمات، ويؤدي الواجب عينا وكفاية. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى عليم بكم وبأعمالكم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطن قلوبكم.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سبب نزولها قول ثابت بن قيس لرجل لم يفسح له عند النبي صلى الله عليه وسلم: يا ابن فلانة! فوبخه صلى الله عليه وسلم فنزلت. وروى البيهقي في سننه عن الزهري قال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا: يا رسول الله أنزوج بناتنا موالينا؟ ! فأنزل الله قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾.. الآية. وقد دلت على أنه لا ينبغي التفاخر بالانساب وبذلك نطقت الأخبار.

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الايمـان عن ابن عمـر أن النـبي طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الاركان بمحجنه فلما خـرج لم يجـد مناخا فنزل على أيدي الرجال فخطبهم فحمد اللـه وأثـنى عليـه وقـال: «الحمد لله الـذي أذهب عنكم عبيـة الجاهليـة وتكبرهـا. يـا أيهـا النـاس الناس رجلان: بـر تقي كـريم على اللـه، وفـاجر شـقي هين على اللـه، الناس كلهم بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال اللـه تعـالى يـا أيهـا النـاس انـا خلقنـاكم من ذكـر وأنـثى، إلى قولـه تعـالى خبـير» وأخـرج البيهقي وابن مردويه عن جابر بن عبدالله قال خطبنا رسول الله صـلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق خطبة الوداع، فقال: ((يـا أيهـا الناس ألا ان ربكم واحد، لا فضل لعـربي على عجمي ولا لأعجمي على عـربي ولا لأسـود على أحمـر ولا لأحمـر على أسـود الا بـالتقوى، ان أكرمكم عند الله أتقاكم، الأهل بلغت؟)) قالوا: بلى يا رسول الله قـال ((فليبلغ الشاهد الغائب)).

﴿قَـالَتِ الْأَعْـرَابُ آَمَنَّا قُـلْ لَمْ تُؤْمِنُـوا وَلَكِنْ قُولُـوا أَسْـلَمْنَا وَلَمَّا يَـدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ آَمَنُـوا بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَـابُوا وَجَاهَـدُوا بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَـلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَـدَاكُمْ لِلْإِيمَـانِ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِـيرٌ بِمَـا تَعْمَلُونَ (18)﴾

قوله تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْـرَابُ آَمَنَّا﴾... الآيـة قـال مجاهـد نـزلت في بـني أسد بن خزيمة قبيلة تجاور المدينة، أظهروا الاسلام وقلوبهم دغلة انمـا يحبون المغانم وعرض الدنيا. وروي أنهم قدموا المدينة في سـنة جدبـة فـأظهروا الشـهادتين، وكـانوا يقولـون لرسـول اللـه: جئنـاك بالاثقـال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنـو فلان، يريـدون بـذكر ذلـك الصـدقة، ويمنون به على النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: هم مزينة، وجهينـة، وأسلم، وأشجع، وغفار. قالوا آمنا فاستحققنا الكرامـة فـرد اللـه تعـالى عليهم. وعلى كل فليس المراد بالاعراب العموم، وقوله تعالى ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ إكذاب لهم في دعوى الايمان اذ هو تصديق مع الثقة واطمئنان القلب ولم يحصل لهم والا لما منوا على الرسول صلى الله عليه وسلم بترك المقاتلة ﴿وَلَكِنْ قُولُـوا أَسْـلَمْنَا﴾ فـان الاسـلام انقيـاد ودخـول في السلم، وهو ضد الحرب، وما كان من هؤلاء شيء يشعر به.

وتحقيق المقام أن الإيمان علم وتصديق للرسول بمـا جـاء من اللـه بـه اجمالا فيما علم اجمـالا، وتفصـيلا فيمـا علم كـذلك، فهـو من الكيفيـات النفسية. وأما الاسلام فهو الانقياد والاستسـلام وذلـك فعـل وقـد يظهـر المرء ذلك الانقياد بين الناس وليس عنده حب من خـردل من الإيمـان، ولـذلك قـال البـاري: ﴿قُـلْ لَمْ تُؤْمِنُـوا وَلَكِنْ قُولُـوا أَسْـلَمْنَا﴾ فالايمـان والاسلام الواقعي الحقيقي متغايران معنى، ولكنهمـا متسـاويان تحققـا. وأما الاسلام الظاهري فقد يكون مع الايمان الواقعي كما هو لعباد اللـه المؤمنين وقـد يكـون بدونـه كمـا في صـورة الآيـة الكريمـة حيث قـال: ﴿وَلَمَّا يَـدْخُلِ الْإِيمَـانُ فِي قُلُـوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُـوا اللَّهَ وَرَسُـولَهُ﴾ أي بالاخلاص ﴿لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ﴾ أي لا ينقصكم

شـيئا من الأعمـال، ولا من أجورهـا، ويجعلهـا مقبولـة مجزئـة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي لم يشــكوا مطلقـا ﴿وَجَاهَـدُوا بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في سـبيل طاعته واعلاء كلمتـه ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصـوفون بمـا ذكـر ﴿هُمُ الصَّـادِقُونَ﴾ في دعـوى الايمـان ﴿قُـلْ أَتُعَلِّمُـونَ اللَّهَ بِـدِينِكُمْ﴾ أي أتخبرونـه سـبحانه وتعالى بذلك بقولكم آمنا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعـني ان اللـه تعـالى عـالم بايمـان المؤمـنين الصادقين المجاهدين في سبيل الله كما أنه عالم بأنكم لسـتم مؤمـنين صــادقين ولم تجاهــدوا في ســبيله، فعليكم أن تتحولــوا من النفــاق وتتوجهوا إلى الله وتؤمنوا حق الايمان وتجاهدوا حق الجهاد، فاذا وفيتم بذلك أخذتم كمال الأجور هنالك ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْـلَمُوا﴾ أي يعتـدون اسلامهم منة عليك ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أي لا تعتدوا اسـلامكم منـة علي، أولا تمنـوا علي باسـلامكم ﴿بَـلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَـدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في الايمان على حسب ما زعمتم أي لــو كنتم مؤمنين بحق لكان حقا للـه أن يمن عليكم بـأن هـديكم، ولكن مـا آمنتم بحـق ولا معـنى لمنتكم بمـا ليس موجـودا عنـدكم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما غاب فيهما ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَـا تَعْمَلُـونَ﴾ بالاسرار والاعلان فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم؟

سورة ق، مكية وآياتها خمس وأربعون

نزلت بعد المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ق وَالْقُـرْآَنِ الْمَجِيـدِ (1) بَـلْ عَجِبُـوا أَنْ جَـاءَهُمْ مُنْـذِرٌ مِنْهُمْ فَقَـالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيـدٌ (3) قَـدْ عَلِمْنَـا مَـا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْـدَنَا كِتَـابٌ حَفِيـظٌ (4) بَـلْ كَـذَّبُوا بِـالْحَقِّ لَمَّا جَـاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْـرٍ مَـرِيجٍ (5) أَفَلَمْ يَنْظُـرُوا إِلَى السَّـمَاءِ فَـوْقَهُمْ كَيْـفَ بَنَيْنَاهَـا وَزَيَّنَّاهَـا وَمَـا لَهَـا مِنْ فُـرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَـدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَـا فِيهَـا مِنْ كُـلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِـرَةً وَذِكْـرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِـهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِـهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11)﴾

قوله تعالى ﴿ق﴾ إحدى الاحتمالات فيها أنها اسم للسورة، وتسمى بالباسقات أيضا. أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه والترمذي والنسائي عن أبي واقد الليثي أنه كان صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيد بقاف واقتربت. وفي رواية ابن ماجه كان يقرؤها في الركعة الأولى من صلاة الفجر. وأخرج أبو داود وابن ماجه والبيهقي وابن أبي شيبة عن أم هشام ابنة حارثة قالت ما أخذت سورة ق والقرآن المجيد الا من في رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر اذا خطب الناس، وفي حديث ابن مردويه عن أبي العلاء رضي الله تعالى عنه مرفوعا: ((تعلموا ق والقرآن المجيد))، وذلك دليل على أنها من السور العظام.

﴿وَالْقُرْآَنِ الْمَجِيدِ﴾ أي ذي المجد والشرف من باب النسب (ذى كذا) كلابن وتامر، والواو للقسم وجوابه محذوف يدل عليه المقام، والكلام كأنه قال ق والقرآن المجيد انا أنزلناه لتنذر به الناس ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ وبل للاضراب عما يشعر به جواب القسم الى أحوالهم الشاذة ومقالتهم الناشئة عن عقائدهم الزائغة، فانهم عجبوا أن جاءهم منذر منهم أي وسول منذر لاهل الكفر والمعاصي، وهو منهم يعرفونه بالصدق والأمانة ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾أي ان إنذار هذا الشخص لنا ولامثالنا شيء غريب عجيب يتعجب منه، اذ من جملة ما جاء به أنه نعاد بعد الموت الى الحياة ثانية ونجمع ونسأل ونحاسب ونأخذ الجزاء على ما قدمنا، وهذا الشيئ يتعجب منه ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ الاستفهام للتعجب، وتأكيد الانكار يقولون: أءذا متنا وتفتتت أجسادنا وكنا ترابا ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي ذلك الرجوع الى الحياة الجديدة بعيد عن عقولنا المشوبة بأوهام التقليد الموجبة لاهمال قوة القادر الفعال لما يريد ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ﴾ أي نحن أهل علم شامل بالكليات والجزئيات والأعيان والاعراض ونعلم

ما تنقص الارض من لحومهم بالتفتيت والتمزيق وتغيير صورته النوعية، ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي كتاب حافظ لتفاصيل الاشياء كلها، فاذا كانت الأجزاء الممزقة معلومة لنا قدرنا على جمعها وخلق الحياة فيها، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ. ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ أي بالدين الحق أو منشئه وهو الرسول الحق الصادق المصدوق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي اعتقاد مضطرب متزلزل، فاذا جاءهم وسيلة ايمان وثبات من جانب أتاهم موجبات من أسباب الضلال من جوانب أخرى.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ ورتبنا سماء على سماء ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالمصابيح المنورة والشهب المستنيرة ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ أي من فتوق وشقوق وخلاء في الموجات الاثيرية المترتبة ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبالا ثوابت رواسخ تمنعها من الميلان يمنة ويسرة ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ من الأشجار، والنباتات المختلفة موصوف بأنه ﴿بَهِيجٍ﴾ أي ذي بهجة ونضارة وحسن في اللون والعطر الساري في الدماغ ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى﴾ علتان لفعل مقدر بطريق الاستئناف، أي فعلنا ما فعلنا تبصرة أي تبصيرا وذكرى أي تذكيرا ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي راجع الى ربه لأنه هو الذي يستفيد من أمثال تلك الآيات.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ أي كثير البركات والخيرات ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أي أشجاراً ذات ثمار كثيرة ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي وأنبتنا به زروعا ذات حب من شأنها أن تحصد ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي وأنبتنا به النخل باسقات، أي طوالا أو حوامل من أبسقت الشاة اذا حملت ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أي منضود بعضه فوق بعض ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ وفي ذكر التبصرة والذكرى سابقا ورزقا هنا اشارة الى أن حق العبد المرزوق بهذه الأمور التي يتقوت أو يتفكه بها أن يكون بحيث يستبصر ويستذكر بها، لا أن يهمل شكر

الإنعام بها ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي بـذلك المـاء ﴿بَلْـدَةً مَيْتًـا﴾ أي أرضـا لا نمـاء فيها، فجعلناها رابية منبتة ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي ومثل تلك الحياة المعادة على الارض سنة فسنة حياة الموتى بالبعث من القبور.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُـوحٍ وَأَصْـحَابُ الـرَّسِّ وَثَمُـودُ (12) وَعَـادٌ وَفِرْعَـوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَـوْمُ تُبَّعٍ كُـلٌّ كَـذَّبَ الرُّسُـلَ فَحَـقَّ وَعِيدِ (14) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَـلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْـقٍ جَدِيـدٍ (15) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِـهِ نَفْسُـهُ وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَـانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّـمَالِ قَعِيـدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَـوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ هذه الجملة مع ما بعدها استئناف لتقرير أن البعث حق ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ وهو البئر التي لم تُبْنَ، وقيــل: هو وادٍ، وأصحابه قيل هم الذين بعث اليهم شعيب عليه السلام، وقيــل: قوم حنظلة بن صفوان ﴿وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ والمراد به هو وقومه ﴿وَإِخْـوَانُ لُـوطٍ﴾ قيـل: كـانوا من أصـهاره عليـه السـلام فليس المـراد الأخــوة الحقيقيــة من النســب ﴿وَأَصْــحَابُ الْأَيْكَـةِ﴾ والايكــة الغيظــة وأصحابها قوم غير أهل مدين بعث اليهم شـعيب عليـه السـلام ﴿وَقَـوْمُ تُبَّعٍ﴾ الحمـيري كـان تبـع مؤمنـا وقومـه كـافرين ﴿كُـلٌّ﴾ من المـذكورين ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ في ما أرسلوا به من الشرائع ﴿فَحَـقَّ وَعِيـدِ﴾ أي فثبت وحق عليهم وعيدي ﴿أَفَعَيِينَـا بِـالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أي أفتعبنـا وهلكنـا بـالخلق الاول أي بخلقهم

أول مرة فلم تبق لي طاقة اعادة الحياة اليهم في المرة الثانيـة؟ ﴿بَـلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْـقٍ جَدِيـدٍ﴾ بـل للاضـراب أي أعـرض عن موضـوع العي والتعب بالخلق الأول، فـانهم معـترفون بـذلك، وانما هم في لبس واشتباه من خلق جديد، ولو كانوا من أهـل الفكـرة لعلمـوا أنـا قـادرون على البعث وإحياء الموتى، فان العالم القادر قدرة شاملة لا يعجـزه ولا يمنعه أي مانع من اعادة الحياة في العالم الثاني.

﴿وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا الْإِنْسَـانَ وَنَعْلَمُ مَـا تُوَسْـوِسُ بِـهِ نَفْسُـهُ﴾ من الخيـالات الايجابية أو السلبية ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ والحبل معروف واضـافته إلى الوريـد وهـو عـرق مخصـوص في العنـق للبيـان كشـجر الأراك.

وقوله ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ ظـرف منصـوب بقولـه أقـرب، أي ونحن أقـرب الى الانسان من عرق عنقه إذ يتلقى ﴿الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي الملكان الذان يتلقيان كل ما يقولـه ويعملـه ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّـمَالِ قَعِيـدٌ﴾ أي عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، والقعيد فعيل بمعنى المفاعـل، أي عن اليمين مقاعد وعن الشمال مقاعد.

والباري سـبحانه وتعـالى أعلم بكـل شـيء من كـل شـيء لكن ارسـال الملكين وتقريرهما على الجانبين من الانسان لحكمة الشهادة عليه في يوم الحساب ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أي الانسان ﴿مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾أي ملك يرقب أعماله وأقواله ويكتبها فان كـان خـيرا فهـو صـاحب اليمين، وان كان شرا فهو صاحب الشمال. وقوله ﴿عَتِيدٌ﴾ أي مُعدٌّ ومهيـأ لكتابـة مـا أمر به من الخير أو الشر. والظاهر أنهما في سائر أحـوال الانسـان عن يمينه وعن شماله. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنـه قـال: أن قعد فأحدهما عن يمينه والاخر من شماله، وان مشـى فأحـدهما أمامـه والآخر خلفه. وان رقد فأحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، والانسـان يبقى في هذه الحالة مع وجود دواعيه للخير والشر إلى الأجل.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ أي دهشة الموت التي تزيل العقل كشرب المسكر القوي ومجيئها ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي متلبسا بالثبوت الواقعي لا شبهة فيه ﴿ذَلِكَ﴾ أي مجيء الموت ﴿مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي تميل وتنحرف ولا تريده ولا ترضى به.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35)﴾

قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي نفخة البعث بقرينة البيان الآتي ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي ذلك النفخ يوم انجاز الوعيد الوارد في الدنيا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم، أو الوارد في القرآن الكريم

﴿وَجَـاءَتْ﴾ بعـد البعث ﴿كُـلُّ نَفْسٍ﴾ من النفـوس الـبرة أو الفـاجرة حالكونها ﴿مَعَهَا سَائِقٌ﴾ يسوقها ﴿وَشَـهِيدٌ﴾ من الملائكـة لتشـهد لهـا أو عليها. وهذا السوق يختلف بحسب مـراتب المبعـوثين المسـوقين، كمـا أن كلام الشهيد للخـير وعلى الأعمـال الصـالحة غـير كلام الشـهيد على الشـر وعلى الأعمـال السـيئة، فيقـال للمسـوق إلى ميـدان الحسـاب والقائل هو الله تعالى أو ملك مأمور بـذلك: ﴿لَقَـدْ كُنْتَ فِي غَفْلَـةٍ مِنْ﴾ مجيئ هذا اليـوم ﴿فَكَشَـفْنَا عَنْكَ غِطَـاءَكَ﴾ أي الحجـاب السـاتر لامـور المعاد فزال ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي نافـذ الإبصـار لـزوال المـانع لـه ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ أي شيطانه المقيض له في الدنيا: ﴿هَذَا مَـا لَـدَيَّ عَتِيـدٌ﴾ الاشارة الى الكافر الملزوم عنده، أي هذا الشخص الكافر عندي ومهيـأ لجهنم قد هيأته منذ وجدته لعذاب جهنم.

فقال الله سبحانه وتعالى للسـائق والشـهيد ﴿أَلْقِيَـا فِي جَهَنَّمَ كُـلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ مبالغ في العناد وعـدم الخضـوع للحـق ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْـرِ﴾ مبـالغ في منع الحقوق الماليـة عن المسـتحقين ﴿مُعْتَـدٍ﴾ متجـاوز عن حـدود اللـه ﴿مُـــرِيبٍ﴾ شـــاك في اللـــه أو في البعث، أو في القـــرآن، أو في دين الاسلام، أو في الكل ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَـاهُ فِي الْعَـذَابِ الشَّـدِيدِ * قَـالَ قَرِينُـهُ﴾ رد الكلام المقـرون: ﴿رَبَّنَـا﴾ ان هـذا القـرين أغواني وأطغاني ربنا ﴿مَـا أَطْغَيْتُـهُ﴾ ومـا أجبرتـه على الطغيـان ﴿وَلَكِنْ كَانَ﴾ هو بالذات ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ من الصراط المستقيم. قال البـاري سبحانه وتعالى ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ في موقـف الحسـاب ﴿وَقَـدْ قَـدَّمْتُ إِلَيْكُمْ﴾ الى كـل من القـرين ومن قـرن بـه ﴿بِالْوَعِيـدِ﴾ على الغـاوي والمغوي فلا نفـع في اختصـامكم ولا تطمعـوا في الخلاص عن العـذاب الذي تستحقونه ﴿مَا يُبَـدَّلُ الْقَـوْلُ لَـدَيَّ﴾ الـذي صـدر مـني في معاقبـة الكافرين ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ﴾ أي بذي ظلم مثقال ذرة ﴿لِلْعَبِيدِ﴾ وبه يتعلق قوله ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ من المعذبين وهل تحقق ما حلفت عليه بقولي لأملأن جهنم منك وممن تبعك

﴿وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ على هذا العدد حتى تأتوا به وتجعلوه مع زملائه الداخلين. فيضع الجبار قدمه فيها ويتجلى عليها بالقبض، فتقول: قطني قطني بعزتك.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي وقربت لمن اتقى الكفر والمعاصي ﴿غَيْـرَ بَعِيدٍ﴾ أي حالكونها في مكان غير بعيد منهم. وقيل لهم من جـانب اللـه أو الملك المأمور ﴿هَذَا مَا تُوعَـدُونَ لِكُـلِّ أَوَّابٍ﴾رجـاع إلى اللـه أي من كان بحيث كلما غفل عنه تذكر، وكلما نسى تفكـر، وكلمـا عصـى تـاب، وكلما ابتعد عنه آبَ ﴿حَفِيظٍ﴾ حافـظ على نفسـه وقواهـا من أن تـورط وتنغمر ولا تخلص حتى ينقهر ﴿مَنْ خَشِيَ﴾ مخالفة ﴿الـرَّحْمَنَ بِـالْغَيْبِ﴾ عن الرقابـة الماديـة، أو الـرحمن الثـابت المتلبس بـالغيب عنـه فـاتقى شهوات نفسه وهواها، وأرجعهـا عن غيهـا الى هُـداها ﴿وَجَـاءَ﴾ الى ربـه المجيب ﴿بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ فيـه قـوة نوريـة ربانيـة يرجـع قـواه الى مـولاه فيقـال لهم ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أي تلـك الجنـة المهيـأة متلبسـين ﴿بِسَـلَامٍ﴾ من المكـاره والمخطـورات، أو سـلام من انتهـاء زمـان الراحـة ﴿ذَلِـكَ يَـوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ على ذلك من لقاء الباري ورضـوانه وتجليـات الرحمـة وغفرانـه. فعن علي رضي الله عنه عن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم في قولـه تعالى ولدينا مزيد قال: يتجلى لهم الرب عز وجل.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (45)﴾

قوله تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ أي كثيرا أهلكنا قبل قومك ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من أهل قرن مقترنين في قرن واحد ومعاصرين في عصر واحد ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ﴾ أي من قومك ﴿بَطْشًا﴾ أي قوة وعدة وعددا ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي فساروا في الأرض للاستيلاء عليها، أو نقبوا في البلاد عند خوف الهلاك والفساد فانه روي عن الراغب أن معنى نقبوا هربوا بلغة أهل اليمن قائلين ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي من منجى ومخلص لنا ينجينا من الموت؟ وذلك القول اما بلسان الحال أو بلسان المقال عند بوادر نزول العذاب عليهم فخافوا وطلبوا الخلاص من العذاب ولم يجدوا ما يريدون ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في اهلاك القرون المتمردة ﴿لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ عاقل عالم واع راع للحقائق المعلومة فيجعلها أدلة قاطعة لأخذ النتائج التي يسعد بها المكلف في الدارين ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ وأصغى لما يتلى عليه من المواعظ والارشاد ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر أي متفطن يستفيد مما ألقي اليه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أي تعب وإنا قادرون على كل إيجاب وسلب ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾

أي المشـركون في اللـه وفي شخصـك ورسـالتك ودينـك وفي الكتـاب النازل عليـك وفي البعث والنشـور ﴿وَسَـبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ﴾ أي ونـزه ذاتـه عما لا يليق به واحمده على نعمه ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ أو المراد صل صلاة الصبح وصلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَـبِّحْهُ﴾ تسبيحا لائقا بك تؤديه لربـك، أو صـل في بعض اوقـات الليـل أي صـلاة المغرب والعشاء، أو صلاة التهجد الـتي تعـرف بصـلاة الليـل أيضـا ﴿و﴾ صل ﴿أَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ أي في مـا بعـد الصـلاة المفروضـة مـا شـرع من الرواتب والسنن ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ ما يسمع من أهوال الساعة وزلزال العالم أو صوت صور اسرافيل ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ كل ميت مكلـف ﴿مِنْ مَكَـانٍ قَرِيبٍ﴾ هو صخرة بيت المقدس، أو من مكان يعتبره المنادي قريبا منه لقوته ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ فان كان صـوت النفخة فهو قريب من الخـروج، والا فهـو يـوم الخـروج نفسـه ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي﴾ الأموات في الآخرة ﴿وَنُمِيتُ﴾ الأحياء في الدنيا ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أي الرجوع لا الى غيرنا ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ مصـدر وقـع حالا عن ضمير عنهم أي مسرعين في الخـروج ﴿ذَلِـكَ﴾ العمـل أو ذلـك اليوم ﴿حَشْرٌ﴾ أي يوم حشر للناس وجمعهم في صعيد واحد للمحاسـبة وهو ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ سهل لانه بأمر الإله القدير ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ في الله وفي كتاب الله ورسول الله وأتباعه المجاهدين في سبيل الله، وفي بعث أنفسهم وسوقهم إلى الله ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ بمسـيطر تجبرهم على ما تريده ﴿فَذَكِّرْ﴾ وأرشد ﴿بِـالْقُرْآنِ﴾ وآياتـه البينـات ﴿مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فانهم هم المنتفعون به. نفعنا الله بـه في الـدنيا والآخـرة يوم تكون وجوه ناضرة الى ربها ناظرة.

الجزء السابع والعشرون

<187>

سورة الذاريات مكية، وآياتها ستون

نزلت بعد الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14)﴾

قوله تعالى ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ أقسم الله تعالى بالرياح التي تذرو التراب وغيره ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ أي السحب الحاملات للأحمال الثقيلة من الأمطار وغيرها. ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ أي السفن الجارية على سطح البحار بسهولة ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ أي الملائكة الذين يقسمون الامور بين الخلائق على ما أمروا به، والقسم في الحقيقة بالله الذي خلق هذه الأشياء، فان الله هو مصدر القوة والقدرة والعمل العظيم. والمقسم عليه جملة ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾

أي أن ما توعدون من البعث بعد المـوت والحشـر والمـيزان ومحاسـبة الأعمـال، ثم السـوق الى الجنـة أو النـار لصـادق مطـابق للواقـع ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ أي جزاء الأعمال ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لا شـك فيـه ﴿وَالسَّـمَاءِ ذَاتِ الْحُبُـكِ﴾ أي ذات الطرق المتعددة والمدارات المختلفة لحركات السيارات، وهي جمع حبيكة كطرق جمع طريقة، ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ أي متخـالف متناقض في أمر الله تعالى، فتقولون ان الله خالق السماوات والأرض، وله قدرة لا تغالب، ثم تعبدون الاصنام الجامدة الهامدة التي ليس فيهـا شيء من النفع والضر، وتقولون انـه خلـق العـالم، ثم تشـركون بـه مـا ليس فيه طاقة من القوة لا في خلـق السـماوات ولا في خلـق الأرض، أو ان كلامكم في شـأن الرسـول والكلام المـنزل عليـه كـذلك، فمـرة تقولـون ان الرسـول كـاهن، ومـرة مجنـون، وهمـا لا يجتمعـان، فـان المجنون ليس له نظام في أعماله، والكاهن مرتاض له معرفـة كاملـة، وكـذلك في شـأن القـرآن الكـريم فمـرة يقـال: انـه شـعر، ومـرة انـه أساطير الأولين إلى غـير ذلـك من الأقـوال المتعارضـة. وقولـه ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي يصرف عن الايمان بمـا كلفـوا الايمـان بـه من يؤفـك من ضعفاء العقول.

ولما كانت تلك الأقوال ناشـئة عن الخـرص والتخمين الـوهمي، وكـانت غـير معقولـة ولا مقبولـة قـال: ﴿قُتِـلَ الْخَرَّاصُـونَ﴾ أي الخمـانون أي المتكلمون بالظنون والأوهام الزائفة الزائغة ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي في بحيرة عظيمة من الجهل تغمرهم وتسترهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عن الله وأداء ما أوجبه على العاقل من التفكر في الحقـائق بانظـار دقـائق يسألون على وجه الاستهزاء والاسـتعجال: ﴿أَيَّانَ يَـوْمُ الـدِّينِ﴾ أي يـوم القيامة التي ينال فيه كل إنسان جزاء ما اعتقـده وعملـه خـيرا أو شـرا ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي يقع يوم هم يحرقون على النار كـاللحم المبسوط على النار للشيء ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾

أي مقولا لهم ذوقوا عذابكم المعد لكم ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا بطريق الاستهزاء.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19) وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ لما ذكر الباري تعالى حال الكافرين في مآلهم، شرع في حال المؤمنين المتقين فقال ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لا يعلم كنه بهجتها ونضارتها والتذاذ النفس بها ﴿آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي قابلين لكل ما أعطاهم الله بالارتياح والسرور ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أي في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ لأعمالهم الصالحة ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ الهجوع النوم، وما زائدة، أي كانوا قليلا من الليل يهجعون ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي أنهم مع قلة منامهم بالليل وحقهم أن يناموا بالاسحار يستمرون بعد صلاة الصبح على الاستغفار، أي اعتبروا أنفسهم معطلين بالليل فيستغفرون بالاسحار لغفلة الليالي، وذلك نصيبهم المعنوي من الحسنات. وأما نصيبهم المادي فهو ما بينه الباري بقوله ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ أي يلزمون أنفسهم نصيبا ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أي المتعفف عن السؤال من الذين يظن بهم الغني من التعفف.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ﴾ أي دلائل من أنواع ما أودعه الله فيها من المعادن والنبات والحيوان ﴿لِلْمُوقِنِينَ﴾ الذين سلكوا الطريق البرهاني الموصــل الى الايمان بالله وبالرسل وسائر ما يجب الايمان بــه ﴿وَفِي أَنْفُسِــكُمْ﴾ أي وفي أنفسكم آيات للمستدلين بهـا وبأحوالهـا على وجـود رب واحـد قادر مختار ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تلك الأدلة ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي تعيينه وتقديره أو اسباب رزقكم من المطر والثلج والبرد والمن وغيرها يتنزل ويسـتفاد منـه ﴿وَمَـا تُوعَـدُونَ﴾ أي من الجنـة والنـار ﴿فَـوَرَبِّ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أي ان ما توعدون لحق ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ كما أنه لا شك منكم في نطقكم وتحريك ألسنتكم أو في منطـوقكم أي مـا تتلفظون به.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْـرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُـوا عَلَيْـهِ فَقَـالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْـلٍ سَـمِينٍ (26) فَقَرَّبَـهُ إِلَيْهِمْ قَـالَ أَلَا تَـأْكُلُونَ (27) فَـأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَـةً قَـالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَـا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكَ قَـالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُـوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَـلُونَ (31) قَـالُوا إِنَّا أُرْسِـلْنَا إِلَى قَـوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَـوَّمَةً عِنْـدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ (35) فَمَـا وَجَـدْنَا فِيهَــا غَيْـرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ (36) وَتَرَكْنَـا فِيهَـا آَيَـةً لِلَّذِينَ يَخَـافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37)﴾

قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ فيه تفخيم لشأن جده ابراهيم عليهما السلام، وتوجيه له الى وجوب الاقتداء به في تحمله الأذى من أجل تحقيق الهدف الأعلى وهو نشر توحيد رب العالمين، كما فيه تسلية له من حيث ان البشر مخلوق في كبد وفي محنة، ولاسيما العقلاء العلماء، ومنهم الرسل والأنبياء فانهم يجب عليهم الصبر والتحمل للأذى من أي جهة كان بحكاية ضيف ابراهيم فيقول: هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين أي عند الله عز وجل، وعنده ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي حديث زمان دخولهم عليه، ولما دخلوا عليه ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلم عليك سلاما ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي وعليكم سلام. وقوله ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي وهم قوم منكرون غير معروفين حيث لم ير قوما مثلهم في الهيئة والزي والنظافة والادب ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي فذهب ابراهيم على خفية من ضيفه إلى أهله لتهيئة طعام لهم يأكلونه، والروغ الذهاب بخفية ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ﴾ حنيذ أي سمين، وفي الكلام ايجاز، أي راغ الى اهله وذبح عجلا وشواه ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ فتوقفوا عن الاكل ﴿قَالَ﴾ مستفسرا: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ من هذا اللحم الطري السمين المشوي؟ فاعتذروا عن الأكل ﴿فَأَوْجَسَ﴾ سيدنا ابراهيم عليه السلام ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي أضمر في نفسه خوفا منهم، لانه كان وما يزال للطعام والاطعام احترام وذمام، والامتناع عنه موحش موجب لظن قصد السوء منهم، وقال بعض المفسرين رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ابراهيم عليه السلام علم بعد اعتذارهم أنهم ملائكة مأمورون بالعذاب، فخاف ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ منا انا رسل الله أرسلنا لشغل معين.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ مهيئ للعلم وكرامة النبوة والرسالة ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ سارة لما سمعت ببشارتهم ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ أي صيحة على عادة النساء اذا

أدركن شـيئا عجيبـا ﴿فَصَـكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي ضـربت بيـدها على وجههـا ﴿وَقَالَتْ﴾: أنا ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي عاقر فكيـف ألـد؟ ﴿قَـالُوا كَـذَلِكَ قَـالَ رَبُّكِ﴾ أي مثـل ذلـك القـول الـذي بشـرناك بـه قـال ربـك، وانما نحن معبرون نذكر ما أمر به ربك ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

وبعد أن هدأت أعصاب أهـل الـبيت ﴿قَـالَ﴾ ابـراهيم عليـه السـلام بعـد علمه بأنهم ملائكـة: ﴿فَمَـا خَطْبُكُمْ﴾ أي شـأنكم الخطـير الـذي تريـدون تنفيذه ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أيهـا الملائكـة المـأمورون؟ ﴿قَـالُوا إِنَّا أُرْسِـلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ يريدون قـوم لـوط عليـه السـلام ﴿لِنُرْسِـلَ عَلَيْهِمْ﴾ بعـد قلب بلادهم ﴿حِجَـارَةً مِنْ طِينٍ﴾ أي طين متحجـر ﴿مُسَـوَّمَةً﴾ أي معلمـةً معينـةً ﴿عِنْـدَ رَبِّكَ لِلْمُسْـرِفِينَ﴾ أي للمجـرمين المتجـاوزين عن الحدود مطلقا، أولهم بالذات على كون اللام للعهـد ﴿فَأَخْرَجْنَـا مَنْ كَـانَ فِيهَا﴾ فيقول البـاري فأخرجنـا من كـان فيهـا أي قـرى قـوم لـوط ﴿مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ﴾ من الــذين آمنــوا بلــوط ﴿فَمَـا وَجَـدْنَا فِيهَـا غَيْـرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ والمراد بهذا البيت بيت لوط عليه السـلام وابنتيـه ﴿وَتَرَكْنَـا فِيهَا آَيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي فقلبنـا القـرى كلهـا وأمطرنـا عليها من تلك الحجارة، وتركنا في ذلك المكان آية وعلامة على العذاب الوارد عليهم للذين يؤمنـون باللـه ويخـافون العـذاب الأليم الـوارد منـه تعالى.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُـونٌ (39) فَأَخَـذْنَاهُ وَجُنُـودَهُ فَنَبَـذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُـوَ مُلِيمٌ (40) وَفِي عَـادٍ إِذْ أَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمُ الـرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) مَـا تَـذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42) وَفِي ثَمُـودَ إِذْ قِيـلَ لَهُمْ تَمَتَّعُـوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّـاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُـرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَـانُوا مُنْتَصِـرِينَ (45) وَقَـوْمَ نُـوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (46)﴾

قوله تعالى ﴿وَفِي مُوسَى﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي وفي موسى آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بمعجزات غالبة على ما يقابله مادة أو معنى ﴿فَتَوَلَّى﴾ فرعون ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي أعرض بما عنده من قوة اعتبرها ركنا لكيانه ﴿وَقَالَ﴾ لقومه في رد ما أظهره موسى عليه السلام من المعجزات: إنه ﴿سَاحِرٌ﴾ أي عاقل لكنه عالم بالسحر وقلب عصاه حية، ويده مضيئة، وغير ما أظهره بواسطة ذلك، وليس لها بقاء تأتي وتذهب ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي يظهر ما يظهر عنده من الجن والشياطين المستولين على عقله وشعوره. والحاصل أن ما عنده مطلقا سحر يأتي به شخصه وهو عاقل، أو يأتي به قرناؤه الشياطين وهو لا اختيار له فيه ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ أي فأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ليلا وألقيت في روع فرعون جمع جنوده فجمعهم وعقب موسى ومن معه ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ وأغرقناهم ﴿وَهُوَ﴾ أي فرعون ﴿مُلِيمٌ﴾ أي آت بما يُلام عليه من الكفر والطغيان والاستمرار فيهما. أوصيغة مليم من صيغ النسب كلابن وتامر، أي هو ذو لوم يُلام، فافهم.

﴿وَفِي عَادٍ﴾ آية أخرى ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ التي لا تأتي بخير ولا تلقح شيئا ﴿مَا تَذَرُ﴾ أي ما تترك من شيئ ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي الشيئ البالي من العظم أو النبات.

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ آية أخرى ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾ أي قيل لهم من طرف صالح عليه السلام اذ أوحى اليه بقرب العذاب تمتعوا في

داركم ثلاثة أيام، والظاهر أن القـول كـان سـابقا على ذلـك، فقـال لهم صالح: ان الله بعثني اليكم بشيرا ونذيرا فآمنوا بالله ورسـوله، وتمتعـوا في دياركم آمنين متمتعين حـتى حين تـأتيكم الآجـال المقـررة، فطلبـوا منه المعجزة ناقة كذا وكذا، فمضت مدة على القوم مع صـالح والناقـة موجودة ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فعقروها وأتى أمـر اللـه فأهلـك القـوم ودمر البلاد كمـا قـال تعـالى ﴿فَأَخَـذَتْهُمُ الصَّـاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُـرُونَ * فَمَـا اسْـتَطَاعُوا مِنْ قِيَـامٍ﴾ من أمـاكنهم، أو مـا اسـتطاعوا قيامـاً على دفـع ورفـع وحركـة وسـكون ﴿وَمَـا كَـانُوا مُنْتَصِـرِينَ﴾ بـل صـاروا مقهـورين منكسرين.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ أي واذكر قوم نوح، أو وأهلكنا قوم نـوح من قبـل هـؤلاء الهـالكين ﴿إِنَّهُمْ كَـانُوا قَوْمًـا فَاسِـقِينَ﴾ خـارجين عن اطاعـة رب العالمين.

﴿وَالسَّـمَاءَ بَنَيْنَاهَـا بِأَيْـدٍ وَإِنَّا لَمُوسِـعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْـنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِـدُونَ (48) وَمِنْ كُـلِّ شَـيْءٍ خَلَقْنَـا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ (49) فَفِـرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْـهُ نَـذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُـوا مَـعَ اللَّهِ إِلَهًـا آخَـرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْـهُ نَـذِيرٌ مُبِينٌ (51) كَـذَلِكَ مَـا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (53) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (54) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُـؤْمِنِينَ (55) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيـدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُـونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُـوَ الـرَّزَّاقُ ذُو الْقُـوَّةِ الْمَتِينُ (58) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (59) فَوَيْـلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)﴾

قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ شروع في تذكير الكافرين المشركين ببيان أن ما اختص به تعالى من خلق الكائنات العظيمة لا يقدر عليه غيره، والكلام من باب الاشتغال، أي وبنينا السماء بنيناها ﴿بأيد﴾ أي بقوة، والأيد والآد ثلاثيان أجوفان بمعنى القوة لا جمع يد، لأنها لفيف، مفروق، والأصل يدي وهذان معتلا العين ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي وفرشنا الأرض فرشناها أي مهدناها وبسطناها، ولا تمنع كرويتها عن البسط، كما لا تمنع عن وجود الجبال العاليات، لأن الكرة الكبيرة كل قطعة منها كسطح، والجبال بالنسبة اليها كشعرات تنبت على رأس الانسان المعتدل أول يوم من حلقها ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي الفارشون نحن ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من كل نوع من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي مزاوجين أحدهما ذكر والآخر أنثى لحفظه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلموا أن الله قادر لا يعجزه شيء. ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ وتوجهوا الى باب طاعته والعمل بشريعته ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي مفيد لبيان الحق وعذاب من خالفه.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51) كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أي أأوصى بعضهم بعضا بهذا القول ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ فيؤثر مجاورة بعضهم لبعض في تنمية هذا الطغيان ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وأعرض بعد أن صرفت قواك في ارشادهم وما أفاد ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ منا على الاعراض عنهم ﴿وَذَكِّرْ﴾ من تظن النفع في تذكيره ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فان محصول المأمول عبادتهم لربهم ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ما خلقتهم الا

لمحبة أن يعبدون، فان الكامل المطلق غني مطلق عن جميع ما سـواه ومن سواه، فليس الخلق للافتقار إلى العبادة ولا لإرادتها منهم لانـه لـو شاءها منهم لكانت. فمن المشهور: ما شاء اللـه كـان، ومـا لم يشـأ لم يكن، ولم يكن الخلق لتلك الغاية حتى يصير الخلق عبثا غير مثمـر لهـا، وانما خلقهمـا لمحبـة العبـادة، فـان صـاحب الكبريـاء المطلقـة تناسـبه العبودية والتذلل المطلـق؛ فمن أتى بمـا أحبـه اللـه آتـاه من فضـله مـا أحبه في دنياه وأخراه، وليس الباري مريدا لآثار أعمال مادية تعود اليه، فانه يقول ﴿مَا أُرِيـدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ لي ﴿وَمَـا أُرِيـدُ أَنْ يُطْعِمُـونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

ولما كانت العبادة موقوفة على المعرفـة أوجب اللـه على عبـاده العلم والمعرفة، ورغب فيها وأمر حبيبه صلى الله عليه وسـلم بـالعلم فقـال: فاعلم أنه لا إله الا اللـه، لان العلم أسـاس العمـل وهمـا ثمـرة شـجرة الوجود، وهذا مناسب للمشهور بين الناس من الحديث القدسي ((كنت كـنزا مخفيـا فـأحببت أن أعـرف فخلقت الخلـق لكي أعـرف)) فلام ليعبــدون داخلــة على المحبــوب في المنتهى، ولام ليعرفــون على المحبوب في المبتدأ، ولمـا كـان المحبـوب المعرفـة والعلم للعبـادة فلا تحزن بمن ظلم نفسه ولم يأت بما يناسب قدسـه ﴿فَـإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُـوا ذَنُوبًا﴾ أي نصـيبا من العـذاب ﴿مِثْـلَ ذَنُـوبِ أَصْـحَابِهِمْ﴾ أي أمثـالهم من الأمم السـالفة المخالفـة للـدين ﴿فَلَا يَسْـتَعْجِلُونِ﴾ حلـول ذلـك ﴿فَوَيْـلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أعاذنا الله تعالى منه.

سورة الطور، مكية، وهي تسع وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُــورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9) وَتَسِيرُ الْجِبَـالُ سَـيْرًا (10) فَوَيْـلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَـذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَـوْضٍ يَلْعَبُـونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَـارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هَـذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَـا تُكَـذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْـبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)﴾

قوله تعالى ﴿وَالطُّورِ﴾ وهو في اللغة اسـم لكـل جبل، والمـراد بـه هنـا طور سينين الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام عنـده. ويقـال لـه طور سيناء ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ فسر بكتاب الأعمال، وباللوح المحفوظ،

وبالتوراة والانجيل، وبالقرآن المنزل على سيدنا محمد صلى اللـه عليـه وسلم. والكل هنا محتمل لكن يؤيـد ارادة القـرآن الكـريم قولـه تعـالى ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ والرق جلد رقيق يكتب، وقد كتب القرآن الكريم في الجلد في زمن أبي بكر رضـي اللـه عنـه حين جمـع القـرآن. وفي زمن عثمان رضي الله عنه في الجمع الثاني.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُـورِ﴾ يحتمـل أن يكـون المـراد بيت المعمـور الـذي في السماء السـابعة يجتمـع فيـه من الملائكة مـا لا يعلمـه إلا اللـه، أو بيت الكعبة الشريفة يطوف به الإنس والجن بحسب ما يعلمه العليم الخبـير أو بيت المقدس، ويحتمل أن يراد به اى مسجد يذكر فيه الله تعـالى أو أي بيت من بيـوت المسـلمين يعمـر بـذكر اللـه فـإن اللـه يحب الـذكر ومجالسه سواء كانت المساجد الثلاثـة أو غيرهـا ﴿وَالسَّـقْفِ الْمَرْفُـوعِ﴾ أي السماء كما رواه جماعة وصححه الحاكم عن علي كـرم اللـه وجهـه ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أي الممتلئ أو الـمُدفأ بالفوران، فالبحر المسـجور عبارة عن المحيط الفائر عند زلزلة الساعة، وهذه الأشياء مقسوم بهـا والمقسوم عليه قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَـا لَـهُ مِنْ دَافِـعٍ﴾ أي ان عذاب الله الوارد في الآيات الكثيرة بالنسـبة الى المسـتحقين للعـذاب في الآخرة لواقع لا شك ولا شبهة فيه، وان الدين أي جزاء الأعمال من الأمور التي قضى الله تعالى به وسيتحقق و﴿مَا لَـهُ مِنْ دَافِـعٍ﴾ يعارضـه ويدفعه لانه جرت المشيئة وما شاء الله كان ويقع.

﴿يَوْمَ تَمُـورُ السَّـمَاءُ مَـوْرًا﴾ أي تضـطرب اضـطرابا أي تـرتج وتشـقق ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ عن وجه الأرض بعد انقلاعها عن أمكنتها فتصـير هباء ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث والنشـور وجـزاء الاعمـال ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَـوْضٍ﴾ أي في انـدفاع زائـد في الهـوى ﴿يَلْعَبُـونَ﴾ ويطربـون ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أي يدفعون دفعـا شـديدا ﴿إِلَى نَـارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي دفعـا، ويقال لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وتدعون أنها لا تـأتي أبـد الآبدين ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾

الذي ترونه أيضا كالقرآن الذي كـان يخـبر بـه ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِـرُونَ﴾ أم أنتم عُمْيٌ عن المخــبر كمــا كنتم في الــدنيا ﴿اصْــلَوْهَا﴾ أي ادخلوهــا ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ هـذان الأمـران ﴿إِنَّمَـا تُجْـزَوْنَ مَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَـاكِهِينَ بِمَـا آَتَـاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَـاهُمْ رَبُّهُمْ عَـذَابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُـوا وَاشْـرَبُوا هَنِيئًا بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُـرُرٍ مَصْـفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَـاهُمْ بِحُـورٍ عِينٍ (20) وَالَّذِينَ آَمَنُـوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَـانٍ أَلْحَقْنَـا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَـا أَلَتْنَـاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُـلُّ امْـرِئٍ بِمَـا كَسَـبَ رَهِينٌ (21) وَأَمْـدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَـةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْـوٌ فِيهَـا وَلَا تَـأْثِيمٌ (23) وَيَطُـوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَـأَنَّهُمْ لُؤْلُـؤٌ مَكْنُـونٌ (24) وَأَقْبَـلَ بَعْضُـهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَـاءَلُونَ (25) قَـالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْـلُ فِي أَهْلِنَـا مُشْـفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَـذَابَ السَّـمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْـلُ نَـدْعُوهُ إِنَّهُ هُـوَ الْبَـرُّ الرَّحِيمُ (28) فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين بعد ذكـر حـال الكافرين فيقول: إن المتقين الذين احترزوا عن موجبات سخطه تعـالى واكتسـبوا أسـباب مرضـاته فهم ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ عظيمـة ﴿وَنَعِيمٍ﴾ عميم ﴿فَـاكِهِينَ بِمَـا آَتَـاهُمْ﴾ أي متنعمين ومتلـذذين بمـا آتـاهم ﴿رَبُّهُمْ﴾ من المشتهيات والمستلذات

﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ العذاب الذي كانوا يستحقونه على تقدير تبديل التقوى بالفسوق، فان لكل إنسان منزلين به منزلا في الجنة، ومنزلا في النار، فاذا دخل الجنة قيل له: وقاك الله من منزلك في النار، واذا دخل النار قيل له: لو اتقيت الله لوصلت الى ذلك المنزل المبارك الميمون في الجنة.

فيقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي كلوا أطعمة الجنة واشربوا مشروباتها من اللبن والعسل والماء الصافي الغير المتغير أكلا وشربا هنيئا ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا. هذا من باب الأكل والشرب وأما من باب المسكن والمقام فأفاده بهذا الوصف الواقع من ضمير الجمع السابق أعني ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ وأما الأليف فأفاده بقوله الكريم ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي وقرناهم بحور عين ولذلك عدى بالباء، والا فالتزويج متعد إلى مفعولين بالذات.

ولما ذكر حال المتقين في أنفسهم ذكر أحوالهم بالنسبة الى أولادهم وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ قاصر عن درجة ايمان الآباء ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في الدرجة اكراما لآبائهم. أخرج سعيد بن منصور وهناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: إن الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وان كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه. ثم قرأ الآية. وفي رواية ابن مردويه والطبراني عنه أنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال له: أنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول يا ربي قد عملت لي ولهم فيؤمر بالحاقهم به)) وقرأ ابن عباس الآية ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ﴾ أي وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق ﴿مِنْ عَمَلِهِمْ﴾ أي من ثواب عملهم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيئا بأن أعطينا بعض مثوباتهم أبناءهم فتنقص مثوباتهم وتنحط درجتهم، وانما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض الفضل

والإحسان، وقوله تعالى ﴿كُلُّ امْـرِئٍ بِمَـا كَسَـبَ رَهِينٌ﴾ قـال الواحـدي: هذا عود الى ذكر أهل النار فانهم مرتهنون في النـار، وأمـا المـؤمن فلا يكون مرتهنـا قـال تعـالى ﴿كُـلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَـبَتْ رَهِينَـةٌ * إِلَّا أَصْـحَابَ الْيَمِينِ﴾ وهو قول مجاهد وقال الزمخشري: كل امرئ بما كسـب رهين عام، فكل أحد مرهون عند الله بالكسب، فان كسـب خـيرا فـك رقبتـه والا أوبق بالرهن.

والذي أعتقده أن المقصـود من جملـة كـل امـرئ بمـا كسـب رهين أن الإنسان كائنا من كان مربوط بعمله لا بعمل شخص آخر، وهذا الإلحـاق ليس من باب المكسوبات بل من بـاب الموهوبـات، فيكـون جملـة كـل امرئ بما كسب رهين في معنى الغايـة لمـا تقـدم، يعـني أنـه وان كـان الانسان مرهونا بكسبه لكنـا ننظـر إلى الأبنـاء بغـير النظـر، فـان كـانوا مؤمنين الحقناهم برباط الآباء.

﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي وزدناهم بما كان من مبادئ النعم وقتا فوقتا مما يشتهون ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي يتجاذبونهـا في الجنة هم وجلساؤهم تجاذب ملاعبة ﴿لَا لَغْـوٌ فِيهَـا﴾ أي في شـربها ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي ولا يفعلون ما يؤثم بـه فاعلـه ﴿وَيَطُـوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَـانٌ﴾ لهم أي مماليـك مختصـون بهم ﴿كَـأَنَّهُمْ لُؤْلُـؤٌ مَكْنُـونٌ﴾ أي مسـتور في كن مصون عن الأيدي يعني لم يتوسخ صـفاؤه بمس أيـدي الجفـاء ﴿وَأَقْبَـلَ بَعْضُـهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَـاءَلُونَ﴾ بينهم يسـأل بعضـهم بعضـا على وجـه التحدث بالنعمة واظهار السـرور والشـكر عليـه ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْـلُ﴾ أي قبـل المـوت ﴿فِي أَهْلِنَـا مُشْـفِقِينَ﴾ أي خـائفين من العاقبـة لـزوال العافيـة ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَـا﴾ بالرحمـة والإحسـان ﴿وَوَقَانَـا عَـذَابَ السَّـمُومِ﴾ أي عذاب النار الداخل في مسام الشعرات ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ نعبده ونسأله العافية في هذا اليوم ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ أي المحسن الكثـير الرحمة. وهذا الذي أوحيناه اليك حال الفريقين وبينهما

بعدٌ لا يناسب بُعدَ المشرقين ﴿فَذَكِّرْ﴾ المؤمنين برحمة الله وعذابه وبعقابه وثوابه، ولا تهتم بنعرات السفهاء وأكاذيبهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِ﴾سبب وصول ﴿نِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ اليك والقاء أعباء الرسالة عليك ﴿بِكَاهِنٍ﴾ بائن عن الحق والحقيقة وآخِذٍ مع الشياطين أسوأ: طريقةٍ ﴿وَلَا﴾ بشخص مختل العقل ﴿مَجْنُونٍ﴾ فانك معصوم بعون الله ومصون ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (44) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (46) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49)﴾

قوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أم منقطعة أي بل أيقولون هذا الرجــل شاعر وليس برسول من الله، ونتوقـف وننتظـر عـروض نـوائب الـدهر عليـه حـتى يتـوفى، والـريب القلـق والعـارض الـذي يقلـق الإنسـان، والمنـون: قـد يـراد بـه الـدهر، وقـد يـراد بـه المـوت، والمـآل هـو أنهم ينتظرون انقراض عهده وفـوات رسـالته، ولم يعلمـوا أنـه رسـول اللـه المؤيد وكتابه كلام الله، ولا مناسبة بينه وبين الشعر الـذي مخلـوط من أشكال من المشتهيات، والمبالغات والأكـاذيب المفتعلـة، وهـذا الكتـاب الذي يمنع الانسان عن كل ذلك ويوجهه الى الله الحي القيوم.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي انتظروا كما تريدون فإني من المنتظــرين أتــربص هلاككم كمــا تتربصــون هلاكي ﴿أَمْ تَـأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ أي أتأمرهم عقولهم الزائفة بهذا التناقض والتخــالف من الكلام؟ فمرة يقولون هـو كـاهن ومـا يقولـه كهانـة، ومـرة يقولـون هـو ساحر وكلامه سحر، ومرة أخرى يقولـون هـو شـاعر وكلامـه شـعر، ولا ينظــرون إلى اختلاف أصــناف النــاس المختلفــة الآداب من الكهنــة والسـحرة والشـعراء ﴿أَمْ هُمْ قَـوْمٌ طَـاغُونَ﴾ متجـاوزون في الحـدود فيتكلمون بما يشتهون، ولا ينظرون الى الحق ولا ينتبهـون ﴿أَمْ يَقُولُـونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي هذا الكتـاب كلام افـتراه على اللـه تعـالى ﴿بَـلْ لَا يُؤْمِنُـونَ﴾ بالحق فاختلت عقولهم واحتاروا ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾

أي مثل القرآن ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فيما زعموا أنه كلام متقول فانه لو كان كذلك لكان في استطاعتهم أن يتقولوا أيضا كلاما كذلك.

﴿أَمْ خُلِقُوا﴾ وتكونوا في الدنيا ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي من غير خالق مـؤثر ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ لأنفسهم وكل ذينك باطل فان الأثـر لا يكـون بـدون مؤثر، والمـؤثر لا يكـون شخصـا قـادرا على الابـداع والتكـوين، فـاذا آل الأمر إلى الاعتراف بأن لهم خالقا موصوفا بالكمـال فكيـف لا يطيعونـه ولا ينقادون لدينه وشرعه؟ ﴿أَمْ خَلَقُـوا السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بمـا فيهمـا ﴿بَل لَا يُوقِنُونَ﴾ أي لا يوقنون حقيقة الجواب، لانهم اذا قالوا الله الـذي خلـق السـماوات والارض وخلـق مـا فيهمـا ومـا عليهمـا من المعـادن والنبات والحيوان وعلموا بحقيقة جوابهم ما كـانوا ينحرفـون عن الحـق والصواب.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ حتى تكون النبوة والرسالة عندهم يعطون من يشـاءون ويمنعـون عمن يشـاءون ﴿أَمْ هُمُ الْمُسَـيْطِرُونَ﴾ على الأمـور حتى يأمروا بما يشاءون ويمنعـوا مـا يشـاءون عن النـاس، كـل ذلـك لا توجـد عنـدهم وانما هم أنـاس ضـعفاء تحت قبضـة القـدرة، فـإذا شـاء توفاهم في طرفة عين لكنه أمهلهم فصـار لهم طغيـان وتحكم على مـا ليس من شـأنهم واسـتطاعتهم ﴿أَمْ لَهُمْ سُـلَّمٌ﴾ يصـعدون عليـه الى السماء ﴿يَسْـتَمِعُونَ فِيـهِ﴾ كلام الملائكـة أو غـيرهم ممن يوثـق بكلامـه ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ على أنه استمع شيئا يعتمد عليه ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ وحاشا خلاق العالم واجب الوجود عن التناسـب مع الممكن الموجود.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الدين اليهم ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ أي فهم مثقلون ذمة وأكتافا ولا يتحملون تلك الغرامة ولـذلك تنفـروا عنـك وعن قبـول دينـك ﴿أَمْ عِنْـدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي المقـدر المكتـوب في اللـوح المحفوظ الذي

هو غيب وغائب عن الناس ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ويخبرون بـه النـاس ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْـدًا﴾ بـك وبشـرعك حـتى تمـوت ولا تـروج شـريعتك ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يعني أنهم سفهاء خفـاف العقـول يتصـورون أنهم الكائدون على الرسول ودينه ويعارضونهما ولا يعرفـون أنهم المكيـدون المغلوبون ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَـهٌ غَيْـرُ اللَّهِ سُـبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْـرِكُونَ (43) وَإِنْ يَـرَوْا كِسْـفًا مِنَ السَّـمَاءِ سَـاقِطًا﴾ أي وان يـروا قطعـة من السـحاب ساقطة لتعذيبهم ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ أي متراكم ملقى بعضه على بعض ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَـوْمَهُمُ الَّذِي فِيـهِ يُصْـعَقُونَ﴾ أي حـتى يلاقـوا ذلــك اليــوم الــذي يغمى عليهم من صــيحة النفخ ﴿يَــوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ من جهة الغير اذ لا غير يريد بهم الخير.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُــوا عَـذَابًا دُونَ ذَلِـكَ﴾ العــذاب من الجــدب والقحــط والغلاء ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَــرَهُمْ لَا يَعْلَمُــونَ﴾ أن أمــامهم أشــياء لا يعرفونهــا ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم فانه لا يجتمع مع الاهمال ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَـا﴾ وتحت نظر عصمتنا وصيانتنا وعنايتنـا ورعايتنـا ﴿وَسَـبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من كل مجلس، وقل: سبحانك اللهم وبحمـدك، أشـهد أن لا إلـه الا أنت، أستغفرك وأتوب اليك. أو قل عندما تقـوم إلى الصـلاة ودخلت فيهـا: سـبحانك اللهم وبحمـدك وتبـارك اسـمك، وتعـالى جـدك، ولا الـه غـيرك، أو عنـدما تقـوم من القيلولـة صـل صـلاة الظهـر ﴿وَمِنَ اللَّيْـلِ فَسَـبِّحْهُ﴾ وفي بعض اوقـات الليـل سـبح واحمـد ربـك، أو صـل الصـلاة المكتوبة للوفاء بالواجب يعني صـلاة المغـرب وصـلاة العشـاء ﴿وَإِدْبَـارَ النُّجُومِ﴾ أي وسبح بحمـد ربـك عنـد أدبـار النجـوم وميلهـا الى الغـروب والغياب، أو صل ركعتي الفجر عند ذلك. وفسـره بعض بصـلاة النوافـل بالليل، والله نسأل أن يجعلنا في الدنيا من المسبحين، وفي الآخرة من المستريحين.

سورة النجم، مكية، وهي اثنتان وستون آية، نزلت بعد سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآَهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)﴾

قوله ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ أقسم الباري سبحانه وتعالى بالنجم، والمراد به جنس النجم المعروف، وبهويه غروبه. أي اذا سقط الى الافق الغربي. وقال الحسن المراد النجوم اذا انتثرت في الفضاء في القيامة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد به النجوم اذا رجمت الشياطين. وقيل

المراد به: الثريا، فإن النجم صار علما بالغلبة لها. وقيل: هو الشعرى المرادة بقوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾. والكهان كانوا يتكلمون عن المغيبات عند طلوعها، وقيل: الزهرة وكانت تعبد، وقيل: المراد: المقدار النازل من القرآن، والهوى نزوله. وعلى كل حال فالمقسم عليه قوله ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ أي أنه ما تجاوز عن طريق الحق الذي هو الدعوة الى الله والميل الى الآخرة. وما اعتقد باطلا قط، فإن الغي هو الجهل بالواقع باعتقاد فاسد.

﴿وَمَا يَنْطِقُ﴾ أي صاحبكم الذي هو الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿عَنِ الْهَوَى﴾ أي نطقا ناشئا عن هوى النفس بدون الايحاء من جانب القدس، والمراد أنه ما يصدر نطقه فيما آتاكم به من جهته عز وجل كالقرآن عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ أي ما الذي ينطق به من القرآن الا وحي من الله عز وجل يوحى اليه بوحي منه تعالى ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ أي الذات، الذي شديدة قواه، ودليل قوته أنه قلع قرى قوم لوط من الأساس ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي ذو حصافة ومتانة في العقل ﴿فَاسْتَوَى﴾ أي فاستقام على صورته الحقيقية التي خلقها الله عليه ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ أي الجهة العلياء من السماء ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ أي قرب جبريل عليه السلام منه صلى الله عليه وسلم فتعلق جبريل في الهواء ﴿فَكَانَ﴾ أي جبريل عليه السلام منه صلى الله عليه وسلم ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أي مقدار قوسين من قسي الاعراب أو أقل وأصله انه اذا تحالف رئيسان من العرب قعدا ووضعا قوسهما بينهما مربوطا رأس قوس هذا برأس قوس ذاك، فاذا تم الحلف رمى كل منهما بسهم عن قوسه، وكان ذلك شعار الناس في عقد الأحلاف. والآية كناية عن كمال القرب والاتصال بين الرسول صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام.

وقولـه ﴿فَـأَوْحَى﴾ أي جبريـل عليـه السـلام ﴿إِلَى عَبْـدِهِ﴾ أي عبداللـه ورسـوله ﴿مَـا أَوْحَى﴾ وابهـام المـوحى بـه للتفخيم. وقولـه ﴿مَـا كَـذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أي ما كذب فؤاد محمد صلى اللـه عليـه وسـلم مـا رآه ببصره من صورة جبريـل عليـه السـلام، والمقصـود أن قلبـه كـان على وعي ورعاية، وبصره على رؤية واقعية ودراية، وتوافق على ذلك وكـان المدرك والمبصر واحدا ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَـا يَـرَى﴾ أي أتجادلونـه صـلى اللـه عليـه وسـلم على مـا رآه وبقيت صـورة المـرئي عنـده لانطباعهـا الثابت في حسه اللطيف. أو أتجادلونه على ما يرى من مثل ذلك؟

﴿وَلَقَـدْ رَآَهُ﴾ أي رأى الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم جبريـل ﴿نَزْلَـةً أُخْرَى﴾ أي مرة أخرى من النزول ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ أي عند شجرة النبق عن يمين العرش فوق السماء السابعة ﴿عِنْدَهَا﴾ أي عند السـدرة ﴿جَنَّةُ الْمَـأْوَى﴾ الـتي يـأوي اليهـا المتقـون يـوم القيامـة كمـا روي عن الحسن، واستدل به على أن الجنة فـوق السـماء السـابعة. وقـال بعض كابن عباس رضـي اللـه عنهمـا وقتـادة: جنـة المـأوى تـأوي اليهـا أرواح الشـهداء، وليسـت بـالتي وعـد المتقـون، وقيـل: هي جنـة تـأوي اليهـا الملائكة، والقول الأول أظهر. وكلمة المـأوى تُعبِّر عن أنهـا مـأوى أهـل الجنة ولو لطبقة خاصة، فهم كما يظهر من قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ وقولـه ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ متعلق برآه، والمعنى اذ يغشى السـدرة من الملائكة ما يغشى وراى الرسول صلى اللـه عليـه وسـلم مـا رآه هنـاك من جبريل ومن عجائب مخلوقات الله تعالى، ومـع ذلـك كلـه ﴿مَـا زَاغَ الْبَصَـرُ﴾ أي مـا مـال بصـر رسـول اللـه عمـا رآه ﴿وَمَـا طَغَى﴾ أي ومـا تجاوزه بل اثبته اثباتا سليما مستيقنا، وهذا تأكيد للامر الجاري من فيض ذات الباري جل جلاله ويفيد أن ذاته العالية الثابتة لم يعجبه ما رآه

لامتلائه بنور الحقيقة التي فوق المستوى: ﴿لَقَدْ رَأَى﴾ والله لقد رأى الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ أي الآيات الكبريات التي لا يراها الا من خصه الله برحمته.

وهذا التفسير الى هنا كان مبنيا على أن الكلام في رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام، والذي رآه المحققون المنصفون الناظرون الى سرد العبارة، وانتظام الضمائر، وتقرير معنى الايحاء على الوجه المناسب، هو ما قاله الحسن البصري رضي الله تعالى عنه وتبعه أناس كثيرون، ونقله صاحبا روح البيان وروح المعاني من أن الكلام جار على ما جرى بين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

فعن الحسن: أن شديد القوى هو الله تعالى، وجمع القوى للتعظيم، وذو مرة بمعنى ذي الحكمة وما يليق أن يكون وصفا لله عز وجل، وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى فاستوى وهو بالافق الأعلى على ما روى عن الحسن له سبحانه وتعالى وقال: ان ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان. ولعل الحسن يجعل الضمائر في قوله سبحانه ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الى عبده ما أوحى له عز وجل أيضا.

وكذا الضمير المنصوب في قوله ولقد رآه نزلة أخرى، فقد كان عليه الرحمة يحلف بالله تعالى لقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه، وفسر دنوه تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم برفع مكانته صلى الله عليه وسلم عنده وتدليه بجذبه بكليته إلى جانب القدس. وهذا المعنى هو الذي يطمئن اليه قلبي وأعتقد أن هذه الآيات تنطبق على حادثة المعراج الشريف، ورؤية ذات الباري في عالم الآخرة ثابتة على ما اعتقده أهل الحق من المتكلمين، فتكون من الممكنات الخاصة والماهية الممكنة لا تنقلب الى الممتنع فيمكن أيضا أن يرى في الدنيا. وظاهر قوله تعالى ولقد رآه نزلة

اخرى عند سـدرة المنتهى يـدل عليهـا، ولا ضـرورة إلى التأويـل، وأمـا كيفية رؤيته له تعـالى فموكـول الى علم اللـه الجليـل. وهـذا هـو الـذي يفيده سرد ظاهر الآيات الشريفة والله أعلم.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21) تِلْكَ إِذًا قِسْـمَةٌ ضِـيزَى (22) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْـمَاءٌ سَـمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُـدَى (23) أَمْ لِلْإِنْسَـانِ مَـا تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآَخِـــرَةُ وَالْأُولَى (25) وَكَمْ مِنْ مَلَـــكٍ فِي السَّــــمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَـفَاعَتُهُمْ شَـيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْـدِ أَنْ يَـأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيَرْضَـى (26) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْـمِيَةَ الْأُنْثَى (27) وَمَـا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (28) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَـوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَـا وَلَمْ يُـرِدْ إِلَّا الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا (29) ذَلِـكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَـدَى (30) وَلِلَّهِ مَـا فِي السَّــمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ لِيَجْـزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْـنَى (31) الَّذِينَ يَجْتَنِبُـونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُـوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَـاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَـكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32)﴾

قوله تعـالى ﴿أَفَـرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُـزَّى * وَمَنَـاةَ الثَّالِثَـةَ الْأُخْـرَى﴾ أسـماء أصنام للمشركين. فـاللات، كمـا قـال قتـادة، لثقيـف بالطـائف والعـزى لغطفان، وهي على المشهور سـمرة بنخلـة. روى ابن مردويـه عن أبي الطفيل: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسـلم مكـة بعث خالـد بن الوليد الى نخلة وكان بهـا العُـزى، فأتاهـا خالـد، وكـانت ثلاث سـمرات، فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي صلى اللــه عليه وسلم فأخبره. فقال: ((ارجع فانك لم تصـنع شـيئا)) فرجـع خالـد، فلما أبصرته السدنة مضوا وهم يقولون: يـا عـزى يـا عزى، فأتاهـا فـاذا امرأة عريانة، ناشرة شعرها،، تحثو التراب على رأسها، فجعـل يضـربها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله فأخبره، فقال عليه الصـلاة والسلام: ((تلك العزى)). ومناة قيل: كانت صخرة لهذيل وخزاعة. وعن ابن عباس لثقيف.

وعن قتادة للانصار بقديد. وقال أبو عبيدة كانت بالكعبة، واسـتظهر أبـو حيان أنها كانت ثلاثتها فيهـا. قـال: لأن المخـاطب في قولـه ﴿أَفَـرَأَيْتُمُ﴾ قـريش، والاخـرى صـفة ذم كأنـه قـال سـبحانه وتعـالى ومنـاة الثالثـة الذليلة. وذلك لان اللات على صورة آدمي، والعزى صورة نبـات، ومنـاة صورة صخرة فالآدمي أشرف من النبات، والنبات أشرف من الجماد به فالجماد متأخر، ومناة جماد فهي في أخريات المراتب.

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَـهُ الْأُنْثَى﴾ مـع أنكم في مسـتوى الحيوانـات من الادراك وتعبدون الشجر والحجر والنبات ﴿تِلْكَ﴾ القسمة التي أقررتموهـا ﴿إِذًا﴾ وأنتم في ذلـك المسـتوى ﴿قِسْـمَةٌ ضِـيزَى﴾ جـائرة غـير عادلـة، حيث اعتبرتم له سـبحانه مـا تسـتنكفون عنـه. وضـيزى بكسـر الضـاد بصـفة مشبهة من ضاز

يضيز اذا جار وظلم، وأصله ضُيْزى بضم الضاد لان الوصف لم يستعمل الا بالضم، فكسرنا الضاد حتى تسلم الياء، والا كانت تقلب اواوا لسكونها وضم ما قبلها فالتبست بالواوي. ويجوز أن تكون الكسرة أصلية على أنها مصدر كذكرى، ولكن نحتاج الى تقدير المضاف يعني قسمة ذات ضيزى أي ذات جور. ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي ما هي ﴿إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ وألفاظ تستعمل في مقابل جمادات ليس فيها معنى الشعور والعقل فضلا عن معنى الألوهية ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ صفة الأسماء وضميرها لها لا للاصنام. والمعنى جعلتموها أسماء، فان التسمية نسبة بين الاسم والمسمى فاذا قيست الى الاسم فمعناها جعلها اسما المسمى، واذا قيست إلى المسمى فمعناها جعلها مسمى للاسم، وانما اختير ههنا المعنى الأول من غير تعرض للمسمى لتحقيق أن تلك الأصنام التي يسمونها آلهة أسماء مجردة ليس لها مسميات قطعا كما في قوله سبحانه ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً﴾ وقوله ﴿أَنْتُمْ﴾ تأكيد لضمير الجمع المرفوع ﴿وَآَبَاؤُكُمْ﴾ معطوف عليه بعد التأكيد ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي بتلك الأسماء ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي برهان يستدلون به ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي أولئك المشركون الواضعون لتلك الاسماء ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي الا توهما بأن ما هم عليه حق توهما باطلا ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ عطف على الظن أي وما يتبعون الا ما تهوى الأنفس الأمارة بالسوء ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أي الدليل الحق على أن ما جاءوا به واتبعوه باطل عاطل.

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أي أبل للانسان ما تمنى واشتهى من وجود آلهة مزيفة تقربهم الى الله الحق زلفى ويطمعون فيهم خير الدنيا والشفاعة في الآخرة؟ وبديهي أن الجواب هو النفي الصرف ﴿فَلِلَّهِ الْآَخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ اى ان الله الآخرة والأولى ولا نصيب للاصنام فيهما ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾

من الإغنــاء ﴿إِلَّا مِنْ بَعْــدِ أَنْ يَــأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَــاءُ﴾ أن يشــفعوا لــه ﴿وَيَرْضَى﴾ ويراه الباري أهلا للشفاعة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَــمُّونَ الْمَلَائِكَـةَ تَسْـمِيَةَ الْأُنْثَى﴾ فـإنهم كانوا يقولون ان الملائكة بنات الله سبحانه ﴿وَمَـا لَهُمْ بِـهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي والحال أنه لا علم لهم أصلا بما يقولون ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ في تلـك التسـمية ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي التوهم الباطل ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ من الإغناء فهم جمع متولون عن ذكرنا ﴿فَـأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَـوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَـا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ولذتها بـأي وجـه يمكن الوصـول اليهـا ﴿ذَلِـكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي أمر الحياة الـدنيا مبلغهم ومنتهى مـا وصـل اليـه علمهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي الصراط المســتقيم ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَـا فِي السَّــمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ لِيَجْــزِيَ الَّذِينَ أَسَــاءُوا بِمَــا عَمِلُوا﴾ أي ليجـزي الضـالين المسـيئين بجـزاء مـا عملـوا وهـو العقـاب وعذاب النار ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَـنُوا بِالْحُسْـنَى﴾ أي بالمثوبـة الحسـنى وقولـه ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُـونَ﴾ بـدل من الموصـول في قولـه ليجـزي الـذين أحسـنوا بالحسـنى، أي ليجـزي الـذين أحسـنوا ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُـونَ كَبَـائِرَ الْإِثْمِ﴾ مما يشعر بقلة اكـتراث صـاحبه بالـدين ﴿وَالْفَـوَاحِشَ﴾ وهـو مـا عظم قبحه من الكبـائر لتعلقهـا بهتـك الأعـراض وقولـه ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ أي الصغائر استثناء من الكبائر استثناء منقطعا ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِـعُ الْمَغْفِـرَةِ﴾ أي لهم ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ انشـاء اجماليـا ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ على الأطـوار المختلفـة المـذكورة ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ولا تثنوا على أنفسكم بالنظافة والطهارة عن الأوساخ والآثام ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ المعاصي وتركها.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (34) أَعِنْـدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَـا فِي صُـحُفِ مُوسَـى (36) وَإِبْـرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَّا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَـانِ إِلَّا مَـا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَـزَاءَ الْأَوْفَى (41) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَـاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48) وَأَنَّهُ هُـوَ رَبُّ الشِّعْرَى (49) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50) وَثَمُـودَ فَمَـا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَـةَ أَهْـوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (55) هَذَا نَـذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56) أَزِفَتِ الْآَزِفَـةُ (57) لَيْسَ لَهَـا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِـفَةٌ (58) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُـونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)﴾

قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ أي الرجـل الـذي تـولى وأعـرض عن قبول الاسلام ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ أي وأعطى شـيئا قليلا من المـال ثم قطـع العطـاء. نـزلت في الوليـد بن المغـيرة كـان قـد سـمع قـراءة رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم وجلس إليـه ووعظـه. فقـرب من الاسلام، وطمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انه عاتبه رجل من المشركين وقال له: أتترك

ملة آبائك؟ ارجع الى دينك واثبت عليه، وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عما هم به من الإسلام وضل ضلالا بعيدا، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ أي وفى بما التزمه من أوامر الله تعالى، أو بالغ في الوفاء بما عاهد عليه ربه سبحانه وتعالى.

قال ابن عباس وفى بسهام الاسلام كلها ولم يوف بها أحد غيره. وهي ثلاثون سهما، منها عشرة في براءة ﴿) إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.. ﴾ الآيات، وعشرة في الأحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ... ﴾ الآيات. وست في ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. وأربع في ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ والذين يصدقون بيوم الدين والاولى اعتبار العموم فيما وفى به، ومن أهمها مقابلة نمرود، وقبول القائه في النار، والوفاء بما رأى في رؤياه، وتر كه اسماعيل وأمه في الحجاز عند بيت الله الحرام. ومن جملة ما في صحف موسى وابراهيم عليهما السلام ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي ولا تحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس أخرى ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ أي ليس له بطريق الاستحقاق الا جزاء سعيه وكسبه، ما يعتبر كسبا له من الأمور وهي: صدقة جارية، وعلم علمه الناس، وانتفعوا به، وولد صالح يدعو له. وأما ما عدا ذلك فيصله الأجر بطريق الفضل. فلله سبحانه في هذا الموضوع بابان: باب الاستحقاق والعدل، وباب الإحسان والفضل.

وقال بعض الاجلة من المحققين: انه ورد في الكتاب والسنة، ما هو قطعي في حصول الانتفاع بعمل الغير وهو ينافي ظاهر الآية مع قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فتقيد بما لا يهبه العامل لذلك الإنسان. وسأل

والي خراسان عبدالله بن طاهر الحسين بن الفضل عن هـذه الآيـة مـع قوله تعالى والله يضاعف لمن يشاء فقال: ليس له بالعدل الا ما سعى، وله بالفضل ما شاء الله تعالى، فقبل عبدالله رأس الحسين.

وفي الأذكار للنووي عليه الرحمة: المشهور من مذهب الشافعي رضـي اللـه عنـه وجماعـة أنهـا لا تصـل (أي ثـواب العبـادات البدنيـة المحضـة كالصـلاة والتلاوة بـل غيرهـا كالصـدقة والحج) وذهب أحمـد بن حنبـل وجماعة من العلماء ومن أصحاب الشافعي الى أنها تصل. فالاختيـار أن يقـول القـارئ بعـد فراغـه: اللهم أوصـل ثـواب مـا قرأتـه إلى فلان. والظاهر أنه اذا قال ذلـك ونحـوه كـوهبت ثـواب مـا قرأتـه لفلان بقلبـه كفى. وعن بعضهم اشـتراط نيـة النيابـة أول القـراءة، وفي القلب منـه شيء.

وللمسلم أن يقلد الأئمة القائلين بوصول ثواب الاعمال البدنيـة وغيرهـا كالصدقة وسائرها، فإن باب الفضل والرحمة واسع جـدا. وذكـر الشـيخ أحمد ابن حجر الهيتمي رحمه الله في كتاب الإجـارة من تحفتـه بجـواز اسـتئجار القـارئ لقـراءة القـرآن للمـوتى. وفي فتح المعين لتلميـذه التلنباري أن الشيخ السبكي قضـى الصـلوات الفائتـة عن بعض أقاربـه. وعموم فضله ورحمته، وتواتر الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات، والـدعاء لهم يدعونا إلى ما درج عليـه سـلفنا الصـالح، وليسـت أعمالنـا لأنفسـنا أقرب الى القبول منها لغيرنا. والله ولي المؤمنين.

ومن قلد القائلين بعدم وصول ثوابها لغيره لا يجوز له قطعا منع المقلـد للقائلين بوصولها إليه، فان المقلد لإمام ليس له حق المنع لمقلد امــام آخر فليتنبه لهذا والله اعلم.

تنبيه: قد علمت أن حملنا الحصر في قوله تعالى وأن ليس للانســان الا ما سعى على حصر الأعمال التي توجب الجزاء على أصول العدل، والا فباب

الفضل لا حصر فيه لامور منها: قوله صلى الله عليه وسلم ((الدال على خير كفاعله)) ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ومنها أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره وهو انتفاع بعمل الغير، ومنها أنه ثبت شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لاهل الموقف في الحساب، ثم لاهل الجنة في دخولها، ثم لأهل الكبائر في الخروج من النار، ومنها ما ثبت من أن الملائكة يدعون ويستغفرون لمن في الأرض، ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ومنها ما ثبت أن الله يخرج من النار من لم يعمل خيرا قط بمحض رحمته، وهذا انتفاع بغير عملهم. ومنها أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بحسنات آبائهم ومنها قوله تعالى في قصة اليتيمين ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ ومنها ما ثبت أن الميت ينتفع بالصدقة عنه وبالعتق بنص السنة والإجماع ومنها أن الحج المفروض يسقط عن الميت بحج وليه عنه بنص السنة. ومنها أن الحج المنذور او الصوم المنذور يسقط عن الميت بعمل غيره بنص السنة وهو انتفاع بعمل الغير، ومنها أن المدين قد امتنع صلى الله عليه وسلم من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة، وقضى دين آخر علي بن أبي طالب وانتفع بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم وهو من عمل الغير.

ولذلك قال الشيخ تقي الدين احمد ابن تيمية: من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع الا بعمله فقد خرج عن الإجماع. هذا ونسأل الله التوفيق على الاعتدال في العقائد والأقوال والأعمال. وهو حسبي ونعم الوكيل.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ أي يكشف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه ويوزن له ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ الضمير المرفوع عائد الى الإنسان، والمنصوب عائد على السعي والجزاء الاوفى مصدر مبين للنوع ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ أي أن انتهاء الخلق ورجوعهم إليه تعالى لا الى

غيره استقلالا ولا اشتراكا، والمراد بذلك رجوعهم اليه سبحانه يوم القيامة حين يحشرون ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ أي يخلق ما يضحك الإنسان أو يبكيه لان الضحك من التعجب وهو ادراك أمور غريبة لا يعرف أسبابها، والبكاء من الحزن، ومنشأ كل ذلك بخلق الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي خلق الموت والحياة ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ من كل نوع من أنواع الحيوانات وكذلك من النبات، وخلق الذكران والاناث ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ أي تقطع من محله الاصلي وتدفق في الرحم. ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ أي الإنشاء والاحياء الاخير بعد النشأة الأولى.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ أي يغني الإنسان باعطاء ما يحتاج اليه لضرورة حياته ويعطيه ما يقتنيه ويدخره لمستقبله مما يبقى ويدوم ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ وهي كوكب جنوبي عبدتها حمير وخزاعة، ومن العرب من كان يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم ولما كان اعتقادهم بذلك فاسدا رد عليهم سبحانه وتعالى بأنه مادة من المواد السماوية وكوكب من الكواكب خلقه الله تعالى ورباه وراعاه. ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ أي القدماء لانهم أولى الأمم اهلاكا بعد قوم نوح. واما عاد الأخرى فهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق، ولم يكن على قوة الاولى ﴿وَثَمُودَ﴾ أي وأهلك ثمود ﴿فَمَا أَبْقَى﴾ منهم أحدا. أو معناه أخذ كلا منهم بذنوبه ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾. أي وأهلك قوم نوح ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ إهلاك عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ من أضرابهم وكانوا يتفننون في تعذيب الناس ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ وأسقط المؤتفكة بعد قلعها عن الأرض ورفعها ﴿فَغَشَّاهَا﴾ أي فغطاها ﴿مَا غَشَّى﴾ ما غطى من المدمرات والمعذبات ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ﴾ من آلاء ﴿رَبِّكَ﴾ سواء كانت آلاء للكل كنعمة الإرشاد والتربية، أو

آلاء لبعض وبلاء لبعض كـإهلاك الأمم الظالمـة الـتي هي آلاء للفقـراء ﴿تَتَمَارَى﴾ تتشكك يعني أن هذه الأمم الطاغية الباغية قد أهلكت فصـار اهلاكهم عبرة وعظة لكثير من الناس، وكانت آلاء للمظلومين لخلاصهم عن الظلم، وكلهـا كـانت واقعـة وثابتـة لا مجـال للشـك فيهـا، وحـق الكافرين في مكة أن لا يتشككوا فيها ويعتبروا بهـا، فمـادام لا يعتـبرون فلا تهتم بهم فإنهم عما قريب يهلكون.

﴿هَـذَا نَـذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴾ أي أن رسـولنا نـذير للكـافرين من جنس المنذرين الأول القدامى وسنة الله فيمن عصاه سنته فيمن سبقهم من الأمم، ولا تجد لسنة الله تبديلا ﴿أَزِفَتِ الْآَزِفَةُ﴾ أي اقتربت الساعة التي هي دومـا أخـذت تتقـارب لأن كـل آت هـو على الاسـتمرار من مزيـد الاقتراب ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ لا كاشف عن حقيقة مـا يقـع فيها الا الله، أو لا دافع للعذاب الواقع فيها الا الله ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَـدِيثِ﴾ وهو القرآن الكريم المعجز النفيس ﴿تَعْجَبُونَ﴾ انكـارا لـه ﴿وَتَضْـحَكُونَ﴾ استهزاء به وبمن معـه لعـدم شـعوركم بمـا فيهمـا من النـور وانشـراح للصـدور ﴿وَلَا تَبْكُـونَ﴾ على انفسـكم من النـار الـتي سـتدخلونها أو لا تبكون على جهلكم وسوء حالكم ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ لاهون لا تتأثرون بما فيه من وجوه العبر والمواعظ. وما دام بقيتم على الغفلة منه الى الآن ﴿فَاسْـجُدُوا لِلَّهِ﴾ الـذي أنزلـه ﴿وَاعْبُـدُوا﴾ لعلـه يتـوب عليكم بالهـدايا للايمان. وهذه آية سجدة عند أكثر أهل العلم وقد سجد النبي صلى الله عليه وسلم عندها. أخرج الشيخان وأبو داود والنسائي وابن مردويه عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلا... الحديث.

سورة القمر، مكية وآياتها خمس وخمسون، نزلت بعد الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آَيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (6) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)﴾

قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ أي قربت جدا ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي انفصل بعضه عن بعض. وذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بنحو خمس سنين. فقد صح من رواية الشيخين وابن جرير عن أنس أن أهل مكة سألوه صلى الله عليه وسلم أن يريهم آيةً

<222>

فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حـراء بينهمـا. والأحـاديث الصـحيحة في الانشقاق كثيرة، واختلف في تواتره فقيل هـو غـير متـواتر. وفي شـرح المواقف الشريفي أنه متواتر، وهو الـذي اختـاره العلامـة ابن السـبكي قال في شرحه لمختصر ابن الحاجب: الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر منصوص عليه في القـرآن، مـروي في الصـحيحين وغيرهمـا من طرق شتى بحيث لا يمترى في تواتره. إنتهى باختصار.

وقد جاءت أحاديثه في روايات صـحيحة عن جماعـة من الصـحابة منهم علي كرم اللـه وجهه، وأنس، وابن مسـعود، وحذيفـة وجبـير بن مطعم، وابن عمر، وغيرهم..

﴿وَإِنْ يَرَوْا آَيَةً﴾ أي آية دالة على صدق الرسول صلى الله عليـه وسـلم في دعـوى رسـالته من اللـه تعـالى يعـني معجـزة من المعجـزات ﴿يُعْرِضُوا﴾ عن التأمل فيها أو يعرضوا عن جعلها دليلا على صـدقه فيهـا ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ أي مطرد دائم يأتي به محمد على مر الزمان. وقيل: معنى مستمر أنه يشـبه بعضـه بعضـا، أي اسـتمرت أفعالـه على هـذا الوجـه من التخـييلات ﴿وَكَـذَّبُوا وَاتَّبَعُـوا أَهْـوَاءَهُمْ﴾ أي وكـذب المشركون آية انشقاق القمر الحادث على يد الرسول صلى الله عليـه وسلم، كما كذبوا سائر آياته واتبعوا في ذلك أهـواءهم الفاسـدة ﴿وَكُـلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ أي وكل أمر من الأمور منته الى غايـة يسـتقر عليهـا ومن جملة تلك الأمور أمر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا بد يستقر ويثبت في الواقع على رغم أنوف الكفار لأنه شاء اللـه اسـتقراره، ومـا شاء الله كان ﴿وَلَقَـدْ جَـاءَهُمْ﴾ أي واللـه لقـد جـاءهم في القـرآن ﴿مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أي أنباء القرى الهالكـة بغضـب اللـه تعـالى ﴿مَـا فِيـهِ مُزْدَجَـرٌ﴾ وانقلاع وارتداع عن المشـي وراء الأهـواء والنفس والشـيطان ﴿حِكْمَـةٌ بَالِغَةٌ﴾

أي وما جاءهم في القرآن الكريم أخبـار وأحـوال صـادقة محكمـة غايـة الأحكام لا خلل فيها. ولما جاءتهم تلك الحكم القرآنية وما استفادوا منها بل عارضوها شـر المعارضـة حـق عليهم قـول ﴿فَمَـا تُغْنِ النُّذُرُ﴾. جمـع نذير بمعنى منذر، أي فمـا تغـنى بعـد هـذه الآيـات الـتي جـاءتهم سـائر الأمور المنذرة لهم، لأنه طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي وما دام لا تغني النذر فتول عنهم أي اترك قتـالهم، أو اترك الجدال معهم فان كان الأول فهو منسوخ بالامر بالقتال، وان كـان الثاني فالآية محكمة ثابتة. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف لقوله الآتي يخرجون، أي يـوم ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾ وهو إسرافيل جميع المكلفين ﴿إِلَى شَـيْءٍ نُكُـرٍ﴾ مسـتكره على النفوس حالكونهم ﴿خُشَّعًا أَبْصَـارُهُمْ﴾ حـال من فاعـل ﴿يَخْرُجُـونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور، أي يخرجون من القبـور يـوم البعث والنشـور، خاشـعي الأبصـار وخافضـيها من الخجـل في الظهـور ﴿كَـأَنَّهُمْ جَـرَادٌ مُنْتَشِـرٌ﴾ في الكـثرة والتمـوج والانتشـار في الاقطـار ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مسرعين في السير الى الداعي أو التوجه اليه والانتظـار لامـره ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي صعب شديد. وذلك لمـا يشـاهدونه من مخايل القهر والانتقام.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُـونٌ وَازْدُجِـرَ (9) فَـدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّـمَاءِ بِمَـاءٍ مُنْهَمِـرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَـاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَـا جَـزَاءً لِمَنْ كَـانَ كُفِـرَ (14) وَلَقَـدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُـدَّكِرٍ (15) فَكَيْـفَ كَـانَ عَـذَابِي وَنُـذُرِ (16) وَلَقَـدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17)﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ شروع في تذكير أحوال بعض من المشـركين فقـال كـذبت قبلهم قـوم نـوح ﴿فَكَـذَّبُوا عَبْـدَنَا﴾ أي نوحـا ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ أي لم يكتفـوا بالتكـذيب وأضـافوا اليـه رميـه بـالجنون واختلال العقل وقالوا: ازدجرته الجن وذهبت بلبِّه واختبطتـه ﴿فَـدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ أي فدعا ربه بأني مغلوب لقلة أعواني فـانتقم لي منهم، أو فانتصر لنفسك يا ربي فـانهم كـذبوا رسـولك ﴿فَفَتَحْنَـا أَبْـوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ أي منصب، وقيل كثير ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًـا﴾ أي وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي ماء السـماء بماء الأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُـدِرَ﴾ أي قـدرها اللـه تعـالى ﴿وَحَمَلْنَـاهُ﴾ أي نوحا ومن معـه ﴿عَلَى ذَاتِ أَلْـوَاحٍ وَدُسُـرٍ﴾ أي فحملنـاه ومن معـه على سفينة ذات ألواح خشبية ومسامير دقت فيهـا للربـط ﴿تَجْـرِي بِأَعْيُنِنَـا﴾ أي تجري تلك السفينة على سطح الماء المتموج برعايتنـا وصـيانتنا لهـا عن أن تنقلب بموجة مائية أو بريح شديدة، وفعلنا ذلك ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ أي وأهلكنا الكافرين جزاء لهم ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آَيَةً﴾ أي وقـد أبقينـا السفينة وأخشابها على الجودي لتكون آية وعلامة على ما جرى بأمرنـا، أو جعلنا تلك الحادثة نفسها آية تكون عبرة للمعتبرين ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ يتذكر ما جرى ليعتبر به ﴿فَكَيْفَ كَـانَ عَـذَابِي وَنُـذُرِ﴾ أي فـانظروا كيـف كان عذابي للمنذرين، وكيف كان انذاري لهم سابقا؟ أي أنذرتهم انـذارا شديد اللهجة ولم يسمعوا، ومن أنـذر فقـد أعـذر، أي سـلب العـذر عن المقابل ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآَنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي لتلاوتـه وتـذكر معنـاه والعـبرة والاتعاظ ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ متذكر يستفيد منه.

﴿كَـذَّبَتْ عَـادٌ فَكَيْـفَ كَـانَ عَـذَابِي وَنُـذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًـا صَرْصَرًا فِي يَـوْمِ نَحْسٍ مُسْـتَمِرٍّ (19) تَنْـزِعُ النَّاسَ كَـأَنَّهُمْ أَعْجَـازُ نَخْـلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُـذُرِ (21) وَلَقَـدْ يَسَّـرْنَا الْقُـرْآنَ لِلـذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22) كَذَّبَتْ ثَمُـودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَـالُوا أَبَشَـرًا مِنَّا وَاحِـدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَـا بَـلْ هُـوَ كَـذَّابٌ أَشِـرٌ (25) سَـيَعْلَمُونَ غَـدًا مَنِ الْكَـذَّابُ الْأَشِـرُ (26) إِنَّا مُرْسِـلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَـارْتَقِبْهُمْ وَاصْـطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَـاءَ قِسْـمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَـذَابِي وَنُـذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمْ صَـيْحَةً وَاحِـدَةً فَكَـانُوا كَهَشِـيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32)﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ عقب بحث قوم نوح بقوم عاد تـذكيرا بقـدرة الله تعالى على اهلاك قوم كما يشاء وله وسائل عديدة لتدمير أعدائــه، وما يعلم جنود ربك الا هو كي يتعظ المتعظون. فيقـول: كـذبت عـاد أي كذبت بعبدي هـود ولم يتعظـوا ببلاغـه ﴿فَكَيْـفَ كَـانَ عَـذَابِي وَنُـذُرِ﴾ أي وانذاري، أو ما أنذروا به.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي انا عذبناهم بأن أرسلنا عليهم ريحا شديدة الصوت، شديدة النفوذ في الأسماع، شديدة النضج للبــدن ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم عليهم ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ ليالي سبعا وأياما ثمانيـة، أو اسـتمر عليهم

الشـؤم في الـبرزخ بعـد الهلاك، ويسـتمر الى أن يـدخلوا جهنم وبئس المصير ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِـرٍ﴾ أي كـأنهم أعجـاز نخـل منقلع عن مغارسه ساقط على الأرض ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآَنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ يتذكر ويتعظ ويتبصر.

﴿كَـذَّبَتْ ثَمُـودُ بِالنُّذُرِ﴾ أي بالمنـذرين والمنـذر بالنسـبة اليهم وان كـان واحدا وهو سيدنا صالح، لكن من كذب رسولا في تبليغ الدين فقد كذب رسـلا كثـيرين، لأن المنهج واحـد وهـو الـدعوة الى اللـه رب العـالمين ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا﴾ أي اذا اتبعنـا ذلـك ﴿لَفِي ضَـلَالٍ﴾ عن الحق ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي نيران كثيرة، وجمع السعير باعتبار دركاتها.

﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وفينـا من هـو أحـق بـه منـه مـالا وجمـالا وقوة ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِـرٌ﴾ أي شـديد البطـر، ورد عليهم البـاري بقولـه الكريم ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ يوم القيامة أو يوما يهلكون فيه، ويخرج صـالح بسلامة ﴿مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ أمن يدعو إلى التوحيـد للـه؟ أو من يكفـر ويشرك بالله؟ وقوله تعالى ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَـةً لَهُمْ﴾ أي ثم طلبـوا من صـالح معجـزة، فـاقترحوا أن تخـرج ناقـة من صـخرة في ديـارهم عينوها، ولما علمنا بـأنهم متعنتـون ولا يسترشـدون أخرجنـا لهم الناقـة منها، ولكن جعلناهـا فتنـة وامتحانـا لهم وامتهانـا ﴿فَـارْتَقِبْهُمْ﴾ أي وقلنـا لرسولنا صالح: ارتقبهم أي انتظرهم لتر ما يـأتون بـه ﴿وَاصْـطَبِرْ﴾ على ما اتوا به اذا كان من باب سوء الأدب ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ﴾ المعهود بينهم للشـرب ﴿قِسْـمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ مقسـوم بينهم حسـب الحاجـة ﴿كُـلُّ شِـرْبٍ﴾ ونصيب منه ﴿مُحْتَضَرٌ﴾ ومهيأ لصاحبه المعين في نوبته.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ المعروف للاعمال السيئة قدار بن سالف لعقـر ناقـة صالح حتى لا تزاحم نوقهم في الشرب ﴿فَتَعَاطَى﴾ العقر وتجاسـر على الحق

﴿فَعَقَرَ﴾ الناقـة وقطـع قوائمهـا ﴿فَكَيْـفَ كَـانَ عَـذَابِي وَنُـذُرِ. إِنَّا أَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي صيحة جبريل عليـه السـلام صـباح يـوم الأحد ﴿فَكَانُوا﴾ أي فصاروا ﴿كَهَشِـيمِ الْمُحْتَظِـرِ﴾ أي كالعشـب اليـابس الـذي يجمعه الناس في الحظـيرة للمواشـي والبهـائم ﴿وَلَقَـدْ يَسَّـرْنَا الْقُـرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أي فهل هناك واحد ماجد يتلو القرآن ويتفكر في معناه ويستنبط أسراره ويعتبر به؟

﴿كَـذَّبَتْ قَـوْمُ لُـوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِـبًا إِلَّا آَلَ لُـوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَـكَرَ (35) وَلَقَـدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَـارَوْا بِالنُّذُرِ (36) وَلَقَـدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَـيْفِهِ فَطَمَسْـنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (37) وَلَقَدْ صَـبَّحَهُمْ بُكْـرَةً عَـذَابٌ مُسْـتَقِرٌّ (38) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (39) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآَنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40)﴾

قولـه ﴿كَـذَّبَتْ قَـوْمُ لُـوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ على منهج أمثالـه ﴿إِنَّا أَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي ملكا يحصبهم أي يرميهم بالحجارة، أو ريحا حاصـبة تـرميهم بالحصباء عليهم ﴿إِلَّا آَلَ لُوطٍ﴾ أي اتباعه وأهله المؤمـنين بـه ﴿نَجَّيْنَـاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ أي في سحر ﴿كَذَلِكَ﴾ أي فعلنا مثل ذلـك، وبمثلـه ﴿نَجْـزِي مَنْ شَـكَرَ﴾ لأن تـدمير العـدو تعمـير الصـديق ﴿وَلَقَـدْ أَنْـذَرَهُمْ﴾ أي لـوط ﴿بَطْشَـتَنَا﴾ أي بأخـذتنا الشـديدة لهم بالعـذاب ﴿فَتَمَـارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي فتشككوا بالمنذرين على ما قلنـا، وبالانـذارات المتتاليـة ﴿وَلَقَـدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ أي صرفوه عن اتجاهه

المؤدب المحترم وأرادوا إقناعـه على السـكوت عمـا يريـدون، وطلبـوا الفجـور بهم ﴿فَطَمَسْـنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أي أزلنـا أثرهـا ومنعناهـا عن ابصـار الضيف ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُـذُرِ﴾ أي فعـذبناهم وقلنـا لهم: ذوقـوا عـذابي ونذر ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً﴾ أي أول النهار ﴿عَـذَابٌ مُسْـتَقِرٌّ﴾ أي لـزمهم حـتى أهلكهم ﴿فَـذُوقُوا﴾ أي فقلنـا ذُوقـوا ﴿عَـذَابِي وَنُـذُرِ وَلَقَـدْ يَسَّـرْنَا الْقُرْآَنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ يتذكر.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آَلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيـزٍ مُقْتَدِرٍ (42) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَـرَاءَةٌ فِي الزُّبُـرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْـعُ وَيُوَلُّونَ الـدُّبُرَ (45) بَـلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّـاعَةُ أَدْهَى وَأَمَـرُّ (46) إِنَّ الْمُجْـرِمِينَ فِي ضَـلَالٍ وَسُعُرٍ (47) يَوْمَ يُسْـحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُـوهِهِمْ ذُوقُـوا مَسَّ سَـقَرَ (48) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَـرِ (50) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51) وَكُـلُّ شَـيْءٍ فَعَلُـوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَـرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آَلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ فما نسبوها الينـا ونسبوها الى السحر ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ أي آل فرعـون ﴿أَخْـذَ عَزِيـزٍ مُقْتَـدِرٍ﴾ مسـيطر لا يعجـزه معجـز ولا يمنعـه مـانع ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْـرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ يخاطب المشركين

المنكرين للرسول وللكتاب المنزل عليه فيقول لهم: أكفاركم خير من أولئكم الأقوام المعدودين المهلكين خيرية يحسبها حسابكم؟ أي من جهة المال والجاه والعدد والقوة المعنوية وسائر وسائل الاستيلاء ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ﴾ من عذاب الله مكتوب ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ النازلة من السماء إذا كنتم مصدقين بها؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ على حسب الدعوى والزعم الفارغ نحن جماعة ذات شوكة ومهابة وعز وانتصار على غيرنا اذا قابلناه وحاربناه، واذا كانت لكم دعوى كذلك فهي باطلة واذا كان لهم جمع كذلك قلنا لهم: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أي الأدبار وقد كان هذا من دلائل النبوة فقد نزل يوم لم يكن قتال فصار للرسول شوكة وخافوا على استيلائه فأرادوا قتله، فهاجر الى المدينة المنورة، وبعد سنين حدثت واقعة بدر الكبرى وانهزم المشركون وولوا أدبارهم ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ أي ليس ذلك الانهزام تمام عقوبتهم بل الساعة موعد عذابهم والساعة وعذابها أدهى أي اعظم داهية وبلاء وأمر عذابا وذوقا للعذاب.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ﴾ من طريق الحق في الدنيا ﴿وَسُعُرٍ﴾ في الآخرة بحسب استحقاقهم ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ ويقال لهم من جانب الملك المأمور: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي المرارة الروحية والجسدية الناشئة عن مس سقر ونارها الى الابد وقوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ روي بنصب كل على تقدير فعل مضمر يفسره الفعل الظاهر المشتغل عنه بالعمل في ضميره، وتفيد هذه الآية بهذه القراءة المعنى الصحيح الموافق لاعتقاد جمهور المسلمين، حيث قال تعالى انا خلقنا كل شيء بقدر أي على حد مقرر مقدر معلوم لنا من الأزل إلى الأبد مقارن للحكمة الالهية في أفعاله، ولا يخرج شيء عن علمنا وقدرتنا الابداعية. فالقدر على هذا عبارة عن التقدير العلمي الأزلي وذلك لان نصب كل يكون بفعل مضمر يفسره الفعل

الظاهر، واذا ذكـر المضـمر لا يبقى الظـاهر لانـه عـوض عنـه والعـوض والمعوض لا يجتمعان، فيكون الحاصـل أنـا خلقنـا كـل شـيء بقـدر، فلا يخرج عين ولا عرض عن خلقه وابداعه تعالى.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أي وما شأننا الا فعلة واحـدة وهي ايجـاد المـراد بلا معالجة ومشقة، أو ما أمرنا الا كلمة واحدة وهي قولـه تعـالى ﴿كُنْ﴾ فالأمر على الأول بمعـنى الشـأن، وعلى الثـاني بمعـنى الأمـر المقابـل للنهي، لكن يجب أن يعلم أنه ليس المراد بالامر التلفـظ بصـيغة ﴿كُنْ﴾ بل المقصود توجيه الإرادة نحو المراد الموجب لوجوده فورا، وهــذا في البسـائط المجـردة عن المـادة كـالأرواح واضـح، وكـذلك الحـال في الماديـات البسـيطة على تقـدير وجودهـا. وأمـا المـركب من الأجـزاء فالاجزاء كل منها شيء، والمجمـوع المـركب منهـا شـيء آخـر، فـأمره بالنسبة إلى الأجـزاء واحـد وبالنسـبة الى خلـق المـركب من المجمـوع واحـد، مـع العلم أن اللـه تعـالى قـادر على خلـق جميـع المركبـات بـل مجموعها المؤلف من العلويات والسفليات في آن واحد.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي أشباهكم وأمثالكم في الكفر والتمــرد على الحق ولم يجدوا وليا ولا نصـيرا ﴿فَهَـلْ مِنْ مُـدَّكِرٍ﴾ يتـذكر أن اللـه كمـا أهلك الأمم القوية الجبارة الماضية، قادر على أن يهلك الأمم المتمـردة الحاضرة، فليحذروا عن مخالفة أمره تعـالى ﴿وَكُـلُّ شَـيْءٍ فَعَلُـوهُ﴾ أي أولئك الأشياع ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ أي مكتوب في دفتر الأعمال المحفوظ عنـد الأمور المختص ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ ولا يتوهمن أحد أنه أهمــل شيء منهما مطلقا ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ <231>

أي من العقائد والاعمال السيئة ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ عظيمة الشأن ﴿وَنَهَرٍ﴾ أي وفي انهـار وافـراد اسـم الجنس لرعايـة الفواصـل. وقولـه ﴿فِي مَقْعَـدِ صِدْقٍ﴾ أي في مكان مرضي محترم، أي في مقعد يقال في حقه صدق اللـه عبـده وعـده وهـو المقـام الرفيـع العـالي في الجنـة والمجـاورة المستفادة من قوله تعالى ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَـدِرٍ﴾ للـترفيع واعلان الشـأن والمقام. يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم. <232>

سورة الرحمن، مكية وآياتها ثمان وسبعون

نزلت بعد الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآَنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13)﴾

قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ﴾ مبتدأ، والجملة بعده خبره. ثم هذه السورة مختصة ببيان نعم الباري تعالى لعباده، ولما نزلت النعم من سماء الرحمة صدرها بقوله الرحمن لتذكير الناس أن رحمة الباري تعالى هي ينبوع المكارم والخيرات، ولما كان القرآن الكريم أجل وأفضل نعمة أنعم الله بها على عباده قدم هذه النعمة الجليلة، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآَنَ﴾ ولما كان <233>

الانسان أشرف خلق الله المتمتع بنعمه عقبه بقوله ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ وبما أن الإنسان لا يستفيد بنفسه ولا يفيد غيره الا بالبيان المعرب عما في الضمير اتى بعده بقوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ولما كانت معيشة الانسان والحيوان متوقفة على زمان الكسب والاستراحة ويحصلان عادة بالليل والنهار الحاصلين من الشمس والقمر.. عقب تلك النعم بذكر الشمس والقمر وكونهما ملابسين لحساب مقرر، ولما كان الاقتيات بالناميات التي لها ساق أولا ذكر النجم وهو النبات الذي لا ساق له، والشجر وهو النبات الذي له ساق. ولما كان هذا العالم الحي محتاجا إلى فيض أمطار الرحمة وسائر البركات النازلة أتى بعدها بذكر رفع السماء ووضع الميزان لدوران كواكبها، أو بذكر الميزان الذي له دور هام في رعاية العدالة بين الأنام، والمعاملات فإن الطغيان فيها يوجب النقصان في حياة الإنسان، والعدل فيها يوجب تكافؤ أفراده في الحقوق اتى بعدها بالنهي عن الطغيان فيه والجور في استعماله فيقول الباري سبحانه: الرحمن الذي هو المختص بإفاضة الرحمة على العالم علم رسوله وسائر عباده المؤمنين القرآن الذي هو مجمع السعادة في الدارين ومنبع الخيرات وخلق الانسان لتعلم واجب حياتهم في دنياهم وسعادتهم في عقباهم من ذلك القرآن، وعلمه البيان الفصيح المعرب عما في الضمير حتى يفيد، والشمس والقمر الكوكبان العمدتان لتكوين الليل متلبسان بحسبان وتقدير لطلوعهما وحركتهما وطولهما وقصرهما، ﴿وَالنَّجْمُ﴾ النابت في الارض بلا ساق ﴿وَالشَّجَرُ﴾ الذي يقوم على ساق ﴿يَسْجُدَانِ﴾ ويخضعان لارادة الخالق المنان ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ كسقف على الكرة الأرضية التي منها خلقنا وفيها تعاد ومنها نخرج تارة أخرى للفوز بكامل السعادة، ووضع الميزان لها، أو وضع الميزان بين الناس في الأرض للتعامل، أي شرع العدل وأمر به بأن وفر على كل مستعد مستحقه، ووفى كل ذي حق حقه حتى اتنظم أمر العالم واستقام. قال عليه الصلاة <224>

والسلام: ((بالعدل قامت السماوات والأرض)). أي بقيتا على أبلغ نظـام وأتقن أحكام. ومن هذا الحديث الشريف يستفاد أن المـيزان في قولـه تعـالى ﴿وَوَضَـعَ الْمِـيزَانَ﴾ ليس محصـورا في مـيزان الأشـياء العـديل للكيل، بل يعم كل ميزان وعدالة حتى تؤمن بأن الله تعـالى جعـل لكـل كوكب سماوي مدارا خاصا وحركـة خاصـة لا ينبغي أن ينفـك عنهـا، والا تـدمرت السـماوات واختلت، وكـذلك في الأرض ومـا فيهـا من الاثقـال والمعادن وبيان ذلك يعود الى من له اختصاص بتلك العلوم. وقولـه ﴿أَلَّا تَطْغَـوْا فِي الْمِـيزَانِ﴾ أي لئلا تطغـوا فيـه، فـاللام الجـارة مقـدرة، فـان ناصبة، ولا نافية. وجعلها الزمخشري مفسرة لما في وضع المـيزان من معنى القول، لأنه بـالوحي واعلام الرسـل، وهـذا تـركيب وجيـه حسـن. ويأتي الحاصـل ووضـع المـيزان وقـال لا تطغـوا في المـيزان ﴿وَأَقِيمُـوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ في كل الأمور المتعلقـة بالانسـان من القـول والفعـل والأخذ والعطاء والمحبة والعداء وأداء الحقوق واستردادها ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوه فان من حقه التسوية والاتيان بهذه الجملـة تأكيـد ومبالغة في التوصية برعاية العدل.

وقوله ﴿وَالْأَرْضَ وَضَـعَهَا لِلْأَنَـامِ﴾ أي ووضـع الارض وخلقهـا للانـام لبـدء النشوء والاستمرار في كسب المعيشة مر الدهور والأيـام. وهـذه الآيـة تدعو الإنسان الى العلم بطرق المعيشـة واسـتفادة الخـيرات بـالمزارع والمعاملات التجاريـة واسـتخراج المعـادن. وأشـار الى بيـان نبـذة ممـا وضعه في الأرض للانام وقال ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أي فيها ضروب كثـيرة ممـا يتفكه به ﴿وَ﴾ فيها ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ هي أوعية التمر أعني الطلع ﴿وَالْحَبُّ﴾ أي وفيها الحب المخزون في السنابل وغيرهـا ﴿ذُو الْعَصْـفِ﴾ وهو ورق الزرع، وقيده بعضهم باليابس ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ أي وفيها الريحـان. وهو كـل مشـموم طيب الـريح من النبـات ﴿فَبِـأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ﴾ الخطاب للجن والإنس، يعني

الله هو الخالق لهذه النعم المحسوسة لكم ولنيلكم بالسعادة والراحة فبأي نعمة من نعمه تعالى تكذبان بإنكار وجودها أو إنكار أن الله خلقها؟

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (16) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (18) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (23) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (25) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (30)﴾

قوله تعالى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أي آدم أبا البشر عليه السلام ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ أي من طين يابس له صَلصَلَة كالجرس ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ أي الخزفِ وقد خلق الله آدم أبا البشر عليه السلام من تراب جعله طينا، ثم حمأً مَسْنونا ثم صلصالا.

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ وهو أبو الجن كادم بالنسبة الى البشر ﴿مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ أي من لهب خالص لا دخان فيه كما هو رواية عن ابن عباس رضي الله

عنهما. وقيل: هو اللهب المختلط بسواد النار أي الدخان، من مرج الشيئ اذا اضطرب واختلط.

والمعروف عند الجمهور أن الجن أجسام لطيفة نارية ويتناسلون لوجود الذكر والانثى من نوعه، وقد بعث اليهم الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد اجتمع بهم ست مرات. ومنهم من آمن، ومنهم من كفر ويتشكلون بأشكال مختلفة، وليس المراد بالجان إبليس، بل ابليس فرد من أولاد الجان، وله ذرية كثيرة وزمرة الجن المتمرد يسمون بشياطين الجن، كما أن الكفرة المارقين من الانسان يسمون بشياطين الإنس، وانما خلق الله النوعين لمحبة المعرفة والعبادة، والنيل بالسعادة، والعرض للنعيم المقيم. ومن أطاع الله ورسوله فقد هدي الى صراط مستقيم، ومن عصى وتمرد وطغى فقد ارسل الى سبيل الجحيم، ولا يلومن إلا نفسه حيث طغى وبغى وخالف قُدْسَه، والعرض للنعمة من آلاء الله تعالى ولذا قال تعالى فبأي آلاء ربكما تكذبان.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ مشرقي الصيف والشتاء ﴿وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي مغربي الصيف والشتاء، فمشرق الصيف عندما كانت الشمس في مدار السرطان، ومشرق الشتاء عندما كانت على مدار الجدي وكذا المغربان. وفي القرآن الكريم ﴿رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ باعتبار كثرة المدارات اليومية للشمس في كل دورة كما هو معلوم عند أهله.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أي أرسل البحرين كبحر النيل والبحر الابيض المتوسط وكبحر شط العرب والخليج، وأجراهما حالكونهما ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ ويتصلان كل بالآخر. والمعنى أرسل الماء المفرق المتبحر العذب، والبحر الملح، ولا يؤثر العذب في الملح بتعذيبه ولا الملح في العذب بتمليحه، كما

قـال اللـه تعـالى ﴿بَيْنَهُمَـا بَـرْزَخٌ﴾ أي حـاجز من قـدرة اللـه تعـالى ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ أي لا يخلي يبغي أحدهما على الآخر بتكييفه بالكيفية الموجـودة فيه، مع أن الماء من طبعه التأثر بالمجـاور والحاصـل أن اللـه سـبحانه وتعالى قادر على إعطاء كل شيء ومنع كل شيء كما يريد. ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ﴾ صغار الدر ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ كباره وفي كتب اللغة المرجان صغار اللآلي.

وقد قيل: ان الدراري لا تخرج من البحر العذب، وانما تخـرج من البحـر الملح، وأجيب بأن البحرين لما اتصلا كانا كبحر واحـد فينسـب الحاصـل من أحدهما اليهما بالاطلاق لانهما يتراءيان كبحر واحدٍ ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وفي تلك الدراري فوائد كثيرة. في روح المعاني: اللؤلـؤ يمنـع الخفقـان، والحـر، وضـعف الكبـد، والكلى، والحصـى، وحرقـة البـول، والسدد، واليرقان، وأمراض القلب، والسموم، والوسواوس، والجنــون، والتـوحش، والربـو شـربا، والجـذام والـبرص والبهـق والآثـار مطلقـا بالطلي...

الى غير ذلك وأن المرجان يفرح ويزيل فساد الشهوة ولو تعليقا، ونفث الدم والطحال شربا، والدمعـة والبيـاض والسـلاق والجـرب كحلا... إلي غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم.

﴿وَلَـهُ الْجَـوَارِ﴾ أي السـفن الجاريـة على سـطح البحـر ﴿الْمُنْشَـآَتُ فِي الْبَحْـرِ﴾ أي المرفوعـات فيـه ﴿كَـالْأَعْلَامِ﴾ كالجبـال ﴿فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كُـلُّ مَنْ عَلَيْهَـا فَـانٍ﴾ أي كـل من هـو على الارض سـطحها البـادي أو عمقها الفادي فانٍ اي آيل إلى الفناء والزوال ﴿وَيَبْقَى وَجْـهُ رَبِّكَ﴾ باقيـا حيا قيوما لا يفنى ولا يموت ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي يجلـه الموحـدون وينزهونـه عن النقصـان وينسـبون لـه الصـفات الكماليـة اللائقـة بذاتـه الكريم فبأي آلاء ربكما تكـذبان؟ ﴿يَسْـأَلُهُ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جميع ما يحتـاجون اليـه من كافـة الجهـات بلسـان الحـال والمقـال من المؤمنين والحال

من الكافرين ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي كل وقت من الأوقات هــو في شأن من شئونه الفعلية تنفيذا لما قرره في علمه الأزلي، يخلق ويفـني ويعطي ويمنع ويعز ويذل وهو على كـل شـيء قـدير ﴿فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32) يَـا مَعْشَـرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْـتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُـذُوا مِنْ أَقْطَـارِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُـذُوا لَا تَنْفُـذُونَ إِلَّا بِسُـلْطَانٍ (33) فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (34) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38)﴾

قولـه تعـالى: ﴿سَـنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَـا الثَّقَلَانِ﴾ الفـراغ هنـا ليس بـالمعنى المتعارف من الفراغ من عمل سابق يمنعـه عن الاشـتغال بلاحـق، بـل معناه أنه بعد نهاية العـالم الأول تـأتي نوبـة العـالم الثـاني ونبـدأ بجـزاء أعمالكم التي عملتموها ليأخـذ كـل حقـه ومسـتحقه، والمـراد بـالثقلين الجن والإنس لثقلهمــا على الأرض أو لوقارهمــا وهيبتهمــا ورزانتهمــا. ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ التي من جملتها التنبيـه على مـا أمـامكم من العذاب حتى تتنبهوا وتتوجهوا الى الله.

ثم يهددهم من مغبة أعمالهم ويقول ﴿يَـا مَعْشَـرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ تبتلـون يـوم القيامـة بعـذاب شـديد فيقـال لكم ﴿إِنِ اسْـتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُـذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وتخلصـوا من عـذاب جهنم ﴿فَانْفُـذُوا﴾ لكن ﴿لَا تَنْفُـذُونَ إِلَّا بِسُـلْطَانٍ﴾ أي بقـوة شـديدة تُعينكم على الخلاص وأنى تكون لكم؟ ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من التنبيـه والتحـذير والمسـاهلة والعفو، مع

القدرة على التعذيب وقوله ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ استئناف في جواب من يسأل عن الداعي للفرار والخروج عن أقطار السماوات والأرض، فيجيب بأن الداعي هو أنه ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ في جهنم عند ارادة التعذيب ﴿شُوَاظٌ﴾ أي لهيب خالص ﴿مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ﴾ أي ويرسل عليكما نحاس أي الصفر المعروف، أي يصب على رءوسكما صفر مذابٌ ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ أي فلا يوجد عندكما قوة الانتصار والمنع. هذا ما قرره الكثير من المفسرين.

ولكن اذا نظرنا إلى سرد الآيات الشريفة هنا، وتعقيبها بقوله الكريم ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ ظهر للعقل بادىء بدءٍ أن قوله تعالى ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ نداء لهما في الدنيا، وقوله ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ بيان وقوع القيامة وحلول العذاب فيه، وأراد الله تعالى تنبيههم وتحذيرهم عن المعصية حتى لا يقعوا في المحنة فيقول تعالى ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ لا مخلص لكم منا بأي وجه فلا تتمردوا وآمنوا بالله ورسوله وأطيعوا، وإلا فإن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض حتى تخلصوا مني فانفذوا واخرجوا.

لكن لا تخرجون الا بسلطان وقوة غالبة على الموانع وأنى تحصل لكم قوة هكذا فاذا خرجتم بدون قوة هائلة كذلك وصعدتم السماء دارت حولكم ومنعتكم شواظ، أي لهيب من نار لطيفة خالصة، ونحاس أي نار مخلوطة به فأحرقتكم قبل الخروج منها. وهذا في دنياكم، وأما في الآخرة ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي انصدعت وذلك عند حلول الساعة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي كالوردة في الحمرة ﴿كَالدِّهَانِ﴾ أي كالأديم الأحمر، وجواب إذا محذوف أي حل بكم عذاب ومحنة وبلاء لا ينحصر في البيان، وانما يكشف بالعيان ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وبأية نصيحة وبيان وتهديد وتخويف لوصولكم الى الراحة تكذبان.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (40) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (42) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آَنٍ (44) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (45)﴾

قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ تنشق السماء ﴿لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم، وهذا في موقف، وما دل على السؤال ففي موقف آخر ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ والنواصي جمع ناصية وهي مقدم الرأس، والأقدام جمع قدم، وهي قدم الرجل المعروفة. والباء للآلة مثلها في أخذت بخطام الدابة، والجار والمجرور نائب الفاعل. وكيفية هذا الأخذ على ما روي عن الضحاك أن يجمع الملك بين ناصية أحدهم وقدميه في سلسلة من وراء ظهره، ثم يكسر ظهره ويلقيه في النار، وقيل تأخذ الملائكة عليهم السلام بعضهم سحبا بالناصية، وبعضهم سحبا بالقدم. وقيل تسحبهم الملائكة تارة بأخذ النواصي، وتارة بأخذ الأقدام.

﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ وينكرون في الدنيا وجود الآخرة ووجود جهنم فيها، والآن صارت عيانا لهم ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي يتردد المعذبون بين نارها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ آَنٍ﴾ أي ماء حار متناه إناه وطبخه، بالغ في الحرارة أقصاها، يعني يعذب المجرمون تارة بالإحراق بنار جهنم، وتارة بالاجبار على شرب الحميم أي الماء الحار جدا. والعياذ بالله ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي كان قبل هذا العذاب أنواع من الآلاء فكفروا بها وعذبوا

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَـذِّبَانِ (47) ذَوَاتَـا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (49) فِيهِمَـا عَيْنَـانِ تَجْرِيَـانِ (50) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهِمَا مِنْ كُـلِّ فَاكِهَـةٍ زَوْجَـانِ (52) فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَـا مِنْ إِسْـتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَـانٌّ (56) فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (59) هَلْ جَـزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (61) وَمِنْ دُونِهِمَـا جَنَّتَـانِ (62) فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (63) مُـدْهَامَّتَانِ (64) فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (65) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (66) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَـذِّبَانِ (67) فِيهِمَـا فَاكِهَـةٌ وَنَخْـلٌ وَرُمَّانٌ (68) فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (69) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (71) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (72) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (73) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (74) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَـذِّبَانِ (75) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْـرَفٍ خُضْـرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (76) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (77) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78)﴾

قولـه تعـالى: ﴿وَلِمَنْ خَـافَ مَقَـامَ رَبِّهِ﴾ المقـام فيـه امـا مصـدر ميمي بمعنى القيام ويراد به قيامه على العـالم، أو اسـم مكـان بمعـنى محـل القيام والضيافة للتشريف، فمعناه ولمن خاف عظمة ربه ورقابتـه على الأعمال بمعنى أنه لا يغفل عنه، أو لمن خاف هيبة مقامـه ومكانـه عنـد وقوفـه للمحاسـبة أمـام ربـه ﴿جَنَّتَـانِ﴾ إحـداهما محلـه ومحـل زائريـه، والأخرى محـل حـوره ومتعلقاتـه. أو جنتـان احـداهما في داخـل قصـره والاخرى في خارجه. وقيل منزلان يتحول بينهما هنـا وهنـاك في مقابـل من يطوف بين الجحيم وبين الحميم ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ﴾ بالجنـة الأولى وما فيها أو بالثانية ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ذواتا لغة في تثنية ذات، كما أن ذاتا لغـة فيهـا، وأفنـان جمـع فن بمعـنى النـوع أي صـاحبتان لانـواع من الثمار، أو جمع فنن بمعنى ما لان من الأغصـان، أي صـاحبتان للاغصـان الدقيقة الناعمة التي يحسن منظرة الجنتين ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَـانِ﴾ أي صـنفان معـروف عنـده، وغـريب لم يعرفه في الدنيا، أو رطب أو يابس ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي الديباج ويقرب أن تكـون ظهائرهـا من ديباج نـاعم حـتى لا يتـألم الماشـي عليهـا ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي والثمر الذي يؤخذ من أشجارهما قريب من اليد لا حاجـة في أخـذه الى تعب ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي في منـازل الجنتين حور قصرت عيونهن على النظر إلا إلى أصحابهن ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَـانٌّ﴾ أي لم يفتضـهن قبـل أزواجهن انسـي ولا جـني ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَـذِّبَانِ (57) كَـأَنَّهُنَّ الْيَـاقُوتُ وَالْمَرْجَـانُ﴾ في صـفاء الخدود وباقي الجسد ولمعانها. ويمكن أن يكون وجه الشبه حمرة لـون المحل الذي تليق به الحمرة. والظاهر أن وجه الشبه هو الرغبة والميل فيهن ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (59) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾

أي مـا جـزاء احسـان الاعتقـاد والاعمـال الا احسـان المـنزل والمـاوي واحسان اللقاء مع المولى ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَمِنْ دُونِهِمَـا جَنَّتَـانِ﴾ أي ومن دون تينـك الجنـتين السـابقتين جنتـان أخريان. وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسـى عن النـبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَـافَ مَقَـامَ رَبِّهِ جَنَّتَـانِ﴾ وقوله سبحانه ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ قال: ((جنتان من ذهب للمقـربين، وجنتان من ورق لأصـحاب اليمين)) وقـال الحسـن الأوليـان للسـابقين، والأخريـان للتـابعين ﴿فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ﴾ وقولـه ﴿مُـدْهَامَّتَانِ﴾ صفتان لجنتـان وسـط بينهمـا الاعـتراض لمـا تقـدم من التنبيـه على أن تكـذيب كـل من الموصـوف والصـفة حقيـق بالانكـار والتـوبيخ، أو خـبر لمبتدأ محذوف أي هما ﴿مُـدْهَامَّتَانِ﴾ من الدهمة وهي السـواد أي غلب عليهمـا السـواد لكـثرة النبـات والأشـجار والأوراق ﴿فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي فوارتـان بالمـاء ﴿فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَذِّبَانِ (67) فِيهِمَـا فَاكِهَـةٌ وَنَخْـلٌ وَرُمَّانٌ﴾ عطـف الأخـيرين على الأول عطف الخاص على العام بناء على عد البسر والتمر من الفواكه ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ أي في بيـوت تينـك الجنـتين، أو في كل من تينـك الجنـتين السـابقتين واللاحقـتين حـور ذوات جمـال وخيرات مختارات في النسـاء وحسـان في الوجـوه والعيـون والملامح، ونعومة الايدي ولطافـة الكلام ولينـه ﴿فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ * حُـورٌ مَقْصُـورَاتٌ فِي الْخِيَـامِ﴾ أي مخـدرات حـالتهن القصـر على بيـوتهن وملازمتهن لها ﴿فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (73) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ وذلك لمزيد الرغبة على من لم تـرغب في الغـير ولم يـرغب الغير فيها.

﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْـرٍ﴾ أي متكـئين على وسـائد خضـر والوسـائد هي المخـدات أو على نمـارق بنـاء على أن الرفـرف مـا يطـرح على الفرش ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ أي وعلى وسائد عجيبة غريبة نفيسة نسـبت لجودتها الى بلدة عبقرة المنسوبة الى الجن كانت العرب في الجاهليـة تزعم أن للجن بلدة اسمها عبقرة والاشـياء النفيسـة تصـنع فيهـا، فـاذا رأت شيئا عجيبا نسبته إلى عبقرة، ويقال: هـو عبقـري، أو هي عبقريـة ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَـذِّبَانِ * تَبَـارَكَ اسْـمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْـرَامِ﴾ أي تعاظم وتقدس اسم ربك الذي هو ذو الجلال أي ذو النزاهة عن النقص، وذو الإكرام فالتبارك متوجه الى اسمه تعـالى: ومـا دام الاسـم متباركـا كان الذات متباركا بالاولى، أو أن الاسم مقحم والمقصـود تبـارك ربـك. والله هو المتبارك.

<245>

سورة الواقعة، مكية وآياتها ست وتسعون نزلت بعد طه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (6) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآَخِرِينَ (14) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26)﴾

<246>

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي إذا حدثت وتحققت القيامة التي هي الواقعة العجيبة المدهشة التي تندهش بها الألباب ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أما مصدر كالعاقبة والعافية، أي ليس لها كذب ومخالفة للواقع، أو وصف أي ليس لها نفس كاذبة تخبر بعدم وقوعها. والحقيقة أن هذا الخبر معناه الاهتمام بالوقوع وهيبة الوقوع بحيث لا يتطرق إليه أدنى شبهة. والقضية المفيدة لهذا المعنى تسمى الضرورية بشرط المحمول يعني كل شيء كان في حد ذاته ممكنا يستوى وجوده وعدمه فهو بشرط الوجود ينقلب وجوده ضروريا.

والمقصود أن القيامة التي في حد ذاتها ممكنة الوجود صارت ضرورية واجبة، لان الله تعالى قدر وقرر وصول الجزاء الى العاملين والثواب الى المطيعين، والعقاب الى الغافلين.

وقوله ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ خبران لمبتدأ محذوف أي وهي خافضة للمترفعين ورافعة للمتواضعين خافضة للكافرين رافعة للمؤمنين. أي خافضة لدركات الأسفلين ورافعة لدرجات الأعلين. وقوله ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ بيان لزمان وقوع هذه الطامة العامة الكبرى أي اذا زلزلت الأرض وحركت تحريكا شديدا بحيث تتزلزل أطواد الجبال وتنسحق كالرمال ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي وفتتت أجزاؤها الصلبة تفتيتا، من بس السويق اذا لته، أو تفرقت الجبال تفريقا أي انفصل بعض أجزائها عن بعض من بس الغنم اذا فرقها ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ أي فصارت الجبال غبارا منتشرا في الجو ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي وصرتم أصنافا ثلاثة كافرين مبعدين عن الرحمة. ومؤمنين فاضلين مؤيدين، ومؤمنين مفضولين موحدين.

وأما اعراب ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ فقال ابن جني وأبو الفضل الرازي ان قوله اذا رجت في موضع رفع على أنه خبر للمبتدأ. الذي هو اذا وقعت، وليست واحدة منهما شرطية، بل هي بمعنى وقت أي وقت وقوع الواقعة وقت رج الأرض، وادعى ابن مالك أن اذا تكون مبتدأ واستدل بهذه الآية على ذلك. وقال ابو حيان: هو بدل من اذا وقعت وجواب الشرط عندي ملفوظ به وهو قوله فأصحاب الميمنة، والمعنى اذا كان كذا وكذا فأصحاب الميمنة ما أسعدهم وما أعظم ما يجازون به. أي أن سعادتهم تظهر في ذلك الوقت ولك أن تقول ان الخبر المحذوف هو: فالناس أصناف ثلاثة: السابقون، وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة ثم يفصل أحوال كل صنف منها. وقوله ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ تفصيل للأصناف الثلاثة. وقوله ﴿فأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ أول وقوله ما أصحاب الميمنة كلمة ما مبتدأ ثان وهي للاستفهام، وما بعدها خبرها، والجملة خبر للمبتدأ الاول اكتفى عن الرابط بتكرار المبتدأ الاول. وهذا التكرار للاهتمام والاعتبار، أي فأصحاب الميمنة صنف مهم معتبر عند الله اعتبارا لائقا بدرجاتهم. وكذلك اعراب قوله تعالى ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾. أي وأصحاب المشأمة صنف لا اعتبار لهم عند الله. والميمنة: ناحية اليمين بمعنى أخذ الكتاب باليد اليمنى، أو معناها اليمن والبركة. والمشأمة ناحية الشمال بمعنى أخذ الكتاب باليد الشمالية أو معناها الشؤم مقابل اليمن.

وقوله تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أولئك المقربون هذا الصنف هو الصنف الثالث في العبارة، ولكنه هو الصنف الأول في الاعتبار، وذكرهم أخيرا حتى يتصل ببيان أحوالهم العالية، وأثمانهم الغالية، وأوصافهم الحميدة، واختصاصاتهم الفريدة. وأما المراد منهم فقال بعض: هم الذين

سبقوا الى الايمان والطاعة لله ولرسوله من غير تردد واضطراب. وقيل: هم الذين سبقوا في حيازة الكمالات من العلوم اليقينية ومراتب التقوى الواقعة بعد الإيمان، وقيل: هم الانبياء والرسل عليهم السلام لانهم مقدمو أهل الأديان. وقيل: هم السابقون الاولون من المهاجرين والأنصار.

والظاهر من الأدلة أن هذه الأصناف اذ اعتبرت من جميع العباد المكلفين فهم الأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، وان كان من أمم الأنبياء ففي كل أمة واسعة توجد الاصناف الثلاثة، ولكن أكثر الأمم عددا أمة محمد صلى الله عليه وسلم والسابقون منهم عبارة عن السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب فعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفا)) رواه الترمذي بسند حسن، ويشمل السابقون بهذا المعنى السابقين من المهاجرين والأنصار وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين. وقوله ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ متعلق بالمقربون، أو بمضمر هو حال من نائب فاعله أي كائنين في جنات النعيم الممتازة بين الجنات بلطائف الاحسان.

وقوله ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ إن كان على اعتبار السابقين من أمم جميع الأنبياء والمرسلين فالمعنى ان السابقين هم ثلة من الأولين من كل أمة وقليل من آخريها. يعني أن كل أمة فيها السابقون المقربون، لكن الأوائل منها أكثر وفي أواخرها اقل، فمثلا في امة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يكون السابقون في القرون الأولى من قرونها، كقرون الصحابة والتابعين وتابعي التابعين أكثر وأزيد من السابقين الموجودين في أخريات أمته، فان كل مسلم عاقل يؤمن بأن الصحابة والتابعين لهم مباشرة

كانوا أنور من باقي الأمة الموجودة بعدهم، والموجود من السابقين بعدهم آحاد من العلماء العاملين والأولياء والصالحين.

وان اعتبرت الأصناف الثلاثة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم كما يوافقه ظاهر الخطاب في قوله تعالى ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ فالسابقون أكثرهم في القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية، وأقلهم في من جاء بعدهم.

وقوله ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ حال من المقربين، يعني حالكونهم على سرر محكمة منسوجة بخيوط ذهبية مشبكة بالدرر واليواقيت ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ ينظر بعضهم الى بعض، وهذا عند الزيارات أو أن التقابل بين الذكور من أهل جنات النعيم وأزواجهم من الحور العين وغيرهن، والجمع المذكر للتغليب، أي يقابل الرجال النساء من الحور والنساء الرجال لاستكمال العشرة النفسية واللذة الروحية من النظر الى جمال الصاحب والصاحبة ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ أي يبقون على شكل الولدان وأولئك الولدان هم أولاد الكفار الذين ماتوا قبل البلوغ فانه اشتهر أنه عليه الصلاة والسلام قال ((أولاد الكفار خدم أهل الجنة)) وهذا هو الموافق للادلة الدينية فان أولاد المسلمين لا يفارقون آباءهم وأمهاتهم في الجنة اذ لا يطيب العيش بدون لقاء الأولاد والبنات. وأما أولاد الكفار فآباؤهم في النار لسوء الاعتقاد والاعمال والأولاد الصغار ما وصلوا درجة التكليف حتى يعذبوا فيجعلون خدما لأهل الجنة ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ بأواني لا عرى لها ولا خراطيم ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع ابريق، وهو اناء له خرطوم ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ أي من خمر جارية من العيون، أي لم تعصر كخمر الدنيا ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي حالكونهم لا يحصل صداع لرءوسهم بسبب شربها ﴿وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ أي ولا تذهب عقولهم، جمع المذكر الغائب من باب الإفعال من أنزف الشارب اذا ذهب عقله.

﴿وَفَاكِهَـةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي ياخـذون خـيره وافضـله ﴿وَلَحْمِ طَيْـرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ مما تميـل نفوسـهم اليـه وتـرغب فيـه. وقولـه ﴿وَحُـورٌ عِينٌ﴾ عطـف على ولـدان أي وتطـوف عليهم حـور عين. وعين جمـع عينـاء، وأصله عين على وزن فقل فكسرنا فاء الفعل حـتى لا تقلب اليـاء واوا، وتلتبس اليـائي بـالواوي، وهن ﴿كَأَمْثَـالِ اللُّؤْلُـؤِ الْمَكْنُـونِ﴾ أي كأمثـال اللؤلؤ المستور في صفائها ولمعانها ﴿جَزَاءً بِمَا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ﴾ مفعـول له لفعل محذوف أي يعطون ذلك جزاء بما كـانوا يعملونـه من الأعمـال الصالحة في الـدنيا. ﴿لَا يَسْـمَعُونَ فِيهَـا لَغْـوًا﴾ أي كلامـا لا يعتـد بـه من العقلاء ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي كلاما فيه النسـبة الى الاثم، أو التـأثيم التجـريح، يعني لا يسمعون كلاما فيه جرح وألم لقلوبهم، لان الجنة دار الصــفاء لا دار الجفاء وقوله ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ مستثنى مما قبله على قاعـدة تأكيد المدح بما يشبه الذم، أي ان كان سلاما سـلاما كلامـا فيـه التـأثيم وأنى ذلك! هذه النبذة نموذج من أحوال السابقين.

﴿وَأَصْـحَابُ الْيَمِينِ مَـا أَصْـحَابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِـدْرٍ مَخْضُـودٍ (28) وَطَلْحٍ مَنْضُـودٍ (29) وَظِـلٍّ مَمْـدُودٍ (30) وَمَـاءٍ مَسْـكُوبٍ (31) وَفَاكِهَـةٍ كَثِـيرَةٍ (32) لَا مَقْطُوعَـةٍ وَلَا مَمْنُوعَـةٍ (33) وَفُـرُشٍ مَرْفُوعَـةٍ (34) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (36) عُرُبًا أَتْرَابًا (37) لِأَصْـحَابِ الْيَمِينِ (38) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40)﴾

ثم شـرع في بيـان أحـوال الصـنف الثـاني أي أصـحاب اليمين فقـال ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَـا أَصْـحَابُ الْيَمِينِ﴾ أي لهم شـأن رزين ﴿فِي سِـدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ أي هم في سدر مخضود لا شوك فيه، أو مثـنى مفتـول بعض أغصانه الدقيقة

ببعض ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ وشجر موز متراكم الثمار فتلصق بعضه ببعض ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ منبسط لا انقباض فيه ولا يزول ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ أي جار من غير أخاديد تجري بقدرته تعالى على ما يرام بدون الشق في الأرض ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أنواعا وأصنافا وأشخاصا ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ في وقت من الأوقات ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ عمن يريد التفكه بها ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ اما جمع فراش بمعنى البسط، أي ساكنين في فرش متراكمة بعضها على بعض فترتفع وتعلو، واذا قعد عليها شخص يغور فيها لنعومتها، أو كنى بالفرش عن الحور كما يستعمل الفراش عند العرب للمرأة التي تحت تصرف صاحبها بالوجه المشروع وهذا أنسب بما بعده من قوله ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ لعود الضمير الى الفرش، واما على الاول فلابد من اعادتها الى ما يستفاد من المقام أي الحور ذوات الفرش المبسوطة، أي انا خلقناهن خلقا إبداعيا بلا أصل يتفرع عنه ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ تفسير لما سبق أي أبدعناهن باكرات غير مطموثات ﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب كصبور وهي المتحببة الى زوجها جدا ﴿أَتْرَابًا﴾ متساويات في السن، وسره أن لا تفتخر احداهن على الأخرى بشيئ من المميزات ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ متعلق بأنشأناهن، أي خلقناهن لهم.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56)﴾

وقوله ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ أي في حالة يرثى لهم فيها لأنهم ﴿فِي سَمُومٍ﴾ أي في الريح الحارة التي تؤثر تأثير السم وتنضج الجلد وتحرقه ﴿وَحَمِيمٍ﴾ أي وفي ماء حار يقطع الأمعاء عند الشرب ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ أي من دخان أسود. وعن ابن عباس أنه سرادق النار المحيطة بأهلها يستريح به القاعد تحته، ﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ نافع كسائر الظلال الاعتيادية ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ الحلول في العذاب عندما كانوا في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ أي متبعين هوى أنفسهم غير مهتمين بأوامر قدسهم ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ ويستمرون ﴿عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ أي على الذنب العظيم الذي لا يساويه ذنب ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ من القبور ونحشر ونحاسب ونساق الى دار الجزاء ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ همزة الاستفهام داخلة على واو العطف أي أنبعث نحن وآباؤنا الأولون الأقدمون الذين مرت عليهم الأحقاب والقرون؟

﴿قُلْ﴾ انتقال من حكاية الأحوال التي ستقع في الآخرة وتعليلها بأقوالهم السابقة في الدنيا، الى استحضار الصورة الحالية للكافرين المماثلة لأولئك الكفار المنكرين للبعث فيقول تعالى قل يارسولي لهم ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ من الأمم سابقها ولاحقها منكم ومن غيركم ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بعد البعث ﴿إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ والميقات ما وقت به الشيئ أي حُدَّ، وضمن المجموع معنى السوق ولذا عدي بإلى أي كلهم مجموعون للسوق الى ميقات وهو يوم معلوم للاجتماع وبعد ذلك الميقات لا يبقى السوق لحلول وقت الحساب مع

المجموعين، ويحتمل أن تكون كلمة الى بمعنى في أي لمجموعون في ميقات يوم معلوم ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ﴾ طريق السعادة ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ بمن يستحق الطاعة والعبادة ﴿لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ﴾ أي بعد نهاية الحساب ودخولكم جهنم معذبون في النار وآكلون من شجر من زقوم به من الأولى لابتداء الغاية، والثانية لبيان الشجر أي مبتدئون للاكل من شجر هو زقوم، وذلك لشدة الجوع. ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ أي بطونكم ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ لشدة العطش ﴿مِنَ الْحَمِيمِ﴾ أي الماء الحار جدا ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ جمع هيماء، وكسرت فاء الفعل حذرا من قلب الياء واوا والالتباس لليائي بالواوي ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي هذا المذكور نزلهم يوم الدين أي طعامهم المعد لهم لاستهلاكه يوم الدين، أي يوم جزاء الأعمال وهو يوم القيامة.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)﴾

قوله تعالى ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ تحويل الكلام من الغيبة إلى الخطـاب على الالتفـات أي نحن خلقنـاكم من نطفـة وطورناهـا أطـواراً مختلفـة فيهـا أعمال دقيقة تتحير فيها عقول المتفكرين حتى وصلتم الى هـذه الحالـة المناسبة لتصديق الباري ورسله في بيان حقيقة سُـبُلِهِ، وكـان الـواجب أن تصدقوا بوجـوده ووحدتـه وعلمـه وقدرتـه ﴿فَلَـوْلَا تُصَـدِّقُونَ﴾ بـذات الواجب الوجود المنعوت بصفات الكمـال ﴿أَفَـرَأَيْتُمْ مَـا تُمْنُـونَ﴾ أي مـا تقذفونه من النطفة في الأرحـام ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَـهُ﴾ وتجعلـون لـه العظم والعصب واللحم والجلد وسائر ما يحتاج اليه من لوازم البشـر ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَـالِقُونَ﴾ نحن قـدرنا بينكم المـوت أي لاشـك ولا شـبهة في أنـا نحن الخالقون فخلقناكم لتعلق الارادة به، وكما خلقناكم ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَـوْتَ﴾ أي حـددنا بينكم زمـان بأجـل معلـوم عنـدنا لا يقبـل التغـير والتبدل آنا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي مغلوبين وعـاجزين وغـير قـادرين ﴿عَلَى أَنْ نُبَـدِّلَ أَمْثَـالَكُمْ﴾ أي أوصـافكم جمـع مثـل بفتحـتين بمعـنى الوصف وذلك بإعادتكم وإحيائكم بالبعث من القبور مع تبـدل الأوصـاف فانكم كنتم شاكين في البعث بعد الموت، وشاكين في قدرة الله تعالى على ذلـك، وشـاكين في انشـاء عـالم آخـر للحسـاب والمـيزان وجـزاء الإيمان والكفر والطاعة والعصيان، وفي ذلـك اليـوم يحصـل لكم العلم بكل ما أنكرتموه ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَـا لَا تَعْلَمُـونَ﴾ أي ونعيـدكم في وضـع وحالٍ وصفاتٍ ما كنتم تعلمون بها سابقا قطعا.

ويجـوز أن تكـون الامثـال جمـع مثـل على وزن حـبر بمعـنى الشـبيه والمثيل، يعني وما نحن بمسبوقين وعاجزين عن أن نبـدل بكم أمثـالكم أي نذهب بكم ونأتي بقوم آخر من البشر أمثالكم في الذات والصـورة، ومخالفين في الصفات والسيرة فنأتي بـدل الكـافرين بمسـلمين وبـدل المتكبرين المـترفعين بالمتواضـعين، وبـدل الظـالمين بالعـادلين، وبـدل الفاســقين بالصــالحين المتقين على وزن قولــه تعــالى ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ في الصفات عينها، وننشئكم في ما لا تعلمون من الأحوال اذ كنتم أعـزة فتكونـوا أذلـة وكنتم سـادة أمراء فتكونوا عبدة مأمورين، وكنتم بطرين مـترفين مـترفهين فتكونـوا معتدلين مكتفين متوسـطين وهـذا هـو الـذي رأينـاه ونـراه في طبقـات الامـة البطـرة حيث تبـدلت بالامـة المفتقـرة. ﴿وَلَقَـدْ عَلِمْتُمُ النَّشْـأَةَ الْأُولَى﴾ أي ولقد علم أهل العقل والانصاف منكم الخلق الأول لآدم من تراب، ولنسله من نطفة متطورة ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتفكـرون أن من قدر على النشأة الأولى قـادر على النشـأة الأخـرى بـل أسـهل وأحـرى لوجـود بعض المـواد الأساسـية في النشـأة الأخـرى دون الأولى. وهـذه الآية حجة على اثبات أنـه قـادر على أن يبعث المـوتى. وتقريرهـا: اللـه قادر على النشأة الأولى، وكل قادر على النشأة الأولى فهـو قـادر على النشأة الأخرى.

ثم ذكر الباري سبحانه وتعالى أصنافا من المخلوقات وسأل عمن أبداها ليتـبين الجـواب ويتعين بـه الصـواب، وهـو أن اللـه هـو القـادر المجيـد والفعـال لمـا يريـد فقـال ﴿أَفَـرَأَيْتُمْ مَـا تَحْرُثُـونَ﴾ أي مـا تبـذرون حبـه وتنشــرونه في تربــة الارض الفاشــية ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَــهُ﴾ أي تنبتونــه وتجعلونه نباتا خارجا من التراب مخرجـا لأشـطاء إلى أن يسـتوي فينتج الحب وينعقـد ويسـتفاد منـه ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُـونَ﴾ المنبتـون لـه؟ ﴿لَـوْ نَشَاءُ﴾ إضاعته ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أي هشيما متكسرا متفتتا لشدة يبسه ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبون من سوء حاله. وقال

بعض تتندمون على ما أنفقتم فيـه قـائلين ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُـونَ﴾ أي معـذبون مهلكـون من الغـرام بمعـنى الهلاك ﴿بَـلْ نَحْنُ مَحْرُومُـونَ﴾ من الـرزق ومن محصـولات الزراعــة ﴿أَفَــرَأَيْتُمُ الْمَــاءَ الَّذِي تَشْــرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ أي من السحاب ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَـوْ نَشَـاءُ﴾ تغيير طعمه بحيث لا يكون قابلا للشـرب ﴿جَعَلْنَـاهُ أُجَاجًا﴾ ملحـا مـرا لا يمكن شـربه لإحراقـه الفم واللهـاة والحلقـوم ﴿فَلَـوْلَا تَشْـكُرُونَ﴾ على نعمة ابقائه على طعمه المعتـدل المـرئي ﴿أَفَـرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُـورُونَ﴾ أي تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ التي منها الزنـاد وهي المـرخ والعفـار ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِـئُونَ﴾ لهـا بقـدرتنا ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ أي نحن جعلنا النار التي تورونها تذكرة لنـار جهنم ومتاعـا يتمتـع بهـا للمقـوين أي للـذين يـنزلون القـواء وهي المحل القفر الخالي من الناس. وفي الحقيقة صـارت النـار وسـيلة من وســائل المحركــات الموصــلة للانســان الى المقاصــد، حيث تتحــرك السيارات في الأرض، والطيارات في الجو والبواخر في البحر... ومنهــا يحصـل التمتـع بالمآكـل الـتي تحتـاج الى الطبخ والقلي والشـي، وفيهـا فوائد أخـرى، ولمـا علمت أن هـذه المنـافع البديعـة العجيبـة ناتجـة من خلقه وقدرته تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ نـزه وبعـد اسـم ربـك عن أن تذكر معه شيئا آخر بل انسب الآثار كلها اليه، وتوكل عليه، وكل خير أو شر عائد اليه، فسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآَنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّــهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيــلٌ مِنْ رَبِّ الْعَــالَمِينَ (80) أَفَبِهَــذَا الْحَــدِيثِ أَنْتُمْ مُــدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُـرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْــرَبُ إِلَيْـهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِــرُونَ (85) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَـدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَـا إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ (87) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَـكَ مِنْ أَصْـحَابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْـلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ قالوا: إن حرف النفي زائدة، والمقصود أقسم بمواقع النجوم بدليل ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وقال بعض: انها ليست زائدة. والمعنى فلا أقسم بمواقع النجوم على أن الكتاب المنزل عليك كتاب كريم لان المقسم به واضح جدا وظاهر غاية الظهور فلا حاجة الى تأكيده بالقسم. والمراد بالمواقع مواقع أقساط الآيات المنزلة من اللوح المحفوظ، لان الله سبحانه كما خلق سطورها في اللوح كذلك ميز كل نجم نجم منه وعين للنزول في وقته الخاص. ومواقعها اما محلها الذي نقش فيه القسط من الآيات أو الرسول صلى الله عليه وسلم والجمع الذي نزلت الأيات لاستفادتهم منها، أو مواقع النجوم السماوية، أي مغاربها عند الافول فان في أفولها رهبة وهيبة ووحشة في قلوب الناس، واما مواقعها في العالم حين انتشرت، واما مواقعها عند رجم الشياطين في السماء، واما بروجها ومنازلها المعينة في السماء على ما ذكره علماء الهيئة، وأهميتها بالنسبة الى دلالتها على آثار ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي وان القسم بمواقع النجوم قسم عظيم

لوجود أسرار كثيرة في المقسم به تدل على عظمة خالقها ﴿إِنَّهُ لَقُرْآَنٌ كَرِيمٌ﴾ أي ما أنزل عليك لقرآن كـريم ﴿فِي كِتَـابٍ مَكْنُـونٍ﴾ أي مسـتور عن العيون لا ترى بالعين المجردة، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي لا يمس ذلك الكتـاب أو محلـه الا المطهـرون من الأرجاس والأقـذار وهم الملائكـة في أطـراف اللـوح، والمتطهـرون المتنظفـون من الحـدثين في الأرض ﴿تَنْزِيـلٌ﴾ أي متـنزل أو ذو تنزيـل ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أن رب العالمين نزلـه الى حبيبـه محمـد صـلى الله عليـه وسـلم، وهـو هديـة أهـديت اليـه والمهـدي يحفـظ هديتـه عن المعارضات الى أن يصل إلى المهدى إليه.

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُـدْهِنُونَ﴾ أي أفبهـذا الكتـاب الجليـل الـذي أنـزل لإفــادة الخــير أنتم مــدهنون أي متهــاونون ﴿وَتَجْعَلُــونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ به بدل أن تصـدقوا بـه وتسـتفيدوا منـه ﴿فَلَـوْلَا إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي النفس ﴿الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ الى الشخص المحتضـر ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ علما وقدرة وعلاقة ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِـرُونَ فَلَـوْلَا﴾ تأكيـد لـولا الأولى ﴿إِنْ كُنْتُمْ غَيْـرَ مَـدِينِينَ﴾ أي غـير مغلـوبين وغـير مقهـورين ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي ترجعـون النفس الى مقرهـا الأول ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ﴾ في اعتقادكم واسنادكم نحو هذه الأمور الى غير الله تعـالى. والحاصـل أن المحضض عليه بلولا الأولى هو ترجعونها، ولولا الثانية تأكيــد للاولى، وهي بمــا في حيزهــا دليــل جــواب الشــرط. والمعــنى ان كنتم غــير مملوكين مجزيين كما دل عليه جحدكم أفعال الله. وتكـذيبكم بآياتـه ان كنتم صــادقين في تعطيلكم فلــولا ترجعــون الأرواح إلى الأبــدان بعــد بلوغها الحلقوم.

وقوله ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ شروع في بيان أحوال المتوفى أي فـان كـان المتـوفى من المقـربين عنـد اللـه السـابقين في الحسـنات ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ أي فله راحة وشميم ريحان لدماغه في البرزخ ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ في الآخرة

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي فيقال له سلام من الله لك وأنت من أصحاب اليمين ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بالله ورسوله ﴿الضَّالِّينَ﴾ عن الصراط المستقيم ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي فله في الاخرة طعام مهيأ كنزل الضيف وذلك من حميم أي الماء الحار ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي ادخال له في الجحيم ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور بأصنافه ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي لا شك ولا شبهة فيه.

واليقين هو بالمعنى العام من التصور والتصديق اسم للعلم المجرد عن الالتباس والشبهة، وبالمعنى الخاص بالتصديق هو التصديق الجازم الثابت المطابق للواقع. فغير المطابق للواقع جهل مركب، وغير الثابت اعتقاد عند الأصوليين ويسمى تقليدا عند المنطقيين. وأما غير الجازم فهو ظن، وقد يضاف اليه العين فيقال: عين اليقين، أو العلم فيقال علم اليقين، أو الحق فيقال حق اليقين، بمعنى اليقين الواقعي لا في الزعم. ومنهم من فرق بينها فيقول عين اليقين عبارة عن يقين حصل من استعمال الحواس كالبصر والسمع والشم والذوق واللمس، وعلم اليقين ما استفيد منه بدون استعمال الحواس.

وهذان الصنفان ينفكان عن الانسان بعدم استعمال الحواس وعدم الاستدلال في النظريات والنسيان في البديهيات.

وأما حق اليقين فهو علم يقيني ضروري الوجود لا ينفك عن صاحبه كالعلم بوجود نفسه فتأمل ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ يعني فنزهه بذكر اسمه تعالى عما لا يليق بعظمة شأنه. أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه، وغيرهم عن عقبة ابن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال اجعلوها في ركوعكم. ولما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال اجعلوها في سجودكم.

سورة الحديد، مدنية وآياتها تسع وعشرون

نزلت بعد الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6)

قوله تعالى سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ التسبيح تنزيه الله سبحانه وتعالى عن أضداد الصفات الثبوتية والسلبية المسندة إلى الله من:

الوجود، والقدم، والوحدة، والبقاء، ومخالفة الحـوادث، والاسـتغناء عمـا سواه، والحيـاة، والعلم، والإرادة، والقـدرة، والسـمع، والبصـر، والكلام. وقال الجمهور: المراد بالتسبيح معنى عام مجازي شامل لمـا نطـق بـه لسـان المقـال كتسـبيح العقلاء من الملائكـة والثقلين، أو لسـان الحـال كتسبيح الحيوانات والنباتات، فانها تـدل بإمكانهـا وحـدوثها على الصـانع القديم الواجب الوجود المتصف بالكمالات المنزه عن النقائص.

وذهب بعض الى أن التسبيح على حقيقتـه المعروفـة في الجميـع، لانهـا فيها مبدأ لذلك التسـبيح وان لم يكن النـاس يفقهونـه، ويـدل على ذلـك تسبيح الحصى في كفه صلى الله عليه وسلم.

﴿وَهُـوَ الْعَزِيـزُ﴾ الغـالب الـذي لا يغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الـذي لا يفعـل الا مـا تقتضـيه الحكمـة. ﴿لَـهُ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي سـلطة التصـرف فيهما كيف شاء لأنه الخالق لهما، والخالق متصرف في مخلوقـه ﴿وَهُـوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ﴿قَدِيرٌ﴾ بـالغ القـدرة لا يمنعـه شـيء ﴿هُـوَ الْأَوَّلُ﴾ أي السابق على كل موجـود ﴿وَالْآَخِـرُ﴾ البـاقي بعـد كـل موجـود بالنظر الى ذاتها وان كان بعضها بالنظر الى تعلق ارادة الباري بوجــوده باقيــا أيضــا كالجنــة والنــار، ومن فيهمــا ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ بآثــاره ووجــوده ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ بكنهه وحقيقته ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿هُــوَ الَّذِي خَلَــقَ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِــتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي في مقــدار يساوي مقدار ستة أيام، سواء كـانت كأيامنـا، أو على مـا قالـه سـبحانه ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَـرْشِ﴾ بـالمعنى الـذي أراده الحي القيـوم ﴿يَعْلَمُ مَـا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ كالبـذور ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَـا﴾ كـالزروع ﴿وَمَـا يَنْـزِلُ مِنَ السَّـمَاءِ﴾ كالامطـار ﴿وَمَـا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكة بالليل والنهار

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ معية علمية واقتدارية ﴿والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يبصر حركاتنا وسكناتنا ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فقط ولا علاقة لها بغيره استقلالا أو اشتراكا ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما فيها من الأمور.

﴿آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (9) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)﴾

قوله تعالى ﴿آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي اسعوا واجتهدوا وانظروا في الآيات النفسية والآفاقية وفي المعجزات حتى يظهر لكم الحق فآمنوا بالله

الاول والاخر والظاهر والباطن، وبرسـوله لأن الإيمـان بـه يـوجب بلـوغ الحق وقبوله ونفوذ أحكام الدين ﴿وَأَنْفِقُـوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْـتَخْلَفِينَ﴾ أي من المال الذي جعلكم الله خلفـاء عنـه في التصـرف ﴿فِيـهِ﴾ أو خلفـاء عن المورثين، أو الجيل السابق وتركه لكم، فان الدنيا دولة ولكل جيــل صولة ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ بالله ورسوله ﴿وَأَنْفَقُوا﴾ حسـبما أمـروا بـه ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لا يعلمـه الا اللـه ثم اسـتفهم اسـتفهاما تعجبيـا وقـال: ﴿وَمَـا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُـولُ﴾ الصـادق الأمين المؤيـد بالآيـات البينـات والمعجـزات الواضـحات ﴿يَـدْعُوكُمْ﴾ جميعـا ﴿لِتُؤْمِنُـوا بِـرَبِّكُمْ﴾ الواحـد الأحـد الفـرد الصـمد ﴿وَقَـدْ أَخَـذَ مِيثَـاقَكُمْ﴾ أي وقـد أخـذ اللـه ميثاقكم بالإيمان من قبل بنصب الأدلة النفسية والآفاقيـة وتمكينكم من النظـر، أو أخـذ ميثـاقكم حين أخـرجكم من ظهـر آدم وأشـهدكم على أنفسكم بالاعتراف بأن الله ربكم.

أو أخــذ الميثــاق من أبيكم آدم حين أهبطــه الى الارض وقــال: ﴿قُلْنَـا اهْبِطُوا مِنْهَـا جَمِيعًـا فَإِمَّا يَـأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُـدًى فَمَنْ تَبِـعَ هُـدَايَ فَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أو أخذ الميثاق من النبيين جميعا بتوصـيتكم بالسـير في طريـق الحق كما قال ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَـةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ.... ﴾ الآية.

ولا شك أن كل رسول وصى بمـا أمـر بـه. فقـد روي عن الإمـام أحمـد رضي الله عنه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه بايعنا رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم على السـمع والطاعـة في النشـاط والكسـل، وعلى النفقـة في العسـر واليسـر، وعلى الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله تعالى ولا نخاف لومة لائم. وقولـه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرط جوابه محذوف دل عليه ما قبله والمعـنى ان كنتم مؤمنين لموجب ولدليل دل عليه ولداع يدعوكم اليه فالرسول الصــادق وتبليغه للحقائق أكبر موجب وأكبر داعٍ لكل إنسانٍ فاهم راعٍ واعٍ.

﴿هُـوَ الَّذِي يُنَـزِّلُ عَلَى عَبْـدِهِ آَيَـاتٍ بَيِّنَـاتٍ﴾ واضـحات ﴿لِيُخْـرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ليخرجكم من ظلمات الجهل والكفر والعصيان وســوء أخلاق الانســان الى نــور العلم والايمــان والاطاعــة والأخلاق الحسـان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَـرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ولـذلك أرسـل اليكم الرسـول الكريم ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي وأي نفع يحصل لكم في عدم انفاقكم في سبيل الله أي في سبيل استحصال مرضاته في الدنيا والآخرة وكـل مـا تركتمـوه لا يصـل اليكم منـه شـيء الا مـا قـررتم أن يصرف بحيث تنتفعون به ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والكائنـات كلها عائدة إليه وتبقى له ومنافعها مربوطة بصرفكم وانفـاقكم لهـا في ما يوجب مرضاته تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْـلِ الْفَتْحِ﴾ أي فتح مكة ﴿وَقَاتَلَ﴾ في سبيل اعلاء كلمة الحق ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُـوا مِنْ بَعْـدُ﴾ أي بعـد الفتح ﴿وَقَـاتَلُوا﴾ لأن الجهـاد في ضـيق العباد أنفـع منـه في وقت السـعد والراحـة ﴿وَكُلًّا﴾ من الجمعين ﴿وَعَـدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أي المثوبة الحسنى، وهي الجنة ولقاء ذاته تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم بمـا تسـتحقونه وان تـك حسـنة يضـاعفها. والآية نزلت في أبي بكر رضي اللـه عنـه فانـه أول من آمن وأنفـق في سبيل الله، وخاصم الكفار، وضرب حتى أشرف على الهلاك.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْـرِضُ اللَّهَ قَرْضًـا حَسَـنًا﴾ والقـرض الحسـن أن يكـون خالصا لله بدون طلب مقابل مادي أو معنوي ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ أي فيؤتيه مقابله بالمضاعفة كما يشاء ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وذلك الأجر المضاعف أجـر كـريم محـترم مرضـي عنـد اللـه تعـالى ﴿يَـوْمَ تَـرَى الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾اما ظرف لقوله وله أجـر كـريم او لـ ﴿يَسْـعَى نُـورُهُمْ﴾ أي حصل لهم أجر كريم عنـد اللـه تعـالى يـوم تـرى المؤمـنين والمؤمنـات حالكونهم ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾. روى الحـاكم وصـححه عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال يؤتون نورهم

على قدر أعمالهم يمـرون على الصـراط، منهم من نـوره مثـل الجبـل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نـورا من نـوره على إبهامـه، يُطْفَأ مرة ويَقِد أخرى. وظاهره أن هذا النور يكون عند المرور على الصراط، وقال بعضهم: يكـون قبـل ذلـك ويسـتمر معهم اذا مـروا على الصـراط وفي الاخبار ما يقتضيه.

والمراد أنه يكون لهم النور في جهتين: جهة الامام، وجهـة اليمين. على ميزان إيتاء كتب الاعمال منهمـا وبسـبب ايمـانهم يقـال لهم ﴿بُشْـرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأن السعادة والفوز هو الفوز الخالد المؤبد، فإن الخير المؤقت المحدد كاللاشيء عند من له شيء من الإدراك.

﴿يَـوْمَ يَقُـولُ الْمُنَـافِقُونَ وَالْمُنَافِقَـاتُ لِلَّذِينَ آَمَنُـوا انْظُرُونَـا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُـورٍ لَـهُ بَـابٌ بَاطِنُهُ فِيـهِ الرَّحْمَـةُ وَظَـاهِرُهُ مِنْ قِبَلِـهِ الْعَـذَابُ (13) يُنَـادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَـالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَـكُمْ وَتَرَبَّصْـتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَـرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَـاءَ أَمْـرُ اللَّهِ وَغَـرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَـرُورُ (14) فَـالْيَوْمَ لَا يُؤْخَـذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِـيرُ (15) أَلَمْ يَـأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُـوا أَنْ تَخْشَـعَ قُلُـوبُهُمْ لِـذِكْرِ اللَّهِ وَمَـا نَـزَلَ مِنَ الْحَـقِّ وَلَا يَكُونُـوا كَالَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ مِنْ قَبْـلُ فَطَـالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَـدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16) اعْلَمُـوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17)﴾

قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَـاتُ﴾ بـدل من ﴿يَـوْمَ تَـرَى﴾ وأصــل الاقتبــاس أخــذ القبس أي الجــذوة يعــني يقــول المنــافقون والمنافقات على سبيل الترجي والابتهـال عنـدما وقعـوا في ظلمـات لا يرون فيها ما أمامهم للمؤمنين الذين نورهم يسعى في جـانبهم انظـروا الينا لعلنـا نسـتفيد النـور من مـواجهتكم ونقـدر أن نعـبر على الصـراط فأتاهم الجواب من المؤمـنين و﴿قِيْـلَ﴾ لهم: ﴿ارْجِعُـوا وَرَاءَكُمْ﴾ أي من حيث جئتم من الظلمة أو الى المكان الذي قسم فيه النـور ﴿فَالْتَمِسُـوا نُـورًا﴾ هنـاك ﴿فَضُـرِبَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الفئـتين من أهـل النفـاق وأهـل الإيمان بسور له باب أي بحاجز عالٍ له باب ﴿بَاطِنُـهُ﴾ الـذي يلي مكـان المؤمـنين ﴿فِيـهِ الرَّحْمَـةُ﴾ والرضـوان اذ هنـاك الجنـة وفيهـا مـا ذكـر ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ الذي يلي مكان أهل النفاق والكفر ﴿مِنْ قِبَلِـهِ الْعَـذَابُ﴾ أي من جهته العذاب. وقوله ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ استئناف مبني على السؤال، كأنـه قيل: فماذا يفعلون بعد ضرب السـور؟ فقـال ينـادونهم، أي ينـادي أهـل النفاق أهل الايمان ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿قَـالُوا بَلَى﴾ فقـد كنتم معنـــا ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَـــكُمْ﴾ فختنتموهـــا بالنفـــاق وأهلكتموهـــا ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بـالمؤمنين الـدوائر والـدمار ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ وشـككتم في أمـور الـدين ﴿وَغَـرَّتْكُمُ الْأَمَـانِيُّ﴾ أي الأهـواء الفارغـة الباطلـة ومن جملتهـا الطمـع في هلاكنـا ﴿حَتَّى جَـاءَ أَمْـرُ اللَّهِ﴾ أي المـوت ﴿وَغَـرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وهو الشيطان. ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾ بـأن تبـذل لحفـظ النفـوس عن العـذاب والعقـاب ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَـرُوا﴾ ظـاهرا وباطنـا ﴿مَـأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَـوْلَاكُمْ﴾ وناصـركم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِـيرُ﴾ النـار، وبئس النصير النار.

ولما استعرض هذا الموضوع وهو ما أخـرج عبـد بن حميـد وابن المنـذر عن أبي فاختـة يجمـع الله تعـالى الخلائـق يـوم القيامـة، ويرسـل اللـه سبحانه على الناس ظلمة فيستغيثون ربهم فيؤتي الله تعالى كل مؤمن منهم نورا ويؤتى المنافقين نورا، فينطلقون جميعا متـوجهين إلى الجنـة معهم نـورهم، فبينمـا هم كـذلك اذ أطفـأ اللـه تعـالى نـور المنـافقين، فيترددون في الظلمة ويسبقهم المؤمنون بنورهم بين أيـديهم فيقولـون انظرونا نقتبس من نوركم إلى آخر ما حكاه الباري تعالى. والاخبـار في ايتاء المنافق نورا ثم اطفائه كثيرة، وليس في الآية ما يأباه.

أقول: ولما استعرض البـاري أحـوال المنـافقين والكـافرين المجـاهرين بالكفر ومصيرهم يوم القيامـة.. التفت الى وعـظ المؤمـنين وارشـادهم مع توبيخ ما وقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَـعَ قُلُـوبُهُمْ لِـذِكْرِ اللَّهِ﴾ عـز وجـل ﴿وَمَـا نَـزَلَ مِنَ الْحَـقِّ﴾ أي القـرآن الكـريم الصـادق الثـابت الموجه للعباد الى الرشاد ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي قبـل نـزول القـرآن ﴿فَطَـالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَـدُ﴾ أي الأجـل بطـول أعمـارهم ﴿فَقَسَتْ قُلُـوبُهُمْ﴾ صـلبت كالحجـارة أو أشـد ﴿وَكَثِـيرٌ مِنْهُمْ فَاسِـقُونَ﴾ خارجون عن حدود دينهم.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويبعث الأنام بعد مماتهـا ﴿قَـدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾. الوعدية والوعيديـة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُـونَ﴾ وتفهمـون منـاط الاحكام وتعلمون أن من خرج عن سبيل الله تعالى استهواه الشـيطان، وأن من استقام فهو في ظل الرحمن.

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18) وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (19) اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ كلمة أل فيهما موصولة أي ان الذين تصدقوا، واللاتي تصدقن، فيناسب عطف ﴿أَقْرَضُوا﴾ أي أن الذين تصدقوا والذين ﴿أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ أي يضاعف الثواب لجميعهم ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي عظيم لا يقدر قدره ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك عند ربهم عز وجل وفي حكمه سبحانه بمنزلة الصديقين الشهداء، أو المراد بالصديقين المبالغون في الصدق لأنهم آمنوا بالله وصدقوا جميع رسله الكرام، وبالشهداء القائمون بالشهادة على الأمم يوم القيامة، أو تبقى الآية الكريمة على ظاهرها، ولكن

يحمل قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ على من لهم كمال في الإيمان بالله ورسله، ولا يتحقق ذلك الا بترك المحرمات وفعل الطاعات والابتعاد عن الشهوات، لان رتبة الصديقين والشهداء لا ينالها كل من دخل في الايمان بدون طاعات وسيرة مباركة تصدق ايمانه وتشهد على كرامته عند ربه، واذا كانوا كذلك يستحق أن يقال فيهم أولئك هم الصديقون والشهداء ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ يوم القيامة ويمرون على الصراط بسلامة وكرامة، ومع ذلك لابد أن يقال انهم وان كانوا صديقين وشهداء ولهم أجرهم ونورهم، لكن درجاتهم دون درجاتهم بدليل قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ وأمثالها من الآيات المميزة بين الناس في مجال الايمان والاعمال.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي الملازمون للسعير ونارها لان الكفر والايمان متقابلان في الذات، فلاشك أنهما متقابلان في الآثار.

ولما استعرض الباري أحوال المؤمنين الصادقين والمنافقين والكافرين جهارا التفت الى المؤمنين وأرشدهم الى الزهد عن الدنيا وقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي لعب لا ثمرة له، ولهو يشغل الانسان عما يعنيه ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي وتزين بأشياء لا يحصل منها شرف ذاتي كاللباس والجاه والمال والبيوت الرفيعة ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ بالأنساب ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ بالعدد والعدد ﴿فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ لحسنه ونضارته ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يتحرك إلى أقصى ما يصل اليه من الزيادة في الأقطار والنضارة في الأوراق والأوراد ﴿فَتَرَاهُ﴾ بعد مدة ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد النضارة والخضارة ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ أي هشيما متكسرا ﴿وَفِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن كفر بالله ورسوله، ولم يهتم بالعمل الصالح ووصوله ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ لمن

آمن بالله حق الايمان وعمل صالحا خالصا لله ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الـدُّنْيَا﴾ لمن لم يراعها ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

﴿سَابِقُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلَى مَغْفِـرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُـهَا كَعَـرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي كعرضها جميعا لو اتصل أحـدهما بـالآخر ﴿أُعِـدَّتْ﴾ وهيئت ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْـلُ اللَّهِ يُؤْتِيـهِ مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يعلم مقداره غيره، أو فضله لا يتناهى حتى ينظر اليه بنظر الجهالة والجحود.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَـاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَـاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُـلَّ مُخْتَـالٍ فَخُـورٍ (23) الَّذِينَ يَبْخَلُـونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)﴾

وقولـه تعـالى ﴿مَـا أَصَـابَ مِنْ مُصِـيبَةٍ﴾ توجيـه العبـاد المؤمـنين الى الاستقامة مع الأقـدار، والصـبر مـع الأكـدار لا بمعـنى أن يبقى الانسـان مكتوف الأيدي لا يعمل ولا يدافع، بل بمعنى أن الحوادث كثيرة وفيرة لا يمكن مدافعتها ولا معالجتها، بل بعـد الجهـد في الأسـباب قبـل الـورود، وفي الدفع قبل الـنزول وفي الرفـع بعـد الحصـول اذا بقي شـيء منهـا وجب على الانسان أن يتلقاها برحب الصدر، ويقابلها بقوة الصـبر، فـان الصابر مأجور فقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ حادثة تؤلم الإنسـان ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كجدب وعاهة في الزرع والثمـار، وحشـرات ظـاهرة في الأرض، أو هائجة على الأوطان ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من المرض والعاهــة وقلة المال وضيق البال وموت الأولاد والأقارب وهجر

الاوطان... وغير ذلك ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ مسطور ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَـا﴾ أي نخلق تلك المصيبة.

والمراد بالكتاب اما علمه تعـالى الأزلي، أو اللـوح المحفـوظ، أو كتـاب الأقدار والاعمـال المرتبـط بكـل إنسـان على حيالـه يعـني انـه قـدر أن المصاب لم يباشـر أسـباب الوقايـة، ولم يستحصـل موجبـات الـدفع أو الرفع من الاسباب المادية الاعتيادية أو الأسباب المعنوية من الصدقات والـدعوات وغيرهـا، فلـذلك نـزلت واسـتقرت. وهـذا النـوع من الأقـدار مبرمة، لانه اذا وقعت الواقعة فليس لوقعتها كاذبة. وتبين أن الأمـر قـد تقرر وصدر الأمر بحدوثه، وأما ما وفق الله الانسان لسـده قبـل وروده كأخذ الحذر والحيطة، والوقاية منها، والتحصن في القلاع وجمع الأقوات في المخازن والمحلات الخاصة، والتداوي..

وهذه كلها من الماديات. أو بالإحسان والصدقات والدعوات وما شاكلها من الصلح، والمفاوضـات، وصـرف المـال، والحـال.. فهـذه من الأمـور التي تعلق العلم بعدم نزولها.

ويقال لها في العرف المعلقات ومباشـرة أسـبابها واجبـة على العين أو الكفاية. وبما أنا لا نعلم الغيب ولا نـدري مـاذا نكسـب غـدا وجب علينـا السعي حسب علمنا بأسـباب الوقايـة كمـا قـال تعـالى ﴿خُـذُوا حِـذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ فـإن لكـل شـيء سـببا أو أسـبابا. واللـه خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل. وهذا هو الظاهر من نصـوص القرآن العظيم وسنة الرسول الكـريم، والغفلـة والبطالـة عن مباشـرة الأسـباب الماديـة أو المعنويـة خلاف الشـريعة السـماوية وخلاف المقررات والمجرّبات البديهية، فمن يقول بأن الدعاء لا ينفـع والصـدقة لا تفيد فهو كمن يقول ان التداوي لا يفيد، وان الاكل لا يشبع، وان الماء لا يروي.. وهذا جهالة صرفة.

ومـا ورد في بعض السـنن من أن النـذور لا تـدفع شـيئا ولا تـؤخر اجلا فمعناه أن

هذه الأشياء أسباب والأسباب ليست مؤثرة، بل التأثير لذات الحق سبحانه وتعالى فهذه طريقة المسلمين فامشوا عليها واستقيموا.

﴿ان ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي ان ثبوت كل مصيبة في كتاب يسير على الله تعالى لا صعوبة فيه. وقوله تعالى ﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ لكيلا تأسوا وتتأسفوا على ما فاتكم من الأموال والا نفس ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ لان الأمور المقدرة المقررة يجب وقوعها وحدوثها وحصولها، وعدم الأسى على ما فات، وعدم الفرح بما هو آت وان كان من المصاعب الاعتيادية لكن الانسان العالم العاقل يقدر على أن يخفف قوة الأسف وشدته بالنظر في الدلائل النقلية المفيدة للأجر والدلائل العقلية الموجبة للصبر، والنصوص الداعية لوجوب الشكر على النعم كي تبقى حتى يلقى. وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تذييل يفيد أن الفرح المذموم هو الموجب للبطر والاختيال وذلك لا يناسب المؤمن بكل حال.

وقوله ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بدل من كل مختال يعني أن المختال الفخور هو الذي يبخل وغالبا من عادات البخلاء أنهم يأمرون الناس بالبخل، فهو سبحانه وتعالى لا يحب أولئك الناس الفاسدين الجامدين الذين لا يحصل منهم خير لغيرهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن ارشادات الحق سبحانه وتعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عنه وعن غيره و﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود في كل فعاله الا يهمه منهم شيء ابدا.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (26) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (27) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)﴾

قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَـاتِ﴾ بيـان وبلاغ الى عقلاء الثقلين مفـاده أنـا أرسـلنا رسـلنا إلى العبـاد للتنـوير والارشـاد ﴿وَأَنْزَلْنَـا مَعَهُمُ الْكِتَـابَ﴾ الهـادي إلى الصـواب وأرسـلنا معهم: ﴿وَالْمِـيزَانَ﴾ أي منهـاج العدل في الاعتقاديات والعمليـات في الأصـول والفـروع حـتى يعيشـوا سعداء بالاعتدال في الاعتقاد والأعمال، وأن لا يبخسوا الناس أشـياءهم من أنفســهم وأمــوالهم وأحــوالهم، فمن توســط واعتــدل في الادارة والاحكام عاش بأمانة وسلامة واكرام، أو الميزان هو ميزان المعـاملات المربوطـة بـالوزن والكيـل حـتى تتم للنـاس السـعادة ﴿لِيَقُـومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل في الحقوق للانفس والاغيار على قاعدة

لا ضرر ولا ضرار ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَـدِيدٌ﴾ أي وخلقنـاه كقولـه تعالى ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أو معناه هيأناه لكم وانعمنا به عليكم كمـا يهـيئ الـنزل للضـيف قبـل وروده، أو أنزلنـا من السـماء بـالوحي اسـتخراج الحديـد من المعـادن، والتصـرف فيـه بصـنع الآلات الحربية والاسـتعمالية في الـبيوت، فاسـتخرجوه، ثم تطـورت الصـناعة إلى أن وصل الى الدرجـة الراقيـة في هـذا العصـر، فتسـتعمل بحسـب تطور الدنيا وتبدل الحاجات، فان ميزان القسط وحده بدون قوة رادعة للخائبين لا ينفع، والحاجة ماسة ضرورة الى سيوف بعد حروف، ولجمع الحديد بين منافع الدنيا ومنافع الآخرة، أما في الـدنيا فباسـتعماله فيمـا لابـد منـه للعيش، وأمـا في الآخـرة فللجهـاد بـه ودفـع أهـل الطغيـان والطيش قال تعالى ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ من استعماله في الأمـور الحيوية والامـور الحربيـة لينـدفع بـه أهـل الأهـواء المغـرورون ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُـرُهُ وَرُسُـلَهُ﴾ أي ومن ينصـر رسـله باسـتعمال السيف والسنان والمدافع القوية النيران. وقوله ﴿بِالْغَيْبِ﴾ للدلالـة على أن من لم يكن لـه ايمـان باللـه بينـه وبين اللـه لا يشـهر السـيف على الأعداء، ولا يقتحم أمواج القتال والبلاء ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ قـادر على نصـر من ينصر دينه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغالب على عزته وقوته على العالمين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أما في ذرية نوح فالمراد الأنبياء والرسل من الأمم المنتشرة في أقطار العالم شرقا وغربا وجنوبا وشمالا، فانه لم تخـل أيـة أمـة من رسـول وأحكـام قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَـذِيرٌ﴾ وقـال: ﴿ثُمَّ أَرْسَـلْنَا رُسُـلَنَا تَتْـرَى﴾ أي وتـرى واحـدا بعـد واحـد، وأمـا في ذريـة ابـراهيم فالانبيـاء والرسـل الموجـودون. من إسـحاق وأولاده المعـروفين ببـني اسـرائيل وكشعيب من نسل مـدين ابن ابـراهيم ومن اسـماعيل وأولاده كسـيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ﴾ بالكتاب وسلك طريق الصواب ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن حكم الكتاب ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آَثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا﴾ أي أرسلنا بعدهم رسولا بعد رسول، وأصل التقفية جعل الشيئ خلف القفا، وضمير آثارهم لنوح وابراهيم ومن أرسلا اليهم من قومهما ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي جعلناه بعد أولئك الرسل ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ هما اذا افترقا اجتمعا على معنى واحد، واذا اجتمعا افترقا على معنيين، فالرأفة ما فيه درء الشر، والرحمة ما فيه جلب الخير. وقوله ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ من باب الاشتغال، أي وابتدعوا رهبانية ابتدعوها من أنفسهم لتحصيل الثواب بالانقطاع من لذائذ الدنيا ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ما فرضناها عليهم، اذ قلما يوجد انسان له طاقة على اجتناب المشتهيات النفسية وقوله ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع أي ما فرضناها عليهم رأسا، ولكن ابتدعوها وألزموها أنفسهم ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي ما حافظوا عليها حق المحافظة فان من التزم مندوبا وجبت عليه رعايته والدوام عليه وأن لا يأتي بما فيه المخالفة والمنافاة مع التزامه، وأن لا يحتال لتخليص نفسه منه، وأن لا يريد من ورائه شهرة أو سمعة، أو جلب الناس وكسب الجاه والمال به منهم، فإن ذلك هروب من الله لا رهبانية منه ﴿فَآَتَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْهُمْ﴾ إيمانا سالما من المناقضات والمعارضات ﴿أَجْرَهُمْ﴾ على نياتهم وطاعاتهم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ مارقون فجعلوها وسيلة إلى مفاسد لاتعد ولا تحصى، ومنها اخزاء الرهابنة الصادقين.

وفي هذه الآية الشريفة القول الفصل في الأعمال المستزادة على ما كان:

أولا في عهد الرسول فان كان ذلك على منهج الدين من طلب مرضاة الله تعالى ومنع النفس الأمارة بالسوء عن الشهوات ومراعاة الشخص حقه فلا بأس به ولا انكار عليه لان نص قوله تعالى ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يدل على أنهم

لو كانوا يراعونها كانوا مكتسبين للاجر، ولذا قـال تعـالى: ﴿فَآَتَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ وان كـان على غـير ذلـك فهـو فسـوق وخـروج عن نظام الدين.

وتفصيل الكلام في الموضوع ما ذكـره الامـام محي الـدين النـووي في شـرح صـحيح مسـلم، قـال العلمـاء: البدعـة خمسـة أقسـام: واجبـة، ومندوبة، ومحرمة ومكروهة، ومباحة. فمن الواجبة تعلم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين وشبه ذلك. ومن المندوبة تصـنيف كتب العلم، وبناء المدارس، والربط، وغـير ذلـك. ومن المباحـة التبسـط في ألوان الأطعمة وغير ذلك.

والحرام والمكروه ظاهران. فعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم ((كـل بدعة ضلالة)) من العام المخصوص.

وقال صاحب جامع الأصول: الابتداع من المخلـوقين ان كـان في خلاف ما أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم فهـو في حـيز الـذم والانكار، وان كان واقعا تحت عمـوم مـا نـدب اللـه تعـالى بـه ورسـوله صلى الله عليه وسلم فهو في حـيز المـدح، وان لم يكن مثلـه موجـودا كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف، ويعضد ذلك قول عمر رضـي الله عنه في صلاة التراويح: نعمت البدعة هذه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اثبتوا واستمروا على تقواه عز وجـل فيما نهاكم عنه ﴿وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿يُـؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي نصـيبين ﴿مِنْ رَحْمَتِـهِ وَيَجْعَـلْ لَكُمْ نُـورًا تَمْشُـونَ بِـهِ﴾ يـوم القيامة وهو النور المذكور في قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُـورُهُمْ بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما سلف منكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أخرج الطبراني عن ابن عباس وابن أبي حاتم عن سـعيد بن جبـير قـالا ان أربعين من أصـحاب النجاشـي قـدموا على النـبي صـلى اللـه عليـه وسلهم فشهدوا <277>

معه أُحُدًا، فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم أحد فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا: يا رسول الله أنا أهلُ ميسرةٍ فأذن لنا نجيئ بأموالنا نواسي بها المسلمين فأنزل الله تعالى فيهم ﴿الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ الى قوله ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ فجعل لهم أجرين فلما نزلت هذه الآية قالوا: يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجران، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم. فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ يؤتكم كفلين من رحمته... الآية أي راداً عليهم قولهم ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم. وقوله تعالى ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ متعلق بالجملة الطلبية السابقة المتضمنة لمعنى الشرط، اذ التقدير ان تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته الآية.. ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وكلمة ﴿لا﴾ مزيدة اى ليعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وهذه الجملة تذييل مقررة لمضمون ما قبله والله أعلم. <278>

الجزء الثامن والعشرون

<279>

سورة المجادلة، مدنية وآياتها اثنتان وعشرون

نزلت بعد المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَـدْ سَـمِعَ اللَّهُ قَـوْلَ الَّتِي تُجَادِلُـكَ فِي زَوْجِهَـا وَتَشْـتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْـمَعُ تَحَاوُرَكُمَـا إِنَّ اللَّهَ سَـمِيعٌ بَصِـيرٌ (1) الَّذِينَ يُظَـاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَـائِهِمْ مَـا هُنَّ أُمَّهَـاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَـاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَـدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُـونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُـوٌّ غَفُـورٌ (2) وَالَّذِينَ يُظَـاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَـا قَـالُوا فَتَحْرِيـرُ رَقَبَـةٍ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَتَمَاسَّـا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُـونَ خَبِـيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِـدْ فَصِـيَامُ شَـهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَتَمَاسَّـا فَمَنْ لَمْ يَسْـتَطِعْ فَإِطْعَـامُ سِـتِّينَ مِسْـكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4)﴾

قوله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يعني قد سمع الله قول المرأة التي تجادلك وتراجعك الكلام في شأن زوجها، وفيما صدر عنه من عبارة الظهار، تريد أن ترجع الى زوجها.

وكان الظهار في الجاهلية، وصدرا من الاسلام، طلاقا إلى أن نزلت الآية ببيان حكمه وحل المرأة بإعطاء الكفارة. والظهار لغة: مصدر ظاهر وهو مفاعلة من الظهر، ويراد به معان مختلفة راجعة إلى الظهر معنى ولفظا باختلاف الأغراض. فيقال: ظاهر زيد عمرا أي قابل ظهره بظهره حقيقة. وظاهره اذا نصره باعتبار أنه يقال قوى ظهره اذا نصره. وظاهر بين ثوبين اذا لبس أحدهما فوق الآخر باعتبار جعل ما يلي به كل منهما الآخر ظهرا للثوب، وظاهر من امرأته إذا قال لها أنت علي كظهر أمي. وأما معناه شرعا فعلى اجتهاد المجتهدين فقد عرفه الحنفية بأنه: تشبيه المنكوحة أو عضو منها يعبر به عن الكل كالرأس أو جزء شائع منها كالثلث، بقريب محرم عليه على التأبيد أو بعضو منه يحرم النظر عليه.

وعند الشافعية: تشبيه الزوج زوجته بمحرم نسبا، أو رضاعا، أو مصاهرة من الإناث التي لم تطرأ حرمتها عليه. ولا فرق بين أن تكون الصيغة مقارنة للتشبيه أولا، الا أن الصيغ التي تحتمل الكرامة والحرمة تحتاج الى نية الظهار. وتفصيل الصيغ المستعملة، وبيان أحكامها، يحتاج إلى مراجعة الكتب المعتمدة عند أئمة المذاهب، غير أنه اتفق الفقهاء على أن الرجل اذا قال لزوجته أنت عليّ كظهر أمي أنه ظهار. واختلفوا اذا ذكر عضوا غير الظهر، أو ذكر ظهر من تحرم عليه ممن يحرم نكاحهن على التأبيد غير الأم، فقال مالك: هو ظهار، وقال جماعة من العلماء: لا يكون ظهارا الا بلفظ الظهر والأم. وقال: أبو حنيفة يكون بكل عضو يحرم النظر اليه. وسبب اختلافهم

معارضة المعنى للظاهر، وذلك أن معنى التحريم تستوي فيه الأم وغيرها من المحرمات، والظهر وغيرها من الأعضاء، وأما الظاهر من الشرع فانه يقتضي أن لا يسمى ظهارا الا ما ذكر فيه لفظ الظهر والأم. وأما اذا قال هي عليّ كأمي ولم يذكر الظهر، فقال أبو حنيفة والشافعي ينوي في ذلك لأنه قد يريد بذلك الاجلال لها وعظم منزلتها عنده وقال الإمام مالك رضي الله عنه هو ظهار.

وقد أخذ الباري يبين حكم الظهار فقال ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ كأوس بن الصامت الذي ظاهر خولة بنت مالك بن ثعلبة ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ ليست تلك النسوة المظاهر منهن أمهات لأولئك الرجال ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ﴾ بعيدا عن الادب اذا شبهوا زوجاتهم بأمهاتهم بأن قال المظاهر لزوجته أنت علي كظهر أمي ﴿وَ﴾ يقولون ﴿زُورًا﴾ من الكلام أي جملة كاذبة خاطئة أن قال المظاهر أنت أمي. وذلك الكلام فاسد في النقل ومخالف للعقل ويأثم به القائل ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾ مبالغ في العفو ﴿غَفُورٌ﴾ مبالغ في المغفرة للذنوب.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ فان قال القائل أنت علي كظهر أمي ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي يتندمون عنه بالعزم على أن يبقوها ويطأوها أو بإمساكها مدة تسع اجراء صيغة الطلاق كما هو عند الامام الشافعي ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ أي فالواجب عليه تحرير رقبة سليمة من العيوب المخلة بالعمل من قبل أن يتلاقيا ويطأ الزوج زوجته لان وطئها قبل اعطاء الكفارة حرام ﴿ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي ذلكم الحكم بوجوب الكفارة توعظون به لانه يدل على ارتكاب الجناية الموجبة للغرامة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي يعاقبكم اذا خالفتم حكمه ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الرقبة أو وجدها ولم يجد ما يشتريه به

﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي فالواجب عليه ذلك ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ فإن أفطر بغير عذر لزمه الاستئناف، أو بعذر ففيه خلاف.

﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ أي الصوم لهرم أو مرض أو شبق مفرط ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ ستين مدا عند الامام الشافعي، وعند أبي حنيفة كل مسكين نصف صاع أو قيمته من النقد. ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي فرض ذلك لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ورفض ما كنتم عليه في الجاهلية، وحدود الله لا يجوز تعديها ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يقبلونها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يعادونهما فان كلا من المتعاديين في طرف وحد غير طرف الآخر وحده ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي أهلكوا كما أهلك الذين من قبلهم ويرجعون الى الله ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي أنهم حادوا الله ورسوله مع أنا أنزلنا آيات

فيها تشريع الأحكام العملية الدينية، والمبايعات والمعاملات والأحوال الشخصية، والجنايات والقضاء وغيرها.. مما لابد منه للانسان، وقررنا لهم الاجتهاد والاستنباط لاحكام لم يكن عليها نصوص، ومع ذلك عارضوا تلك الأحكام، وقرروا أحكاما أخرى بدون الحاجة الماسة اليها ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ المحادين لله ورسوله ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ من القبائح ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أي أحصى ما عملوه ﴿وَ﴾ هم ﴿وَنَسُوهُ﴾ لعدم اهتمامهم بالمخالفات ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع لا يغيب عنه شيء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ غيبها وشهادتها ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى﴾ أي التناجي أي الكلام الجاري بين الناس سرا بحيث يختص بفهمه أهله من ﴿ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ﴾ أي الباري تعالى ﴿رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ﴾ كأن يكون بين اثنين ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ كأن يكون بين ستة فصاعدا ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يجري بينهم ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ من الأماكن ولو كانوا في سراديب ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فان كان أمرا بصدقة أو اصلاح بين الناس فجزاؤهم المثوبة الحسنى، أو كان تدبيرا لتدمير قوم أو بلد أو قرية أو عائلة أو اهلاك شخص فالجزاء هو العقاب كما يستحقه أهل الكتاب ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لان نسبته إلى كل شيء يساوي نسبته إلى غيره.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)﴾

قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُـوا عَنِ النَّجْـوَى ثُمَّ يَعُـودُونَ لِمَـا نُهُـوا عَنْهُ﴾ قـال ابن عبـاس رضـي اللـه عنه: نـزلت في اليهـود والمنـافقين، كانوا يتناجون دون المؤمنين وينظرون اليهم ويتغـامزون بـأعينهم عليهم يوهمونهم عن أقاربهم أنهم أصابهم شر، فلا يزالـون كـذلك حـتى تقـوم أقاربهم، فلما كثر ذلك شـكا المؤمنـون الى الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم فنهـاهم أن يتنـاجوا دون المؤمـنين، فعـادوا لمثـل فعلهم. وقولـه ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ﴾ معطوف على ما قبلـه وداخـل في حكمـه، أي ثم يعـودون لما نهوا عنه ويتناجون ﴿بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِـيَةِ الرَّسُـولِ وَإِذَا جَـاءُوكَ حَيَّوْكَ﴾ أي قـدموا لـك التحيـة ﴿بِمَـا لَمْ يُحَيِّكَ بِـهِ اللَّهُ﴾ روى البخـاري ومسلم أن ناسـا من اليهـود دخلـوا على رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. فقال صلى الله عليـه وسـلم: وعليكم. قالت عائشـة رضـي اللـه عنهـا وقلت: وعليكم السـام ولعنكم الله وغضب عليكم فقال صلى الله عليه وسلم: ((يـا عائشـة ان اللـه لا يحب الفاحش ولا المتفحش)) فقلت ألا تسمعهم يقولون السام؟ فقال صلى الله عليـه وسـلم ((أو مـا سـمعت أقـول وعليكم؟)) فـأنزل اللـه تعـالى واذا جـاؤك.. الآيـة ﴿وَيَقُولُـونَ فِي أَنْفُسِـهِمْ لَـوْلَا يُعَـذِّبُنَا اللَّهُ بِمَـا نَقُولُ﴾ أي هلا يعذبنا الله بسبب ذلـك لـو كـان محمـد صـلى اللـه عليـه وسلم نبيا، أي لو كان نبيا لعذبنا الله بسبب ما نقول من التحية! فيقول الله تعالى:

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾

كما يفعله المنافقون ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ أي بما يتضمن خير المؤمنين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا النَّجْوَى﴾ أي المعهودة الملعونة التي تكون لإضرار المؤمنين وفي نقد أعمالهم ومعصية الرسول ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي من القائه واثارته في قلوبكم ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بإرادته اضرارهم ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (13)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا﴾ هذه الآية الكريمة مع ما قبلها من الآداب الاجتماعية فواجب الإنسان العاقل الاجتماعي أن يتحبب الى المجتمع ولا يفعل شيئا يوجب الاثارة والعداء حتى يكون له وزن ويسمع الناس نصائحه وارشاداته، والنجوى المثير

للعداء وخوف الناس من الشرور والمفاسد العامة فنهى الله عنــه أولاً، وأمر بالفسح وإعانة الناس في المجالس ثانيا حـتى يأخـذوا مكانـا على مكانتهم وبذلك يزداد الود والتحابب بين الناس فـأمر بـه في هـذه الآيـة وقــال ﴿يَـا أَيُّهَــا الَّذِينَ آَمَنُــوا إِذَا قِيــلَ لَكُمْ تَفَسَّــحُوا فِي الْمَجَــالِسِ فَافْسَـحُوا﴾ أي فليفسـح بعضـكم لبعض فيهـا. فـإذا فسـحتم لهم فيهـا ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي في رحمتـه أو في الجنـة أو في منـازلكم أو في الأمكنة التي يردون عليها في المسافرات والعـزائم أو في صـدوركم أو في قبوركم، فإن حاجة الانسان الى الفسح أكثر من أن يحصـى، واللــه قـادر على كـل فسـح في كـل مكـان ومقـام. أخـرج ابن أبي حـاتم عن مقاتل بن حبان كان صـلى اللـه عليـه وسـلم يـوم الجمعـة في الصـفة، وفي المكـان ضـيق، وكـان عليـه الصـلاة والسـلام يكـرم أهـل بـدر من المهاجرين والأنصار، فجاء نـاس من أهـل بـدر منهم ثـابت بن قيس بن شماس، وقد سبقوا الى المجالس، فقاموا حيال رسول الله صلى اللــه عليه وسلم فقالوا: السلام عليك أيهـا النـبي ورحمـة اللـه وبركاتـه فـرد النــبي صــلى اللــه عليـه وسـلم، ثم سـلموا على القـوم فـردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسـع لهم فلم يفسـحوا، فشـق ذلـك على رسول الله، فقـال لبعض من حولـه: قم يـا فلان ويـا فلان، فأقـام نفرا مقدار من قدم فشق ذلك عليهم. وعـرفت كراهيتـه في وجـوههم، وقال المنافقون: ما عدل بإقامة من أخذ مقامه وأحب قربـه لمن تـأخر عن الحضور!

فأنزل الله تعالى هذه الآيـة ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُـوا... ﴾ الآيـة وكـان تلـك الكراهية ممن لم يفسح تنافسا في القرب من رسول اللـه صـلى اللــه عليه وسـلم ورغبتـه فيـه، ولا تكـاد نفس تـؤثر غيرهـا بـذلك ﴿وَإِذَا قِيـلَ انْشُـزُوا﴾ أي انهضـوا للتوسـعة على المقبلين ﴿فَانْشُـزُوا﴾ ولا تتثبطـوا ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ﴾ مجزوم في جـواب الأمـر ﴿وَالَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ﴾ من المؤمنين ﴿دَرَجَاتٍ﴾ وعطفهم

على الـذين آمنـوا من عطـف الخـاص على العـام للاهتمـام ﴿وَاللَّهُ بِمَـا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وعد للمتمثلين ووعيد لغيرهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَـاجَيْتُمُ الرَّسُـولَ﴾ أي اذا عـزمتم على المناجـاة معه ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ أي فتصدقوا قبلها على الفقـراء ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ذلك التقديم خير لكم لأجل نيل الثـواب، وأزكى لأنفسـكم لما فيـه من تعويـدها على الصـدقات وعـدم الاهتمـام بخـزن الأموال ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيث رخص لمن لم يجـد ما يقدمه أن لا يقدم ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَـدَيْ نَجْـوَاكُمْ صَـدَقَاتٍ﴾ أي أخفتم الفقر لأجل تقديمها ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَـابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي لم تفعلوا ما أمرتم به وقد سامح الله عنكم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُـوا الزَّكَـاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الاوامر ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (16) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (19) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)﴾

قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا﴾ تعجيب من حال المنافقين الموالين لليهود، فيقول سبحانه وتعالى ألم تر أيها الرائي الى المنافقين الذين تولوا قوما من اليهود ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ولعنهم وأعد لهم جهنم ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ أي ليسوا منكم لانهم منافقون وأنتم مسلمون صادقون ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ لأنهم ليسوا من اليهود لا حسبا ولا نسبا. وفي الحديث: ((مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين غنمين، لا تدري أيهما تتبع)). ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾أي ويحلفون على حكم غير مطابق للواقع يعني يحلفون أنهم مسلمون وليسوا كذلك ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون. روي أنه صلى الله عليه وسلم كان في حجرة من حجراته فقال: ((يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار، وينظر بعين شيطان)) فدخل عبدالله بن نبتل المنافق، وكان أزرق. فقال صلى الله عليه وسلم له: ((علام تشتمني أنت وأصحابك؟)) فحلف بالله ما فعل.

ثم جاء بأصحابه فحلفوا فنزلت ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فتمرنوا على سوء العمل وتدربوا عليه ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ وقاية

دون دمائهم وأموالهم ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فمنعوا الناس في خلال أمنهم عن سلوك سبيل الله ﴿فَلَهُمْ عَـذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي فلهم في الآخـرة على رءوس الاشـهاد عـذاب مهين محقـر لهم عقابـا على اسـتخفافهم بدين الله ورسالة رسوله ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْـوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أبد الآبدين ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ أي لله تعالى قائلين: والله ما كنـا مشـركين ﴿كَمَـا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا أنهم مؤمنون صادقون ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ﴾ بتلـك الايمان الكاذبة ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ من المنافع أو رفع العقاب والعـذاب كمـا كانوا يدفعون بها في الـدنيا بعض المضـار المتوجهـة اليهم ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وأي كذب أشد وأقوى وأكـثر كسـرا للأدب من الكـذب أمـام علام الغيوب؟.

﴿اسْتَحْوَذَ﴾ أي غلب ﴿عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ بالوساوس الفاسـدة المفسـدة حتى اتبعوه فيمـا ألقـاه اليهم من الكفـر والعنـاد ﴿فَأَنْسَـاهُمْ ذِكْـرَ اللَّهِ﴾ تعالى ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ أي جنـوده ﴿أَلَا إِنَّ حِـزْبَ الشَّـيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي المتصفون بالخسـران في الـدنيا والآخـرة، ثم اسـتأنف مشـيرا لتعليـل خسـرانهم وقـال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَـادُّونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ﴾ ويخالفون أوامر الله ورسوله ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ وعلل ذلك بما يؤخـذ من قولـه الكـريم ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَـا وَرُسُـلِي﴾ بالكتـاب والحـراب، بالارشاد لاهل الرشـاد، وباعـداد العـدة على أهـل العنـاد ﴿إِنَّ اللَّهَ قَـوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَـادَّ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ﴾ أي لا ينبغي أن تجدهم وادين أعداء الله ﴿وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ وكل من تجده من المؤمنين يعانـدونهم ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين لا يُوادون من حاد اللـه ورسـوله ﴿كَتَبَ فِي قُلُـوبِهِمُ الْإِيمَـانَ﴾ أي أثبته الله بحيث لا يقبـل الـزوال ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِـرُوحٍ مِنْـهُ﴾ أي قـواهم يعـني قوى سلطان

وجـودهم أعـني القلب ﴿بِـرُوحٍ مِنْـهُ﴾ أي بنـور أفـادهم الحيـاة الابديـة والسعادة السرمدية ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَا﴾ أبد الآبدين ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي ابتهجـوا بمـا أوتـوه من لطـائف المنن الروحيـة وعـوارف المعـارف الفتوحيـة، فغلبت على قلوبهم حالة نفسية قدسـية، فـأحبوا اللـه تعـالى ورضـوا عنـه ﴿أُولَئِكَ﴾ الناس الموصوفون بما سـبق ﴿حِـزْبُ اللَّهِ﴾ أي زمرتـه وجماعتـه وثلتـه وكفى ذلك الحزب شرفا إضافته إلى الله تعـالى ﴿أَلَا إِنَّ حِـزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ﴾ لأنهم هم المؤمنــون الصــادقون الثــابتون الصــالحون. <292>

سورة الحشر، مدنية، وآياتها أربع وعشرون

نزلت بعد البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) هُـوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ مِنْ دِيَـارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْـرِ مَـا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَـذَفَ فِي قُلُـوبِهِمُ الـرُّعْبَ يُخْرِبُـونَ بُيُـوتَهُمْ بِأَيْـدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (2) وَلَـوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَـذَّبَهُمْ فِي الـدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِـرَةِ عَـذَابُ النَّارِ (3) ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4)

قوله تعالى سَـبَّحَ لِلَّهِ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ هـذه السـورة تسـمى سـورة الحشـر لجمـع بـني النضـير واخراجهم من جزيرة العرب الى الشام.

روي أنه صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة صالح بـني النضـير على أن لا يكونوا عليه ولا له. فلما ظهر يوم بدر قـالوا: انـه النـبي المنعـوت في التوراة بالنصـرة. فلمـا هـزم المسـلمون يـوم أحـد ارتـابوا ونكثـوا. وخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبا الى مكة، وحالفوا أبا سـفيان، فـأمر رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم أخـا كعب بن اشـرف من الرضاعة فقتله غيلة، ثم صبحهم بالكتائب وحاصرهم حتى صـالحوا على الجلاء، فجلا أكثرهم الى الشام، ولحقت طائفة بخيـبر والحـيرة. فـأنزل اللـه سـبحانه وتعـالى ﴿سَـبَّحَ لِلَّهِ﴾ إلى قولـه ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

والتسبيح: هو التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعـالى عمـا لا يليـق بذاتـه وصيغة الماضي لتحقق وقوعه في الماضي وما يستقبل ما دام معلومـا له تعالى فهو كالماضي المنقضي المتحقق. وكلمة ما تسـتعمل للعاقـل وغـيره سـيما إذا اختلـط العقلاء بغـيرهم، وصـاروا في قلـة من العـدد بالنسبة إلى غير العاقل. وقوله تعالى ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغـالب الذي لا يغلب والفاعل الـذي تقـارن أفعالـه الحكمـة، وفيـه صـنعة بـديع براعة الاستهلال لان السورة في بيـان عـزة اللـه ورسـوله والمؤمـنين، ويفيد عزته وغلبته.

قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾أي يهود بـني النضير ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي في أول حشرهم واخــراجهم من جزيـرة العـرب الى الشـام اذ لم يصـادفوا هـذا النـوع من الاخـراج من الجزيرة، أو في أول حشرهم للقتال مـع رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم حيث صبحهم بالكتائب وحاصرهم حتى صالحوا على الجلاء، وآخر حشرهم اجلاء عمـر رضـي اللـه عنـه ايـاهم من خيـبر الى الشـام ﴿مَـا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ لشدة بأسهم وكثرة أمـوالهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَـانِعَتُهُمْ حُصُـونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي ظنـوا أن حصـونهم المسـتحكمة وتحصـنهم بهـا تمنعهم من بأس الله تعالى ونكايته بهم

﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي فأتيهم أمره وبأسه وقدره من حيث لم يظنوا أنه يأتيهم كذلك وذلك بقتل رئيسهم كعب بن الأشرف والقاء الخور والجبن والفشل في أوساطهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي الخوف الشديد ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي بمباشرة أيديهم ومعالجتها واخراج الاخشاب منها لسد أفواه الذرابين حتى لا يدخل منها المسلمون عليهم ﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ ان كان فيهم بعض المؤمنين من الذين كانت لهم مصلحة في المزارع والبساتين وغيرها جاز اعتبار الباء الملحوظة هنا مثل الباء في المعطوف عليه بأن باشرت أيدي المؤمنين إخراج الأخشاب وتخريب البيوت، والا فالباء في المعطوف سببية بمعنى أن حصارهم واستعدادهم لقتال اليهود تسببا في تخريبهم بيوتهم ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وانظروا أن علة حلول العذاب بهم استكبارهم وعنادهم مع الحق فكلما استكبر قوم وعصوا أمر الله تعالى أتاهم بأسه من حيث لا يحتسبون، فان ذلك من القياس الجلي ولا ينكره الا الغبي، ولا تظنوا أن نكاية الله وعذابه تنحصر في سبب واحد بل لها أسباب وعلل لا تكاد تحصى، وما يعلم جنود ربك الا هو.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ من الجزيرة الى الشام وغيرها ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل كقتلى بدر أو بالأمراض والعاهات أو بوقوع الشقاق بينهم فإنه من أعظم الآفات ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ علاوة على ما في الدنيا ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ذلك العذاب النازل بهم بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله وأحدثوا الشقاق والمخالفة مع الله ورسوله وفعلوا ما فعلوا من القبائح كنشر الفوضى في ربوع الجزيرة ومخالفة أعداء الرسول والمؤامرة عليه لقتله وتحريش الناس وتحريضهم عليه وغير ذلك. ﴿وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ﴾ وفيه مشاقة رسوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (5) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)

قوله تعالى مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ اشعار بنصر الله تعالى للمؤمنين، وأن هذه الامور الجارية من أسباب العز والكرامة كله من الله تعالى فيقول

﴿مَـا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَـةٍ﴾ أي من كريمـة من النخلـة ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَـا قَائِمَـةً عَلَى أُصُـولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بخلقـه تعـالى وأن الحـوادث مخلوقـة لـه مطلقا، وبرضاء الله ومحبته فإنه أراد اتمام نوره ونشر الاسلام ليحقــق ما أراده وأحبه ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ المـارقين عن الاسـلام ﴿وَمَـا أَفَـاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي وما أرجعه الله وأوصله الى المســلمين من أموالهم ﴿فَمَـا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْـهِ مِنْ خَيْـلٍ وَلَا رِكَـابٍ﴾ فمـا أسـرعتم عليهم فردا من الخيل، ولا فردا مما يركب من الإبل ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُـلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ولكن جرت سنته الإلهية البهيـة بـأن يسـلط رسـله الكـرام على من يشـاء من عبـاده فيهـيـيء أسـباب النصـر المـبين لهم ولمن تبعهم من المسلمين ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعـل بالعبـاد ما أراد من العز والذل، والملك والفقر، والصحة والمرض، وغيرها.

وحاصل معنى هذه الآية الكريمة أن ما أفاء اللـه على رسـوله من بـني النضير بعد الجلاء والخروج من الـديار كـان مختصـا بالرسـول ولم يكن لأحد حق فيه، ولذلك قسمه بين المهـاجرين ولم يعـط الأنصـار الا ثلاثـة منهم لفقرهم، والثلاثة: أبو دجانة سماك، وسهل بن حنيف، والحرث بن الصمة. وأخذ من ذلك ما أحتاج اليه لصرفه على عائلته وممونه.

وقوله ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُـرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ وَلِـذِي الْقُـرْبَى وَالْيَتَـامَى وَالْمَسَـاكِينِ وَابْنِ السَّـبِيلِ﴾ بيـان لمـا أفـاء اللـه على رسوله من قرى الكفار بعد بيان حكم ما أفاء الله عليه من بني النضير، وبمقتضى ظاهر هذه الآيـة الشـريفة فـإن الفـيئ يقسـم سـتة أقسـام: سهم منه لله ويصرف في الكعبـة الشـريفة. وسـهم للرسـول، يصـرفه في نفسه وعائلته. والأسداس الأربعة الباقية لمن ذكر فيهـا. والجمهـور على أن ذكــر اللــه تعــالى للتــبرك، وأن ســهم اللــه ورســوله واحــد، والأخماس الأربعة الباقية للاصناف الأربعة المذكورة. والفرق بين الفيئ والغنيمة أن الأولى ما يحصل للمسلمين بدون القتال كما

تركه الكفار وجلوا عنه وأمثاله وذلك يخمس كما ذكرنا، الا ما اختص بـه صلى الله عليه وسلم من بني النضـير. وأمـا الغنيمـة فهي مـال حصـل لهم بـالحرب معهم، وهي تقسـم بين المقـاتلين الا خمسـا منـه فهـو يخمس ويقسم كالاقسام الخمسة من الفيئ فقد روي بأسـانيد معتـبرة مقبولة.

وقولـه تعـالى ﴿كَيْ لَا يَكُـونَ دُولَـةً بَيْنَ الْأَغْنِيَـاءِ مِنْكُمْ﴾ تعليـل للتقسـيم المذكور أي قسمت بين الأصناف الخمسة كي لا يكون مالا متـداولا بين الأغنياء منكم يتكاثرون به ﴿وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُـذُوهُ وَمَـا نَهَـاكُمْ عَنْـهُ فَانْتَهُوا﴾ أي وما أعطاكم من الفيئ فخذوه لانه حقكم الـذي أحلـه اللـه لكم، وما نهاكم عن أخذه فلا تأخذوه ﴿وَاتَّقُـوا اللَّهَ﴾ في مخالفتـه صـلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالفه وعذبه. أعاذنا اللـه وعافانـا من المخالفـة، ووفقنـا على الموافقـة والمؤالفـة بمنـه وكرمـه آمين.

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ بدل من قوله السابق لذي القـربى وما عطـف عليـه. ومعنـاه أن اسـتحقاق ذوي القـربي للفـيئ مشـروط بفقرهم، فلا يجوز صرفه لاغنيائهم، واليه ذهب الإمام أبـو حنيفـة رضـي اللـه عنـه، ومن أعطى أغنيـاءهم كالشـافعي رضـي اللـه عنـه خصـص الابدال بما بعد ذي القربي أي اليتـامى ومـا بعـده، أو الفيء بفـيئ بـني النضير، فانه لم يعـط الأغنيـاء منـه مطلقـا. وقولـه ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُـوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ حيث اضـطرهم كفـار مكـة وأحوجـوهم إلى الخـروج فخرجوا منها. وكان هؤلاء مائة رجل ﴿يَبْتَغُـونَ فَضْـلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْـوَانًا﴾ أي يطلبون منـه رزقـا في الـدنيا ومرضـاة في الآخـرة ﴿وَيَنْصُـرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ناوين لنصرة الله ورسوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّـادِقُونَ﴾ وقولـه ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ معطوف على المهـاجرين، والمـراد بهم الأنصار والتبوء النزول في المكان والآيـة من قبيـل: وزججن الحـواجب والعيونا. أي تبوأوا الدار وألفوا الايمان ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾

أي من قبل المهاجرين، والمراد من قبل هجرتهم الى المدينة المنـورة، حـالكونهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَـاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من مكـة وغيرها لمواسـاتهم ومسـاعدتهم ﴿وَلَا يَجِـدُونَ فِي صُـدُورِهِمْ حَاجَـةً مِمَّا أُوتُـوا﴾ أي حاجـة واقتضـاء لمـا أعطي المهـاجرون من الفـيئ يعـني يسـتحبون أن يكـون المال لهم لكونهم فقراء مهاجرين في سبيل اعلاء كلمـة الحـق والـدين ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَـانَ بِهِمْ خَصَاصَـةٌ﴾ أي ويختـارون غـيرهم ويقدمونهم على أنفسهم في نيل المال من الفيئ وغيره، ولـو كـان أي ولو وجد بهم خصاصة وحاجة وفقر حال.

روي أنهم وصلوا في هذا الباب الى درجة لا ينالها غـيرهم، حـتى أن من كـان عنـده امرأتـان يحب أن يـنزل عن إحـداهما ويزوجهـا واحـدا من المهاجرين، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم منعهم، وأمر من كـان عنـده ثـروة أو بسـتان أن يشـغل بعضـا منهم فيهـا، في سـبيل كسـب معيشته بتعب نفسه.

أخـرج البخـاري ومسـلم والترمـذي والنسـائي وغـيرهم عن أبي هريـرة قال: اتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يـا رسـول اللـه أصابني الجهد فأرسل الى نسائه فلم يجد عندهن شيئا، فقال صلى الله عليه وسلم: ((الا رجل يضيف هذا الرجل الليلـة، رحمـه اللـه؟)) فقـام رجل من الأنصار، وفي رواية فقال ابو طلحة أنا يا رسول اللـه، فـذهب الى اهله، فقال لامرأتـه: اكـرمي ضـيف رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم قـالت: واللـه مـا عنـدي إلا قـوت الصِّـبية. قـال: اذا أراد الصـبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج، ونطوي الليلة لضـيف رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم ففعلت. ثم غـدا الضـيف على رسـول اللـه فقال صلى الله عليه وسلم: ((لقد عجب الله الليلـة من فلان وفلانـة)). وأنزل الله تعالى فيهما ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ.. ﴾ الآية ﴿وَمَنْ يُوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ﴾ أي ومن يحفـظ بتوفيق الله تعالى

وبكسب نفسه وملاحظته أن حق الانسان هـو الإحسـان لا الإسـاءة إلى من عداه وما عداه فأولئك الناس المحفوظون هم المفلحون الناجحون في حياتهم وبعد مماتهم.

والفرق بين الشح والبخل: أن الثـاني هـو منـع النفس عن افـادة الغـير الخير مالا أو غيره، والأول هو ذلك أيضا لكن مع حرص وحزازة ولؤم.

وقولـه تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ جَـاءُوا مِنْ بَعْـدِهِمْ﴾ عطـف على المهـاجرين، والمـراد بهم الـذين هـاجروا الى المدينـة بعـد أن تمكن المسـلمون المهـاجرون الاولـون وحصـل للاسـلام قـوة ومنعـة، أي فهم أيضا مسـتحقون لاخـذ الفيء. وقيـل: المـراد المؤمنـون بعـد الفـريقين أي المهـاجرين والأنصـار أينمـا كـانوا الى يـوم القيامة، وعلى هـذا المعـنى جمهور الناس، فالآية مستوعبة لجميع المؤمنين الى يـوم الـدين وقولـه ﴿يَقُولُـونَ رَبَّنَـا اغْفِـرْ لَنَـا وَلِإِخْوَانِنَـا الَّذِينَ سَـبَقُونَا بِالْإِيمَـانِ﴾ أي سـبق ايمانهم باللـه ورسـوله على ايماننـا بهمـا، أو سـبقونا في اللحـوق بـدار الآخرة مع الايمان ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَـا غِلًّا﴾ أي حقـدا وحـزازة ﴿لِلَّذِينَ آَمَنُوا﴾ على الاطلاق ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ بنـا وبهم. فالآيـة الكريمـة تنادي الى وجوب رعاية حرمة المؤمنين ومحبتهم بالقـدر المسـتطاع الا من أمر الله تعالى أو رسوله بخلاف ذلك، وذلك لأن جزاء أعمالهم عائد الى خالق عالم بكل شيئ وأمرهم إليه تعالى.

﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (13) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (15) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (17)﴾

قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة، فيقول: ألم تر إلى الذين نافقوا؟ والآية نزلت في رهط من بني عوف منهم عبد الله بن أبي بن سلول، ووديعة بن مالك، وسويد، وداعس، بعثوا الى بني النضير بما تضمنته الجمل المحكية بقوله تعالى ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم يهود بني النضير والمنافقون، وان لم يكونوا من بني جلدتهم لكنهم كانوا اخوانهم في الكفر والشقاء والعداء للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ موطئة للقسم وقوله ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ جواب القسم أي والله لئن أخرجكم محمد من دياركم جبرا لنخرجن من ديارنا معكم وننتقل في صحبتكم أينما ذهبتم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي ولا نطيع في شأنكم وإيذائكم أحدا أبدا أي اذا طلبوا منا ايذاءكم لا نطيعهم في ذلك ولا نؤذيكم، وان آذوكم لا نقبل ايذاءهم لكم وندافع عنكم ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ أي لنعاونكم على أعدائكم، وذلك شأن الحلفاء الصادقين بعضهم مع بعض ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

في مواعيدهم لإخوانهم اليهود، كما هم كاذبون معنا نحن المسلمين.

والمنافق شأنه النفاق أينما كان من الآفاق، لأن النفاق رذيلة نفسية لا تكاد تنفك عن صاحبها الا بمعونة من الله تعالى، ويبين جهات كذبهم معهم فيقول: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾ أي بنو النضير من جانب الرسول ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا﴾ من جانبه ﴿لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾ على سبيل الفرض ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ وليرجعن إلى منازلهم ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ أي لا اليهود المستنصرون بالمنافقين ولا المنافقون الذين أرادوا نصر اليهود الفاسدين.

﴿لَأَنْتُمْ﴾ أيها الرسول ومن معه ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ ومخافة ﴿فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ تعالى يعني أنهم لا دين لهم ولا علاقة لهم بالله، كما أنهم ينافقونكم ويخافون منكم أكثر مما يخافونه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ شيئا من الدين والاخلاص منه ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أي اليهود أو اليهود والمنافقون ﴿جَمِيعًا﴾ أي لو فرضنا اجتماعهم على المكيدة والحرب ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ﴾ بالقلاع والأبواب والخنادق ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ يتسترون بها دون أن يخرجوا ويبارزوكم ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ استئناف سيق لبيان أن عدم مقاتلتهم معكم الا في الاماكن السابقة ليس لضعفهم في أنفسهم وذواتهم، لانهم أقوياء شجعان اذا حارب بعضهم بعضا فلهم صولة وجولة، ولكنهم يصيرون ضعفاء في مقابلتكم ومقاتلتكم بسبب أن الله يجعل الرعب في قلوبهم ويسلبهم البأس والمعنوية، وقوله تعالى ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ جواب ما يقال اذا كان بأسهم بينهم شديدا فما بالهم لا يقاتلون المسلمين؟ فقال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين متكاتفين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي متفرقة، أي لا يرتبط بعضهم ببعض، وكل قوم ولو كان كل فرد منهم بطلا لكن لما لم تتوحد كلمتهم لا تتفق عزيمتهم ولا يقدرون على مقابلة الأفزاع والاقدار أي وتشتت قلوبهم ﴿ذَلِكَ﴾ أي ﴿بِ﴾

سـبب ﴿أَنَّهُمْ قَـوْمٌ لَا يَعْقِلُـونَ﴾ روح الألفـة والاتحـاد حـتى يستحصـلوها ويستفيدوا منها.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًـا﴾ أي ﴿كَمَثَـلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مثلهم يهود بني قينقاع الذين غزاهم النبي صلى الله عليه وسلم يـوم السـبت على رأس عشرين شهرا من الهجرة في شوال قبل غزوة بني النضـير حيث كانت في ربيع سنة أربع وأجلاهم أي بني قينقاع أخرجهم الرسول صلى الله عليه وسـلم إلى أذرعـات بالشـام ﴿ذَاقُـوا وَبَـالَ أَمْـرِهِمْ﴾ أي ذاقوا سوء عاقبة مكيدتهم وسـوء نيتهم مـع الرسـول وأمتـه بـاخراجهم إلى الشام، ذلك في الـدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخـرة ﴿عَـذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يقـادر قدره.

﴿كَمَثَـلِ الشَّـيْطَانِ﴾ هـذا أيضا خـبر مبتـدأ محـذوف أي مثلهم كمثـل الشيطان ولكن الضمير هنا راجع الى المنافقين المذكورين المصـادقين لبني النضير. والضمير السابق راجع الى يهود بني النضير أي مثل يهـود بني النضير كمثل يهود بني قينقاع في ما جرى عليهم.

ومثل المنافقين المحرضين ليهود بني النضير كمثل الشـيطان ﴿إِذْ قَـالَ لِلْإِنْسَـانِ اكْفُـرْ فَلَمَّا كَفَـرَ قَـالَ إِنِّي بَـرِيءٌ مِنْـكَ إِنِّي أَخَـافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ أي عاقبة الشـيطان المغـوى والانسـان الغاوي بإغوائه ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ وأولئـك المنـافقون الـذين أغـووا بـني النضـير أولا وتـبرأوا منهم بعـد جلائهم الى الشـام أنهمـا أي الطرفين أي المنافقون ويهود بني النضـير في عـار الـدنيا ونـار الآخـرة ﴿وَذَلِكَ﴾ العار والنـار ﴿جَـزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ في الـدنيا وفي الآخـرة، وذلـك المذكور في هذه السورة المباركة كان أحوال المسلمين حين كانوا في فجر نهضتهم، ونماء دينهم وشريعتهم، ووحدة كلمتهم وعزيمتهم فكـانوا يـترقون يومـا فيومـا على مصـاعد الشـرف والكرامـة، ويخـاف منهم المخـالفون في الأطـراف والاكنـاف بسـبب سـلامتهم عن علـة الخلاف والاختلاف، وهي سنة اللـه في العـالمين. ونسـأل اللـه تعـالى أن ينظـر الينا بنظر اللطف والرعاية، ويلهمنا

الاعتصام بكتابه، والسلوك على سبيل الخير الذي مهده لأحبابه، ويعيننـا على الاستعداد للعلم والعمل الموحد والاعتصام، وأن يجمع شـمل أمـة الاسلام وذلك على الله يسير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِـيرٌ بِمَـا تَعْمَلُـونَ (18) وَلَا تَكُونُـوا كَالَّذِينَ نَسُـوا اللَّهَ فَأَنْسَـاهُمْ أَنْفُسَـهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِـقُونَ (19) لَا يَسْـتَوِي أَصْـحَابُ النَّارِ وَأَصْـحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُـرْآَنَ عَلَى جَبَـلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21) هُـوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ عَـالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ هُـوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّـلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْـرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَـهُ الْأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى يُسَـبِّحُ لَـهُ مَـا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)﴾

قوله تعالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ﴾ نصـيحة عامـة وتوصـيات هامـة للمؤمـنين والمؤمنـات وان أتت بصـورة خطـاب الجمـع المـذكر فيقول: اتقوا الله في كل ما تأتون وتـذرون قـولا أو فعلا أكلا وشـربا أو لبسا أو غيرها. والتقوى في القول بالتلفظ باللفظ الواجب أو المنـدوب أو المبـاح، بـأن تـترك القـول الحـرام والمكـروه، وفي الفعـل بالاتيـان بالفعل الواجب أو المندوب أو المباح،

وتـترك الحـرام والمكـروه، وتمـيز تلـك الأقـوال والأفعـال لاهـل العلم بمراجعة الفقه، ولغير العـالم بمراجعـة الفقيـه واسـألوا أهـل الـذكر ان كنتم لا تعلمون ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ من الخيرات الناشئة من القول والفعل الواجبين أو المنـدوبين ﴿وَاتَّقُـوا اللَّهَ﴾ كـرره للتأكيـد ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِـيرٌ بِمَـا تَعْمَلُـونَ (18) وَلَا تَكُونُـوا كَالَّذِينَ نَسُـوا اللَّهَ﴾ أي نسـوا وجوده المعلوم لهم بالفطرة فغفلوا عنه حتى نسوا العلم بـه واحتـاجوا إلى التعليم، أو نســوا حقوقــه من الامتثــال للأوامــر والاجتنــاب عن المنهيات ﴿فَأَنْسَاهُمْ﴾ الله تعالى بسـبب ذلـك النسـيان ﴿أَنْفُسَـهُمْ﴾ مـع كونها أقرب شيء بالنسبة اليهم، فكان جزاء وفاقـا. يعـني أنـه شـغلهم بأخطـار خطـيرة ومشـاكل كثـيرة، حـتى صـاروا بحيث لـو سـألتهم عن أنسابهم وأسمائهم ما أجابوا جوابا شافيا ﴿أُولَئِكَ﴾ النـاس الناسـون للـه ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المـارقون عن الـدين والاعتبـار، وصـاروا من أصـحاب النار.

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْـحَابُ الْجَنَّةِ أَصْـحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَـائِزُونَ﴾ بالسعادة. ثم التفت الباري بلطافة إلى توبيخ الغافلين الناسـين لحقـوق الله تعالى وقال: ﴿لَـوْ أَنْزَلْنَـا هَـذَا الْقُـرْآَنَ﴾ الجـامع للمواعـظ الرادعـة، والنصائح اللامعة، والبراهين السـاطعة، والأنـوار اللامعـة، ﴿عَلَى جَبَـلٍ﴾ جامد وأودعنا فيه قوة السمع وطاقة الامتثـال ﴿لَرَأَيْتَـهُ خَاشِـعًا﴾ متـذللا ﴿مُتَصَدِّعًا﴾ متفرقا ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وهيبة كلامه وقوة توبيخـه وملامـه ﴿وَتِلْـكَ الْأَمْثَـالُ نَضْـرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ نــذكرها لهم ونــذكرهم بهـا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة الله وقدرته وقدره وهيبة أمره.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الـرَّحِيمُ (22) هُــوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَــهَ إِلَّا هُــوَ الْمَلِــكُ﴾ المتصــرف في الكائنــات ﴿الْقُدُّوسُ﴾ المـنزه عن نقص الصـفات ﴿السَّـلَامُ﴾ السـالم من العيـوب والآفات ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ المصدق لنفسه ورسله ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيب الحافظ لكل شيء ﴿الْعَزِيزُ﴾ ذو العزة

والجبروت ﴿الْجَبَّارُ﴾ الذي جبر خلقه على ما أراد، ولجـبر كسـر من أراد به الخير من العباد ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ البليغ العظمـة والكبريـاء صـاحب العـزة، رفيـع الـدرجات الى مـا لا يتنـاهي من الـدرجات العلى ﴿سُـبْحَانَ اللَّهِ﴾ الموصوف بمبادئ هذه الأسماء الحسنى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي يشرك بـه المشركون الأغبياء.

﴿هُـوَ اللَّهُ الْخَـالِقُ﴾ لكـل شـيء على مقتضـى حكمتـه ورعايـة سـنته ﴿الْبَـارِئُ﴾ الموجـود الممـيز لمخلوقاتـه بعضـها عن بعض في الوجـوه الامتيازيــة ﴿الْمُصَــوِّرُ﴾ لهــا بالصــورة الجنســية والنوعيــة والصــنفية والشخصية المحققة لكمال الهوية ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ المشيرة الى وجوه أثاره في العالم الأسنى ﴿يُسَـبِّحُ لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مع نفس السماوات والأرض بلسان الحال في الكل ولسان القـال لمن أراد منه المقال ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل شـيء في كـل الأحـوال ﴿الْحَكِيمُ﴾ الموصوف في جميع الأقوال والأفعال.

سبحان ربك رب العزة عما يصـفون، وسـلام على المرسـلين، والحمـد لله رب العالمين.

سورة الممتحنة، مدنية، وآياتها ثلاث عشرة

نزلت بعد الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا... ﴾ الآية نـزلت في حـاطب بن عمـرو أبي بلتعة وهو مولى عبد الله بن حميد بن زهير بن أسد بن عبد العزى.
أخرج الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمـذي، والنسـائي وابن حبان، وجماعة عن علي كرم الله وجهه قـال: بعثـني رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال: ((انطلقـوا حـتى تـأتوا روضة خـاخ، فـان بهـا ظعينـة معهـا كتـاب، فخـذوه منهـا، فـأتوني بـه)) فخرجنا حتى أتينا الروضة، فاذا نحن بالظعينـة. فقلنـا أخـرجي الكتـاب. قـالت: مـا معي من كتـاب، قلنـا: لتخـرجن الكتـاب أو لَتُلْقِينَّ الثيـاب! فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم فاذا فيه من حاطب ابن أبي بلتعة إلى انـاس من المشـركين بمكـة، يخـبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما هذا يا حـاطب؟)) قـال: لا تعجـل عليَّ يـا رسـول اللـه، إني كنت امـرأ ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان

من معـك من المهـاجرين لهم قرابـات يحمـون أهلهم وأمـوالهم بمكـة. فأحببت اذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع اليهم يدا يحمون بهـا قرابتي، وما فعلت كفرا ولا ارتـدادا عن ديـني. فقـال عمـر رضـي اللـه تعـالى عنـه: دعـني يـا رسـول اللـه أضـرب عنقه، فقـال عليـه الصـلاة والسلام: ((انه شهد بدرا، ومـا يـدريك! لعـل اللـه اطلـع على أهـل بـدر فقال: اعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم!)) فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي لا تعاملوهم كأولياء ولا تتعاونوا معهم وقولـه ﴿تُلْقُـونَ إِلَيْهِمْ بِـالْمَوَدَّةِ﴾. تفسـير للمـوالاة، والبـاء زائـدة على المفعول كما في قوله تعـالى ﴿وَلَا تُلْقُـوا بِأَيْـدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَـةِ﴾ أي ولا تلقوا أيديكم أي ذواتكم اليها أو للتعديـة وفي ﴿تُلْقُـونَ﴾ معـنى تفضـون وأفضى يتعدى بالباء، أي تفضون اليهم المودة ﴿وَقَدْ كَفَـرُوا بِمَـا جَـاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي والحال أنهم قد كفروا بما جـاءكم من الحـق ﴿يُخْرِجُـونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي ويخرجـونكم من وطنكم المحبـوب مكـة المكرمـة حفظها اللـه وقولـه ﴿أَنْ تُؤْمِنُـوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ مقـدر بـنزع الخـافض، أي يخرجـونكم من مكـة ويخرجـونكم عنهـا لان تؤمنـوا، أو على أن تؤمنـوا باللـه ربكم رب العـالمين، فلا تتخـذوهم أوليـاء ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَـرَجْتُمْ﴾ عن أوطانكم ﴿جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَـا أَعْلَمُ بِمَـا أَخْفَيْتُمْ وَمَـا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْـهُ مِنْكُمْ﴾ أي ومن يفعـل عمـل اسرار المودة معهم، أو من يفعلـه أي ذلـك الأسـرار منكم ﴿فَقَـدْ ضَـلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ الموصل للحق.

﴿إِنْ يَثْقَفُـوكُمْ﴾ أي يظفـروا بكم ﴿يَكُونُـوا لَكُمْ أَعْـدَاءً﴾ أشـداء تـوجب ابتلاءكم بالمصـائب والمعـايب ﴿وَيَبْسُـطُوا إِلَيْكُمْ أَيْـدِيَهُمْ وَأَلْسِـنَتَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ أي بما يسوءكم من القتل والاسر ونهب الأمـوال ومـا عنـدكم ﴿وَوَدُّوا لَـوْ تَكْفُـرُونَ﴾ أي تـردون كفـارا ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَـامُكُمْ﴾ أي اقاربكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

بدفع عذاب أو جلب ثواب ﴿يَفْصِلُ﴾ الله تعالى ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالحق ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي اقتداء حسن ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل عليه السلام ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا﴾ أي ابراهيم ومن معه ﴿لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ﴾ جمع بريء كشهيد وشهداء أي لا علاقة بيننا وبينكم من المودة والاخاء ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الكواكب والأصنام ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الاشراك ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناء من قوله أسوة حسنة أي لكم به اقتداء الا في الاستغفار لأبيه فان ذلك الاستغفار كان من عدم ظهور حكم الله في أبي ابراهيم عليه السلام، فكان مسموحا له، ولكن ليس لكم ذلك بالنسبة إلى أصولكم الكافرين وقوله ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من تتمة كلام سيدنا ابراهيم عليه السلام ومن معه وكذلك ما سيأتي من قولهم ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي رجعنا ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أي موضوع افتتان وعذاب ومحنة ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فلا تسلطهم علينا بذنوبنا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الجاعل للحكمة في كل شأن من شؤنك.

ثم كرر ما سبق وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي ومن يخالف ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عنه ﴿الْحَمِيدُ﴾ في أفعاله. ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ كما وقع ذلك بعد مدة فقد تزوج صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان، فصارت وسيلة لارتباط عشيرتها به صلى الله عليه وسلم

فدخلت في الاسلام زمرة محترمة من أقوامها ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على تغيير الأحوال والمآل والمصير ان ذلك على الله يسير ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)﴾

قوله تعالى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ حد فاصل وخطاب فاضل مفيد مميز لاقوام الكفار، وان كان الكفر كله ملة واحدة، وليس بعد الحق الا الضلال، ولكن هناك فروق كثيرة بين الأصناف، فالكفار في ديار الاسلام اذا التزموا البقاء بالجزية فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، والمستأمن اذا أمناه دخل في أماننا وكفالتنا ولا يجوز التعرض له بسوء.

والمعاهدون في مدة المعاهدة داخلون في أمان العهد حتى تنتهي المدة أو ينقضوا العهد، والمجاورون لنا في بلد كأمة مجتمعة في دولة لا يجوز التعرض لنفوسهم وأموالهم وأحوالهم وأعراضهم الا من أعلن العداء معنا وأراد ايذاءنا واخراجنا من أرضنا، أو ظاهر على اخراجنا فانهم ملحقون بالمقاتلين وهم المحاربون، فمن حاربنا حاربناه وأهدرنا دمه وماله كما أهدر دماءنا وأموالنا. والمسلم مشتق من السلامة يجب ان يكون قلبه سليما، والمؤمن مشتق من الامن يجب أن يكون أمينا على ما كان في رعايته. ومع ذلك كله يجب أن يكون المؤمن عالما بالامور عاقلا متفكرا فطنا يفهم الاشياء من خلال التجارب والتواريخ حتى لا يقع في شبكة الصيادين الفاسدين.

فيقـول البـاري سـبحانه: ﴿لَا يَنْهَـاكُمُ اللَّهُ﴾ تعـالى ﴿عَنِ﴾ مـودة الكفـار ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ لأجل نصرة دينهم الكفر والاشــراك من أجل امحاء ديننـا دين الحـق والانصـاف ﴿وَلَمْ يُخْرِجُـوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ أَنْ تَبَـرُّوهُمْ﴾ بـدل اشـتمال من الموصـول أي لا ينهيكم عن الـبر بهـؤلاء ﴿وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي لا ينهيكم عن أن تفضـوا اليهم بالقسـط والعـدل في الأمور ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين المعتدلين.

أخرج البخاري وغيره عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهمـا قـالت: أتتني أمي وهي مشركة في عهد قـريش اذ عاهـدوا رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم، فسألت رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم أَأَصِـلُها؟ فأنزل الله تعالى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ... ﴾ الآية فقال صلى الله عيله وسـلم: ((نعم صلي أمكِ)) وفي رواية أحمد عن عبدالله ابن الزبير قال: قدمت قُتيلةُ بنت عبد العزى على ابنتها اسماء بنت ابي بكر رضـي اللـه عنهمـا بهدايا: صاب، وأقط، وسمن وهي مشركة فأبت أسماء أن تقبل هـديتها أو تدخلها في بيتها حتى أرسلت الى عائشة رضـي اللـه تعـالى عنها أن تسأل رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن هـذا، فسـألته فـأنزل اللـه تعـالى ﴿لَا يَنْهَـاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ... ﴾ الآيـة فأمرهـا أن تقبـل هـديتها وتدخلها بيتها.

وقتيلة هذه كانت امرأة أبي بكر رضي اللـه عنـه فطلقهـا في الجاهليـة وهي أم اسماء حقيقة رضي الله عنها.

وفي مورد نزول الآية روايات أخرى، منها أنهـا نـزلت في خزاعـة وبـني الحرث وكنانة ومزينة وقبائل من العرب كانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه. ومنها أنها نــزلت في قوم من بني هاشم. ومنها أنها نزلت في النساء والصـبيان من الكفـرة، ومنها أنها نزلت في قـوم بمكـة آمنـوا ولم يهـاجروا، فكـان المهـاجرون والأنصار يتحرجون من

البر بهم لتركهم فريضة الهجرة. ومنها أنها نزلت في كفرة اتصفوا بما في مضمون الصلة. وعلى ذلك قال الكِيا: فيها دليل على جواز التصدق على اهل الذمة دون أهل الحرب، وعلى وجوب النفقة للاب الذمي دون الحربي.

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ كمشركي مكة سعوا في اخراج المؤمنين، وبعضهم أعانوا المخرجين ﴿أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي أن تتولوهم أي أن تحبوهم، وهو بدل من الموصول بدل اشتمال ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لوضعهم المحبة والولاية في غير موضعها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآَتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آَتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآَتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ بيان لبعض أحكام النساء المهاجرات وغيرهن، فيقول سبحانه وتعالى يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات بحسب ظاهر الحال ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ من بين الكفار

﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاختبروهن بما يغلب عليكم صدقهن في الايمان ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ في الواقع ونفس الأمر، ولستم مكلفين بكشف القلب الذي لا مجال لكم فيه. أخرج الطبراني في الكبير، وجماعة عن ابن عباس أنه قال في كيفية امتحانهن كانت المرأة إذا جاءت النبي صلى الله عليه وسلم حلفها عمر رضي الله تعالى عنه: بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، وبالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبًا لله ورسوله.: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ في نفس الامر ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي إلى أزواجهن الكفرة لقوله تعالى ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآَتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ أي وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا اليهن من المهور، قيل وجوبا، وقيل ندبا.

روي أنه جاءت امرأة تسمى سبيعة بنت الحرث الأسلمية مؤمنة، وكانت تحت صيفي بن الراهب وهو مشرك من أهل مكة، فطلبوا ردها فأنزل الله تعالى الآية، وذلك لان صلح الحديبية جرى على أن من جاء منكم رددناه، فلما تعذر عليه ردهن لورود النهي عنه (أي بعد واقعة صلح الحديبية بمدة) لزمه رد مهورهن. وروي أنها كانت تحت مسافر المخزومي، وأنه أعطي ما أنفق وتزوجها عمر رضي الله عنه. وفي رواية أنها نزلت في أميمة بنت بشر امرأة من بني عمرو بن عوف كانت تحت أبي حسان بن الدحداحة، هاجرت مؤمنة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبوا ردها فنزلت الآية، فلم يردها صلى الله عليه وسلم وتزوجها سهيل بن صيف، فولدت له عبدالله بن سهيل. وأيا ما كانت فالآية على ما قيل نزلت بيانا لان الشرط في كتاب المصالحة انما كان في الرجال دون النساء، وتراخي المخصص عن العام جائز. والآية وإن تأخرت عن زمان المصالحة لكنها لم تتأخر عن وقت العمل، لأن نزولها كان عند الحاجة إلى التخصيص.

وعن الضحاك أنه كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين عهد أن لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك الا رددتها الينا، فإن دخلت في دينك ولها زوج أن ترد على زوجها الذي أنفق عليها مثل ما أنفق وللنبي صلى الله عليه وسلم من الشرط مثل ذلك. وعليه فالآية موافقة لما وقع عليه العهد.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آَتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي وقت اعطائكم اياهن مهورهن. والمراد بإيتائها التزام إعطائها على ما تقرر لا إعطاؤها فعلًا.

وقوله تعالى ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ جمع عصمة وهي ما يعتصم به من عقد نكاح أو سبب من أسباب ارتباط الزوجة بزوجها، أي لا يكن بينكم وبين زوجاتكم المشركات اللاتي بقين على اشراكهن وسَكَنَّ بين المشركين عصمةٌ ولا علاقة زوجية. قال ابن عباس رضي الله عنهما من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتبرنها من نسائه، لان اختلاف الدار قطع عصمتها منه وعن النخعي رحمه الله: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر. وعن مجاهد أمرهم بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهن. وليس معنى الآية أن لا تمسكوا ولا تعتدوا بعصم الكافرات اذا جئن الى المسلمين لأنهن اذا أسلمن وهاجرن إلى المؤمنين فقد أعلن الله تعالى عن انقطاع العلاقة بينهن وبين أزواجهن المشركين بقوله الكريم ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وان بقين على الكفر وجب ارجاعهن إلى أزواجهن ان لم يسلمن، وكان مجيئهن في وقت المعاهدة بين الطرفين.

وقوله تعالى ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ أي اطلبوا مهر نسائكم اللاحقات بالكفار إذا تزوجهن مشرك من المشركين وليطلب الكفار

منا مهور زوجاتهم المهـاجرات اللاحقـات بالمسـلمين ﴿ذَلِكُمْ﴾ المـذكور ﴿حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يشـــرع مـــا فيـــه الحكمـــة والخير.

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ ولم يرد المشركون مهرها الينا ﴿فَعَـاقَبْتُمْ﴾ أي فجـاءت عقبتكم أي نـوبتكم من أداء المهـر لزوجـة من زوجاتهم ﴿فَآَتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ﴾ الى الكفـار المشـركين ولم يـؤدوا مهـورهن لهم ﴿مِثْـلَ مَـا أَنْفَقُـوا﴾ في مهـورهن وخـذوه من مهـر المهاجرة الملحقة بنا التي أسلمت وهاجرت الينـا. يعـني أن أي مسـلم تـزوج هـذه المسـلمة المهـاجرة ووجب عليـه أعطـاء مثـل مهرهـا الى زوجها الكافر، وجب عليـه أن يعطي ذلـك المبلـغ لاخيـه المسـلم الـذي ذهبت زوجته الى الكفار وما ردوا عليه ما أنفقه عليها في المهر. وقيل: المعنى ان فاتكم شيئ من أزواجكم الى الكفار وامتنعوا عن ارسال مـا أنفق عليها الى زوجها المسـلم عنـدنا فعـاقبتم، أي فأصـبتم من الكفـار عقبى وهي الغنيمة، فأعطوا من هذه الغنيمة لهذا المسـلم الـذي ذهبت زوجته الى الكفار مثل ما أنفق في مهرها ومصـارفها. وحاصـله أن بيت المال هو الذي يغرم لهذا المسلم المسكين الذي فاتته زوجة ولم يأخـذ شيئا من الكفار. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَـيْئًا وَلَا يَسْـرِقْنَ وَلَا يَـزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَـأْتِينَ بِبُهْتَـانٍ يَفْتَرِينَـهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (12) يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُـوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًـا غَضِـبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (13)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ شروع في الأمر بمبايعته صلى الله عليه وسلم للنساء على شروط مقررة. فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ أي مبايعات لك ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ من الأشياء: لا الشمس ولاالقمر، ولا الحجر والشجر، أو شيئا من الاشراك قليلا أو كثيرا ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أريد به وأد البنات، ومن هذا النوع اسقاط الحمل بعد أن تنفخ فيه الروح ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ في شرح البخاري للكرماني ما معناه: لا تأتوا ببهتان من قبل أنفسكم، واليد والرجل كناية عن الذات لان معظم الافعال بهما، ولذا يقال للمعاقب بجناية قولية هذا ما كسبت يداك. وقال الفراء: كانت المرأة في الجاهلية تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن، وذلك أن الولد اذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي فيما تأمرهن من معروف وتنهاهن عنه من منكر، والتقييد بالمعروف مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأمر الا به للتنبيه على أنه لا يجوز اطاعة المخلوق في معصية الخالق وخص بعضهم هذا المعروف بترك النياحة، لما أخرج الإمام أحمد والترمذي وحسنه عن أم سلمة الأنصارية قالت امرأة من هذه النسوة: ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه؟ فقال صلى الله عليه وسلم ((لا تنحن..)) الحديث ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ بضمان الثواب على الوفاء بهذه الاشياء ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي مبالغ جل شأنه في المغفرة والرحمة فيغفر عز وجل لهن ويرحمهن اذا وفين بما بايعن عليه.

وهذه الآية نزلت يوم الفتح فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجال على الصفا وعمر رضي الله عنه يبايع النساء تحتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وجاء أنه عليه الصلاة والسلام بايع النساء

بنفسه الكريمة. أخرج الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وصححه عن أميمة بنت رقية قالت: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم لنبايعه فأخذ علينا ما في القرآن، أن لا نشرك بالله شيئا حتى بلغ ولا يعصينك في معروف فقال فيما استطعن وأطقن قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يارسول الله الا تصافحنا؟ قال: ((اني لا أصافح النساء انما قولي لمائة امرأة كقولي لمرأة واحدة)) وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ روي أن قوما من فقراء المؤمنين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فنزلت. وقيل: هم اليهود والنصارى، وفي رواية عن ابن عباس أنهم كفار قريش. وقال غير واحد: هم عامة الكفرة. وقوله: ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أي الذين ماتوا وتبين أنهم لا يرجعون الى الدنيا، وانتهى أمرهم وتحقق حرمانهم وانقطع أمانهم. والعياذ بالله. <318>

سورة الصف، مدنية، وآياتها أربع عشرة

نزلت بعد التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (4)﴾

قوله تعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.. ﴾ الآية هذه السورة مدنية ويدل على ذلك ما أخرجه الحاكم وغيره عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لفعلناه. فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها.

وروى هذا الحديث مسلسلا يقرأها

علينا، وهـو حـديث صـحيح على شـرط الشـيخين أخرجـه الإمـام أحمـد والترمذي وخلق كثير حتى قال الحافـظ ابن حجـر: انـه أصـح مسلسـل يروى في الدنيا ان وقع في المسلسلات مثله في مزيد علوه يعـني أنـه لا يوجد مثله في علوه اسنادا، وان وجد مثله في علو الاسـناد فلا يوجـد أصح منه سندا.

وروي في سـبب الـنزول عن أبي زيـد أنـه قـول المنـافقين نحن منكم ومعكم، ثم يظهر من أعمالهم خلاف ذلك، فان كان سبب الـورود الأول فالنـداء نـداء المؤمـنين، والكلام مـاشٍ على حسـب الواقـع، وان كـان السبب الثاني فالنداء بوصف الإيمان للتهكم ويؤيده سـياق الآيـة وقولـه تعالى ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُـونَ﴾ وكـبر من بـاب بئس فيه ضمير مبهم تفسره النكرة بعده، وان تقولوا هو المخصوص بالــذم، والمقت أشد البغض وقـال ابن عطيـة: المقت البغض من أجـل ذنب أو دناءة أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَـفًّا كَـأَنَّهُمْ بُنْيَـانٌ مَرْصُوصٌ﴾ بيان لما هو مرضي عنده والمرصوص على ما قالـه الفـراء: هو المعقود بالرصاص، ويراد به المحكم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَـا قَـوْمِ لِمَ تُـؤْذُونَنِي وَقَـدْ تَعْلَمُـونَ أَنِّي رَسُـولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِـقِينَ (5) وَإِذْ قَـالَ عِيسَـى ابْنُ مَـرْيَمَ يَـا بَنِي إِسْـرَائِيلَ إِنِّي رَسُـولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْـدِي اسْـمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ قَـالُوا هَـذَا سِـحْرٌ مُبِينٌ (6) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَـذِبَ وَهُـوَ يُـدْعَى إِلَى الْإِسْـلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ (7) يُرِيـدُونَ لِيُطْفِئُوا نُـورَ اللَّهِ بِـأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُـورِهِ وَلَـوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُـدَى وَدِينِ الْحَـقِّ لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ أي اذكر يا سيد المخاطبين زمان قول موسى بن عمران عليه السلام أخيك في الدين وأصول الاحكام، وذلك القول جرى مع أمته الاسرائيلين: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ أي لم تؤذونني بمخالفتكم وعصيانكم لي في الأمر بالجهاد والمقاتلة والمصابرة عليها حتى تستقروا في مقامكم وتتفرغوا لكسب سعادة الدارين ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ علما قطعيا ناشئا من ادراك المعجزات الباهرة القاهرة لفرعون وأتباعه فلم ينفعهم نصحه وارشاده ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ أي صرفوا قلوبهم عن الايمان بموسى عليه السلام ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي صرف الله قلوبهم عن نيل الهدى ووصل المحبوب والفوز بالمطلوب ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن الاطاعة ففي نقل ما جرى بين موسى عليه السلام وقومه حث لأمته على الجهاد والتكاتف عليه حتى لا يبتلوا بمثل ما ابتلى الله به قوم موسى عليه السلام.

﴿وَإِذْ قَالَ﴾ معطوف على مثله، أي واذكر اذ قال ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ جمع عليه السلام بين المتعاطفين لكسب الامة سعادة الدارين، يعني أتى بالحال الأول لتوجيه الاسرائيليين للايمان به، فان من ادعى الرسالة من الله وصدق بكتب الرسل السابقين مالت اليه القلوب وآمن به الناس، وأتى بالحال الثانية حتى يستميل

أمته قاطبة الى الايمـان برسـول آخـر الزمـان، ومن جمـع بين الايمـان بالسـابقين واللاحقين فقـد فـاز برتبـة الأتقيـاء الصـادقين. وكمـا أن في بشـارته عليـه السـلام بالرسـول الآتي بعـده المسـمى أحمـد تصـديقا برسالته ومجيئه بعده كذلك في تصديقه بالتوراة تصديقا برسالته صـلى الله عليه وسلم من حيث ان البشـارة بسـيدنا محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم واقعـة في التـوراة كمـا جـاء في الفصـل العشـرين من السـفر الخامس منها ما ترجمته من العبرية (أقبل الله على سـعينا، وتجلى من ساعير (مولد عيسـى عليـه السـلام)، وظهـر من جبـال فـاران سلسـلة جبال مكة المكرمة) وقوله في الفصل الحـادي عشـر من هـذا السـفر: (يـا موسـى اني سـأقيم لبـني اسـرائيل نبيـا من اخـوتهم مثلـك، أجعـل كلامي في فيه، ويقول لهم ما آمره فيه، والذي لا يقبل قول ذلك النـبي الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه ومن سبطه) الى غـير ذلـك. ويتضـمن كلامه أن دينه التصديق بكتب الله تعـالى وأنبيائـه عليهم السـلام جميعـا من تقـدم ومن تـأخر. وجملـة ﴿يَـأْتِي مِنْ بَعْـدِي﴾ في موضـع الصـفة لرسـول وكـذا جملـة ﴿اسْـمُهُ أَحْمَـدُ﴾ وهـذا الاسـم الجليـل، والحاشـر، والماحي، والعاقب، كلها أسماء لقبيـة، أي القـاب لسـيدنا محمـد صـلى الله عليه وسلم فقد صح من رواية مالك والبخـاري ومسـلم والترمـذي والنسائي عن جبير بن مطعم قال قال رسـول اللـه: ((اني لي اسـماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يحشر النـاس على قـدمي، وأنـا الماحي الذي يمحو اللـه بي الكفـر، وأنـا العـاقب)) والعـاقب هـو الـذي ليس بعده نـبي. فلفـظ الاسـم في قولـه تعـالى ﴿اسْـمُهُ أَحْمَـدُ﴾ اسـم بـالمعنى اللغـوي، ويصـدق بالكنيـة والعلم واللقب، وأحمـد منقـول من اسم التفضيل بمعنى أكثر حمداً لله.

ولما نطق القرآن الكريم بهذه البشارة العظيمة فإنكار النصـارى لـذلك لا قيمة له، وقولهم: لو صح لذكر في الانجيل ان أرادوا بالإنجيل الإنجيل

السماوي النازل على سيدنا عيسى عليه السلام، فهو مفقود في الأرض فلا تصح دعواهم ذلك. وان أرادوا به الأناجيل الأربعة التي ألفوها بعد رفع عيسى عليه السلام الى السماء فلا قيمة لها في مقابل نص القرآن الكريم لانها مؤلفات متأخرة فيها بعض أحوال سيدنا عيسى وما جرى عليه، على أنه يجوز أن المؤلفين ذكروها، ولكن المتأخرين أسقطوها حبا لدينهم وتعصبا على استمراريته، وأين ذلك من الواقع ونفس الأمر؟

وتلك الأناجيل أولها إنجيل (متي) أحدُ الحواريين الاثنى عشر، جمعه باللغة السريانية بأرض فلسطين بعد رفع عيسى عليه السلام بثمان سنين، وعدة أصحاحاته ثمانية وستون اصحاحا.

وثانيها إنجيل مرقص وهو من السبعين جمعه باللغة الفرنجية بمدينة (رومية) بعد الرفع باثنتي عشرة سنة، وعدة اصحاحاته ثمانية واربعون اصحاحا. والثالث انجيل (لوقا) وهو من السبعين أيضا جمعه بالاسكندرية باللغة اليونانية، وعدة اصحاحاته ثلاثة وثمانون. والرابع انجيل يوحنا وهو حبيب المسيح عليه السلام، جمعه بمدينة أفسس من بلاد رومية بعد الرفع بثلاثين سنة ومن أحب اتباع الحق وسلوك سبيل الانصاف فليراجع التوراة ويطالع مزامير داود عليه السلام وكتب شعيا وحيقوق وأرمياء وغيرهم من أنبياء بني اسرائيل عليهم السلام.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاء عيسى عليه السلام الى بني اسرائيل بالمعجزات الظاهرات ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي سحر واضح.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي يضع الكذب موضع الصدق فيجعل السحر موضع المعجزة، والباطل موضع الحق، ويدعى على معجزات الرسل أنها سحر ﴿وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ والحال أن ذلك

الظلام لم يؤت الا بما فيه الخير وسعادة الدارين وهو دين الاسـلام، ولا شك أن الجواب هـو أنـه لا أظلم من ذلـك، فهـو ظـالم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْـدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فلا يهديهم أبدا. وهذا المفترى بعضهم قـد سـبق ممن عاند عيسى وموسى ومن قبلهما، ومنهم من لحق وقابل سيدنا محمـداً صلى الله عليه وسلم من المشركين والمنافقين الذين قال اللـه تعـالى في حقهم ﴿يُرِيـدُونَ لِيُطْفِئُوا نُـورَ اللَّهِ بِـأَفْوَاهِهِمْ﴾ وهـو القـرآن أو دين الاسلام المأخوذ منه بأفواههم ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُـورِهِ﴾ أي مـديم ذلـك النـور منيرا للعالم ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ذلك النور ودوامه.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمدا الهاشمي القرشي العدناني من نسـل اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام ارسالا مقرونا ﴿بِالْهُدَى﴾ أي بـالقرآن أو بالمعجزات ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وهو أحكـام الشـريعة الشـريفة الاسـلامية السـمحة ﴿لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الـدِّينِ كُلِّهِ﴾ بإكمـال الأمـور العمليـة واتمـام الأخلاق الحسـنة الاسـلامية ﴿وَلَـوْ كَـرِهَ الْمُشْـرِكُونَ﴾ ذلـك لدعوتـه إلى التوحيد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَـذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَتُجَاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ بِـأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِـكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُـدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ وَمَسَـاكِنَ طَيِّبَـةً فِي جَنَّاتِ عَـدْنٍ ذَلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُـؤْمِنِينَ (13) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُـوا أَنْصَـارَ اللَّهِ كَمَـا قَـالَ عِيسَـى ابْنُ مَـرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَـارُ اللَّهِ فَـآَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آَمَنُـوا عَلَى عَـدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (14)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ بعد أن ذكر الله سبحانه في صدر السورة استحبابه للمقاتلين في سبيل الله المخلصين لله، وعقبه بذكر عبده موسى عليه السلام ومخالفة قومه له في أمره، وذكر عيسى عليه السلام، وبشارته ببعث محمد صلى الله عليه وسلم.. عاد الى الأمر بالجهاد واعتبره تجارة منجية فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أي أرشدكم وأطلعكم ﴿عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فكأنهم قالوا نعم. فقال ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ايمانا صافيا عن الأوهام ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في سبيل إعلاء كلمته ﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي بإنفاق أموالكم على المجاهدين وبذل أرواحكم في سبيل نشر الحق ﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور من الايمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ نتائج ايمانكم وجهادكم بأموالكم وأنفسكم حيث يكون استبدال المحدود في مقابل المنافع اللا محدودة فإذا وفيتم بما أمرناكم ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ﴾ المذكور هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى﴾ أي ويؤتكم مثوبة أخرى وفائدة أخرى ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ وهي ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾ يوهب لكم ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ لبلد مكة المكرمة ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فأبشر يا حبيبي وبشر من هو من أهل الإيمان والاخلاص.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ أي أنصار دين الله أي أنصار الرسول في نشر دين الله ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ والمشبه به مستفاد مما بعد الكاف <325>

في كما قال أي كالحواريين الذين كانوا أنصار الله عندما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري الى الله ﴿فَـآَمَنَتْ طَائِفَـةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعيسى عليه السلام ﴿وَكَفَـرَتْ طَائِفَـةٌ﴾ أخرى به ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾. واشتقاق الحواري من الحور وهو البياض، وسموا بذلك لانهم كانوا قصارين، وقيل: للبسهم البياض، وقيل لنقاء ظاهرهم وباطنهم. وفي الحديث الشريف ((لكل نبي حواري وحواري الزبير)) وفسر بالخاصة من الأصحاب. وقال الأزهري: الذي أخلص ونقي من كل عيب. وعن قتادة: إطلاق الحواري على غير الزبير رضي الله عنه ايضا. فقد قال: ان الحواريين للرسول كلهم من قريش: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد ابن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام رضي الله عنهم. وحواريو عيسى عليه السلام كانوا اثني عشر رجلا. وقد تفرقوا بعد رفعه عليه السلام في الأطراف، والمشهور أن بعضا منهم جاؤا الى ناحية (ميدان) التابعة لقضاء (خانقين) والناحية مشهورة بـ(هورين) المخففة لحواريين، وبعضهم سكنوا في (كركوك) وواحد منهم يسمى بمتي سكن في محل يسمى الآن (بطوزخورماتو) التابعة لمحافظة صلاح الدين والمحل كان به (ملح) والاسم مركب من ثلاث كلمات هي (طوز حوارى متى) أي الملح المنسوب للحواري المسمى باسم متي. والله تعالى أعلم. <326>

سورة الجمعة، مدنية، وهي إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ الْمَلِـكِ الْقُـدُّوسِ الْعَزِيـزِ الْحَكِيمِ (1) هُــوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُــولًا مِنْهُمْ يَتْلُــو عَلَيْهِمْ آَيَاتِـهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2) وَآَخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)﴾.

قولــه تعــالى ﴿يُسَــبِّحُ لِلَّهِ﴾ أتى بصــيغة المضــارع المفيــدة للتجــدد والاســتمرار حـتى لا يتـوهم أن التسـبيح الجـاري منهم شـيء محـدود منقطع، وانما هو تسبيح وتنزيه دائم مستمر متجدد إلى فناء العالم لأنـه اذا كان تسبيحا بلسان الحال فلسان حال الممكنـات الحادثـة المحتاجـة الى الفاعل في ترجيح الوجود الى العدم والمخرج منـه من العـدم اليـه والمرتبطة بارادة الفاعل مدة

يبقى فيها ناطق بـأن الله هـو الخـالق المـنزه عن النقصـان، وان كـان بلسان ذكر مفهوم لأهله ومكتوم منا كما قال تعـالى ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُـونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فالنص دال على أن التسبيح وظيفة مـا في السـماوات ومـا في الأرض وأداء الوظيفـة ثـابت مسـتمر مـادام لا يكـون دليـل على الانقطاع وبأي اللسانين يكون ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ وينزهـه عن صـفات لا تليـق بكبريـاء ذاتـه ﴿مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ﴾ تسـبيحا متجـددا استمراريا مناسـبا للـه ﴿الْمَلِـكِ﴾ المسـيطر على الكائنـات ﴿الْقُـدُّوسِ﴾ المنزه عن نقص الممكنات ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغـالب على مـا أراده ﴿الْحَكِيمِ﴾ الموصوف بالحكمة في أفعاله.

وبين عزته وحكمتـه بأنـه بعث أميـا لتعليم عـالم الإنسـان والجن مربيـا ومرشدا للثقلين فقال ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ أي في الأمة الأميـة التي لا تقرأ ولا تكتب الباقية على حال ولادتها من أمهـا ﴿رَسُـولًا مِنْهُمْ﴾ أي كائنا من جملتهم يعرفون أنه منهم ولم يقـرأ ولم يكتب شـيئا ﴿يَتْلُـو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ﴾ البليغة المعجزة لبلغاء الثقلين عن أن يأتوا بمثـل مـا نـزل عليــه فيرشــدهم ويــوجههم الى الاعــتراف بخــالق الكائنــات الارض والسـماوات وبوحدتـه في تـأثيره في الموجـودات ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه ويهـدي للـتي هي أقـوم ﴿وَالْحِكْمَـةَ﴾ أي سـنته وسـيرته، أو كـل مـا فيـه علم ومعرفـة وأحكـام وإتقان من أمور الدنيا والآخـرة ﴿وَإِنْ كَـانُوا﴾ أي أولئـك القـوم الأميـون ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي قبل بعث ذلـك الرسـول ﴿لَفِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ﴾ واضـح من ظلمات الإشراك والوثنية وخبث الجاهلية.

﴿وَآَخَـرِينَ مِنْهُمْ﴾ أي ويعلم قومـا أو أفـرادا آخـرين منهم ﴿لَمَّا يَلْحَقُـوا بِهِمْ﴾ بعـد وسـيلحقون، وهم الـذين جـاؤا بعـد الصـحابة من التـابعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الـدين ﴿وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِـكَ﴾ المـذكور من بعث رسـول أمي يكـون في أرقى درجـات معرفـة اللـه تعالى واستفادة أمة سعيدة

من رسالته ونور علمه وإرشـاده ﴿فَضْـلُ اللَّهِ﴾ وفيض رحمتـه الواسـعة ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده تفضلا واحسانا ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يقدر قدره.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَـارِ يَحْمِـلُ أَسْـفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5) قُـلْ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ هَـادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَـاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)﴾

قولـه تعـالى ﴿مَثَـلُ الَّذِينَ حُمِّلُـوا التَّوْرَاةَ﴾ كأنـه جـواب لسـؤال مقـدر تقديره: مادام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مبعوثا في الأمـيين على تلك الدرجـة من الفضـل وقـوة التربيـة والتركيـة للانسـان والجن، وهذه الصفة صفة جليلة مـذكورة في التـوراة فمـا بـال العلمـاء بهـا لم يذكروا للنـاس نعوتـه، ولم يـبينوا أن ذلـك الشـخص المنعـوت هـو هـذا المبعوث حتى يؤمن به الناس؟ فأجاب بأن ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ وجعلت صفة علميـة لهم وكلفـوا بحملهـا ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَـا﴾ أي عانـدوا الحق وكتموه ولم يؤدوا ما كلفوا به ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِـلُ أَسْـفَارًا﴾ أي كتباً ضخمة كبارا، ولا يفهم شيئا منهـا، ولم يسـتفيدوا منهـا شـيئا. وهـذا التشـبيه بليـغ جـدا، فانـه تشـبيه تمـثيلي أخـذ من جـانب المشـبه هيئـة مـأخوذة من عـدة أمـور من العلمـاء وتعبهم في تحصـيل العلم، وعـدم استفادة منفعة منها من جهة اهماله، وعدم العمل به، وكذلك من

جانب المشبه به، حيث أخذت هيئة منتزعة من الحمار وتهيئته لحمل الكتب وتحميله عدة كتب ضخمة مستوعبة لمسائل مهمة بدون أن يستفيد منها شيئا ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بئس مثل القوم مثل الذين كذبوا بآيات الله ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الى طريق استفادة الحق لتراكم غبار الغرور والعناد والاستكبار على قلوبهم.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي تهودوا أي صاروا يهوديا ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾ أي أحباؤه وأخصاؤه ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ ولكم مقام غير مقام الآخرين ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ حتى تلقوا ربكم الذي تحبونه ويحبكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى الولاية الله ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾ أي الموت ﴿أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المكاسب السيئة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ العالمين بالفساد المرتكبين له عنادا واستكبارا ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي: ﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ بلا شبهة أن عاجلا أو آجلا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجزيكم عليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا﴾ قال العلامة ابن حجر الهيتمي في تحفة المحتاج: فرضت يعني صلاة

الجمعة بمكة، ولم يقم بها لفقد العـدد، أو لأن شـعارها الإظهـار، وكـان صلى اللـه عليـه وسـلم بهـا مسـتخفيا، وأول من أقامهـا بالمدينـة قبـل الهجرة أسعد بن زرارة بقرية على ميل من المدينـة، إنتهى. ومـا تقـدم من كون أسعد أول من جمع بالمدينة يخالفه مـا أخرجـه الطـبراني عن أبي مسـعود الانصـاري قـال: أول من قـدم من المهـاجرين المدينـة مصعب بن عمير وهو أول من جمع بها يوم الجمعـة، جمـع بهم قبـل أن يقدم رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم وهم اثنـا عشـر رجلا. وقـال الحافظ ابن حجر (العسقلاني) يجمع بين الحديثين بأن أسعد كان أمـيرا ومصعبا كان اماما وهو كما ترى. وأما ما كـان من صـلاته عليـه الصـلاة والسلام اياها فقد روي أنـه صـلى اللـه عليـه وسـلم لمـا قـدم المدينـة مهاجرا نـزل (قبـا)، على بـني عمـرو بن عـوف، وأقـام بهـا يـوم الاثـنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسـس مسـجدهم، ثم خـرج يـوم الجمعـة إلى المدينـة فأدركتـه صـلاة الجمعـة في سـالم بن عـوف في بطن واد لهم، فخطب وصـلى الجمعـة، وهـو أول جمعـة صـلاها عليـه الصـلاة والسلام.

وقوله تعالى ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أي فعل النداء لهـا أي الأذان والمراد به، على ما حكاه في الكشاف، الأذان عنـد قعـود الإمـام على المنبر، وقد كان لرسول الله صلى الله عليـه وسـلم مـؤذن واحد، فكـان إذا جلس على المنـبر أذن على بـاب المسـجد فـاذا نـزل عليـه الصلاة والسلام أقام الصلاة، ثم كان أبو بكـر وعمـر رضـي اللـه عنهمـا على ذلك، حتى إذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد مؤذنـا آخر فأمر بالتأذين الأول على داره التي تسـمى زوراء، فـاذا جلس على المنبر أذن المؤذن الثاني فـإذا نـزل أقـام الصـلاة فلم يعب ذلـك عليـه. وفي حديث الجماعة الا مسلما فلما كان عثمان وكثر النـاس زاد النـداء الثالث على الزوراء. وفي رواية

للبخاري ومسلم زاد النداء الثاني، والكل بمعنى، وتسمية ما يفعل من الأذان أولا وثانيا باعتبار أنه لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما كان بعد، وتسميته ثالثًا لأن الإقامة تسمى أذانًا كما في الحديث ((بين كل أذانين صلاة)). وقوله تعالى ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ دليل على فرضية الجمعة حيث رتب فيها الأمر بالسعي لذكر الله تعالى على النداء للصلاة، فإن أريد به الصلاة أو هي والخطبة فظاهر، وكذلك ان أريد به الخطبة لان افتراض السعي الى الشرط وهو المقصود لغيره فرع افتراض ذلك الغير، ألا ترى أن من لم تجب عليه الصلاة لم يجب عليه السعي الى الجمعة بالاجماع، وكذا ثبتت فرضيتها بالسنة والإجماع، وقد صرح بعض العلماء بأنها آكد فرضية من الظهر. وهي فرض عين على من وجبت عليه لا تسقط الا بعذر مشروع. ففي حديث رواه أبو داود وقال النووي على شرط الشيخين ((الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة الا أربعة: عبد مملوك، أو امرأة، أو صبي، أو مريض)) وأجمعوا على اشتراط العدد فيها، لكن اختلفوا في مقداره على أقوال:

أحدها: أنه اثنان، أحدهما الامام وهو قول النخعي والحسن بن صالح وداود.

الثاني: ثلاثة أحدهم الامام وحكى عن الأوزاعي وأبي ثور وعن أبي يوسف ومحمد، وحكاه الرافعي وغيره عن قول الشافعي القديم.

الثالث: أربعة أحدهم الامام وبه قال أبو حنيفة والثوري والليث وحكاه ابن المنذر عن الأوزاعي وأبي ثور واختاره وحكاه في شرح المهذب عن محمد، وحكاه صاحب التلخيص قولا للشافعي في القديم.

الرابع: سبعة حكي عن عكرمة.

الخامس: تسعة حكي عن ربيعة.

السادس: اثنا عشر في رواية عن ربيعة، وحكاه الماوردي عن محمد والزهري والأوزاعي.

السابع: ثلاثة عشر أحدهم الامام حكي عن اسحاق بن راهويه.

الثامن: عشرون رواه ابن حبيب عن مالك.

التاسع: ثلاثون في رواية عن مالك.

العاشر: أربعون أحدهم الامام وبه قال عبيد الله بن عبدالله بن عتبة، والامام الشافعي في الجديد، وهو المشهور عن الامام أحمد وأحد القولين المرويين عن عمر بن عبد العزيز.

الحادي عشر: خمسون في الرواية الأخرى عنه.

الثاني عشر: ثمانون حكاه المازري.

الثالث عشر: جمع كثير بغير قيد وهو مذهب مالك، فقد اشتهر أنه قال: يشترط عدد معين، بل يشترط جماعة تسكن بهم قرية ويقع بينهم البيع، ولا تنعقد بالثلاثة، والاربعة ونحوهم، قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري: ولعل هذا المذهب أرجح المذاهب، وأما اقامتها في المحل قرية أو قصبة أو مدينة بعد تحقق شروط الوجوب، فإن فقهاء الأمة رأوا النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده والتابعين لهم بإحسان يتحرون في الجمعة أمورا لا يتحرونها في سائر الصلوات الخمس من ذلك أنها لا تصلى الا جماعة. ومن ذلك أنه اذا كان في البلد مساجد متعددة لا تصلى الا في مسجد واحد بها يجمع المؤدين لها في هذا البلد. وقد كانت المساجد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمدينته المنورة تقام فيها الجماعات بالظهر والعصر وغيرهما. وفي الصحيحين أن معاذا كان يصلي

العشاء خلف رسول الله صلى الله عليـه وسـلم ثم يـذهب الى مسـجد قومه، وكانوا أهل عمل لا يسهل عليهم صلاة العشاء خلف رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم فيصلي بهم حتى اذا كان يوم الجمعة لم يقيموهـا الا في مسجده صلى الله عليه وسلم ولم يرخص صلى الله عليه وسلم مع فرط حبه للتيسير على أمته في أن يقيموها في مساجد متعددة، أو يصلي بمن يتيسـر لـه الحضـور أول الـوقت، ويـأذن في أن تقـام بعـده جمعـة وجمعـة وثالثـة وهكـذا لبـاقي الـذين لا يسـتطيعون أن يحضـروا، وكان ذلك أيسر عليهم لو كان. وعلى سنته السنية درج خلفاؤه الكــرام ولمــا اتســعت الفتوحــات الاســلامية، وكــثرت الامصــار في المملكــة المحمدية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضـي اللـه عنـه لم يـرخص في ذلـك أيضا بـل نقـل عنـه الثقـات أنـه بعث الى عمالـه في الأمصــار بــالكتب يــأمرهم فيهــا أن يقيمــوا الجماعــات في المســاجد المتعــددة في المصــر، وألا يجمعــوا بالنــاس الا في المســجد الواحــد الجامع.

وهكذا كان الأمر مدة خلافة الخلفاء الراشدين، وطيلة عصر بـني أميـة، وصدرا طويلا من زمن الخلفاء العباسيين حتى اذا كان زمان الرشيد، أو زمان الواثق على ما صححه جمع من محققي الشافعية تعددت الجمع.

بل ذكر الخطيب في تأريخ بغداد أن أول جمعة أحدثت في الاســلام في بلد مـع قيـام الجمعـة القديمـة في أيـام المعتضـد، وذلـك سـنة مـائتين وثمانين، وذلك بعد وفات الامام الشافعي رضي الله عنه بست وسبعين سنة كما بسطه الحافظ ابن حجر في كتابه التلخيص الخبير في تخــريج أحاديث الرافعي الكبير.

رأى فقهاء الأمة هذا من رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم وخلفائـه الكرام إلى آخر ما ذكرنا وما لم نـذكره من ملاحظـات فطن لهـا أكـابر الفقهاء، فاتفقت كلمة جمهورهم على وجوب أن تكون الجمعــة واحــدة في البلد،

فاذا تعددت كـان ذلـك خروجـا من النـاس على السـنة السـنية وسـيرة السلف المرضية. ورأى الشافعي رضـي اللـه عنـه أن التعـدد في البلـد الواحد لا يجوز بحال دعت اليه الحاجـة أم لا. وقـد اختلـف أئمـة مذهبـه من بعده: هل مذهبه جواز التعدد لحاجة بقدرها، قال بذلك الكثـير منهم كالروياني وغيره؟ أم مذهبه منع التعدد مطلقا؟ والمحققـون من علمـاء المذهب على هذا.

وأما باقي الأئمـة ماعـدا الامـام الاعظم رضـي اللـه عنهم فـإنهم منعـوا التعدد لها الا اذا دعت اليه ضرورة. واما الامام الاعظم رضي اللـه عنـه فيروى عنه قولان: قول على منهج أولئك الأئمة وهو منع التعـدد لهـا الا اذا دعت اليه الضرورة كان لا يكون في البلد جامع يسع الحاضرين لها.

القول الثاني: جواز تعددها ولو لم تكن لضرورة داعية اليه. وتكلم أئمـة مذهبه على القولين، فمنهم من رجح هذا القول، ومنهم من رجح القول الأول لموافقته لما درج عليه الرسول صلى الله عليـه وسـلم وخلفـاؤه الراشـدون وجمهـور المسـلمين في البلاد. وان شـئت راجـع كتـاب رد المحتار على الدر المختار للعالم العلامة محمد أمين ابن العابدين رحمه الله، وعلى ذلك قرر ذلك العالم وكذا العالم العلامة الجليل ابن الهمـام في شرح الهداية اعادة صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة بنية فريضـة آخـر الوقت خروجا من مخالفة قوله الراجح، وقول سائر الأئمـة المجتهـدين ولموافقة السـنة السـنية العمليـة للرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم ولخلفائه الراشدين ولقوله صلى الله عليه وسلم ((دع ما يريبك إلى مـا لا يريبك)) ولقوله صلى اللـه عليـه وسـلم: ((فمن اتقى الشـبهات فقـد استبرأ لعرضه ودينه)).

وخلاصة المقام: أن من صلى صلاة الجمعة في البلد الذي تعـددت فيـه فوق الحاجة وجب عليه أن يقلد الإمـام أبـا حنيفـة رضـي اللـه عنـه في تجويزه

ذلك، والا فصلاته باطلة. واذا قلده وصلاها سنت له إعادة صـلاة الظهـر بعد الجمعة بنية فريضـة آخـر الـوقت خروجـا من الريبـة والاشـتباه في عبادته. ومن خالف ذلك بلا حجة شـرعية فـأمره إلى اللـه. وانما فصـلنا الكلام في ذلك حتى يعرف الناس أن هذه الإعادة أمـر مشـروع، وليس على مـذهب الإمـام الشـافعي فقـط، وإنمـا هـو على سـائر المـذاهب المدونة الإسلامية. هذا والله أعلم بالنيات.

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ الْبَيْعَ﴾ أمر بترك المعاملات والاشتغال بأمور الدنيا إذا أذن المؤذن. ولما كان الاذان في عهده صلى الله عليه وسلم عبارة عن أذان يؤذنون به عند جلوسه على المنبر كان الأمر بتركهـا في ذلـك الوقت. ولما كان ظاهر الأمر الوجوب حرم العلماء كل معاملة تجري إذ ذاك لكن اذا جـرت فهـل تصـح المعاملـة ويـأثم الشـخص أم تبطـل؟ والجمهور على صحتها مع الإثم ﴿ذَلِكُمْ﴾ المـذكور من السـعي الى ذكـر الله وتـرك الـبيع والمعـاملات ﴿خَيْـرٌ لَكُمْ﴾ لاشـتماله على خـيري الـدنيا والآخـرة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ﴾ الخـير والشـر في الواقـع ﴿فَـإِذَا قُضِـيَتِ الصَّـلَاةُ﴾ أي أديت صـلاة الجمعـة وفـرغ منهـا ﴿فَانْتَشِـرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ للوفاء بمصالحكم ﴿وَابْتَغُـوا مِنْ فَضْـلِ اللَّهِ﴾ أي مـا تقـوم بـه المصـالح ﴿وَاذْكُرُوا۟ اللَّهَ كَثِيرًا۟﴾ في كل زمان ومكـان أمكنكم الـذكر فيـه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي كي تفوزوا بالسعادة أبد الآبدين.

وقوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَـا وَتَرَكُـوكَ قَائِمًـا﴾ أي تفرقوا نحو الأمرين، وخلوك قائما على المنـبر، أخـرج أحمـد والبخـاري ومسلم والترمذي عن جابر بن عبـد اللـه قـال: بينمـا النـبي صـلى اللـه عليه وسلم يخطب يوم الجمعة قائما اذ قدمت عـيره المدينـة فابتـدرها أصحاب رسول الله، حتى لم يبق منهم الا اثنا عشر رجلا، أنا فيهم وأبـو بكر وعمر فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا۟ رَأَوْا۟ تِجَارَةً... ﴾ الآيـة وفي روايـة عن ابن عباس أنه بقي في

المسجد اثنا عشر رجلا وسبع نسوة. فقال رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم: ((لـو خرجـوا كلهم لاضـطرم المسـجد عليهم نـارا)). وكـانوا معذورين من شـدة الحاجـة إلى الأقـوات المسـتوردة، وان كـان حقهم البقاء الى اللقاء: ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي ناصحا لهم ﴿مَا عِنْـدَ اللَّهِ﴾ من الـرزق في الدنيا ومن الثواب في الآخرة ﴿خَيْـرٌ مِنَ اللَّهْـوِ وَمِنَ التِّجَـارَةِ﴾ فـان الخـارج من الجـامع امـا خـرج للتفـرج على القافلـة الراجعـة وأحمالهـا واستقبالها، واما لشراء بعض الحاجيات، وعلى كل حـال فمـا عنـد اللـه خير من ذلك ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

سورة المنافقون، مدنية، وهي إحدى عشرة آية

نزلت بعد الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَـاءَكَ الْمُنَـافِقُونَ قَـالُوا نَشْـهَدُ إِنَّكَ لَرَسُـولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُـولُهُ وَاللَّهُ يَشْـهَدُ إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ لَكَـاذِبُونَ (1) اتَّخَـذُوا أَيْمَـانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ آمَنُـوا ثُمَّ كَفَـرُوا فَطُبِـعَ عَلَى قُلُـوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُـونَ (3) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُـكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَـبُونَ كُـلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4) وَإِذَا قِيـلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُـدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (6)﴾

<338>

قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَـافِقُونَ﴾ أي حضـروا مجلسـك، والمـراد بهم عبد الله ابن أبي بن سلول وأتباعه.

والشهادة إخبار بحـق للغـير على آخـر عن يقين. والمقصـود بهـا انشـاء الثبوت لا الإخبار بـه، والتأكيـد بـان واللام لافـادة لازم الخـبر على وجـه القوة. وهو علمهم برسالته صلى الله عليه وسلم من الله تعالى. وقوله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُــولُهُ﴾ وتقديمــه على الجملــة الأخــيرة لتثــبيت المشهود به وتصديقه وتحقيقه حتى لا يتوهم متوهم معنى فاسدا منهـا. وقولـه تعـالى ﴿وَاللَّهُ يَشْـهَدُ إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ لَكَـاذِبُونَ﴾ أي لكـاذبون في دعوى ضمنية مستفادة من بيانهم وهي أن ألسنتنا وقلوبنا متوافقـة في الشهادة، اذ لا موافقة بينهما في الواقع فألسنتهم تقر أن محمدا رسول الله وقلوبهم تنكر ذلك، أو في تسمية ذلك الأخبار بالشـهادة لانهـا اسـم لبيـان حـق للغـير على آخـر بصـورة يقـترن بعلم الشـاهد بـذلك مـع أن الشـهود هنـا لا يقـترن بيـانهم بعلمهم ولا علم لهم بـذلك بـل ينكرونـه، وليس الحكم بكـذبهم لعـدم مطابقـة أخبـارهم لاعتقـادهم لان معـنى الصدق والكذب مطابقة الخبر للواقع ونفس الأمر وعـدم مطابقتـه لـه، فقول القائل: العالم حادث صادق، وان لم يوافق اعتقاده.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أي شهاداتهم كهذه الشهادة وغيرها مما يروجـون لهـا أمورهم أو أحلافهم في هذه الصـورة وغيرهـا ﴿جُنَّةً﴾ أي وقايـة لهم عن قتـل الأنفس وأخـذ الأمـوال وهتـك الأعـراض فحـافظوا عليهـا بهـذه الشهادات والأحلاف ﴿فَصَـدُّوا﴾ النـاس الضـعفاء الجهلاء ﴿عَنْ﴾ سـلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُـونَ * ذَلِـكَ﴾ المـذكور من الحكم عليهم بسوء أعمالهم ﴿بِأَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ أي نطقـوا بكلمـة الشـهادة ظـاهرا وان كانوا يبطنون الكفر ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ أي ظهر كفرهم الباطن بعبـاراتهم الفاسدة كطعنهم في ظفر الرسول بمطلوبه وصدقه في مـا ذكـره في وعوده وغير ذلك ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾

حـتى يموتـوا على الكفـر ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُـونَ﴾ الإرشـادات والنصـائح لا لغبائهم الذاتي بل لعنادهم مع الحق.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ للصباحة وتناسب الأعضاء ﴿وَإِنْ يَقُولُـوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لفصـاحتهم وبلاغتهم ﴿كَـأَنَّهُمْ خُشُـبٌ مُسَـنَّدَةٌ﴾ على مـا يعتمد عليه يجوز أن يكون مدحا لهم بالرزانـة والسـكون والوقـار وذمـا لهم بأنهم كأخشاب جامـدة لا رطوبـة فيهـا ولا روح ولا فكـر ولا بصـيرة ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي يحسبون كل صـيحة يسـمعونها واقعـة عليهم فتضرهم وتبيدهم أي أنهم جبناء وضعفاء ﴿هُمُ الْعَـدُوُّ﴾ أي أولئـك النـاس اللـؤم الشـؤم الـبرءاء من الفقـه والفهم ومحاسـن الصـفات محصـورون في العـداوة، والعـدو اذا كـان عـاقلا كـريم النفس أمكن الخلاص منه بشـفاعة أو ضـراعة أو معاهـدة. وأمـا العـدو اللـئيم الغـبي الذميم فلا مخلص منـه الا بموتـه أو بـاللجوء الى أقـوى منـه في صـيته وصـوته ﴿قَـاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُـونَ﴾ أي كيـف يُصْـرَفون عن الحـق الى الباطـل. ﴿وَإِذَا قِيـلَ لَهُمْ تَعَـالَوْا﴾ إلى الحـق أو إلى الرسـول ﴿يَسْـتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَـهُمْ﴾ على عـادة الرؤسـاء الأغبيـاء والأثريـاء الجهلاء ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُـدُّونَ﴾ أي يعرضـون عن القائـل أو عن الاسـتغفار ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن ذلك روى أنه لما صدق الله تعالى زيداً بن أرقم فيمـا أخـبر بـه عن ابن أبي مقت النـاس ابن أبي ولامـه المؤمنـون من قومه وقال بعضهم له: امضِ الى رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم واعترف بذنبك يستغفر لك فلوى رأسه انكـارا لهـذا الـرأي، وقـال لهم: لقد أشرتم عليّ بالايمان فآمنت، وأشرتم علي بـأن أعطي زكـاة مـالي ففعلت، ولم يبق لكم الا أن تأمروني بالسجود لمحمد صـلى اللـه عليـه وسلم.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْـتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْـتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِـرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْـدِي الْقَــوْمَ الْفَاسِــقِينَ﴾ أي ســواء على أولئــك المنــافقين استغفارك وعدم

استغفارك لهم، فان الله سبحانه لم ولن يغفر لهم، وذلك لأن الله لا يهدي القوم الفاسقين المفسدين.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (11)﴾

قوله تعالى ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ استئناف مبين لبعض ما يدل على فسقهم ولومهم ونفاقهم وشقاقهم يقول تعالى هم الذين يقولون أي يقول رئيسهم عبدالله بن أبي لمن معه: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ من الفقراء ﴿حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ ويتفرقوا من حوله ويظنوا أنهم إذا تركوا الأنفاق عليهم تفرقوا ولا يشعرون أن الله بيده مقاليد السموات والارض ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يرزق منها من يشاء ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك وهم لا يكتفون بعدم الإنفاق عليهم بل ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ﴾ ويعني ابن أبي به نفسه ومن معه ﴿مِنْهَا﴾ أي من المدينة

﴿الْأَذَلَّ﴾ ويعـني بـه محمـدا صـلى اللـه عليـه وسـلم ومن تبعـه من المؤمنين.

ويقول تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فنحن اذا سـلمنا قولـه من اخراج الأعز للاذل لزم أن يخرج الله ورسـوله والمؤمنـون عبداللـه بن أبي بن سلول رئيس المنافقين ومن معه منهم ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَـافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من هو الأعز ومن هو الأذل، والا ما كانوا يقولون ذلك القول.

ولمـا كـان هـذا الغـرور من ابن أبي ومن معـه نشـأ من كـثرة أمـوالهم وأتبـاعهم ومن كـثرة أولادهم، ولـذلك غفلـوا عن ذكـر اللـه وإطاعـة رسوله.. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْـوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ أي لا تغفلكم ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي يلتهي بما عنده منهمـا ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في الدنيا بإضاعة ما عنـدهم وفي الآخـرة بمـا يـرد عليهم من العـذاب ﴿وَأَنْفِقُـوا مِنْ مَـا رَزَقْنَـاكُمْ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَـأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي بوادره ﴿فَيَقُـولَ رَبِّ لَـوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَـلٍ قَـرِيبٍ﴾ يعني لماذا لا تـؤخر أجلي مـدة وجـيزة ﴿فَأَصَّـدَّقَ﴾ أي فأتصـدق بمـالي على من لا مال عنده ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ للعبادة فأعبـد اللـه تعـالى حتى يأتيني الأجل؟ قرئ وأكون بالنصب ووجهه ظاهر. وبالجزم، كما هو عندنا، بالعطف على محـل فأصـدق لانـه في معـنى ان أخرتـني أصـدق على ما رآه أبو علي الفارسي. وذهب سيبويه إلى أنه على توهم شرط مقدر يدل عليه التمني. ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ أي مع أنه لا يفيـده طلب الامهـال عنـد آخـر الأحـوال ﴿وَاللَّهُ خَبِـيرٌ بِمَـا تَعْمَلُـونَ﴾ فمجازيكم عليه قليلا أو كثيرا.

سورة التغابن مدنية، وآياتها ثماني عشرة، نزلت بعد التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (4) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (5) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6)﴾

قوله تعالى ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ينزهه سبحانه وتعالى جميع المخلوقات تنزيها مستمرا لائقا بجناب قدسه

﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ لا لغيره، فإن الكائنات مختصة به تعـالى ايجـادا وابداعا، وأي حمدٍ من أي حامدٍ ولأي محمود يكون على نعم أو لا، يعـود اليه ﴿هُـوَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ﴾ لان نسـبة ذاتـه إلى جميـع مقدوراتـه سواء والإمكان يستوعب جميـع الكائنـات ﴿هُـوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وأبـدعكم من اللاشيء ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ﴾ ينكر وجود الخـالق المصـور أو وحدتـه في الخلق والابداع ﴿وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ بربه تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَـا تَعْمَلُـونَ بَصِـيرٌ﴾ وبمبادئ أعمالكم خبير ﴿خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِـالْحَقِّ﴾ أي بالحكمـة البالغة المتضمنة لمصـالح الـدنيا والآخـرة ﴿وَصَـوَّرَكُمْ فَأَحْسَـنَ صُـوَرَكُمْ وَإِلَيْـهِ الْمَصِـيرُ﴾ في النشـأة الأخـيرة ﴿يَعْلَمُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِـذَاتِ الصُّـدُورِ﴾ أي بالخيـالات الموجودة فيها.

﴿أَلَمْ يَـأْتِكُمْ﴾ يـا أهـلَ مكـة ﴿نَبَـأُ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ قَبْـلُ فَـذَاقُوا وَبَـالَ أَمْـرِهِمْ﴾ أي ضـرر كفـرهم ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخــرة ﴿عَـذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ذلـك العذاب الذي يرد عليهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ﴾ أي بسبب أنه ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات الظاهرة ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي فقـال كـل أمة من تلك الأمم في مقابل أولئك الرسل أبشر مثلنا يقدر أن يهـدينا؟ فكفـروا بالرسـل لأن أوسـاخ المماثلـة أخـرجتهم من اتبـاع الحـق الى المجادلـة، ولم يعلمـوا أن اللـه أعلم حيث يجعـل رسـالته، وتولـوا عن التفكر في الأدلة القاطعة على ثبوت رسالاتهم وتركوا سـبيل البرهـان، واسـتغنى اللـه عن ايمـانهم وطـاعتهم واللـه غـني عن العـالمين حميـد للحامدين.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُـوا قُـلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَـا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7) فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْـعِ ذَلِـكَ يَـوْمُ التَّغَـابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـالِحًا يُكَفِّرْ عَنْـهُ سَـيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْـهُ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (9) وَالَّذِينَ كَفَـرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِـدِينَ فِيهَـا وَبِئْسَ الْمَصِـيرُ (10) مَـا أَصَـابَ مِنْ مُصِـيبَةٍ إِلَّا بِـإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُـؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْـدِ قَلْبَـهُ وَاللَّهُ بِكُـلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَـا عَلَى رَسُـــولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لَا إِلَـــهَ إِلَّا هُـــوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13)﴾

قوله تعالى ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ الزعم ادعاء العلم وأكـثر ما يستعمل للادعاء الباطل ولذا اشتهر أن زعم مطية الكـذب يعـني أن كلمة زعم فـرس لا يركبهـا الا الباطـل، فـاذا سـمعت زعم فالغـالب أن الكلام الواقع بعده باطل نحو ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُـوا﴾ أي لن يحيوا بعد موتهم في الدنيا مع أن الأحياء أمـر محقـق مقـرر لينـال كـل جزاء أعماله ان خـيرا فخـير وان شـرا فشـر ﴿قُـلْ﴾ يـا رسـولي في رد مزعـومهم ﴿بَلَى﴾ أي كلامكم باطـل عاطـل ﴿وَرَبِّي﴾ أقسـم ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ عند مجيء الساعة ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي لتحاسبن ولتجـزون على أعمالكم لا على جهـل وعـدم اطلاع بـل تنـبئن بكـل عمـل خـير أو شـر عملتمـوه حـتى تعـترفوا بـه واذا أنكـرتم مـا عملتم شـهدت عليكم جوارحكم أيديكم وأرجلكم بما عملتم ﴿وَذَلِـكَ﴾ البعث والانبـاء بالاعمـال ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل لا صعوبة فيـه. واذا كـان الأمـر كـذلك ﴿فَـآَمِنُوا بِاللَّهِ﴾ الحي القيـوم القـادر على كـل شـيئ ﴿وَرَسُـولِهِ﴾ النـبي الـزكي الامجد سيدنا محمد

صلى الله عليه وسلم ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ اليه وهو القرآن الكريم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وقوله ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ ظرف لقوله ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ أي لتنبئن بما عملتم ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ جميعا ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ أي لأجل الحساب والميزان الثابتين في يوم الجمع ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أي وذلك يوم غبن فيه بعض الناس بعضا بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس. فقد روي في الصحيح: «ما من عبد يدخل الجنة الا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا. وما من عبد يدخل النار الا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة» وهو مستعار من تغابن القوم في التجارة.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه لاشتماله على النجاة من أعظم المهلكات والظفر بأعلى الطلبات.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي الآيات المنزلة من الله أو المعجزات التي خلقها الله تعالى لتأييد رسوله ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ النار، فيا أيها المؤمنون اذا آمنتم بالله فتوكلوا عليه وانيبوا اليه، ولا تتزلزلوا فيما أصابكم على الجهاد في الدين.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وارادته ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ الى الصبر عند المصائب والآلام ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في آياته ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في تبليغاته وبياناته ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي استدبرتم وعصيتم ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لا على غيره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ كلمة من فيه للتبعيض، أي ان بعضهم كذلك، فمن الأزواج أزواج يعادين بعولتهن ويصرفن أموالهم في ما يشتهين بدون إذن منهم، ويخنهم في المحارم، ويجلبن المخاصمات الى بيوتهم، علاوة على اطالة لسانهن وعبوسة وجوههن وبذاءة كلامهن.. وكذا من الأولاد من يهدم شرف بيت أبيه بالعمل على ما يشتهيه، ومن الأزواج الصالحات الحافظات لحدود الله المؤدبات المطيعات للأزواج، كما أن من الأولاد من يخدم أباه، ويعمل على مبتغاه، ويطلب رضاه، ويطيع مولاه.

﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ أي ذلك البعض البغيض وذلك كثير وعدده وفير ﴿وَإِنْ تَعْفُوا﴾ عن المتعاطفين فيما يقبل العفو ﴿وَتَصْفَحُوا﴾ فيما لا يوجب الصفح فيه هونا في الدين ﴿وَتَغْفِرُوا﴾ أي وتستروا عيوبهم وذنوبهم الهينة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي بلاء ومحنة. أما الأموال فالفتنة في كسبها من الشبهات أو المحرمات، وفي عدم صرف الواجبات، وفي ظهور عداء أصحاب الخيانات، وخيرها في الكسب من الحلال وصرفها في رضا الملك المتعال، وسد أفواه الناس بها حسب الإمكان في كل حال. وأما الأولاد فالفتنة في إهمال التربية والتعليم واطلاق سراحهم ليعيشوا مع كل

ذميم لئيم وتخويلهم الأموال لصرفها في ما يسوق إلى الجحيم. وخيرهم في حسن التربية بقدر الامكان ورعاية مجاورتهم للصالحين بحسب الزمان، والاعتدال في الانفاق عليهم وتزويجهم حتى لا يبتلوا بالعصيان ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن يصون نفسه من موبقات الأموال والأولاد في سبيل الله وفي الحديث: ((يؤتى الرجل يوم القيامة فيقال: أكل عياله حسناته)) وأخرج الامام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه عن بريرة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر فحملهما، واحدا من ذا الشق، وواحدا من ذا الشق، ثم صعد المنبر فقال: ((صدق الله انما أموالكم وأولادكم فتنة، اني لما نظرت الى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما)).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي أبذلوا الجهد بقدر طاقتكم في تقواه ﴿وَاسْمَعُوا﴾ كلام الله وكلام رسوله ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أوامره عز وجل ونواهيه بقدر الامكان ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ في الدنيا ﴿خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ في الآخرة ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ أي يحفظ من حرص نفسه على جمع الأموال من الحرام والحلال وبخله من صرف حلاله في سبيل رضا الملك المتعال ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون. ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي ان تصرفوا أموالكم في سبيل مرضاته تعالى بإخلاص غير مشوب بالعيوب ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ من واحد إلى عشر حسنات، ومن عشر إلى سبعمائة ضعف من الدرجات ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيل في مقابل القليل ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يستعجل بعقوبة المذنب ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ لا يخفى عليه شيئ ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كافة المطالب.

سورة الطلاق، مدنية، وآياتها اثنتا عشرة، نزلت بعد سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (1) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ خص النداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، وعم الخطاب لأنه صلى الله عليه وسلم إمام أمته فنداؤه كندائهم والمعنى: اذا أردتم تطليقهن فطلقوهن لعدتهن، أي في وقت ابتدائهن بعدتهن مباشرة بعد نهاية انشاء الطلاق. يعني فطلقوهن في الطهر لان زمن الطهر يحسب من العدة ولو بقي بعد التطليق دقيقة. وهذا عند من فسر القرء بالطهر، فالامر بتطليقهن في الطهر انما هو حتى لا تتضرر المرأة بتأخير عدتها، لأن العدة عنده بالاطهار، وزيد فيه شرط آخر وهو أن لا يجامعها في ذلك الطهر قبل التطليق خوفًا من الحمل.

ومن اعتبر الأقراء بالحيضات وافق أيضا في كون التطليق في وقت الطهر لكن قدر محذوفا، أي فطلقوهن مستقبلات لعدتهن بأن يكون الطارق في الطهر حتى انقضى الطهر ابتدأت بالحيض المحسوب لها من العدة. وظاهر أن الامر للوجوب فيحرم تطليقها في الحيض، لكن الطلاق يقع والدليل على الحرمة ووقوع الطلاق ما صح من أن عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما طلق زوجته آمنة وهي حائض فذكر ذلك أبوه عمر رضي الله عنهما للرسول صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم ((ليراجعها ثم ليمسكها، حتى تطهر ثم تحيض، ثم تطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء)) فانه لو لم يكن الطلاق واقعا ما كان يحتاج الى الرجعة، ولو كان حلالا لم يأمر عليه الصلاة والسلام بتلك العمليات التي تورث حرجا على الزوج، وكان يأمر بمفارقتها.

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي واضبطوها وأكملوها ثلاثة قروء فان كان القرء حيضا انتهت العدة بخلاصها من الحيضة الثالثة، وان كان طهرا فبدخولها في الطهر الثالث ولا تنتظر أن تدخل في الحيض، بل يجوز ان

تتزوج في ذلـك الطهـر لأن الطهـر قـد يسـتمر الى موتهـا ﴿وَاتَّقُـوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العدة عليها، فان كانت في الطهر فلا بأس بتطليقهـا لمباشـرتها للعـدة فـورا أو في الحيض وجب الصـبر الى أن تطعن في الطهر.

والمقصود من الآية الكريمة أن يكـون طلاق المـرأة بعيـدا عن الاضـرار بهـا، ولـذا قـرر أن يكـون في الطهـر. وروي عن النخعي أن أصـحاب رسول الله يستحبون أن لا يطلق الزوج زوجتـه الا واحـدة. ثم لا يطلـق غير ذلك حتى تنقضي عدتها، وكان أحسن عندهم أن يطلق الرجل ثلاثـا في ثلاثة أطهار. قال مالك رضـي اللـه عنـه: لا أعـرف طلاق السـنة الا واحدة، وكان يكره الثلاث مجموعة أو مفرقة. وأما أبو حنيفـة وأصـحابه فانمـا كرهـوا مـا زاد على الواحـدة في طهـر واحـد، فأمـا مفروقـا في الاطهار فلا لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمـر حين طلق امرأته وهي حائض: « مـا هكـذا أمـرك اللـه. انمـا السـنة أن تستقبل الطهر استقبالا، وتطلقها لكـل قـرء تطليقـة» وروي أنـه صـلى الله عليه وسلم قال لعمر: «مر ابنك فليراجعها ثم ليدعها حـتى تحيض، ثم تطهر ثم ليطلقها ان شاء» وعند الشـافعي لا بـأس بإرسـال الثلاث، وقال: لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح. فمالك يراعي في طلاق السنة الواحدة والوقت، وأبو حنيفة يراعي التفريق والـوقت، والشافعي يراعي الوقت.

وأما إرسال الطلاق الثلاث بألفـاظ متعـددة كـأن يقـول أنت طـالق انت طالق أنت طالق، أو بلفظ واحد كان يقول أنت طالق ثلاثا، فالذي ذهب اليه جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمـة المسـلمين، ومنهم الأئمة الاربعة.. وقوع الثلاث، بل ذكر الامـام ابن الهمـام وقـوع الإجمـاع السكوتي من الصـحابة على الوقـوع، ونقـل عن أكـثر مجتهـديهم كعلي كرم اللـه وجهه، وابن عبـاس، وابن مسـعود، وأبي هريـرة، وعثمـان بن عفان، وعبدالله بن

عمرو بن العاص الإفتاء الصريح بذلك. وذكر أيضا أن إمضاء عمر الطلاق الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحابة له مع علمهم بالسنة النبوية دليل على أن ذلك الإمضاء كان حقا مشروعا، وإلا فكيف يخالف عمر ما سنه الرسول وقرره، أو كيف يسكت أولئك الأجلة من الأصحاب على مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم في تشريعاته.

وقال بعض الأئمة: لو حكم قاض بأن الطلاق الثلاث بفم واحد يعتبر طلاقا واحدا لم ينفذ حكمه لانه لا يسوغ الاجتهاد فيه لاجماع الأئمة المعتبرين عليه. وما روي من غضبه صلى الله عليه وسلم على من طلق زوجته ثلاثا فعلى تقدير ثبوته كان غضبه صلى الله عليه وسلم على استعماله فيها وعدم ابقاء المجال للرجعة، أو استئنافا لنكاح بعقد جديد لا لعدم وقوع الثلاث، فقد أخرج عبد الرزاق عن عبادة بن الصامت أن أباه طلق امرأة له ألف تطليقة، فانطلق عبادة فسأله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم: بانت بثلاث في معصية الله وبقي تسعمائة وسبعة وتسعون عدوانا وظلما، ان شاء الله تعالى عذبه وان شاء غفر له. وأخرج أبو داود في سننه عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل، وقال: انه طلق زوجته ثلاثا، فقال له: عصيت ربك وبانت امرأتك منك. ومنهم من قال: ان المعصية قد نسخت لانه روي عن جمع من الصحابة التطليق ثلاثا مع وجود المعصية فيه منهم عبدالرحمن بن عوف طلق زوجته (تماضر) ثلاثا في موضعه، والحسن بن علي رضي الله عنهما طلق زوجته (شهبانو) ثلاثا لما هنأته بالخلافة بعد وفاة علي رضي الله عنه. أو أن المعصية كانت في التطليق في الحيض أو أن المطلق قال (ثلاثا للسنة).

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي من مساكنهن عند التطليق الى أن تنقضي عدتهن ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ أي تزني فتخرج

لإقامة الحد عليها، أو المعنى الا أن يأتين بفاحشة واضحة وهي خروجهن من مساكنهن بدون موافقة الزوج لانهما لو اتفقا على الانتقال جاز، لان الحق لا يتجاوزهما، وفي جمع النهيين دلالة واضحة على استحقاق السكنى ولزومها ملازمة مسكن الفراق. نعم إذا لم يكن ذلك المحل متميزا بمرافق خاصة وحصل من بقائها فيه الاجتماع بزوجها وجب: أما انتقال الزوج إلى محل آخر، أو انتقالها إلى سكنى أخرى مناسبة لها. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي وتلك الأحكام حدوده تعالى المذكورة ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي يتجاوزها ويخالفها منهما ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بتعريضه لعقاب الآخرة ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ وهو الرجوع الى اطاعة الباري والتوبة عما جرى من المخالفة، أو هو وجود الرغبة فيهما لاستئناف العقد بينهما، أو رجعته لها ان كان الطلاق رجعيا.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربن الوصول الى انتهاء مدة العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ فراجعوهن أو استأنفوا عقد نكاحهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ متلبسا بما يعرف في الدين بأن تكون المعاشرة لطيفة شريفة بلا نزاع وجدال ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بالوفاء بتسليم حقوقها المشروعة ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ على الرجعة أو استئناف العقد أو الفراق بينهما. والأمر للوجوب اذا كان الإمساك بعقد جديد، وللندب اذا كان بالرجعة او كان الفراق بالطلاق.

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أي أدوها عند الحاجة ﴿لِلَّهِ﴾ خالصا له تعالى ﴿ذَلِكُمْ﴾ الحكم المذكور ﴿يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ولا يخالف أوامره ونواهيه ويطع شرع الله في السلب والإيجاب ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ من الصعوبات الواقعة أمامه ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أن يأتيه الرزق من ذلك المحل لان الصدق بالغيب يلزمه الرزق بالغيب ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي يعتمد عليه حق الاعتماد وأن النافع

والضار هو اللـه، وأطاعـه في مباشـرة الأسـباب الـتي هيأهـا لـه ﴿فَهُـوَ حَسْبُهُ﴾ أي فالله كافيه في ترتب المسببات على الأسباب، فالتوكل هـو الاعتمـاد على خلقـه وتـأثيره وأن لا يـرى التـأثير للاسـباب ويـؤمن بـأن المسـببات مـع الأسـباب لا بهـا. وليس معـنى التوكـل اختيـار البطالـة والمشي على الجهالة، فان ذلك مخالف لسـنة اللـه في العـالمين. نعم قد يكون أفراد من البشر يمتنعون عن معالجة كل أمر ويحصل لهم كل مـا أرادوه لكنهم شـواذ مـأمورون بمباشـرة تلـك الأحـوال لحكمـة في الخلق. وإلا فسيد الأنبياء والمرسلين صـلى اللـه عليـه وسـلم هـو سـيد المتوكلين مع أنه باشر الاسباب كما هو الحق والواجب وحول الأمر الى الله العلي العظيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي واصل إلى مراده، ولا يفوته مراد من المرادات لان تخلف المراد عن الارادة ممتنع ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي تقـديرا خاصـا، أو مقـدارا محـدودا، أو آجلا ومـدة من الـزمن لا يتـأتى تغييره.

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْـهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْـنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَـالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَـعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْـرِهِ يُسْـرًا (4) ذَلِـكَ أَمْـرُ اللَّهِ أَنْزَلَـهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَـهُ أَجْـرًا (5) أَسْـكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَـكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَـيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْـلٍ فَـأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَـعْنَ لَكُمْ فَـآتُوهُنَّ أُجُـورَهُنَّ وَأْتَمِـرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (6) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِـقْ مِمَّا آَتَـاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًـا إِلَّا مَا آَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (7)﴾

قولــه تعــالى ﴿وَاللَّائِي يَئِسْــنَ مِنَ الْمَحِيضِ﴾ روي أنــه لمــا نــزل ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُـرُوءٍ﴾ قيـل: فمـا عـدة اللاتي لم يحضن؟ فنزلت يعني والنساء اللاتي يئسـن من خـروج دم الحيض لكـبر سنهن ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي جهلتم عدتهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَـةُ أَشْـهُرٍ﴾ وقـد قـدر بعض الأئمة سن اليأس بستين سنة، وبعضهم بخمس وخمسين. وقولـه ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْـنَ﴾ مبتـدأ خـبره محـذوف، أي واللائي لم يحضـن من أول زمان استعداد الحيض إلى وقت وجوب العدة عليهـا فعـدتهن ثلاثـة اشهر أيضا. وكذلك صغيرة تزوجت وبوشرت ثم طلقت قبل أن تحيض.

﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي ولـو نحـو مضـغة قـالت القوابل إنها مادة آدمي وهذه الآية تعم المتوفى عنهـا، فإنـه إذا وضـعت الحمل بعد وفاة زوجها فقد انقضت عدتها. فقد أخرج مالـك والشـافعي عن ابن عمر أنه سئل عن المرأة التي تـوفى عنهـا زوجهـا وهي حامـل فقال: إذا وضعت حملها فقد حلت، فـأخبره رجـل من الأنصـار أن عمـر بن الخطاب قال: لو ولدت وزوجها على سـريره لم يـدفن لحلّت ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في رعاية أحكامه تعالى ومراعاة حقوق الزوجـة ﴿يَجْعَـلْ لَـهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا * ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ لتفهمـوا أحكـام الدين ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ بالمضاعفة.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ استئناف وقع جوابـا عن سـؤال نشـأ من الحث على التقوى، كأنه قيل: كيف نتقي في شأن النساء؟ فقال:

﴿أَسْـكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَـكَنْتُمْ مِنْ وُجْـدِكُمْ﴾ أي من وسـعكم ومـالكم الموجود ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ فتلجئوهن إلى الخروج لشـغل المكان عنـدكم، أو بالاسـكان مـع من لا يـردن السـكنى معـه ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْـلٍ فَـأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَـعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ والآيـة مخصوصـة بالمطلقات لأن المتوفى عنها لا نفقة لها ولو كانت حاملا، ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ بعـد الوضـع ﴿فَـآتُوهُنَّ أُجُـورَهُنَّ﴾ على الإرضـاع ﴿وَأْتَمِـرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي تشاوروا في مقدار الأجور وسائر الأمور ﴿وَإِنْ تَعَاسَـرْتُمْ﴾ أي تضـايقتم أي ضـيّق بعضـكم على بعض ومـا تـَـوافَقتم على الأجَـرة ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ أي مرضعة أخرى، أي فستوجد له مرضعة أخـرى ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ﴾ مالية ﴿مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُـدِرَ عَلَيْـهِ رِزْقُـهُ فَلْيُنْفِـقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي سَيجَعل الله بعد عسر وفقرٍ يُسراً وغنىً وسَعَةً في الحال والمال.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَـا وَرُسُـلِهِ فَحَاسَـبْنَاهَا حِسَـابًا شَـدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (8) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَـا خُسْـرًا (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَـدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَـاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَـاتٍ لِيُخْـرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُـؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَـدًا قَـدْ أَحْسَـنَ اللَّهُ لَـهُ رِزْقًـا (11) اللَّهُ الَّذِي خَلَـقَ سَـبْعَ سَـمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)﴾

قوله تعالى ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي كثير من أهل قرية ﴿عَتَتْ﴾ تكبّرت وعَصَتْ ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ ولم تُطِعْهُما ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ في الدنيا بتغيير الأحوال وتقتير الأموال وتقليل الجاه والمَنال وقد كانت بالإهلاك والتدمير ﴿وَعَذَّبْنَاهَا﴾ في الاخرة ﴿عَذَابًا نُكْرًا﴾ أي منكرا عظيما. او كل الفقرات السابقة تفسير لمحاسبة الدنيا بقرينة قوله تعالى ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ عقوبة عصيانها ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ عظيما لا خسر أزيد منه في الآخرة، وبيّنه بقوله ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ العقول السليمة من الخلل، أعني ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله حق الإيمان ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أي صاحب ذكر ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ لكم ما يصلح به أمركم في الدارين ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الجهل وغباوة النفس وشقائها وشهواتها وسوء الاعتقاد والأعمال ﴿إِلَى النُّورِ﴾ نور العلم والذكاء للنفس وطاعتها وحسن الاعتقاد والأعمال. ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ إلى أن ينتهي أمدُه ويأتي أجله ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ من الأثير الصافي القوي الذي لا ينفذ بدون سلطان، وهي واسعة بما لا يعلم حده إلا الله، والقربى منها مزيّنة بزينة الكواكب السيارة والثابتة والمكشوفة بالعيون أو الأرصاد، أو لا يصل إليها إدراك العباد وفوقها الجنة التي عرضها السموات والأرض وفوقها الكرسي الذي وسع السموات والأرض.

وقوله تعالى ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي وخلق من الأرض مثلهن أي مثل السماوات في كونها أجساما على حد وميزان، أو في أنها طبقات بعضها

فوق بعض طبقة التراب الصرفة المجاورة للمركـز، والطبقـة الطينيـة، والطبقة المعدنية التي تكون فيها المعادن، والطبقـة الممتزجـة بغيرهـا المنكشـفة الـتي هي مسـكن الإنسـان ونحـوه من الحيـوان، وطبقـة الأدخنة، والطبقة الزمهريرية، وطبقة النسيم الرقيـق... وهـذه كلهـا من الأرض. أو المـراد أنهـا أقـاليم سـبعة بحسـب القـرب والبعـد من خـط الاستواء، أو أنها سبع منها الأرض التي نحن نسـكن فيهـا، ومنهـا كـراتٌ ست أخرى على نحو هذه الصفات الأرضية من الامـتزاج بالمـاء ووجـود الجبال والهواء ومعيشة الحيوان إلى غير ذلك مما لم يكشف لحـد الآن. والأمر محول إلى علم الله سـبحانه وتعـالى ويمكن أن ينكشـف بـالعلم في المستقبل بعض أشياء لم يعلمها الإنسان إلى يومنا هـذا. فـإن هـذه الكرة الأرضية وسائر الطبقات الفلكيـة، والكـواكب السـيارة، والثـوابت الموجودة الآن لا يعلم مدى تكونها بخلق الله وقدرته الإبداعية، هل هي مليون من السنين؟ أو مليار أو مليارات؟ وتبين بمعالجـة مـا أدرك منهـا ووصل الإنسان إليه أنها مواد ضعيفة قابلة للتفريق والتمزيق والتحويـل والأمـر الضـعيف الممكن المسـخر لا شـبهة في أنـه واقـع تحت قـدرة الخالق القادر العليم، ويجري قضاؤه فيها كمـا قـال ﴿يَتَنَـزَّلُ الْأَمْـرُ﴾ أي قضـاؤه وقـدره وشـئونه الفعليـة ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ أي بين الأرض والسـماوات حسـب علمـه وإرادتـه ولا يغـرنكم مـا تسـمعون من الكلام على طـول زمان تكوّن السموات والأرض، فإنها متى تكونت ونعلم مـدتها أولا فهي مخلوقة لصـانع قـادر بيـده مقاليـد السـموات والأرض ﴿اللَّهُ خَـالِقُ كُـلِّ شَـيْءٍ﴾ ﴿وَهُـوَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ﴾ وجميـع الموجـودات الماديـة المكشـوفة والملفوفـة عـالم الشـهادة والغيب كلهـا بالنسـبة إلى اللـه وقدرته كشيئ حقير لا قيمة له ولا وزن. وخلـق اللـه الحي القيـوم كـل ذلك ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

سورة التحريم، مدنية، وآياتها اثنتا عشرة، نزلت بعد الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَـرِّمُ مَـا أَحَـلَّ اللَّهُ لَـكَ تَبْتَغِي مَرْضَـاةَ أَزْوَاجِـكَ وَاللَّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (1) قَـدْ فَـرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـانِكُمْ وَاللَّهُ مَـوْلَاكُمْ وَهُـوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَـدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِـهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَـهُ وَأَعْـرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَـا بِـهِ قَـالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَـغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـالِحُ الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْـدَ ذَلِـكَ ظَهِـيرٌ (4) عَسَـى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَـهُ أَزْوَاجًـا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَـاتٍ قَانِتَـاتٍ تَائِبَـاتٍ عَابِـدَاتٍ سَـائِحَاتٍ ثَيِّبَـاتٍ وَأَبْكَارًا (5)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾ روى البخاري، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب ويشرب عندها عسلا فتواصيتُ أنَا وحفصةُ أن أيَّتَنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل إني أجد منكَ ريح مغافير، أكلتَ مغافير، فدخل على إحديهما فقالت له ذلك. فقال: لا بل شربتُ عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود. وفي رواية وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحدًا فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ من شرب العسل ﴿تَبْتَغِي﴾ بذلك التحريم ﴿مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾ يعني حفصة وعائشة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما نالك من أذى خلاف الأولى على تحريم ما أحله الله تعالى لك و﴿رَحِيمٌ﴾ حيث قرر لك الحنث في اليمين وسترها بالكفارة.

وتحريم ما أحلّه الله ليس معناه أن يعتقد بالشيئ الحلال محرما لأنه تحول الحلال إلى الحرام ممتنع، ولا يمكن صدوره من العالم بالأحكام، فضلا عن صاحب شريعة الإسلام، وإنما معناه الانكفاف عن الاستفادة منه بأن لا يأكل المأكول، ولا يشرب المشروب، ولا يلبس الكسوة الفلانية وهذا أمر عام وارد بين الناس، ومنه ما وقع له صلى الله عليه وسلم.

وكلامه صلى الله عليه وسلم إن كان مع الحلف أي والله لا اشربه فهو ظاهر، وإن كان بصيغة التحريم كأن يقول: حرمت على نفسي شرب ذلك المشروب وقصد به تحريم شربه فيمين عليها كفارة.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي شرع لكم ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي تحليلها ورفع إثمها بإعطاء الكفارة. واختلف العلماء في حكم قول الرجل لزوجته: أنتِ علي حرام، أو الحلال علي حرام ولم يستثن زوجته فقال جمع لا يلزمه شيئ.

وقال جماعة: هو يمين يكفّرها. والشافعي إن نوى طلاقا أو ظهارا حصل

أو نواهما تخير، وثبت ما اختاره. وقيل طلاق، وقيل ظهار، أو تحريم عنها لم تحرم، وعليه كفارة يمين. وأبو حنيفة يرى تحريم الحلال يمينا في كل شيئ والتفصيل في كتب الفقه: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ سيدكم ومتولي أموركم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ أي حفصة ﴿حَدِيثًا﴾ هو قوله صلى الله عليه وسلم ((كنتُ أشرب عسلا عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدا)) ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أي فلما أخبرت حفصة عائشة بالكلام الذي قاله لها صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي جعل الله رسوله ظاهرا ومطلعاَ على ذلك الحديث، وأن حفصة أخبرت عائشة بذلك السر ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ أي أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم بعضه لحفصة، وذلك البعض: كنتُ أشربُ عسلا عند زينب ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أي وترك إظهار الجزء الأخير من الكلام، وهو حلفت فلم يخبرها به ﴿قَالَتْ﴾ حفصة: ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي ان الله هو الذي أخبرني بانك حكيت كلامي لعائشة، ثم خاطبها الباري تعالى بقوله ﴿إِنْ تَتُوبَا﴾ يا عائشة ويا حفصة ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي فحق لكما التوبة إذ قد مالت قلوبكما عن الواجب وهو حب ما أحبه الرسول صلى الله عليه وسلم وكراهة ما كرهه إلى مخالفة ذلك ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي وإن تتظاهرا عليه وتتعاونا على استحباب ما تريدانه واستكراه ما يريده صلى الله عليه وسلم فالوبال عائد إليكما ولا يتضرر هو ولا تغلبانه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ وناصره ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ هو مع ما عطف عليه مبتدأ وقوله ظهير خبر أي وجبريل ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كأصحابه ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ النصر من الله ﴿ظَهِيرٌ﴾ لمحمد صلى الله عليه وسلم، ومن كان الله نصيره، وأهل الحق ظهيره وجب إطاعته في ما أحبّه. ثم الأولى بكما أن تكونا

باقيتين عنده لاستفادة السعادة لكما، وإلا فلا يعود عليه ضـرر. ﴿عَسَـى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَـهُ أَزْوَاجًـا خَيْـرًا مِنْكُنَّ مُسْـلِمَاتٍ﴾ مطيعـات منقادات له بكل معنى ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾ مخلصات ﴿قَانِتَـاتٍ﴾ مواظبـات على الطاعـة ﴿عَابِـدَاتٍ﴾ للـه في السـراء والضـراء ﴿سَـائِحَاتٍ﴾ صـائمات ﴿ثَيِّبَاتٍ﴾ راجعات عن الزوج بعد التمتع والفراق ﴿وَأَبْكَارًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَـا النَّاسُ وَالْحِجَـارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَـا يُـؤْمَرُونَ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْـزَوْنَ مَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (7) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَـةً نَصُـوحًا عَسَـى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَـا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِـدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُـوا قُـوا أَنْفُسَـكُمْ﴾ بـترك المعاصـي وفعـل الطاعـــات ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ أي أزواجكم وأولادكم ﴿نَـــارًا وَقُودُهَـــا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب. ووقايـة الأهـل لحملهم على ما مرّ بالنصح والتأديب. روي أن عمر رضي اللـه عنـه قـال: يـا رسـول الله نقي أنفسنا فكيف

لنا بأهلينا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: ((تنهوهن عما نهاكم الله عنه، وتأمروهن بما أمركم الله به، فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار)) واستدل بهذه الآية على أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب من الفرائض وتعليمه لهؤلاء. وفي الحديث: ((رحم الله رجلا قال يا اهلاه صلاتكم، صيامكم، زكاتكم، مسكينكم، يتيمكم، جيرانكم... لعل الله يجمعكم في الجنة)) ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ﴾ في الأقوال ﴿شِدَادٌ﴾ في الأفعال ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ المعهود المعلوم اليوم لكل إنسان ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أي توبة بالغة في النصح فهو من أمثلة المبالغة كضروب وصف التوبة دون التائب للمبالغة في قوتها. وهي أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقها. قال معاذ بن جبل يا رسول الله ما التوبة النصوح؟ قال: ((أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلى الله تعالى، ثم لا يعود اليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع)). ومن شرائطها رد حقوق الناس إلى اصحابها بقدر الإمكان. والندم على فعل ما فعله من المعاصي أو ترك ما ترك من الطاعات، وعزمه على أن لا يعود إليها. فإن تبتم توبة على ما قرر ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فجاهد الكفار بالحرب والنار، والمنافقين بإقامة الحجة البالغة، واغلظ عليهم بإقامة الحدود في حقهم بدون أيّ مسامحة ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي جهنم.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْـدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَـيْئًا وَقِيـلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُـوا اِمْـرَأَةَ فِرْعَـوْنَ إِذْ قَـالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْـدَكَ بَيْتًـا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَـوْنَ وَعَمَلِـهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَـوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَـرْيَمَ ابْنَتَ عِمْـرَانَ الَّتِي أَحْصَـنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَـدَّقَتْ بِكَلِمَـاتِ رَبِّهَـا وَكُتُبِـهِ وَكَـانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)﴾

قوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إما ضرب بمعنى ذكر، ومثلا بمعنى قصة لها شأن و﴿اِمْرَأَةَ نُوحٍ﴾ بدل من قولـه مثلا أي قصـة امـرأة نوح. أي ذكر الله للكافرين المغترين بقرابتهم مع النبي أو مع المؤمنين قصة لها شأن هي قصة المرأتين اللتين كانت لهما علاقة برسـولين من الرسل مع أنـه مـا اسـتفادتا من قرابتهمـا. أو أن ضـرب بمعـنى جعـل، يتعدى إلى مفعولين وأمرات نوح مفعوله الأول وكـذا مـا عطـف عليـه. ومثلا مفعوله الثاني، وأخر الأول ليتصل ببيان قصتهما العجيبة أي جعـل الله قصة امرأة نوح وامـرأة لـوط مثلا وشـبيها لقصـة أولئـك الكـافرين المغرورين حتى يمتنعوا عن الغرور ويتوجهـوا إلى اللـه تعـالى ورسـوله فيبين الباري تعالى حالهما للاتعاظ والاعتبار ويقول ﴿كَانَتَـا تَحْتَ عَبْـدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ وهما نوح ولوط عليهما السلام ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ وخيانة امرأة نوح هي أنه كانت تقول بالنسبة إلى نوح عليه السلام إنه مجنون. وخيانـة امـرأة لـوط هي أنهـا كـانت تـدل أهـل القريـة المفسـدين على الضيف الوارد على

سيدنا لوط، فإن الله سبحانه وتعالى كما عصم الأنبياء عليهم السلام من الذنوب لمخالفتهما لمقام الرسالة كذلك عصم أهلهم من الفجور والفسوق لإخلالهما باحترام البيت النبوي. وكل ما يقال أو يروى من ذلك الباب دسّ ووضع وافتراء على مقام النبوة والرسالة، فاياكم وإياها، فإن الناس ناسون لحقوق الله تعالى وأنبيائه ورسله ويتكلمون كما يريدون.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ أي ذانك العبدان الصالحان ﴿عَنْهُمَا﴾ أي عق الامرأتين ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء، أو شيئا من العذاب، أي لم تتخلصا من عذاب الآخرة بعلاقتهما مع ذينك الصالحين ﴿وَقِيلَ﴾ لهما من جانب الله تعالى: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾.

ولما علمت إعراب الآية هذه فقس عليه إعراب هذه الآية الآتية أعني قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾ واسمها آسيا بنت مزاحم ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ والعندية يراد بها قرب العبودية منزلة من الرب المعبود ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ أي نفسه الكافرة الخبيثة بتأثيرها في نفسي أو بغضبها عليّ وإيذائي ﴿وَعَمَلِهِ﴾ أي ومن شؤم عمله من إيذاء الناس، والإشراك بربّ العالمين ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهم الأقباط المتعاونون مع فرعون الظالم، أي من شؤم عملهم أو كيدهم ووشايتهم علي. ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ عطف على امرأة فرعون، أي وضرب الله مثلا للذين آمنوا حال مريم ابنة عمران ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي صانته وحفظته من كل ما يخالف الدين ﴿فَنَفَخْنَا﴾ على فم عبدنا الأمين جبريل من المقربين ﴿فِيهِ﴾ أي في فرجها مرادا به الجيب ففيه استخدام، لأن المحصنة الفرج المعهود، والمنفوخ فيه الفرج بمعنى جيب قميصها، لأنه لما تمثل لها بشرا سويّا استحيت واستعاذت بالله. ولما بين أنه مرسل من ربه إليها للتبشير هدأت وسكن قلبها، فنفخ في جيب قميصها المتصل بصدرها، ووصل أثر

النفخ إلى جسمها، لأن ذلك النفخ كان نفخا ملكيا قدسيا كما قـال ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ أي من الملك الروحـاني الـبريء من المـادة الترابيـة المخلوقـة بأمرنا كن فيكـون. فالإضـافة للتشـريف والتلطيـف ﴿وَصَـدَّقَتْ بِكَلِمَـاتِ رَبِّهَا﴾ الواصلة إليها بواسطة جبريل من قوله إنما أنا رسول ربــك لأهب لك غلاما زكيا. وقوله كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعلـه آيـة للنـاس ورحمة وكـان أمـرا مقضـيا. حيث حصـل لهـا علم ضـروري وهـبي بـأن المتمثل لها ملك مقدس مأمور من الله رب العـالمين وليس إنسـانا ولا جنـاً ولا من الشـياطين ﴿وَكُتُبِـهِ﴾ أي وصـدقت بكتبــه السـماوية كلهـا بواسـطة السـماع من ابنهـا عيسـى عليـه السـلام ﴿وَكَـانَتْ﴾ قبـل هـذه الحادثة وبعدها ﴿مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ العابدين لرب العالمين، والقانت: المطيع اللازم للطاعة. جعلنا الله منهم برحمته إنه أرحم الراحمين.

الجزء التاسع والعشرون

<367>

سورة الملك، مكية، وآياتها ثلاثون، نزلت بعد سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تبَـارَكَ الَّذِي بِيَـدِهِ الْمُلْـكُ وَهُـوَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَـقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْغَفُـورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْـقِ الـرَّحْمَنِ مِنْ تَفَـاوُتٍ فَـارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَـرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًـا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5)﴾

قوله تعالى ﴿تبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ﴾ أي البركة والكبرياء للخـالق الـذي بيـده ﴿الْمُلْكُ﴾ أي السلطة والتصرف المطلق يفعل ما يشاء ويحكم ما يريـد، وهذه الجملة من أعلى الجمل المفيدة للعظمة، لأن كل خـير ينشـأ عن كل فاعل فإنما ينشأ من السلطة، ويكون على ميزانها

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ فسر الحيوة بأنها صفة توحيد الحس والحركة الإرادية، فهي وجودية ومن الكيفيات النفسانية، وأما الموت فمنهم من يقول إنها أيضا صفة وجودية تضاد الحياة كالسواد للبياض. ومنهم من يقول: إنه أمر عدمي يفسر بعدم الحياة عمن يكون من شأنه الحياة فعلى الأول يتعلق الخلق بهما لأن أثر الخلق والإيجاد هو الوجود، وأما على الثاني فقالوا: إن الخلق بالنسبة إلى الموت بمعنى التقدير والتمييز، أو نسبته إليه بمعنى نسبته إلى محل انتزاعه، أي جعل الشخص بحيث ينتزع منه الموت. فقوله ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليعاملكم معاملة المختبر في عالم العيان أيكم أحسن من الآخرين عملا وإطاعة لربكم رب العالمين ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿الْغَفُورُ﴾ الساتر لذنوب من يؤمن بقدره.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي متطابقة بعضها فوق بعض. والسماوات وإن كانت أجساما أثيرية لكنها قابلة للتمايز وامتياز بعضها عن بعضها، فالسماء الدنيا منها قابلة لوجود الكواكب الثابتة والسيارة فيها، والسماء الثانية على غير تلك الصفة، وبين كل سماء مع مجاورها علاقة خاصة وارتباط. ولا تبغي إحداهما على الأخرى. وقوله ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ صفة لسبع سماوات وليس المراد بنفي التفاوت نفي الفوارق لأنها موجودة، بل المعنى أنه ليس فيها عيب ونقص من جهة أن الحكمة اقتضتها، أو ليس فيها تجاوز الحد لأيّ واحد، كما أن الإنسان السوي مخلوق بقصر اليدين وطول الرجلين وعظم الهامة وسواد الشامة وكل ذلك مقبول ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ أي فإن كنت في شبهة في السالبة السابقة فارجع البصر واستعمل الفكر حتى يتضح الحال ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ ليس المراد مرتين فحسب بل المراد تكرار استعمال البصر بقدر الميل قليلا أو كثيرا، فإذا

رجعته كذلك ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ ذليلا عليلا ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي كليل من طول المعاودة.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي القربى منكم أي التي هي أكثر دنوا وقرباً منكم ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ أي بكواكب تنور العالم تنوير المصابيح للمجالس ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي وجعلنا تلك المصابيح بواسطة ما يحدث من دورانها وإشعاعها وحدوث النيازك منها ومن أمور اخرى رجوما أي رجما ودفعا وطرداً للشياطين الصاعدين في الجو لاستماع بعض الأصوات والكلمات وأخذ أمور علمية منها مربوطة بأوضاع السماوات والأرض. يعني إن الشياطين المنتشرين في الأرض الصاعدين في الجو لاستراق السمع قررنا رجمها ودفعها بالنيازك والشهب الناشئة من تلك الكواكب.

وليس معناها أن تلك المصابيح تنقض ذواتها وترجم الشياطين، ولا أنها لم تكن قبل الإسلام وإنما حدثت بعد مجيء الإسلام حتى يقال إن المصابيح والنيازك وجدت في العهود السابقة أيضا، ولا أنها ليس لها فائدة إلا رجم الشياطين فيجوز أن يكون لها فوائد أخرى ايضا. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي وهيأنا لتلك الشياطين عذاب النار المسعرة الملتهبة المشتعلة في الآخرة.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)﴾

قوله تعالى ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ يعني كما اعتدنا عذاب السعير للشياطين قرر لكل مكلف من الذين كفروا بربهم وتمردوا عن أمره ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنم ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ أي إذا طرحوا فيها ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ أي لجهنم ﴿شَهِيقًا﴾ أي صوتا منكرا كشهيق الحمير ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي ينفصل بعضها عن بعض ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي تكاد تتميز بعضها عن بعض من شدة فيها تشبه حالة الحي الغضبان ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي جماعة من الكفرة ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يتلو عليكم آيات الله فتخافوا ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ وتلا علينا آيات الله ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ه من سوء حظنا ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فضلا عن الآيات التشريعية ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ أي ما أنتم أيها الرسل المنذرون ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا﴾ بعد ذلك الاعتراف الخطير متندمين على ما فرّطوا ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ آيات الله أو ﴿نَعْقِلُ﴾ ونتفكر في أنفسنا وفي الآفاق آمنا بالله وآياته و﴿مَا كُنَّا فِي﴾ عداد ﴿أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا﴾ وبعد ﴿لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وفي تفسير البيضاوي هنا: والتغليب للإيجاز والمبالغة والتعليل. وفي بعض نسخه: والتغيير للايجاز والمبالغة والتعليل فعلى الأولى جواب لما يقال إن اصحاب السعير هم الشياطين الذين في أعمق الدركات، فكيف لف الكل وجعلهم من أصحاب السعير؟ فأجاب بأن تغليب أصحاب السعير على غيرهم للإيجاز وهو ظاهر، ولإفادة المبالغة في عذاب سائر الكافرين فكأنهم أيضا أصحاب السعير، ولتعليل سحقهم وبعدهم عن رحمة الله بأنهم من أصحاب السعير وممن يستحقون عذابها، ولذلك سحقهم

وأبعدهم. وأما على النسخة الثانية فيريد أن أصل الكلام فسحقهم اللـه سحقا. وإنما غير الأسلوب وغير التركيب الفعلي بـذكر المصـدر النـائب عنه للايجاز وهو ظاهر، وللمبالغة في تعذيبهم حيث ذكر السـحق مبهمـا أوّلا بـدون بيـان من يسـتحقه، ثم قـال لأصـحاب السـعير ولإفـادة علـة سحقهم وبعدهم عن رحمة الله وهو أنهم من أصحاب السعير وملازميها والكل مناسب لا غبار عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ أي حالكون الباري تعـالى غائبـا عنهم، أو يخشـونه بينهم وبين اللـه بـالقلب ﴿لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ﴾ من اللـه لـذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لا يستقصى حدّه ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَـرُوا بِـهِ﴾ خطـاب عام. للمكلفين وتهديد للذين يضمرون السوء للرسول صلى اللـه عليـه وسـلم ولأصـحابه أو لأهـل الـدين الصـادقين، ويؤيـده أنهـا نـزلت في المشركين الذين كانوا ينالون من النبي صلى الله عليـه وسـلم فيـوحى إليه صلى اللـه عليـه وسـلم، فقـال بعضـهم لبعض: أسـروا قـولكم كيلا يسمع رب محمـد فقيـل لهم أسـرّوا بـذلك أو اجهـروا فـإن اللـه تعـالى يعلمه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي كلّ ما يجول في صدوركم، وتقـديم السـر على الجهـر للمبالغـة والتأكيـد في الأمـر إشـارة إلى أن السـر لا يمتاز عن الجهر، بل هما متساويان عنـدنا ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَـقَ﴾ الأعيـان والأعـراض ولا يحـدث شـيئ في الكائنـات إلا بإرادتـه المقرونـة بعلمـه وقدرتـه ﴿وَهُـوَ اللَّطِيـفُ الْخَبِـيرُ﴾ المناسـب بلطافتـه الـدرك كـل خفي والعالم لخبرته لكل شيء.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُـوا فِي مَنَاكِبِهَـا وَكُلُـوا مِنْ رِزْقِـهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15) أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّـمَاءِ أَنْ يَخْسِـفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَـإِذَا هِيَ تَمُـــورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّـــمَاءِ أَنْ يُرْسِـــلَ عَلَيْكُمْ حَاصِـــبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (18) أَوَلَمْ يَـرَوْا إِلَى الطَّيْـرِ فَـوْقَهُمْ صَـافَّاتٍ وَيَقْبِضْـنَ مَـا يُمْسِـكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْـدٌ لَكُمْ يَنْصُـرُكُمْ مِنْ دُونِ الـــرَّحْمَنِ إِنِ الْكَـــافِرُونَ إِلَّا فِي غُـــرُورٍ (20) أَمَّنْ هَـــذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَـكَ رِزْقَـهُ بَـلْ لَجُّوا فِي عُتُـوٍّ وَنُفُـورٍ (21) أَفَمَنْ يَمْشِـي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22)﴾

قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي منقادا للاستثمار والاستغلال بسبب ما فيها من المعادن والنبات والأشجار القابلة للاستفادة، والأراضي المناسبة للحرث والغرس وغير ذلك ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ أي انتفعوا بما يستفاد منها بالأكل أو غيره ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي المرجع بعد البعث. ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أي في السماء أمره ونفاذ قدرته وتأثيره في خلقه وقوله تعالى ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ بدل اشتمال من من، وجوز أن يكون على حذف الجار، أي من أن يخسف بكم الأرض. ومحله حينئذ هو النصب أو الجر والباء للملابسة، والأرض مفعول به ليخسف، والخسف قد يتعدى، يقال خسفه الله تعالى وخسف هو. قال تعالى فخسفنا به وبداره الأرض، أي أأمنتم من أن تذهب الأرض إلى سفل متلبسة بكم ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي الأرض ترتج وتهتز اهتزازا شديدا، وأصل المور التردد في المجيئ والذهاب ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي حجارة كقوم ثمود ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي الإنكار عليهم بـإنزال العذاب ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَـوْقَهُمْ صَـافَّاتٍ﴾ أي باسـطات أجنحتهن ﴿وَيَقْبِضْـنَ﴾ أي قـد يضـممن أجنحتهن ﴿مَـا يُمْسِـكُهُنَّ﴾ في الجـو ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ بقوته ورحمته ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ ويقـدر على كـل شـيئ ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَـافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20) أَمَّنْ هَـذَا الَّذِي يَـرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَـكَ رِزْقَـهُ بَـلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي بل ألحوا وتمادوا في عنـاد واسـتكبار ونفـور عن الحـق لغرورهم وقوله تعالى ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْـدَى﴾ يعـني أن المؤمن الصادق الذي آمن بالله ورسله كمن يمشي خبـيرا بصـيرا على صراط مستقيم، وغيرهم كمن يمشي بطريق الإكبار على وجهه ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ﴾ ولاشك أن الماشي على الصراط المستقيم يصل إلى منزله بنيـة قويـة ودين قويم.

﴿قُـلْ هُـوَ الَّذِي أَنْشَـأَكُمْ وَجَعَـلَ لَكُمُ السَّـمْعَ وَالْأَبْصَـارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَـا تَشْـكُرُونَ (23) قُـلْ هُـوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْـهِ تُحْشَـرُونَ (24) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْـدَ اللَّهِ وَإِنَّمَـا أَنَـا نَـذِيرٌ مُبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَـةً سِـيئَتْ وُجُـوهُ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَقِيـلَ هَـذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِـهِ تَـدَّعُونَ (27) قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَـا فَمَنْ يُجِـيرُ الْكَـافِرِينَ مِنْ عَـذَابٍ أَلِيمٍ (28) قُـلْ هُـوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَـتَعْلَمُونَ مَنْ هُـوَ فِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ (29) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30)﴾

قولـه تعـالى: ﴿قُـلْ هُـوَ الَّذِي أَنْشَـأَكُمْ وَجَعَـلَ لَكُمُ السَّـمْعَ وَالْأَبْصَـارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ يعني: إن الله سبحانه وتعالى هو الذي كان ويكـون وسـيكون مبدأ لكل نعمة واصلة وفائضـة من رحمتـه سـواء كـانت إيجـادا وإنشـاء لذواتكم أو لحواسكم ومشاعركم من السمع والأبصار والأفئدة أو إبداعا لفضائلكم النفسية المادية والمعنوية القدسية أفلا تشكرون ذلك الخالق الواجب الوجود المنبع لكل خـير وجـود ﴿قَلِيلًا مَـا تَشْـكُرُونَ﴾ لأنـه قـال وقليل من عبادي الشكور ﴿قُلْ هُـوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي خلقكم ونشركم فيها ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لجزاء أعمـالكم ﴿وَيَقُولُـونَ﴾ أي أولئـك الكافرون ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي اليوم الموعود لجزاء الأعمال ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أيها الرسول ومن معه ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي جوابا: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ عز وجل وهو من العلـوم المسـتأثرة ﴿وَإِنَّمَـا أَنَـا نَـذِيرٌ مُبِينٌ﴾ لكم أنذركم بأنه سيوافيكم بلا شك ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يعني ثم أتاهم اليـوم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي ذا زلفـة وقـرب ﴿سِـيئَت﴾ وتعبسـت وتغـيرت وتكـدرت ﴿وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَـذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِـهِ تَـدَّعُونَ﴾ أي تطلبونـه في الدنيا وتنكرونه.

ولما كان كفار مكة يدعون على الرسول ومن معه بالهلاك والدمار نزل ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ ونجانـا ونصـرنا عليكم ﴿فَمَنْ يُجِـيرُ الْكَـافِرِينَ﴾ ويحفظهم ﴿مِنْ عَـذَابٍ أَلِيمٍ﴾ موعـود لهم؟ أي فمن يجيركم، لكن أراد تسـجيل الكفـر عليهم بـالتعميم حـتى يثبت لهم العذاب الأليم في نـار الجحيم. ﴿قُـلْ هُـوَ الـرَّحْمَنُ﴾ أي المنجي لنـا هـو الرحمن ﴿آَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غـيره ﴿فَسَـتَعْلَمُونَ مَنْ هُـوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أأنتم وقد كفرتم بربكم؟ أم نحن وقد آمنا بـرب العـالمين؟ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائراً أي ذاهبا في الأرض لا تناله وسائل الاستخراج، أو أمحاه ومـا أمكن استحصـاله ﴿فَمَنْ يَـأْتِيكُمْ بِمَـاءٍ مَعِينٍ﴾ جارٍ بحيث يستفاد منه والجواب السالم المـتين: اللـه ربنـا ورب العالمين.

سورة القلم مكية، وآياتها اثنتان وخمسون، نزلت بعد العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَـةِ رَبِّكَ بِمَجْنُـونٍ (2) وَإِنَّ لَـكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِـرُونَ (5) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (6) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7) فَلَا تُطِـعِ الْمُكَـذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَـوْ تُـدْهِنُ فَيُـدْهِنُونَ (9) وَلَا تُطِـعْ كُـلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّـاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْـرِ مُعْتَـدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آَيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

قوله تعالى ن الله أعلم بمراده منه وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْـطُرُونَ أقسـم الباري سبحانه وتعالى بقلم اللوح الذي جاء في الأخبار أنه أول شيء

خلقه الله تعالى، أو قلم الكـرام الكـاتبين، أو قلم كتابـة الكتب المنزلـة من الله تعالى إلى المرسلين، أو قلم الكتاب لكل ما فيه خير في الدنيا وصـلاح في الـدين، ولاسـيما أقلام العلمـاء الأعلام الـذين ألفـوا وهـذبوا ونشروا العلم والحكمة في ربوع العالم. وعلى كـل حـال فـالقلم جهـاز شريف من أجهزة التثقيف والتعليم وعليه مدار سعادة البشـر وصـيانته عن الخطر ويليق بأن يقسم به رب العـالمين ﴿وَمَـا يَسْـطُرُونَ﴾ بـالقلم والـمُقسم عليه ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.

وقوله تعالى ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَـةِ رَبِّكَ بِمَجْنُـونٍ﴾ اركـان الكلام فيـه مـا أنت بمجنون والباء لتأكيد النفي والبـاء في بنعمـة إمـا للملابسـة أي مـا أنت بمجنون مع ملابستك لنعمة ربك الذي فضّلك واختـارك وأرسـلك رحمـةً للعالمين، أو للسببية أي بما أنه أنعم عليك بما شاء فاختارك من الخلق للنبـوة والرسـالة والقـدر والجلالـة والكرامـة والشـهامة، وزينـك بزينـة المزايا الكريمة والصفات العظيمة ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ على أتعاب التبليغ ونشـر القرآن البليغ وجهادك في سبيل تنوير العباد ﴿لَأَجْـرًا غَيْـرَ مَمْنُـونٍ﴾ غـير منقطع ولا ممنوع ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ لا يعلم بنتائجهـا القيمـة إلا الله العليم، فجميع المعجزات التي أوتيتها من الإمـدادات الخارجيـة في كفّة والقرآن في كفّة، وخلقك القرآن.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي أن الكلام والاستدلال إذا لم يُفدْ ولم يقنع أولئك الجاهلين الطّاعنين في خلقك بالجنون ﴿فَسَتُبْصِـرُ﴾ أنت بالعيون ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ بها ﴿بِأَيِّيكُمُ﴾ الفتنة والجنون إن كان المفتـون مصدرا على وزن المفعول كمَعون وإن كان اسم مفعول فالبـاء في اي زائدة أي فستبصر ويُبصرون أيّكم المفتون هل أنت والحـال، تعلـو على قِمم الـمَعالي وقلب العالم من الظلمات إلى النـور ومن الفوضـى الى الدستور ومن الجهل إلى العلم؟ أو هُمْ وَهُم في هم الشهواتِ النفسية

والدنايا لا يعلمون من حَياتهم إلا إشباع النفس من الشّهوات وقضاء الحياة في الغفلة والغمرات!؟ ثم إنك تنظر بالعينين، وتعمل باليدين عين إلى الحال وأخرى للمستقبل ويد للكتاب، ويد للسّيف والمحراب، ولك قلب منور يتفكر في عالم الشهادة والغيب ويرى يوم حساب الأعمال، ومدى مسئولية المكلّف في الأفعال وهم عُمْيٌ عن ذلك فهل أنتَ مجنون أو عدوك الغبي مجنون؟

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ جملة مستأنفة مبينة لأحوال الفريقين. يعني هو سبحانه وتعالى أعلم بمن ضل عن سبيله المؤدي إلى السعادة ومن اهتدى إليه، وليس أحد غيره يعلم هذا الأمر بالحقيقة مثله، فلما هداك ذلك الرب الأعلم إلى السبيل السليم الأسلم ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بالله ورسوله والمنحرفين عن سبيله ﴿وَدُّوا﴾ وتمنوا ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ وتلين معهم ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ أي فيلينون لكي تنبه وتوجه إلى الحق القيوم ولا تسمع كلامهم، إلا إذا عرفت في الحق مرامهم فإذا علمت أنهم مالوا إلى الحق فتوجه إليهم واستمع لما لديهم ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل ﴿مَهِينٍ﴾ حقير في الرأي والتدبير ﴿هَمَّازٍ﴾ طعان في الناس ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ كثير المشي والمرور بينهم بإلقاء الأخبار المشوشة للعقول والمثيرة للناس بعضهم على بعض ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أي مناع للناس عن الخير الواصل إلى الغير قولا أو فعلا، جاهاً أو مالا، علاوة على امتناعه في ذاته عن ذلك ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز على الناس بالظلم والعدوان ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم ﴿عُتُلٍّ﴾ هو الشديد الفاتك أو الشديد الخصومة بالباطل أو الفاحش اللئيم أو هو الذي يعتل الناس أي يجرهم إلى الحبس والأذى.

وقوله ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي وبعد ذلك المذكور من المثالب والعيوب زنيم أي دَعِيٌّ ملحَق بقَوم ليس منهم، ومن لم يولد على فراش أبيه ولم يأخذ

التربية من أمه وأبيه وأعمامه وذويه ليس غالبا كما تبتغيه. وقوله ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ بتقدير اللام تعليل للنهي أي لا تطعه لكونه ذا مال وثروة وبنين وقوة فإن قوة الله فوق كل قوة، لأن ذلك الرجل من أكفر الكافرين ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آَيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي هي عبارات متوارثة من الناس الأقدمين يتناولها الناس ويتداولونها جيلا بعد جيل فلا تهتموا بها. وهذا الكلام كلام خارج عن أصول أولي العقول والأفهام لأن آيات القرآن لم يكن يحفظه شيئ منها قبل بعث الرسول، ولم يكن متداولا بين الناس، وعندما نزلت نزلت غضة طرية ذات مهابة وقوة قدسية وبلاغة لها آثار نفسية، بحيث عجز عن مقابلتها الأدباء والخطباء أصحاب البلاغات الشخصية، وأما إذا نظرت إلى المعاني فأي كلام جديد أو قديم إذا وجدته داعيا إلى رعاية الحق والشعور بالمسئولية ورعاية الحقوق الاجتماعية وجب أن يحترم ويقدس، فإن حكمة الحكماء وعلوم العلماء الأولين لها مكانتها في الصدور ومغزى آيات القرآن الكريم كان كذلك، فالطعن فيه بالعبارات الفاسدة عمل فاسد ولا ينبغي أن يصغي إلى كل جاهل جاحد، وإنما العبرة بالعقل والعلم والاستدلال، وما عدا أهل العقل والعلم فهم في ضلال والعياذ بالله.

ثم نزلت من هذه الآيات التي كان يطعن فيها الجاهل آية كانت مخبرة عن الغيب، ثم وقع مضمونه في المستقبل بلا ريب، وهو قوله تعالى ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ أي سنحقره في الآخرة ونذله بحيث يهان ويخزى بأن نكويه في جهنم على خرطومه أي أنفه. وفي التعبير تحقير بليغ له، لأن الخرطوم لا يستعمل إلا للفيل وهو حيوان كبير الجثة مختص بخواص يعرفها أهلها.

ومعناه أن هذا الإنسان العظيم في الهيكل والقامة التي تشبه الفيل لا يعتنى به، وهو مهان، وفي الوقت عينه كان في الآية إخبار بالغيب لأنه أصيب يوم بدر بضرب على خرطومه وبقي أثره إلى أن مات. وهذا الرجل كان اسمه

وليد بن المغيرة، يقال أنه تبناه وألحقه بنفسه، ولكن الذي يظهر حسب التأريخ أنه ولد على فراش أبيه.

روي أنه لما نـزلت الآيـة قـال لأمـه: إن محمـدا وصـفني بتسـع صـفات أعرفها غير التاسع منها، فإن لم تصدقيني الخبر ضربت عنقـك. فقـالت له: إن أباك عنين فخفت على المال، فمكنت الراعي من نفسي فـأنت منه، فلم يعرف أنه ابن زنا حتى نزلت الآية.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَـا أَصْـحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَـمُوا لَيَصْـرِمُنَّهَا مُصْـبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَـائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْـدُوا عَلَى حَـرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَـارِمِينَ (22) فَـانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَـافَتُونَ (23) أَنْ لَا يَـدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَـدَوْا عَلَى حَـرْدٍ قَـادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَـا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَـا إِنَّا كُنَّا ظَـالِمِينَ (29) فَأَقْبَـلَ بَعْضُـهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُـونَ (30) قَـالُوا يَـا وَيْلَنَـا إِنَّا كُنَّا طَـاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُـونَ (32) كَـذَلِكَ الْعَـذَابُ وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّا بَلَوْنَا‌هُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ يريد سـبحانه وتعـالى أنا للناس بالمرصاد علمنا بنوايا المشـركين وعـدائهم للـدين فابتلينـاهم بالقحط

والجدب، كما بلونا أصحاب الجنة الذين غيروا نواياهم مع الله فابتليناهم بآفة أفسدت ثمار بستانهم، وبعد ذلك تندموا واستغفروا. وقولـه تعـالى ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي حلفـوا أنهم يقطعـون ثمـار جنتهم إذا دخلوا في الصباح ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي لا يقولون إن شاء اللـه، كـأنهم لا يهتمون بتقدير الباري ﴿) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ يعني فأحاط بجنتهم ونزلت عليها نازلة من الله سبحانه وتعالى بالليل وأصحاب الجنة نائمون غافلون عن كل شيئ ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي فأصبحت الجنة بهذه النازلة كالبستان الـذي قطـع ثمـاره ولم يبـق فيـه شيئ ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ أي فنادى بعضهم بعضا عندما دخلوا في الصباح أي اذهبوا إلى بستانكم إن كنتم صـارمين قـاطعين ثمـاره ﴿فَانْطَلَقُوا﴾ فقـاموا واسـتعدوا واجتمعوا وانطلقوا إلى البستان ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي يتشـاورون بينهم سرا ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ حتى لا يطلبـوا منـا الحقـوق المعتادة المشروعة ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ﴾ أي وغدوا مستمرين على حـرد المسـاكين ومنعهم حـالكونهم ﴿قَادِرِينَ﴾ عليـه. أو غـدوا قـادرين على حرد، أي ذهبوا صباحا حالكونهم قادرين على منع المساكين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي الجنة ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ طريـق البسـتان، أي فلمـا دخلـوا على محـل البسـتان مـارأوا شـيئا، فقـالوا: إنـا تـائهون وضـيعنا طريقها وهذا المحل ليس محل بستاننا. ولما نظروا إلى أطـراف الجنـة ومنارهـا وشـعارها وجـدوها كمـا كـانت، وعلمـوا أن الجنـة عين الجنـة فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ من ثمارها يعـني ضـيعها اللـه تعـالى ولم يبق منها شيء يلتقط لنا.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أشرف أصـحاب الجنـة وأحسـنهم عقلا ورايـا ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي لـولا تـذكرون اللـه وتتوبـون عن هـذه النيـة الفاسدة، نية منع المساكين! ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بقصـد منع

المساكين عن تسلم الحقوق المشروعة ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضا ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أي متجاوزين حدود الله تعالى في منع الفقراء عن الحق المشروع لهم. ولذلك رمى الله تعالى بستاننا بمنع أشجارها وثمارها ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ نترجى ان يعطينا ربنا بدلا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي العذاب كذلك أي عذاب أهل الجنة كعذاب أهل مكة، أو عذاب أهل مكة كعذاب أصحاب الجنة وهما متقاربان ﴿وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ﴾ وهو العذاب النازل المؤبد على الكفار أكبر من العذاب الدنيوي ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لانزجروا.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (41) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يعني إن للمتقين عن الكفر ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في جوار رحمته في الآخرة ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي جنات فيها نعيم خالص عن شوب الكدورات النفسية، والأمراض البدنية، والخوف عن الزوال وهذا فضل منا بمقتضى حكمتنا وعدلنا ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ أي نعذبهم مثلهم حاشا ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أتى بهذه الفقرة إشعاراً بأن تلك التسوية مخالفة لحكمة الباري في شئونه ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ أي تدرسون فيه أي تقرأون ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي للذي تختارونه وتشتهونه ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ﴾ أي بالغة أقصى درجات التوكيد مستمرة ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لا تنتقض في أي وقت ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جواب القسم. ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ﴾ أي يا حبيبي سل الكفار الموجودين أيهم بذلك ﴿زَعِيمٌ﴾ أي أيهم كفيل على ذلك؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يشاركونهم في هذه العقيدة وفي هذا القول ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم، إذ لا أقل من التقليد.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ متعلق بقوله تعالى فليأتوا، أي يوم يكشف الستر عن ساق الجد ويجبرون بكل قوة ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ أمام عظمة الله يوم القيامة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لزوال القدرة عليه ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشاهم ذلّة ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ في الدنيا مع أنهم لا يسجدون استكبارا وعنادا! فكيف يطلق سراحهم ليسجدوا أمام الباري يوم اللقاء ﴿فَذَرْنِي﴾ يا حبيبي ﴿وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ وحول أمره إليَّ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه استدراج بل يزعمون أن ذلك تقدير وترفيع شأن وجاه ومقام ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي وأمهلهم ليزدادوا إثما ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ قوي لا يدفع بشيء وتسمية ذلك كيدا للمشاكلة.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْـرًا فَهُمْ مِنْ مَغْـرَمٍ مُثْقَلُـونَ (46) أَمْ عِنْـدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47)﴾

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على الإرشاد وتبليـغ الأحكـام ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْـرَمٍ﴾ أي غرامة مالية ﴿مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ويستغنون بذلك عن علمك وإرشادك.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَـاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَيُزْلِقُونَـكَ بِأَبْصَـارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَـالَمِينَ (52)﴾

قوله تعالى ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ نزل عندما أراد صلى الله عليـه وسـلم أن يـدعو على ثقيـف لمـا آذوه حين عـرض نفسـه على القبائـل بمكـة. فيقول الباري تعالى فاصبر لحكم ربك بالإمهال لهم مدة من الزمـان بلا عذاب ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ هو يونس عليه السلام ﴿إِذْ نَادَى وَهُـوَ مَكْظُومٌ﴾ أي مملوء غيظـا على قومـه وحقـداً على تـأخر العـذاب عنهم ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وهو توفيقه للتوبة وقبولهـا منـه ﴿لَنُبِـذَ﴾ عن بطن الحـوت ﴿بِـالْعَرَاءِ﴾ أي الصّـحراء الخاليـة عن الشـراب ﴿وَهُـوَ مَـذْمُومٌ﴾ حـال وقيـد لعاملـه أي نبـذ بـالعراء والحـال أنـه مـذموم لكن الفضـل والرحمـة منـه سـاعدته وهـو قـد نبـذ بـالعراء بـدون أن يكـون مذموما فاجتباه ربّه واختاره وجعله إنساناً معتدلا فجعله من الصّالحين.

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ كلمـة إن مخففة من المثقلة أي وإنه قارب أن يزلقك الكفار عند سـماع القـرآن الكريم منك من قوة الحسد والبغض فيهلكوك ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من حـيرتهم في أمرك وعدم فهم الحقـائق ﴿إِنَّهُ﴾ أي إن محمـدا ﴿لَمَجْنُـونٌ﴾ مختـل العقل ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي وليس هـذا القـرآن الكـريم الـذي تقـرأه إلا ذكـرا للعـالمين ليكـون منـورا للقلـوب وموجهـا لأهـل العقـل والإنصاف إلى العقائد السـليمة والأحكـام الحكيمـة فكيـف يكـون الآتي بهذا الذكر الحكيم مجنونا مع أن الحكمة معدلها العقل السـليم والطبـع المستقيم وذلك معلوم عند كل عليم.

سورة الحاقة، مكية، وآياتها اثنتان وخمسون، نزلت بعد سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُـودُ وَعَـادٌ بِالْقَارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَـأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَـةِ (5) وَأَمَّا عَـادٌ فَـأُهْلِكُوا بِـرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَـالٍ وَثَمَانِيَـةَ أَيَّامٍ حُسُـومًا فَتَـرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَـاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَـوْا رَسُـولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (10) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَـةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (12)

قوله تعالى الْحَاقَّةُ أي السـاعة أو الحالـة أو الحادثـة الـتي حقت في علم الله وتحق في مسـتقبل الزمـان مَـا الْحَاقَّةُ هـذه الجملـة مبتـدأ وخبر وقعت خبرا للمبتدأ الأول، واسـتغنى عن الرابطـة بتكـرار المبتـدأ نفسه وَمَا أَدْرَاكَ

<387>

أي وما أعلمك وأخبرك ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ أي أنها حادثة لا يعلم حقيقتهـا ومـا يقع فيها إلا الله سبحانه. وقوله ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَـةِ﴾ وإن كـان شـروعا في بيـان تكـذيب الأمم المتمـردة بالحاقـة الا أنهـا وقعت في جواب سؤال الباري، فإنه لما قال وما أدريك ما الحاقة أجـاب عن ذلـك السؤال بهذه أي إن الحاقة حادثـة مهولـة مهيبـة مدهشـة كـذبت ثمـود وعاد وسائر الأمم الطاغيـة بهـا، فالقارعـة مثـل الحاقـة لقب للسـاعة، ووجودها في ذلك المحل إظهار في مقام الإضمار ﴿فَأَمَّا ثَمُـودُ فَـأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَـةِ﴾ أي بالحادثـة المتجـاوزة عن الحـد وهي الصّـيحة المفزعـة المهلكة، وهي صيحة جبريل عليه السلام بأمر صدر بهـا من اللـه ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي شديدة الصوت أو شديدة البرد ﴿عَاتِيَـةٍ﴾ شديدة العصف أو العتوّ والظلم ﴿سَخَّرَهَا﴾ الله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَـةَ أَيَّامٍ﴾ بـدأ من صـباح الأربعـاء إلى مسـاء الأربعـاء بعـدُ. وقولـه ﴿حُسُـومًا﴾ أي متتابعـات ﴿فَتَـرَى الْقَـوْمَ فِيهَا﴾ إن كنت حاضـرا إذ ذاك ﴿صَرْعَى﴾ أي هلكى أي واقعين ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْـلٍ خَاوِيَـةٍ﴾ أي أصـول نخل خاوية خالية الأجواف من المادة الخشبية أي أحرقت الريح والعيـاذ باللـه بـواطن النـاس فوقعـوا على الأرض أمواتـا ﴿فَهَـلْ تَـرَى لَهُمْ﴾ أي لقـوم عـاد ﴿مِنْ بَاقِيَـةٍ﴾ أي من بقيـة على الأرض تحكي لـك مـا جـرى عليهم.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَـهُ﴾ كقـوم عـاد وثمـود ﴿وَالْمُؤْتَفِكَـاتُ﴾أي قـرى قوم لوط المسميات بالمؤتفكات لانقلابهـا بحادثـة التـدمير ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي بالخطأ على أنـه مصـدر أو بالأفعـال الخاطئـة ذات الخطـأ والفسـاد ﴿فَعَصَوْا رَسُـولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصـت كـل أمـة رسـولها ﴿فَأَخَـذَهُمْ أَخْـذَةً رَابِيَةً﴾ أي زائدة عالية في الشدة. ثم ذكر بعض أحـوال الأمم السـابقة، فقـال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَـاءُ﴾ وتجـاوز حـده المعتـاد ﴿حَمَلْنَـاكُمْ فِي الْجَارِيَـةِ﴾ أي في السـفينة الماشـية على وجـه المـاء أو على سـطحه ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي مذكرة لكم في التفكر، وعبرة لكم في

التأثر، وطريقة لكم في تدبر عظمة الله كيف ألهم نوحا صنع السفينة ووفقه على إكمالها وإعدادها لليوم المعين. وكيف دمر أعداءه بما قطع نسلهم عن أصلهم واستأصلهم وليعلموا أن جنود الله لا تحصى وبلاياه لا تستقصى، وأنه بالمرصاد للعباد ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي وتحفظ تلك الحادثة المدهشة العالمية أذن واعية حافظة للنصائح وراعية لها بعناية تامة. والقوم الذين كذبوا بالحاقة دمرناهم قوما بعد قوم إلى أن يأتي ذلك اليوم.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (17) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37)﴾

قوله ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ وذلك عبارة عن النفخة الأولى المغيرة لصورة العالم التي تكون من اسـباب مـوت الحيوانـات وانقلاع الجبـال ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ﴾ أي زلـزلت الأرض بحيث تـرى كأنهـا منقلعـة مرتفعـة هي ومـا عليهـا من الجبـال ﴿فَـدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِـدَةً﴾ أي فضـربت المجموعتـان أثـر رفعهمـا بعضـهما ببعض ضـربة واحـدة حـتى تمزقتـا ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي حصلت الحاقة ووقعت الواقعة ﴿وَانْشَـقَّتِ السَّـمَاءُ﴾ تفطـرت وتمـيز بعضـها عن بعض ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَـةٌ﴾ أي ضعيفة أيام القدرة ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي اطرافها ﴿وَيَحْمِلُ عَـرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ أي فوق رؤوسـهم ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَـةٌ﴾ منهم وتـرتيب الحمـل، وأسماء الحملة، وسرّ زيادة الحَمَلَـة من الأربعـة إلى الثمانيـة عنـد اللـه تعالى، آمنا به وخولنا علمه إليه ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي في ذلـك الـوقت تعرضـون للحسـاب وتحاسـبون، ولا تخفى منكم نفس خافية، لا يمكن ان تتسـتر أو تعرضـون للحسـاب، لا تخفى خافيـة من أسراركم أبدا. فينقسم الناس قسمين لتناول دفاتر الأعمال.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ فيقال لهم ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ ها اسـم فعل الأمر بمعني خذ، وفيها ثمـاني لغـات، منهـا أن تلحـق الألـف كـاف الخطاب الحرفية كما في ذلك وتصرفها: نحو هاك، هاكما، هاكم، هــاك، هاكن. ومنهـا أن تلحقهـا بـدل الكـاف ميم وتصـرفها: نحـو هـاء، هاؤمـا، هاؤم، هاء، هاؤنّ.

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَـابِيَهْ﴾ أي علمت أني أحاسـب وألاقي يــوم حسابي حسبما أخذته من ديني واعتقده وكنت مؤمنا بيوم القيامـة ومـا يجـري فيـه ﴿فَهُـوَ فِي عِيشَـةٍ رَاضِـيَةٍ﴾ أي مرضـية ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَـةٍ﴾ مرتفعة المكان ﴿قُطُوفُهَا﴾ أي ما يجتنى

من ثمارها ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبـة يتنـاول الرجـل منهـا وهـو قـائم. وقـال بعض يدركها القائم والقاعد والمضطجع، ويقال لهم من جـانب خـازن الجنـة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ اكلا أو شربا ﴿هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَـةِ﴾ أي بسبب ما قدمتم لكم من الأعمال الحسنة في الأيام السابقة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ عند الاطلاع على أحواله وسوء أعماله: ﴿يَـا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَـا حِسَـابِيَهْ﴾ لاسـتيائه من اطلاعـه ﴿يَـا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي كانت الموتة الأولى هي القاطعة لأمري ونهايـة عسري ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾ أي ما ثبت واستقر لي من أموال الــدنيا. فما موصولة، ولي جارّ ومجرور، والهاء للوقـف ﴿هَلَـكَ عَنِّي سُـلْطَانِيَهْ﴾ أي ضاع مني حجتي وبرهاني على أماني.

فيقال من جانب مـأمور جهنم ﴿خُـذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أي شـدوه بـالأغلال ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَـلُّوهُ﴾ على بـاب الاشـتغال ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِـلَةٍ ذَرْعُهَـا سَـبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ أي فأدخلوه ﴿إِنّهُ كَـانَ لَا يُـؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَـامِ الْمِسْـكِينِ﴾ أي ولا يحث على بــذل الطعـام للجيـاع المحتاجين ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي قريب يهتم به ويفيده ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ على وزن فعلين من الغسل، قالوا: إنـه مـاء ودم يخــرج من الجراحــات ﴿لَا يَأْكُلُـهُ إِلَّا الْخَـاطِئُونَ﴾ أي أصـحاب الخطايـا الكثيرة من خطئ الرجل إذا تعمّد الذنب.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِـرُونَ (38) وَمَـا لَا تُبْصِـرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَـوْلُ رَسُـولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَـا تُؤْمِنُـونَ (41) وَلَا بِقَـوْلِ كَـاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَـذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيـلٌ مِنْ رَبِّ الْعَـالَمِينَ (43) وَلَـوْ تَقَـوَّلَ عَلَيْنَـا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِـالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَـا مِنْـهُ الْـوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْـهُ حَـاجِزِينَ (47) وَإِنَّهُ لَتَـذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَــذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُ لَحَسْــرَةٌ عَلَى الْكَــافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)﴾

قوله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ نزل على ما قاله مقاتل في رد قول ثلاثة رجال: الوليد بن المغيرة، وقال: إن محمدا صلى الله عليه وسلم ساحر. وأبي جهل وقال: إنه شاعر، وعُتْبَة وقال: إنه كاهن. فرد الله تعالى عليهم جميعا، وقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي ما تبصرون من آثار قدرة الله ومالا تبصرون من أسرار قدرته. وقيل الخلق والخالق، وقيل الأجسام والأرواح، وقيل الإنس والجن والملائكة. وقيل: النعم الظاهرة والباطنة. وقيل: الدنيا والآخرة، أو ما تبصرون من المشاهدات ومالا تبصرون من المغيبات وهذا شامل للكل.

﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ من الله إلى كافة الإنس والجن الارشاد إلى سعادة الدارين ﴿كَرِيمٍ﴾ صاحب كرامة عند الله فحلاّه بالصفات الحسنة والغرائز المستحسنة، أي قول يجري على لسانه تلقاه من الملك الأمين المأمور بإنزاله، وقد أخذه من اللوح بأمر من ربه، فنزل به على الرسول المبعوث رحمة للعالمين ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ أي ليس الكلام المنزل شعرا، ولا الشخص المنزل عليه شاعراً. أما أن المنزل ليس شعرا فلأنه يجب أن يكون خاضعا للتوزينات والتقفيات والشروط المقررة أدبا وليس القرآن كذلك. وأما المنزل عليه فلأنه هو رجل لم يتعاط الأشعار، ولم تكن له فيه يد ولا اصطناع، ولم يكن له اختلاط بأهله، ومسلكه مسلك الإرشاد والاعتدال وعدم التحيز إلى جانب من الجوانب، وليس له علاقة اجتماعية بالناس من هذا الباب، لكنكم ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ أي في قليل من الأحوال

والاوقات تؤمنون وتصدقون بالله وكلامه وسلبه وايجابه والكلام معكم انما هو وظيفة أهل الارشاد ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ لأن الكهانة موقوفة على أمور تبعد عن هذا الرسول الكريم بمقدار بعد الثرى عن الثريا، ثم الكهنة يبتغون من وراء الكهانة خروجهم من الفقر والمهانة والاستيلاء على أموال الناس، وأين ذلك ممن لا قيمة عنده للشمس والقمر اذا جعلا في كمّ قميصه في مقابل دعوته إلى ربه وتقديسه؟ ! بل هو ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى رسوله الصادق الأمين، ولاشك أنه ليس سحرا، فإن السحر عمل باطل مبني على مقدمات مخالفة للحق باطلة، والسحر من المكسوبات الإنسانية المحرمة، وهذا بعيد من هذا السيد السعيد بكل معنىً.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ أي ولو افترى علينا بعض الافتراءات لأنه الأقاويل جمع الأقوال المفتراة ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ﴾ أي لأمسكناه وقوله ﴿بِالْيَمِينِ﴾ بيان بعد الإبهام كما في قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فإن قوله ألم نشرح يفيد شرح شيئ ما وقوله صدرك بيان لذلك المبهم. وعن الحسن أن المعنى لقطعنا يمينه، ثم لقطعنا وتينه عبرة ونكالا، والباء زائدة. وعن ابن عباس بمعنى القوة. والمعنى أخذه بعنف وشدة. والوتين نياط القلب الذي إذا انقطع مات صاحبه. وعن محمد أنه الحبل الذي في الظهر وهو النخاع ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي فما من أحد منكم حاجزين عنه أي ما أمكن لأحد منكم أن يمنع انتقامنا عنه. ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي وانه مذكر المتقين بوجوب طاعة الله والاستمرار على الدين ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ فنجازيهم على تكذيبهم ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ عند مشاهدة ثواب العاملين به ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي وإنه لليقين

الذي لا يقين فوقه. ومعنى كونه يقينا أن إسناده إلى الله وكونه كلام الله حق بلا شبهة.

وذكر بعض المحققين أن أعلى مراتب العلم حق اليقين، ودونه عين اليقين، ودونه علم اليقين. فالأول كعلم العاقل بالموت عند ذوقه، والثاني كعلمه به عند معاينة ملائكة الموت، والثالث كعلمه به في سائر أوقاته أي قبل موته ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي فسبح الله تعالى بذكر اسمه العظيم.

<394>

سورة المعارج، مكية، وآياتها أربع وأربعون، نزلت بعد سورة الحاقة

بسم الله الرحمن الرحيم

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (3) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (10) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (14) كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (18) إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35)

قوله تعالى ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي دعا داع به، فالسؤال بمعنى الدعاء. والسائل هو النضر بن الحرث كما روى النسائي وجماعة وصححه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال إنكارا واستهزاء: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. أي دعا وطلب داع كافر محقر مهين استهزاء وإنكارا بعذاب واقع ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي والعذاب لاشك في وقوعه وقوله ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أي ذي الدرجات صفة لله تعالى ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ أي جبريل لأخذ الأوامر والنواهي ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى عرشه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي من سنواتكم الظاهرة المعدودة. واليوم بمعنى الوقت، والمراد به مقدار ما يقوم الناس فيه لرب العالمين إلى أن يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار من اليوم الآخر الذي لا نهاية له. ويشير إلى هذا ما أخرجه الإمام أحمد، وابن حبان، وابو يعلى، وابن جرير، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: سئل رسول الله صلى

الله عليه وسلم عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مـا أطـول هـذا اليوم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ((والذي نفسي بيده إنه ليخـف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا)).

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا رسولي على هذا النـوع من الـدعاء والطلب والاسـتخفاف. بمواعيد الباري تعالى ﴿صَـبْرًا جَمِيلًا﴾ لا شـكوى فيـه إلى أحـد غـير اللـه تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًـا﴾ أي إن الكفـار يـرون ذلـك اليـوم بعيدا ونحن نراه قريبا ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّـمَاءُ كَالْمُهْـلِ﴾ كخلـط الـزيت أي تتلين الى شمع مذاب

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ كالصوف المنفوش ﴿وَلَا يَسْـأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًـا﴾ أي قـريب قريبـا ﴿يُبَصَّـرُونَهُمْ﴾ أي يبصــر الأحمــاء فلا يخفـون عليهم، وما يمنعهم عن التساؤل إلا انشغالهم بأمر أنفسـهم، فـإن لكـل امرئ منهم يومئذ شأنا يغنيه ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَـذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي يوم إذ ابتلي بالعذاب ﴿بِبَنِيهِ وَصَـاحِبَتِهِ وَأَخِيـهِ وَفَصِـيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيـهِ﴾ أي وبعشيرته الـتي تؤويـه إذا التجـأ إليهـا ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًـا﴾ أي ويفتدي عن نفسه بمن في الأرض جميعا ﴿ثُمَّ يُنْجِيـهِ كَلَّا إِنَّهَـا لَظَى﴾ أي النـار الموعـودة لأهلهـا لظى أي جهنم ﴿نَزَّاعَـةً لِلشَّـوَى﴾ أي محرقـة للأطراف من بدن الإنسان كاليد والرجل ﴿تَـدْعُوا مَنْ أَدْبَـرَ وَتَـوَلَّى﴾ أي تـدعو الزبانيـة إلى نـار جهنم من أدبـر عن الحـق وتـولى عن الطاعـة ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ أي جمع المال فجعله في وعاء وكنزه، ولم يؤد حقه.

ثم استأنف لبيان طبيعة الإنسان وأحواله وغرائزه الطبيعيـة فقـال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ والهلع سرعة الجزع ولكن المعنى المـراد هنـا مـا يستفاد مما بعده وهو قوله تعالى ﴿إِذَا مَسَّـهُ الشَّـرُّ جَزُوعًـا﴾ أي مُبالغـاً في الجزع ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي مبالغا في المنع. وتلك الغريـزة تتقوى بترك العبادة من الصـلاة وغيرهـا فـإن المشـتغل بعبادتـه وذكـره ينمو فيه التوكل والاعتماد على الله، فلا يغلب فيه الهلع والمنـع لاسـيما الصلاة التي هي معراج

المؤمن ولذلك قدمها وقال تعالى ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أي مواظبون على أدائها لا يخلون بها وبشئونها ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أي المكفوف عن السؤال.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي خائفون ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الجواري ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي لم يكتف بالتمتع من زوجته وجاريته ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي المتجاوزون حدود الله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ لا يخلون بشيئ من الأمانات وحقوقها.

والأمانات أنواع كثيرة، ويدل على كثرتها ما رواه الكلبي كل أحد مؤتمن على ما افترض عليه من العقائد والأقوال والأحوال والأفعال، ومن الحقوق في الأموال وحقوق الأهل والعيال وسائر الأقارب والجار وسائر المسلمين. وقال السدي: إن حقوق الشرائع كلها أمانات قبلها المؤمن وضمن اداءها بقبول الإيمان. وقيل كل ما أعطاه الله تعالى للعبد من الأعضاء وغيرها أمانة عنده، فمن استعمل ذلك في غير ما أعطاه لأجله وأذن الله فيه فقد خان الأمانة، والخيانة فيها، وكذا الغدر بالعهد من الكبائر على ما نص عليه غير واحدٍ.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي مقيمون لها بالعدل ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ عند الله وملائكته وعباده الصالحين.

﴿فَمَـالِ الَّذِينَ كَفَـرُوا قِبَلَـكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّـمَالِ عِـزِينَ (37) أَيَطْمَـعُ كُـلُّ امْـرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُـدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَـاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُـونَ (39) فَلَا أُقْسِـمُ بِـرَبِّ الْمَشَـارِقِ وَالْمَغَـارِبِ إِنَّا لَقَـادِرُونَ (40) عَلَى أَنْ نُبَـدِّلَ خَيْـرًا مِنْهُمْ وَمَـا نَحْنُ بِمَسْـبُوقِينَ (41) فَـذَرْهُمْ يَخُوضُـوا وَيَلْعَبُـوا حَتَّى يُلَاقُـوا يَـوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَـدُونَ (42) يَـوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُـبٍ يُوفِضُـونَ (43) خَاشِـعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (44)﴾

قوله تعالى ﴿فَمَـالِ الَّذِينَ كَفَـرُوا قِبَلَـكَ مُهْطِعِينَ﴾ أي مسـرعين نحـوك مادي أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليـك ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّـمَالِ عِزِينَ﴾ جمع عزة أي متفرقين أي جماعات متفرقة. روي أنه صلى اللـه عليه وسلم كان يصـلي عنـد الكعبـة ويقـرأ القـرآن، فكـان المشـركون يجتمعون حوله حِلَقاً حِلَقاً وفرقـا يسـتمعون ويسـتهزءون بتلاوتـه صـلى الله عليه وسلم، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمـد صـلى الله عليه وسلم فلندخلها قبلهم ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْـرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُـدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ أي بلا إيمان وأمـان وعقـل سـليم ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عمـا اقـترحوه ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي من أجل ما يعلمون وهـو تكميـل النفس بالعلم والعمل لا للبطر والاستهزاء بالبشر ﴿فَلَا أُقْسِـمُ بِـرَبِّ الْمَشَـارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَـدِّلَ خَيْـرًا مِنْهُمْ﴾ أي نهلكهم جميعـا ثم نأتي بدلهم بخلق آخرين ليسوا على صفتهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْـبُوقِينَ﴾ أي بمغلـوبين وعـاجزين عن تنفيـذ إرادتنـا إذا شـئنا ﴿فَـذَرْهُمْ﴾ أي دعهم ﴿يَخُوضُوا﴾ في باطلهم الذي لا باطل فوقه ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ كما يَهُـون عليهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم البعث ﴿يَـوْمَ يَخْرُجُـونَ مِنَ الْأَجْـدَاثِ﴾أي من القبـور ﴿سِـرَاعًا﴾ أي مُسْـرعين ﴿كَـأَنَّهُمْ إِلَى نُصُـبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي كأنهم يسـرعون إلى أحجـار مرتبـة منصـوبة لهم للعبـادة ﴿خَاشِـعَةً أَبْصَـارُهُمْ تَـرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشـاهم ذلـة شـديدة في ﴿ذَلِـكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

سورة نوح، مكية، وآياتها ثمان وعشرون، ـ نزلت بعد النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَـلٍ مُسَـمًّى إِنَّ أَجَـلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُـوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْـتَكْبَرُوا اسْـتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْـرَارًا (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ قيل: هم سكان جزيرة العـرب لا كل الناس لأن الرسالة العامة خاصة من خواص سـيدنا محمـد صـلى الله عليـه وسـلم، والمشـهور أنـه كـان يسـكن أرض الكوفـة ﴿أَنْ أَنْـذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي انذرهم من عذاب الله، واردعهم عن الإشـراك، وادعهم إلى توحيد الله رب العالمين ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عاجل وهو مـا حل بهم من الطوفان ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُـدُوا اللَّهَ﴾ أي اعبدوا اللـه على أن يكـون أن للتفسـير، أو على عبـادة اللـه أي اذا عبدتموه ووحدتموه فأنتم الطلقاء، وإذا أنكرتموه أو عبدتموه وأشـركتم بـه غـيره فـأنتم في شـقاء ﴿وَاتَّقُـوهُ﴾ أي واتقـوا مخالفتـه في الأوامـر والنواهي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلغكم منه فإن الرسل هـداة سـبيل الحـق، ومـاذا بعـد الحـق إلا الضـلال؟ فـإذا وافقتم على ذلـك ﴿يَغْفِـرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي بعض ذنوبكم وهو ما يتعلق بحقوق الله وحده، وأما حقــوق العباد في المعاملات والأحوال الجنائية والشخصية فعائدة إلى أصـحابها إن عفـوا عفـوا، وإن لم يعفـوا وجب أداؤهـا لهم. ﴿وَيُـؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو الأمد الأقصى الذي قدره اللـه تعـالى لهم بشـرط الإيمـان والطاعة وراء ما قدّره لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان كما يقتضيه التعليق بالإيمان والطاعة.

وهذه الآية تحسم مادة الشبهة لمن قال ليس هناك أسبابٌ تكون أسباباً لزيـادة العمـر أو نقصـها، فـإن تلـك الشـبهة اشـتباه ناشـئٌ من إهمـال الأسباب والشرائط. والحاصل إن الله تعالى عين أسـبابا لأمـور تتحقّـق المسـببات على تقـدير وجودهـا، وتنتفي عنـد انتفائها مـع أن الأجـل المعلوم عنده

واحد لأنه تعالى عالم بأن الشخص الفلاني يأتي بالأسباب أو يُهملها وذلك مفهوم معلوم.

﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ فإن مجيء الأجل موقوف على تحقق الأسباب ومن أهمها تعلق إرادته تعالى بحصول المسبب عندها، فإذا قرر أن موت فلان موقوف على إهمال التداوي والصدقات والدعوات وقد أهملت فالأجل محتّم ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لسارعتم إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ في الآية الكريمة إيجاز الحذف أي فامتثل نوح أمرَ ربّه، ودعَا قومَه، وأنذَرَهم واجتهد في دعوته لهم، فلم يفد فقال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ أي ابتعادا مما دعوتهم إليه، سواء بالذهاب إلى محل بعيد عني حتى لا يسمعوا كلامي، أو بسدّ الآذان عن الاستماع، أو بغيرهما كما قال ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آَذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ أي بالغوا واجتهدوا في التغطي بها حتى لا ينفذ الصوت إلى أسماعهم ﴿وَأَصَرُّوا﴾ أي على الكفر والمعاصي والتمرد ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ من إطاعتي ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ بالغا عن العادة ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ﴾ زيادة على ما كان ﴿جِهَارًا﴾ وأتيت بما يقنع المنصف لو كانوا يقتنعون ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ﴾ في الأمة كلها لا لجمع محدود أي قلت ما قلت، ثم قلت ألا فليبلغ الشاهد الغائب ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ لبعضِ مَن أظن فيه الإجابة والقبول ﴿إِسْرَارًا﴾ لطيفا بصورة شريفة، وفهمتهم فوائد إجابة أمر الباري تعالى ومفاسد رفضه ﴿فَقُلْتُ﴾ لهم ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أي كثير الدر والخير بإنبات النبات، وتنمية الأشجار، وفوران العيون، وزيادة مياه الوديان ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ﴾ من الأنعام والمزارع والبساتين والمتاجر

﴿وَبَنِينَ﴾ لأن الإنسان المتمكن يتزوج حسب طاقته النفسية والاقتصادية فيولد له الأولاد إلى ما شاء الله ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ وتستغلونها في وجوه المنافع.

ثم لما أحسست فيهم الإباء والتمنع قلت لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ﴾ الذي هو مبدأ الخيرات ﴿وَقَارًا﴾ اي وزنا وعظمة وهيبة واحتراما ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ جمع طور بمعنى الحال، وقد وقعت حالا من الضمير المنصوب مؤولة بالمشتق أي وقد خلقكم متنقلين من حال إلى حال من: المادّة العنصرية إلى كونها نطفة، ومنها إلى كونها علقة، ومنها إلى كونها مضغة.. وهكذا وحملها على الأحوال ذهب إليه جمع كما في روح المعاني.

وقيل المراد بها: الأحوال المختلفة بعد الولادة إلى الموت من: الصبا، والشباب، والكهولة، والشيخوخة، والقوة، والضعف... وقيل: من الألوان والهيآت والأخلاق والملل المختلفة. وقيل من الصحة والسقم أو الغنى والفقر وسائر العوارض. والحاصل استنكار لانكار عاقل يرى هذه التطورات على شخصه من الباري تعالى وجود ذلك الصانع الحكيم القدير أو وحدته في الخلق والتأثير.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ توجيه للعباد إلى النظر في آثار قدرة الله تعالى وإبداعه لها الموجب للإيمان به وبوحدته، فيقول ألم تروا يا من يمكن منكم الرؤية والنظر كيف خلق الله سبع سماوات متطابقة بعضها على بعض ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ منورا لمقدار من العالم عندما قابله والوقت بالنسبة إليه ليل ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يزيل ظلمة الليل ويبصر كل بصير في ضوئها ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي أنشأكم من الأرض إنشاء ففيه تشبيه الإنشاء بالإنبات، والوجه متوفر والعالم متبصر ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث ﴿إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتحركون عليها لكسب المعاش وتستريحون فيها لاستعادة القوة، وهكذا على الاستمرار إلى وقت الاستقرار، ولكن الله تعالى خص قسم كسب العيش بالذكر وقال ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ رعاية لما يهم الناس في حياتهم، أي لتسلكوا طرقا واسعة منها. وليس المراد لسبل الفجاج أن تكون مادة أرض الطريق واسعة، وإنما أراد توسعة طرق المعيشة على الأرض لنيل الخير بالسكون أو بالسير.

وهذه الآيات البينات جمل جميلة وقعت في الـبين ثم عـاد إلى نقـل مـا قاله عبده نوح مع ربّه يعني ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُـوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي عصوني ورموني بسهام سـامة لأنـه لم يعجبهم ترك الأصنام والتوجه إلى اللـه العلّام واتبعـوا رؤسـاءهم اللئـام عبدة الأحجار لأنهم أصحاب أولاد كثيرة وأموال وفيرة، وكان الاعتماد إذ ذاك عليهما ومرجع الشرف إليهما مع أنهما لم يزيدا لأصحابها في الدنيا إلا جهلا وغبـاوة واغـترارا وفي الآخـرة إلا خزيـا وعـارا ونـارا. ﴿وَمَكَـرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي مكر قوم نوح أو رؤساؤهم المغـترون بـالأموال والأولاد لمنع الناس عن عبادة الله الواحد الأحد مكرا كبيرا للغاية، حيث احتـالوا على الضعفاء والأوسـاط وعظّمـوا أصـنامهم أمـامهم ﴿وَقَـالُوا لَا تَـذَرُنَّ آَلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ أي نهـوهم عن ترك آلهتهم ولاسـيما الكبـار منهـا المُسـميْنَ بالأسـامي الخمسـة ﴿وَقَـدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أي قد أضـل الرؤسـاء في القـوم كثـيرا من الضـعفاء في العقل أو في المال أو في الجـاه أو في الكـل فـإن الإنسـان ينقـاد لمن يعينه في روحه أو رزقه أو فسقه. وقولـه تعـالى ﴿وَلَا تَـزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ عطف على قوله رب إنهم عصـوني على حكايـة كلام نـوح عليـه السلام فازداد القوم في الضلال، وباشروا المعاصي بكل إقبال، وجاءوا بخطايا متتالية على عادة أهل الضلال. وعلى ذلك يقول سبحانه وتعالى ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُـوا﴾ أي من أجـل خطايـاهم المتتابعـة المتلاحقـة أمرنـا السـماء بإضـافة الميـاه والأرضَ بإخراجهـا حـتى صـار الطوفـان فأغرقوا في أمواج طوفـان الغضـب بعـد الإغـراق والإهلاك ﴿فَـأُدْخِلُوا نَارًا﴾

برزخية تجلب العجب ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَـارًا﴾ يمنعـونهم ماء ولا نارا. وكل هذه البلايا أتتهم من عصيانهم عن أمر ربهم وإيــذائهم لقلب نوح عليه السلام واستجابة لدعائه عليهم حيث قال تعالى ﴿وَقَـالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَـافِرِينَ دَيَّارًا﴾ وهـو من يسـكن الـدار ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِـدُوا إِلَّا فَـاجِرًا﴾ يكفـر بربـه ﴿كَفَّارًا﴾ بأنعمــه ﴿رَبِّ اغْفِــرْ لِي وَلِوَالِـدَيَّ وَلِمَنْ دَخَــلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًـا وَلِلْمُــؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي هلاكا.

<406>

سورة الجن مكية وآياتها ثمان وعشرون

نزلت بعد الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآَنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآَمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآَنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9)

قوله تعالى قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة.

والجن أجسام لطيفة عاقلة خفية عن عيوننا عـادة تغلب عليهم الناريـة أو الهوائية، وقـادرة على التشـكّل بأشـكال مختلفـة شـريفة أو شـريرة كثيفة.

وتدل على وجودهم آياتٌ عديدة مثل قوله تعالى: ﴿وَالْجَـانَّ خَلَقْنَـاهُ مِنْ قَبْـلُ مِنْ نَـارِ السَّـمُومِ﴾ وقولـه: ﴿وَلَقَـدْ ذَرَأْنَـا لِجَهَنَّمَ كَثِـيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ وقوله ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآَنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَـارِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾..

وكذلك يـدل على أنهم مكلفـون، وأن رسـولنا محمـدا صـلى اللـه عليـه وسلم بُعِثَ اليهم آيات وأحاديث عديدة منهـا قولـه تعـالى: ﴿وَإِذْ صَـرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُـرْآَنَ فَلَمَّا حَضَـرُوهُ قَـالُوا أَنْصِـتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْـزِلَ مِنْ بَعْـدِ مُوسَـى مُصَـدِّقًا لِمَـا بَيْنَ يَدَيْـهِ يَهْـدِي إِلَى الْحَـقِّ وَإِلَى طَرِيـقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآَمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَـذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقولـه تعـالى ﴿وَمَـا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُـدُونِ﴾ وقولـه تعـالى: ﴿يَـا مَعْشَـرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْـتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَـارِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُـذُوا لَا تَنْفُـذُونَ إِلَّا بِسُـلْطَانٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآَنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآَمَنَّا بِهِ.. ﴾ الآية. وقوله تعـالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

وأما رؤيته صلى الله عليه وسلم لهم فقـد دلت عليهـا أحـاديث شـريفة قـال في آكـام المرجـان مـا محصـله: في الصـحيحين عن حـديث ابن عباس ما قرأ رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم على الجن ولا رآهم، وإنما انطلق صلى الله عليه وسلم بطائفة من الصحابة لسـوق عكـاظ، وقد حيل بين الجن والسماء بالشهب،

فقالوا: ما ذاك إلا لشيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فمَرَّ من ذَهَبَ لتهامَةَ منهم به صلى الله عليه وسلم وهو يصلي الفجر فلما استمعوا له قالوا: هذا الذي حالَ بيننا وبين السماء ورجعوا إلى قومهم ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا﴾ الخ فأنزل الله عليه ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ ثم قال: ونفي ابن عباس رضي الله عنهما (أي لرؤيته صلى الله عليه وسلم للجن) إنما هو في هذه القصة واستماعهم تلاوته في الفجر في هذه القصة لا مطلقا. ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ فإنها تدلّ على أنه كلمهم ودعاهم وجعلهم رسلا لمن عداهم كما قاله البيهقي.

وروى أبو داود عن علقمة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((أتاني داعي الجن، فذهبت معه، وقرأتُ عليهم القرآن)) قال: وانطلق بنا وأرانا آثارَهم وآثار نيرانهم. وقد دلت الأحاديث على أن وِفادَة الجنّ كانت ست مرات. وفي شرح البيهقي من طرقٍ شتّى عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم صلّى العشاء ثم انصرف فاخذ بيدي حتى أَتَيْنا مكان كذا فأجْلَسني وَخَطّ عَلَيَّ خطّاً، ثم قال: ((لا تَبرح))، فبينما أنا جالس إذ أتاني رجال منهم كأنهم الزّطّ. فذكر حديثا طويلا. وأنه صلى الله عليه وسلم ما جاءه إلى السحر قال: وجعلت أسمَع الأصواتَ ثم جاء فقلتُ أين كنت يا رسول الله؟ فقال: ((أُرْسِلتُ إلى الجن)) فقلتُ: ما هذه الأصوات التي سمعت؟ قال: ((أصواتهم حين وَدَّعوني وسَلَّموا عليَّ)).

فيقول الباري سبحانه ﴿قُلْ﴾ يا رسولي ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ القرآن الكريم ﴿فَقَالُوا﴾ عند رجوعهم إلى قومهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ أي بذلك القرآن ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ حسبما قام عندنا من دلائل التوحيد ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي تزايد عظمته تعالى والجد هو الحظ والنصيب، وهنا بمعنى العظمة والقدسية أي

وأن الشأن والقصد تبارك وتعظم مقام ربنا وقدسيته ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ لأن الصاحبة للألفة الشخصية ومنع الوحشة والتناسل لحفظ النوع والتعاون في الأمور المهتم بها والله تعالى متعالٍ عن كل ذلك ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أي السفيه الوحيد فينا وهو إبليس أي يقول الشخص السفيه الخفيف العقل من أفراد نوع الجن ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أي يقول على الله تعالى قولا ذا بعد عن الحق ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لأن كل عاقل له إدراك بنفسه وبأنه أثر من آثار قدسه عارف بأن الله أعلى من كل وهم يحوم حوله، وعلى ذلك الأساس ظننا أن لا يتكلم الإنس أو الجن بشيئ خلاف الواقع وينسبوه إلى الله تعالى كذبا.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ واستمرت عادة العرب أنه إذا أمسى في واد قفر خال من الأصحاب وخاف على نفسه نادى بأعلى صوته يا عزيز هذا الوادي أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك من الجن يريد الجن وكبيرهم، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سدنا الجن والانس. كما قال تعالى ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي فزاد الإنس المستغيث في الوادي بعمله ذلك رهقا وطغيانا للجن واعتبروا أنفسهم من ملوك العالم، ويروى بدل هذه الاستعاذة ما أخرجه أبو نصر السجزي في الإبانة من طريق مجاهد عن ابن عباس وقال: غريب جدا إنه صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا أصاب أحد منكم وحشة، أو نزل بأرض مَجَنَّة فليقل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزها بَرّ ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن فتن النهار ومن طوارق الليل، إلا طارقا يطرق بخير)).

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي الإنس ﴿ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ أيها الجن ﴿أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي طلبنا بلوغها لاستماع كلام أهلها، أو <
<410

طلبنا غيرها ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي لسماع كلام السماء خالية عن الموانع ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ قال في شرح التسهيل: الآن معناه هنا القرب مجازا فيصح مع الماضي والمستقبل. وفي البحر: أنه ظرف زمان للحال، ويستمع مستقبل فاتسع في الظرف، واستعمل للاستقبال كما قال: (سأسعى الآن إذ بلغت أناها) فالمعنى فمن يقع منه استماع في الزمان الآتي يجد له شهابا راصداً له ولأجله يصده عن الاستماع بالرجم، فرصدا صفة شهابا، فإن كان مفردا فالأمر ظاهر، وإن كان اسم جمع المراصد كحرس فوصف المفرد به لأنّ الشهاب لشدة منعه وإحراقِهِ جُعل كأنه شُهُب. وفي الآية ردّ على من زعم أن الرجم حدث بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو إحدى آياته عليه الصلاة والسلام حيث قيل فيها مُلِئَتْ، وهو ظاهر في أن الحادث هو المَلأ والكَثْرة، وكذا قوله سبحانه ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ﴾ على ما في الكشاف، فكأنه قيل: كنا نجد فيها بعض المقاعد خاليةً عن الحرس والشهب والآن مُلِئت المقاعدُ كلها فَمَن يستمع الآية. ويدل على ذلك ما رواه علي بن الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهم بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار فقال: ((ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية؟)) قالوا: كنا نقول يموت عظيم، أو يولد عظيم. وروي عن معمر قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم. قال: أرأيت قوله تعالى ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ فقال غلّظت وشدد أمرُها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم، وكأنه أخذ ذلك من الآية أيضا. وقال بعضهم: إن الرمي لم يكن أوّلا ثم حدث للمنع عن بعض السماوات، ثم كثر ومنع به الشياطين عن جميعها يوم تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوز أن تكون الشهب من قبلُ لحوادث كونية لا لمنع <411>

الشياطين أصلا. والحـادث بعـد البعثـة رمي الشـياطين بهـا على معـنى أنهم إذا عرجوا للاستماع رمُوُا بها، فلا يلزم أيضا أن يكون كل ما يحدث من الشـهب اليـوم للـرمي، بـل يجـوز أن يكـون لأمـور أخـرى بأسـباب يعلمها الله تعالى. ويجاب بهذا عن حدوث الشهب في شهر رمضان مع ما جاء من أنه تصفد مـردة الشـياطين فيـه. ولمن يقـول إن الشـهب لا تكون إلا للرمي جواب آخر مذكور في موضعه، وهو أن صفد الشياطين فيه إنما هـو للإضـرار بالصـائمين والصـائمات، وإلا فلهم أشـغال أخـرى وأنهم منظرون إلى يـوم الـوقت المعلـوم واللـه سـبحانه وتعـالى أعلم بأسرار عالم الغيب والشهادة وهو العلام للغيوب.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَـرٌّ أُرِيـدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَـدًا (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (12) وَأَنَّا لَمَّا سَـمِعْنَا الْهُـدَى آَمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًـا وَلَا رَهَقًـا (13) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْـلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَـدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِـطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15) وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْـلُكْهُ عَـذَابًا صَـعَدًا (17) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18)﴾

قولــه تعــالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَـدْرِي﴾ أي وأنــا لا نــدري من ملأ المقاعــد من الحراس، ومنع الجن من استحقاق السمع، وتشديد الأمر على الحراس

﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ وخيرا. وحاصل الأمر أن هذا التغير الواقع في السماء لاشك أنه لأمر خطير عظيم ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ الموصوفون بصلاح الحال في شئون أنفسهم ومعاملاتهم مع غيرهم ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي قوم دون ذلك المذكور ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي كنا ذوي طرائق ومسالك وآراء ومذاهب متعددة مختلفة ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني أينما كنا فتحت قبضة قدرته ﴿وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أي هاربين، فأينما كنا على أبوابه كحارسين لثَرى أعتابِهِ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى﴾ أي القرآن الذي هو وسيلة اهتداء الناس في العالم ﴿آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾ أي خسارا في حقوقه المادية والمعنوية ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي غشيان ذلّة عليه ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الجائرون على حقوق العباد ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي قصدوا خيرا عظيما وقد صادفوه. ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ توقد بهم كما توقد بالناس والحجارة.

وقوله: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا﴾ معطوف قطعا على قوله انه استمع ﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي على طريقة الحق وإطاعة الله ورسوله ﴿لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ أي ماء كثيرا، أي ما خليناهم يظمأون، والمراد به إما الماء للمزارع والبساتين، وإما كناية عن فتح أبواب الرزق من سائر الوجوه، وإنما كنا نسقيهم ذلك الماء الغدق ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنجعلهم في فتنة وابتلاء ومحنة، ورحم الله من قال: إن المنحة قلب المحنة ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ أي عن عبادة ربه، أو موعظة ربه، أو عن القرآن المنزل منه وهو فيه ذكر لله تعالى ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي يُدخِله في عذاب صاعِدٍ شديد.

وقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ معطوف على أنه استمع أي قل أوحي إلى أن المساجد لله أي مختصة بالله تعالى وشرع بناؤها لله أي لأداء طاعاته من

الواجبات والمندوبات ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ﴾ دعوة ﴿اللَّهِ أَحَـدًا﴾ أبـدا ولاسـيما في المساجد المبنية لله المختصة به تعالى.

وقيل: المعنى أفردوا المساجد بذكر اللـه تعـالى، ولا تجعلـوا لغـير اللـه فيها نصيبا لما في الحديث ((من نشد الضالة في المسجد فلا ردها الله عليـه فـإن المسـاجد لم تبن لهـذا)). وفي الحـديث: ((كـان إذا دخـل المسجد قدم رجله اليمنى وقـال: إن المسـاجد للـه فلا تـدعو مـع اللـه أحدا، اللهم أنا عبدك وزائـرك وعلى كـل مـزور حـق وأنت خـير مـزور، فأسألك برحمتك أن تفك رقبتي من النار)) وإذا خرج من المسجد قـدّم رجله اليسرى وقال: ((اللهم صُبَّ عَلَيَّ الخَيرَ صَبّاً، ولا تنزع عني صـالحَ ما أعطيتني أبدا، ولا تجعل معيشتي كـدا، واجعـل لي في الأرض جـدّاً)) أي غِنىً.

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُـونَ عَلَيْـهِ لِبَـدًا (19) قُـلْ إِنَّمَـا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (20) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِـدَ مِنْ دُونِـهِ مُلْتَحَـدًا (22) إِلَّا بَلَاغًـا مِنَ اللَّهِ وَرِسَـالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ فَـإِنَّ لَـهُ نَـارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (23) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَـيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْـعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (24) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَـرِيبٌ مَـا تُوعَـدُونَ أَمْ يَجْعَـلُ لَـهُ رَبِّي أَمَـدًا (25) عَـالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِـرُ عَلَى غَيْبِـهِ أَحَـدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَـى مِنْ رَسُـولٍ فَإِنَّهُ يَسْـلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ رَصَـدًا (27) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَـى كُـلَّ شَـيْءٍ عَدَدًا (28)﴾

قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ معطوف على أنه استمع أي قل أوحي إلي أنه لما قام عبد الله أي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يدعوه، أي يدعو ربه ويناجيه ويتضرع إليه وذلك عند قيامه صلى الله عليه وسلم لصلاة الفجر ببطن نخلة ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ كاد جمع الجن المستمعين إليه هناك ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ جمع لبدة بكسر اللام، أي كساء متلبدة من لفائف بعضها فوق بعض، وكان ذلك تعجبا من عبادته، وقراءته واقتداء أصحابه به في القيام والركوع والسجود.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ في العبادة، ولا اعبد غيره كما أني أعتقد أنه الخالق للعالم من الأعيان والأعراض ولا خالق غيره ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي ولا نفعا فإن الضار والنافع هو الله العظيم ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي منحرفا أنحرف إليه وقوله ﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾ من الله استثناء من مفعول لا أملك أي لا أملك لكم شيئا إلا بلاغا ﴿مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ أي التي أرسلني عز وجل بها فإذا اعتبرنا البلاغ بمعنى التبليغ، والرسالات جمع رسالة كان المستثنى شيئين متغايرين الأول فعل الرسول وهو تبليغ ما عنده إلى الناس، والثاني الرسالات وهي جُمَل متعددة من الآيات النازلة التي سلّمها للأصحاب كي يكتبوها، فالمعنى لا أملك لكم شيئا من النفع إلا تبليغ أوامر الله ونواهيه وإلا هذه القطع من السور المنزلة التي تصل إليكم ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا حَتَّى﴾ هذه وما بعدها جملة معترضة واقعة في البين وحتى ابتدائية يعني فـ ﴿إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ وحتّى تفيد معنى الغاية، أي يستمر الكفار على الاستهزاء بكم وأنكم أضعف ناصرا وأقل عددا حتى أن يروا عواقب الأمور في الآخرة ويفتهموا من الوضع إذ ذاك من أضعف وأقل.

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَـدُونَ أي من العـذاب أَمْ يَجْعَـلُ لَـهُ رَبِّي أَمَدًا وزمانا بعيدا. وقوله عَـالِمُ الْغَيْبِ خـبر لمبتـدأ محـذوف أي هـو عـالم الغيب المسـتور من غـيره فَلَا يُظْهِـرُ عَلَى غَيْبِـهِ أَحَـدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَـدًا أي فـإن ذلـك الرسـول المرتضـى يخصـه ببعض الأشـياء منهـا: أنـه يطلعـه على المغيبات المتعلقة برسالته، إما لكونـه من مباديهـا بـأن يكـون معجـزة، وإما لكونـه من أركانهـا واحكامهـا كعامـة التكـاليف الشـرعية وكيفيـات الأعمال ونحو ذلك. ومنها أنه يسلك أي يـدخل من بين يديـه ومن خلفـه حراسا مترصّدين يحفظونه من اختطاف الشـياطين لـه، ومن تعرضـهم له ومسهم له بسوء لِيَعْلَمَ الباري جـل شـأنه أي يتعلـق علمـه تعلقـا جديدا أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ محفوظين من التهم وَأَحَـاطَ بِمَـا لَدَيْهِمْ أي لدى الرسل الكرام أو عند الرصد من المعلومات وَأَحْصَـى كُلَّ شَيْءٍ أي وضبط كل شيء عَدَدًا.

فائدة: استدل بعض الناس بقوله تعالى فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَـدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَـى مِنْ رَسُـولٍ على أن هـذا العلم منحصـر في الرسـول ولا يتجاوز إلى الأولياء والصالحين، فكل مـا ادعـوه من المعـارف الغيبيـة لا أصل لها، وبأنـه ينـافي ظـاهر الآيـة علم المنجمين والحسّـابين والكهنـة ببعض المغيبات المستقبلية، فإنه قـد وجـد في العـالم كثـير من النـاس الذين أخبروا بأمور مستقبلية، وقـد تحققت حسـب أخبـارهم بلا اشـتباه فيه!

والجـواب: هـو أن هـذا الاعـتراض ناشـئ من اشـتباه السـلب الجـزئي بالسلب الكلي. فإن الآية الكريمة سالبة جزئية ومفادها: أن الله تعـالى لا يظهـر على هـذا الغيب الخـاص، وهـو علم السـاعة، إلا من ارتضـاه واختاره لعلمه من رسول. والـدليل الحاسـم عليـه قولـه: قـل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا. ولـو فرضـناه أنـه سـلب كلي فالمراد بهذا <416>

الإظهـار هـو غلبتـه على الغيبيـات بـأن يكـون للانسـان دور واسـع في علمها، وهذا الاظهار والغلبة لا يكون إلا لمن ارتضاه من الرسل لا لكـل رسول ولا لكل نبي فضلا عن الأولياء والصالحين. وقـد يجـاب بـأن علم الغيب المختص بمن ارتضاه هو علم يقيني، وهو الـذي لا اشـتباه فيـه لا مثل علم الأولياء والصالحين، فانها وإن كـانت واقعيـة وتحقـق معلومهـا في الواقـع لكنهـا علـوم إلهاميـة ظنيـة حيث لم تصـل إليهم بواسـطة الوحي، وإنما هو كشف ناتج من الإلهام. وأما علوم المنجمين والحساب فصورتها صورة العلم وحقيقتها ظنون واهية قد يتحقق في الواقـع وقـد لا يتحقق ولا عبرة بأمثال تلك الظنون، على أنهـا علـوم مكتسـبة مبنيـة على مقدمات وشرائط، ومثلها مثل العلم بمـا في أرحـام الأمهـات من الجنين بواسطة الأجهزة الكشافة. وذلك خارج عن موضوعها وهو العلم الغيـبي المـأخوذ بـدون تلـك الأجهـزة والأسـباب. هـذا مـا عنـدنا في الموضوع والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب. <417>

سورة المزمل، وهي مكية الا الآيات

10 و11 و20 فهي مدنية، وآياتها عشرون نزلت بعد سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: ألست تقرأ هذه السورة يا أيها المزمل؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهرا، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فرضه. أخرجه مسلم

وأبو داود والنسائي. وأخرج ابن المنذر وابن جرير عن أبي عبـدالرحمن السلمي قال لما نزلت: يا أيها المزمل قاموا حولا حتى ورمت أقـدامهم وسوقهم، حتى نزلت فاقرأوا ما تيسر من القرآن، فاستراح الناس.

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ المزمـل بتشـديد الـزاء والميم لأن أصـله المتزمـل فقلبت التـاء زاء وأدغمت الـزاي في الـزاء. والخطـاب للنـبي صلى اللـه عليـه وسـلم واختلفت في معـنى المزمـل فقيـل: المتلفـف بثيابه، وقيل: المزمل بالنبوة، والمدثر بالرسالة. وقيل: المزمل بالقرآن وقيل: معناه يا أيها الذي زمـل هـذا الأمـر أي حملـه. أخـرج مسـلم عن طريق سعد بن هشام عن عائشة قالت: إن الله قد افترض قيام الليـل في أول هذه السورة يعني يا أيها المزمل فقام نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً حـتى أنـزل اللـه في آخـر هـذه السـورة التخفيـف فصار قيام الليل تطوعا بعد فرضيته. وقد روى محمد بن نصر في قيـام الليل عن طريق سماك الحنفي عن ابن عباس شـاهداً لحـديث عائشـة في أن بين الإيجـاب والنسـخ سـنة. وكـذا أخرجـه عن أبي عبـدالرحمن السلمي والحسن وعكرمة وقتادة بأسانيد صحيحة عنهم ومقتضى ذلـك أن النسـخ وقـع بمكـة لأن الإيجـاب متقـدم على فـرض الخمس ليلـة الإسـراء. وكـانت قبـل الهجـرة بـأكثر من سـنة على الصـحيح. وحكى الشافعي عن بعض أهل العلم أن آخر السورة نسخ افتراض قيام الليل إلا ما تيسر منه لقوله ﴿فَـاقْرَءُوا مَـا تَيَسَّـرَ مِنْـهُ﴾ ثم نسـخ فـرض ذلـك بالصلوات الخمس، هذا.

ومـادام تقـرر أن بين إيجـاب صـلاة الليـل ونسـخه سـنة ونسـخه كـان بافتراض الصلوات الخمس ليلة الإسراء.. ظهر أن وجـوب صـلاة الليـل لم يكن متصلا بالبعث، بل مضت عليه مدة أقلها خمس سـنوات. يعـني أنه أوجبت صلاة الليل بعد السنة الخامسـة من البعث وبعـد سـنة نسـخ الإيجاب إلا ما تيسر، ثم نسخ وجوب هذا أيضا بفرض الصـلوات الخمس ليلة الإسراء

الواقع بثلاث سنين قبل الهجرة. فعنوان يا أيها المزمل على تقدير أخذه من تزمّله باللحاف بعد رجوعه من غار حراء ونزول صدر سورة العلق عليه صلى الله عليه وسلم لا يعني أن فرض صلاة الليل عليه صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم كان في أوائل نبوته مباشرة، بل كان في عام الستة والأربعين من عمره الشريف أي بعد ست سنين من البعث وهذا ظاهر ان شاء الله تعالى.

فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ أي بالثياب أو بالنبوة أو بالقرآن ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ أي قم للصلاة في الليل ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني ﴿نِصْفَهُ﴾ أي قم الليل إلا نصفه ﴿أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ أي انقص من النصف المستثنى قليلا، يعني نصف النصف ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي على النصف الباقي قليلا أي قم الليل نصفه أو انقص منه قليلا بأن يبقى لك ربع الليل ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي على النصف بأن يبقى لك ثلاثة أرباع الليل للطاعة وقيام الليل ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ﴾ في صلواتك بالليل أي في القيام لها ﴿تَرْتِيلًا﴾ أي اقرأه وتلفظ بالكلمات واضحة الحروف وحركاتها وشدها ومدها. من قولهم سن رتل أي مفلج.

وعن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية فقال: ((بيّنه تبيينا، لا تنثره نثر الدقل. ولا تهذه هذا الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة)).

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وهو القرآن فانه لما فيه من التكاليف الشاقة ثقيل على المكلفين سيما على الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذه الجملة المؤكدة معترضة بين الأمر بالقيام وتعليله الآتي لتسهيل ما كلفه صلى الله عليه وسلم من القيام.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي إن النفس التي تنشأ من مضجعها بالليل إلى العبادة هي أشدّ وطأ، أي أقوى من حيث ثبات القدم

وأقوم قيلا أي أعدل وأحسن وأوضح قولا. ومعنى الجملة تحسين قيام الليل في أنظار من له الميل إلى الطاعة أقوم مَيْلٍ ﴿إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي تقلبا في مهماتك وكسب أسباب المعيشة والراحة البدنية والنفسية. ومعنى الآيتين تنسيب النهار للأعمال الدنيوية والليل للأعمال الروحية والطاعة المرضية ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على ذكره حسب المستطاع تسبيحا وتهليلا وتحميدا وتمجيدا وصلاةً ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ أي الى الربّ المربي لك وللعالمين ﴿تَبْتِيلًا﴾ انقطاعاً مؤكدا ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ متوكلا عليه ومرجوعا إليه.

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (14) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (16) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (17) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (18) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (19)﴾

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي ما يقوله أولئك المتقولون الفاسدون المفسدون ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ واترك الألفة الروحية معهم تركا حسنا موافقا لحسن الإدارة ورعاية المجاملة الاعتيادية ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾

والثروة والبطر والكبرياء ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي طعاما يَنشُبُ في الحلق كالضريع والزقوم، ونوعا آخر من العذاب مؤلما جدا. وهذه الأمور الفظيعة تتحقق ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ من النفخة الأولى في الصّور ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ أي رملا مجتمعا ناعما يصير هباءً ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ موسى عليه السلام ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ المعهود المرسل ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾ أي فرعون العاصيَ ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي أخذا ثقيلا قويا.

ومادام الباري له الحكم الدائم الجاري ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ عذابه وعقابه ﴿إِنْ كَفَرْتُمْ﴾ به وبرسوله ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ لكثرة أهواله وتفاقم شدائده، والحال إن ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ﴾ ومنشق ومتزلزل بذلك اليوم الصعب الضاغط على الكائنات، فإذا سألك سائل: هل ذلك اليوم يأتي؟ قل: لاشك فيه فإن الله قد وعد به و ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ وتخلف المعلوم عن العلم والمراد عن الإرادة محال ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ الآيات المستوعبة لجهات الرهبة والشدة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ للمتذكرين الفاهمين ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ الخلاص من العذاب والدخول في دار الثواب ﴿اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ مستقيما لاعوج فيه ولا انحراف وهو سبيل الإيمان والإسلام والانصاف.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ تمهيد لنسخ وجوب صلاة الليل على الأمة، وتثمين وتقدير لطاعة رسوله الكريم وأمته المرحومة. أي إن ذلك معلوم لنا أي إن ربك يعلم ﴿أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾ أي زمانا أقل منهما ﴿وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ بالنصب عطفا على أدنى كأنه قال: يعلم إنك تقوم من الليل أقل من ثلثيه، وتقوم نصفه، وتقوم ثلثه ﴿وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ عطف على ضمير تقوم، وجاز من غير تأكيد للفصل وقيام طائفة كذلك للتأسي به، ومنهم من كان لا يدري كم صلّى من الليل وكم بقى منه، فكان يقوم الليل كله احتياطا، فقاموا حتى انتفخت أقدامهم سنة أو أكثر فخفف عنهم ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي يحصيهما ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ أن مخففة من الثقيلة، أي علم أنه لن تحصوه ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ ورجع بكم إلى التخفيف ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ في الصلاة بأن تصلّوا ما تيسر ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى﴾ جمع مريض ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يسافرون ﴿يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ من رزقه بالتجارة وغيرها ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وكل من تلك الفرق الثلاثة يشق عليهم ما ذكر في قيام الليل فخفف عنهم بقيام ما تيسر منه، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس، أي في حقّ الأمة إتفاقا. وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فقال مالك لم ينسخ في حقه صلى الله عليه وسلم بل بقي وجوب التهجد عليه لكن في خصوص الحضر. وقال الشافعي نسخ في حقه أيضا.

فإن قلت: وجوب الصلوات الخمس لا ينـافي وجـوب قيـام الليـل، ومن شرط الناسخ أن يكون حكمه منافيا للحكم المنسوخ. فالحق أن النسخ بالحديث وهو أنه صلى الله عليه وسلم أخـبر أعرابيـا بـأن اللـه افـترض عليه خمس صلوات في كل يوم وليلة. فقال الأعرابي: هل علي غيرهـا يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: «لا الا أن تطـوع» فقولـه لا، نفي لوجوب أي صلاة كانت غير الخمس ﴿فَـاقْرَءُوا مَـا تَيَسَّـرَ مِنْـهُ﴾ أي من القـرآن من غـير تحمـل المشـقة الـتي لا تطـاق عـادة ﴿وَأَقِيمُـوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَآتُـوا الزَّكَـاةَ﴾ كـذلك أي المفروضـة. واستشـكل بأن السورة من أوائل ما نـزل بمكـة ولم تفـرض الصـلوات الخمس إلا بعد الإسراء والزكاة إنما فرضت بالمدينة! وأجيب بأن الذاهب إلى ذلـك يجعل هذه الآيات مدنية.

وفي فتح الباري ما نصه: نعم ذكر أبو جعفر النحاس أنها مكيـة إلا الآيـة الأخيرة، وقوّى محمد بن نصر هذا القول بما أخرجه من حديث جابر أن نسخ قيام الليل وقع لما توجهوا مع أبي عبيدة في جيش الخبـط، وكـان ذلك بعد الهجرة، لكن في إسناده علي بن يزيد بن جدعان وهو ضعيف.

وأما ما رواه الطبري، عن طريـق محمـد بن طحلاء عن أبي سـلمة عن عائشة قالت: احتجر رسول الله صلى الله عليه وسلم حصـيرا... فـذكر الحديث الذي تقدمت الإشارة إليه قبل خمسة أبـواب، وفيـه كلفـوا من العمل ما تطيقون، فإن خير العمل أدومه وإن قل. ونزلت عليه يـا أيهـا المزمل، فكتب عليهم قيام الليل، وأنزلت منزلة الفريضة حتى ان كـان بعضهم ليربط الحبـل فيتعلـق بـه، فلمـا رأى اللـه تكلفهم ابتغـاء رضـاه وضع ذلك عنهم فردهم إلى الفريضة، ووضع عنهم قيام الليل بهم إلّا ما تطوّعوا به، فإنه يقتضي أن السـورة كلهـا مدنيـة، لكن فيـه موسـى بن عيينة وهو شديد الضعف فلا حجة فيما تفرد بـه. انتهى المقصـود نقلـه. قلت: ظاهر الآية الكريمة، أي علم ان

سيكون منكم مرضى.. يشعر بوضوح أن الآية مدنية، ويؤيد ذلك ما سبق من حديث جابر أن نسخ قيام الليل وقع لما توجهوا مع أبي عبيدة في جيش الخبط، وكان ذلك بعد الهجرة. فالذي يطمئن إليه القلب أن السورة مكية إلا الآية الأخيرة. ولما تحققت الهجرة نسخت صلاة الليل بهذه الآية في حق الأمة وبقيت تطوعا لها. ويؤيد ذلك ترك الرسول الخروج إلى القوم في الليلة الرابعة لصلاة التراويح.

وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يريد الصدقات والإنفاقات في سبيل الله تعالى وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا من الذي تؤخرونه للورثة على أمل الإنفاق منه في سبيل الله أو صرفه في أنفسهم وحاجاتهم، ومن الوصايا التي تهمل غالبا، وقلما تتنفذ شرعا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ خطاياكم الصغيرة والكبيرة لكن لا استغفاراً بارداً في الفم بل استغفارا حارا يفور من القلوب تطفئ نار جهنم، وذلك توبة من الحوبة، واعتراف بالذنوب نوبة بعد نوبة. ولا تيأسوا من قبوله إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ كثير المغفرة للذنوب رَحِيمٌ كثير الستر للعيوب ستر الله عيوبنا وغفر ذنوبنا بمنه وفضله، إنه أرحم الراحمين.

سورة المدثر، مكية، وآياتها ست وخمسون

نزلت بعد سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَاأَيُّهَــا الْمُــدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْــذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَــكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِــيرٍ (10) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيــدًا (11) وَجَعَلْتُ لَــهُ مَــالًا مَمْــدُودًا (12)وَبَنِينَ شُــهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَـهُ تَمْهِيـدًا (14) ثُمَّ يَطْمَـعُ أَنْ أَزِيـدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآَيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَـدَّرَ (18) فَقُتِـلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَـرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَـقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أصله المتدثر فقلبت التـاء دالا وأدغمت في الـدال. أخـرج الطـبراني وابن مردويـه عن ابن عبـاس أن الوليـد بن المغـيرة صـنع لقـريش طعامـا، فلمـا أكلـوا قـال: مـا تقولـون في هـذا الرجل؟ فاختلفوا، ثم اجتمع رأيهم على أنه سحر يؤثر. فبلغ ذلـك النـبي صلى الله عليه وسلم فحزن وقنع رأسه وتدثر، أي كما يفعل المغمـوم. فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ.. ﴾ إلى قولـه تعـالى ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْـبِرْ﴾ وقيل: المـراد بالمـدثر المتـدثر بـالنبوة والرسـالة والكمـالات النفسـية. أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وجماعة عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ قلت: يقولون ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَـقَ﴾ فقـال أبـو سلمة: سألت جابراً بن عبدالله عن ذلك وقلت له مثـل مـا قلت، فقـال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: ((جاورت بحـراء، فلمـا قضـيت جـواري هبطت، فنـوديت، فنظـرت عن يميني فلم أر شيئا، ونظـرت عن شـمالي فلم أر شـيئا، ونظـرت خلفي فلم أر شيئا، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جـالس على كرسي بين السماء والأرض. فجثثت منه رعبا، فـرجعت فقلت: دثـروني دثروني فدثروني. فنزلت يا أيها المدثر قم فانذر وربك فكبر)).

وفي رواية: ((فجئت أهلي فقلت: زملوني زملوني زملوني فـأنزل اللـه تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ إلى قوله فاهجر)) فان القصة واحدة، ولو كانت يا أيها المزمل هي النازلة قبل فيهـا لـذكرت. نعم ظـاهر هـذا الخبر يقتضي أن يا أيها المدثر نزل قبل إقرأ باسـم ربـك والمـروي في الصحيحين وغيرهما عن عائشة أن ذاك أول مـا نـزل من القـرآن، وهـو الذي ذهب إليـه أكـثر الأمـة حـتى قـال بعضـهم: هـو الصـحيح، ولصـحة الخبرين احتاجوا للجواب فنقل في الإتقان خمسة أجوبة:

الأول: أن السؤال في حديث جابر كان عن نزول سورة كاملة، فبين أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل تمام سورة اقرأ فإن أول ما نزل صدرها.

الثاني: أن مراد جابر بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي لا أولية مطلقة.

الثالث: أن المراد أولية مخصوصة بالأمر بالإنذار. وعبر بعضهم عن هذا بقوله: أول ما نزل للنبوة إقرا باسم ربك، وأول ما نزل للرسالة يا أيها المدثر.

الرابع: أن المراد أول ما نزل بسبب متقدم، وهو ما وقع من التدثر الناشئ عن الرعب. وأما إقرا فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم.

الخامس: أن جابرا استخرج ذلك باجتهاده، وليس هو من روايته، فيقدم عليه ما روت عائشة رضي الله عنها. ثم قال وأحسن هذه الأجوبة الأول والأخير. انتهى. وفيه نظر فتأمل ولا تغفل.

فيقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ اللابسُ للدثار ﴿قُمْ﴾ من مضجعك، أو قم قيام عزم وتصميم ﴿فَأَنْذِرْ﴾ الكافرين من عذاب الله تعالى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ واخصص ربك بالتكبير، وهو وصفه تعالى بالكبرياء، والعظمة لذاته المقدس. ويروى أنه لما نزل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الله أكبر)) فكبرت خديجة وفرحت وأيقنت أنه الوحي وذلك لأن الشيطان لا يأمر بذلك ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ عن الأوساخ والأقذار الغير اللائق بأن تلبسها في الجامع مقدمة لتطهير نفسك عن كل ما يخالف كرامة قدسك ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أصل الرجز العذاب، والمراد هنا ما يوجب العذاب، فكأنه قال: والمآثم والمخالفات الدينية اهجرها واتركها حتى تبقى روحك صافية، ولمقابلة الحق كافية صافية، وقيل: الرجز اسم لصنمين آساف ونائلة وعليه يكون

تعريضا بالمشركين المحبين لهما وإلا فهو صلى الله عليه وسلم لم يمل ولم يتوجه إلى غير الله تعالى لمحة عين ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ أي ولا تعط المال لأحد حالكونك تطلب منه اكثر مما أعطيته. هذا على قراءة رفعه. وأما على قراءة جزمه فمعناه أن لا تمنن عند إحسانك على الذي أنعمت عليه تستكثر من الخيرات والصدقات والجزاء يوم القيامة. وأما على قراءة النصب فالمعنى ولا تمنن أي ولا تعط الناس لطلب تكثير مالك، أي حتى يعطوك مالا فيزيد مالك بذلك.

ويحتمل أن يكون المعنى على قراءة الرفع ولا تمنن أي لا تعط الناس الأموال حالكونك تعدّ ما تعطيه كثيرا أي كلما أعطيت شيئا اعتبره قليلا، وبذلك ترغب في الإعطاء للفقراء كثيرا ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي ولأجل ابتغاء مرضاة ربك فاصبر على أذى الأعداء وكلامهم المهجور المنفور فإن شأن الرسل الصبر حتى ينالوا الغاية القصوى ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ أي نفخ في الصور وهو فاعول من النقر بمعنى التصويت ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي إذا نقر في الناقور عسر الأمر عليهم ويؤخذ منهم انتقام الأول والآخر.

ثم توجه الباري إلى تهديد أحد الكفرة الفجرة الذي أتى بما لا ينبغي ولا يليق، وهو وليد بن المغيرة فقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي خلقته ﴿وَحِيدًا﴾ أي طريدا فريدا لا مال له ولا ولد ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ مبسوطا فصار له الضرع والزرع والتجارة ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ أي وخلقت له بنين حضورا معه بمكة يتمتع بلقائهم وينتفع بقائهم ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أي وبسطت له بساط الرئاسة على الناس والجاه حيث جعلنا له وقرا ومهابة في قلوبهم ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ على ما ذكرناه بالرغم من أنه لم يشكرنا على النعم بل كفر بأنعمنا بين الأمم. ﴿كَلَّا﴾ لا يمكن أن أزيد في نعمته ولا نزيد

له أبدا ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآَيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ معاندا غير موافق وغير راض وغير شاكر ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ سأغشيه عذابا صعودا يصعد على جسده، أو محنة وعذابا يستوعب جميع جهات تمتعه وصحته وراحته، ونسلبه كل ما آتيناه، فإذا سأل سائل: لماذا قال ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي فكر لتحصيل مطاعن يطعن بها في الرسول أو في الكلام المنزل عليه وقدّر في نفسه أمورا لرمي الرسول بها، أو لرمي القرآن المنزل عليه ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ قلنا كرر الجملة لتكرار الحملة، لأن ذلك الشيطان وسوس إليه الشيطان الكبير بما يجعله مستحقا لكل نقمة وعذاب، ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ في أمر القرآن مرة بعد أخرى ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ على عادة أولي الانية من الأغنياء الأغبياء ﴿وَبَسَرَ﴾ جعل وجهه بُسرا، وهو من أتباع العباسة ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يروي وينقل يعلم ويتعلم ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ولم يتفكر هذا الكفور الفكور أنه كلام الله ولا يشبه كلام البشر وليس على أسلوبه، وليس فيه مزايا كلام الناس من الميل إلى الباطل في تضاعيف البيان، ولا إلى الكذب ولا المبالغة الخارجة عن عادة الأدب. وفيه إخبار بالغيب وحكم وفوائد بلا ريب، ولا يحوم حوله النقص والعيب.

ومادام ذلك الإنسان الفاسد ألقى نفسه في المهالك ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي سأدخله في سقر ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي لا تبقي على شيء يلقي فيه، ولا تذره كما كان بل ينضجه فيحرقه ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي ملوحة ومسودة لأعالي جلد الإنسان، أو لائحة ظاهرة للعيون وليست مستورة.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31) كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37)﴾

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي على السقر تسعة عشر صنفا من الملائكة، أو تسعة عشر شخصا منهم. روي عن ابن عباس أنه لما نزلت: عليها تسعة عشر قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم أسمع أن ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال له أبو الأشد بن الأسيّد بن كلدة الجمحى، وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين! فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ فإنهم هم القادرون على التعذيب المستمر بدون فتور ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال بعض المحققين: الجعل قوليّ، أي وما قلنا أن عدتهم تسعة عشر إلا ابتلاء للكافرين حتى يستقلّوه.

وظاهر الحال أن الكفار استغلوا ذلك وقالوا: كيف يقدر رجال محدودون على تعذيب ملايين من البشر والجن؟ ولم يعلموا أن قوة الباري تظهر بالآثار في كل شيء ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليكتسبوا اليقين بنبوته ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ أي يزداد إيمانهم كيفية بما رأوا من تسليم أهل الكتاب ولتصديقهم أنه كذلك

﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لما قبله ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شك أو نفاق ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ الجازمون في التكذيب: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي ماذا أراد بهذا العدد المستغرب؟ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ لأن كل ممكن من الممكنات يحتمل أن يجعله الله جنديا يستعمله في قهر أعدائه ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ أي وليس ذلك العدد إلا مذكرا للبشر بأن الله فاعل مختار يقدر أن يتصرف في كل ممكن ليكون من جنوده وأعوان دينه ﴿كَلَّا﴾ ردع للمنكرين اي اقسم بالقمر المنور الليل الذي يختلف اوضاعه بالنسبة الى العالم ﴿وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أي واقسم بالليل اذا ادبر وبالنهار واقسم بالصبح اذا اسفر اي اضاء ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي إن السقر لإحدى البلايا الكُبَرِ ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ تمييز أي لإحدى الكبر إنذاراً ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ فمن كان له قابلية التحوّل من الشر إلى الخير ومن الفساد إلى الصلاح فليعمل إرضاء لرب العالمين.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (52) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56)﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ قال أبو حيـان: الرهينـة ممـا غلبت الاسمية فيه على الوصفية كالنطيحة ولـذلك ألحقت تـاء التـأنيث، وإلا فالفعيل بمعنى المفعول يستوي فيـه المـذكر والمـؤنث، ويسـتعمل للمـؤنث بـدونها كالمـذكر، وقيـل: إن الكلمـة مصـدر كالشـتيمة والتـاء للمصـدرية، واختـير المصـدر لإفـادة المبالغـة في إفـادة ارتهـان النفس بمكاسبها، فكأنها هي الرهن. ويراد بما كسبت المكاسب المطلقـة، وإلا فلـو أريـدت المكاسـب الحسـنة فلا مجـال لارتهـان النفـوس بهـا، أو المكاسب السيئة فلا وجـود لهـا في أصـحاب اليمين، فـالمعنى: إن كـل نفس مرهونة بمكاسـبها إلا أصـحاب اليمين، فليسـوا مرهـونين بهـا لأن مكاسـبهم كلهـا حسـنة، ولا ارتهـان للنفـوس بالأعمـال الحسـنة. ﴿إِلَّا أَصْـحَابَ الْيَمِينِ﴾ والمــراد بأصــحاب اليمين المسـلمون المخلصـون المجردون عن الأعمال السـيئة، ولا يناسـب تفسـيره بالملائكـة لأنهم لا حسـاب عليهم ولا عقـاب فلا رهن ولا فـك بالنسـبة إليهم، ولا بأطفـال المشركين لانهم غير مكلفين، ويدخلون الجنة على الصحيح لأن الجحيم دار العقـاب للمكلفين على أعمـالهم السـيئة وهم لم يصـلوا إلى درجـة التكليف.

وقولـه ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ خـبر لمبتـدأ محـذوف أي هم في جنـات، وتكـون الجملـة جوابـا لمن قـال أين أولئـك النـاس؟ فـأجيبوا بـأنهم في جنـات. وقوله ﴿يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ بيان لبعض أحوال أصـحاب اليمين أي لما اطمـأنوا في مقـرهم من الجنـة يَـرَوْنَ أصـحاب الجحيم لاسـيما المبتلين منهم بأشدّ العذاب، وهم أهل سـقر فيسـألونهم: ﴿مَـا سَـلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ أي ما العمل السقيم الذي أدخلكم في سقر؟ ﴿قَالُوا لَمْ نَـكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَـعَ الْخَائِضِـينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي يجيبون

السائلين عن سبب الدخول في الجحيم، ولاسيما سقر بما مضى. وحاصله: فساد أعمالنا أما من حيث أداء الواجبات فكففنا أنفسنا عن أداء الصلاة التي هي صلة بين العبد وبين ربه. وأما من حيث خدمة المجتمع ورعاية الضعفاء فكففنا أنفسنا عن إطعام المساكين بما يسد رمقهم، وبخلنا بذلك عليهم، وأهملنا هذا الواجب الإسلامي الاجتماعي، فإن الغني يجب عليه إطعام الفقير الفاقد، غير أنه يجوز له إذا لم يتبرع بما ينفق عليه أن يشهد عدلين على أنه ينفق على هذا على اعتبار أخذ العوض منه عند الإمكان. وأما من ناحية الانتباه لإصلاح حالنا فتَرَكْنا ذلك وكنا نخوض أي نغوص في أعماق البطالة واللعب والجهالة مع الخائضين وأما من ناحية الاعتقاد والمعنويات فكنا كافرين، وكنا نكذب بيوم الدين أي بيوم الجزاء، أي كنا نعتقد أن لا مسئولية علينا ولا سؤال ولا جواب، واستمررنا على هذه الصفات اللازمة للفاسقين ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ أي الموت المحقق الذي لاشك فيه من العاقلين. أو حتى متنا وبعثنا وعلمنا بيوم الدين علم اليقين. وما داموا كذلك ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ لأن أولئك الكفار قرناء للشيطان اللعين.

ويستفاد من حرف الفاء ووقوع ما بعدها من تلك الصفات الذميمة بعدها أن غيرهم من المؤمنين تنفعهم الشفاعة، ولو كانوا عاصين فاسقين.

ثم يستنكر الباري تعالى إعراضهم عن الحق حتى يبتلوا بهذه البلايا ويقول: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي فأي نفع يحصل لهم حالكونهم معرضين عن التذكرة وهي القرآن الكريم، أو بحث سقر وسائر منازل

العقاب في الآخرة، وإذا وجدوا الرسول يقرأ القرآن أويذكرهم بالسقر والسعير ركضوا وابتعدوا عنه ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ أي كالحمر الوحشية التي تنفر وتعدو في الجبل ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أي أسد لقينها فيه.

وانظروا إلى بلاغة القرآن بحسن البيان وتشبيه الجهال الذين لا يريدون أن يفهموا الحقائق باخس الحيوان، وتشبيه الرسول المسعود بأسد من الأسود. والقسورة الأسَدُ وقوله تعالى ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ أي أعرض عن استماعهم لوعظ الرسول وإرشاده وإطاعة الحق في أحكامه وخطابه، يريد كل امرئ منهم أن يُؤتى صحفا مكتوبة واضحة منشورة يؤتى بها إليه معنونة من حضرة الباري جل جلاله إلى فلان بن فلان حتى يترفع في مقامه بأنه مخاطب من الله تعالى وصديقه ويهدي إليه كتابه. روي أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن سرك أن نتابعك فأت كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين إلى فلان بن فلان، نؤمر فيها باتباعك! فنزلت الآية.

﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآَخِرَةَ﴾ فلذلك يعرضون عن التذكرة ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ أي إن القرآن تذكرة أو ذكر سقر تذكرة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ وتلاه وتبعه وتفكر فيه ونال من الخير ما يبتغيه ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإن الله علم في الأزل حال العباد المطيعين والعصاة المتمردين ومن الذي يتوجه الى ذكره وأراد عند علمه بذلك تحقق المعلوم في المستقبل كما هنالك، فلما جاء وقت عمل العامل تتقدم بالذات إرادته التابعة لعلمه الحاكي عن المعلوم على إرادة العامل وعمله تشريفا للخالق على المخلوق، فشاء الخالق وشاء العامل وتحقق المعلوم على القَدَر المرسوم ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ يعني أن الله الأهل المستحق بالذات لأن يتقى مخالفته ويلتزم طاعته ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ لذنوب عباده المؤمنين به الراجين لرحمته. ونسأله تعالى أن يرحمنا: ويغفر ذنوبنا، ويستر عيوبنا، ويكشف كروبنا، فإنه هو الغفور الرءوف الرحيم.

سورة القيامة، مكية، وآياتها أربعون أو تسع وثلاثون، نزلت بعد القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15)﴾

قوله تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي أقسم بيوم القيامة، وحقيقته أقسم بالقادر المقتدر الذي يأتي بيوم القيامة الجامع الأنواع الأحوال المدهشة والتغيرات العجيبة في الكون والكائنات في الأرض والسماوات. وقالوا

لتوجيـه زيـادة حـرف النفي إن إدخـال لا النافيـة على فعـل القسـم مستفيض وشائع بين الناس. والتحقيق الذي ارتضاه بعض المحققين أن كلمة لا في مقام القسم لم تكن ولا تكـون زائـدة أبـدا، بـل هي لإفـادة غايـة التأكيـد والقـوة في المقـام، وذلـك لأن القسـم والحلـف واليمين بمعـنى القـوة تـذكر لتأكيـد الجمـل الخبريـة، فـإن الجمـل الإنشـائية لا تناسبها التأكيد. فإذا وردت الأيمان مثبتة فالأمر ظاهر، وإن كانت منفيـة نحو لا أحلف بالله إن الأمر الفلاني كـذا، فمعنـاه أن المقسـم عليـه في غاية الوضوح والبداهة، وفي نهايـة الجلاء فلا يناسـبه التأكيـد، ففي هـذا يستفاد تأكيد فوق التأكيد بإيرادها على صورة النفي.

ومعنى الكلام هنا لا أقسـم بيـوم القيامـة ومحصـلها العظيم. ولا أقسـم بالنفس اللوامة الـتي تحـير العاقـل الحكيم أن البعث بعـد المـوت حـق وجمع العظام الرميمة بعد الفناء ثابت. بقى شيء هـو أن الحلـف بغـير اللـه وصـفاته مـذموم، فكيـف يقسـم البـاري بأشـياء من مصـنوعاته؟ والجواب أن أصـل اليمين الـواردة في محـاورات الإنسـان بعضـهم مـع بعض لتأكيد الكلام وإفادة قوته وتحققه على جريـان العـادة، فـإذا كـان شخص عزيزا عند شخص أو محبوبا له كالولد عند الوالـدين أو الصـديق لصديقه فهو يؤكد بذكره مع إخباره بمطلوبه فيقول: وحياتك يا ولدي أو يا صديقي أو يا سيدي إن الامر الفلاني كذا، سواء كان صـادقا في ذلـك أو كاذبا. وذلك كان معتادا منذ خلق البشر والمحاورات.

وأمـا النهي عن الحلـف بغـير اللـه تعـالى سـواء كـان خلاف الأولى أو مكروها أو جريمة كبيرة أو كفرا على بعض الوجـوه فهـو عـرف طـارئ ورد مع ورود الشريعة. قال الشوكاني في الجزء الثامن من كتـاب نيـل الأوطار في شرح النهي عن الحلف بغير الله تعالى: قال العلماء: السر في النهي عن الحلف

بغـير اللـه تعـالى أن الحلـف بالشـيئ يقتضـي تعظيمـه، والعظمـة في الحقيقة إنما هي للـه وحـده، فلا يحلـف إلا باللـه وذاتـه وصـفاته. وعلى ذلك اتفق الفقهاء. واختلـف: هـل الحلـف بغـير اللـه حـرام أو مكـروه؟ للمالكية والحنابلة قولان. ويحمـل مـا حكـاه ابن عبـد الـبر من الإجمـاع على عدم جـواز الحلـف بغـير اللـه تعـالى على أن مـراده بنفي الجـواز الكراهة أعم من التحريم والتنزيـه. وقـد صـرح بـذلك في موضـع آخـر. وجمهور الشافعية على أنـه مكـروه تنزيهـا. وجـزم ابن حـزم بـالتحريم، وقال إمام الحرمين: المذهب القطع بالكراهة. وجـزم غـيره بالتفصـيل: فإن اعتقد في المحلوف به ما يعتقد في الله تعالى كان بـذلك الاعتقـاد كافرا. ومذهب الهادوية أنه لا إثم في الحلف بغير الله مـا لم يُسَـوّ بينـه وبين الله تعـالى في التعظيم، أو كـان الحلـف متضـمنا كفـرا او فسـقا، وسيأتي الكلام على من يكفر بحلفه إنتهى.

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ تطلق النفس على معان، والمشهور منهـا معنيان:

الأول: القوة الجامحة للغضب والشهوة المشار إليها بالحديث الشـريف ((أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك)).

والثاني: اللطيفة التي يعبر عنها بالإنسان، فهي في ذاتها واحدة، ولكنهـا توصـف بأوصـاف مختلفـة بحسـب اختلاف أحوالهـا. فـإذا سـكنت تحت الأمـر وزايلهـا الاضـطراب بسـبب معارضـة الشـهوات سـميت النفس المطمئنـة. قـال اللـه تعـالى: ﴿يَـا أَيَّتُهَـا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ وإذا لم يتم سكونها ولكنها صـارت مدافعـة للنفس الشهوانية ومعارضة ومعترضة عليها سميت النفس اللوامـة لأنهـا تلـوم صـاحبها عند تقصـيره في عبـادة مـولاه. قـال اللـه تعـالى ﴿وَلَا أُقْسِـمُ بِـالنَّفْسِ اللَّوَّامَـةِ﴾. وإن تـركت الاعـتراض وأذعنت لمقتضـى الشـهوات ودواعي الشيطان سميت النفس

الأمارة. قال تعالى حكاية عن عبده يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ ويجوز أن يقال: المراد بالنفس الأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول فإن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم، وبالمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات.

ومنهم من يقول: إن النفس مطلقا هي الروح الإنسانية لكنها لها أسام باعتبارات: فباعتبار انقيادها لله نفس مطمئنة، وباعتبار لومها لنفسها في الأعمال الفاسدة تسمى باللوامة وباعتبار أمرها بالسيئات تسمى بالنفس الأمارة.

فإقسامه تعالى بالنفس اللوامة على اعتبار الشرف للنفس الإنسانية المتأثرة بالوعظ والإرشاد، واللائمة لنفسها عند ارتكاب الفساد. وقال بعض المفسرين: إن المراد بالنفس اللوامة مطلق النفس الإنسانية الشاملة للتقية والفاجرة لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة؛ فإن عملت خيرا قالت: كيف لم أزد منه، وإن عملت شرا قالت: ليتني قصرت)) وضم هذا القسم إلى القسم بيوم القيامة لأن هذه التأثرات تظهر هناك. والمقسم عليه على كل حال هو أن الموتى يُبعثون يوم القيامة بعد جمع عظامه كيف كانت، والدليل عليه قوله العظيم ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ أي أيحسب أن الشأن لن نجمع عظامه المتمزقة البالية الصائرة ترابا ثابتا أو غبارا طائرا أدراج الرياح؟ ﴿بَلَى﴾ اي بلي كنا ﴿قَادِرِينَ عَلَى أَنْ﴾ نجمع عظامه ونكسوها لحما ونزيد عليها الأعصاب وسائر مقومات شخصه بالمادة والصورة والهوية الشخصية التي بها يمتاز إنسان عن أخيه بل أحد التوأمين عن الآخر بأن ﴿نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ أي أطراف أصابعه بحيث لا يشارك إنسان إنسانا في

خطوطها. ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُـرَ أَمَامَـهُ﴾ أي دع تعنيفـه ولومـه فإنـه أبعد من ذلك وأنى يرتدع وهو يريد ليدوم على فجـوره فيمـا أمامـه من الأوقـات وفيمـا يسـتقبله إلى الممـات ﴿يَسْـأَلُ﴾ اسـتهزاء ﴿أَيَّانَ يَـوْمُ الْقِيَامَـةِ﴾ أي مـتى تكـون القيامـة المقـررة أن تكـون بعـد خـراب هـذا العالم؟ ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ أي طغى وتحير فزعـا ﴿وَخَسَـفَ الْقَمَـرُ﴾ أي ذهب ضوؤه ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي في ذهـاب الضـوء أو الطلـوع من المغرب، أو اتحد مـدارهما بـأن يتغـير الوضـع ويتحـد مـدار منطقـة البروج والمعدل ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ﴾ مستفهما: ﴿أَيْنَ الْمَفَـرُّ﴾ يطلب مكانـا يفـر اليـه أو يطلب عن إمكـان الفـرار ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أي لا ملجـأ يلتجئ إليــه ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْـتَقَرُّ﴾ أي اسـتقرار العبـاد أو محـل فرارهم وقرارهم هل هو الجنة أو النـار ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَـانُ يَوْمَئِذٍ بِمَـا قَـدَّمَ﴾ من الأعمال الحسنة ﴿وَأَخَّرَ﴾ منها ولم يعملها ﴿بَلِ الْإِنْسَـانُ عَلَى نَفْسِـهِ بَصِيرَةٌ﴾ أي إطلاع وعلم وخبرة مصـدر حمـل على الإنسـان مبالغـة، أو شاهدة بتقدير الموصـوف أي نفس شـاهدة وحجـة واضـحة ﴿وَلَـوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ أي طرحها أمام المحاسب، فلا قيمة لها لأن العيـان مغن عن البيان.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَـهُ وَقُرْآنَـهُ (17) فَـإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَـةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِـرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَـا نَـاظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَـلَ بِهَـا فَـاقِرَةٌ (25) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلَى لَـكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْـرَكَ سُـدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَـةً فَخَلَـقَ فَسَـوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِـكَ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40)﴾

وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآَنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآَنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلّت منه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآَنَهُ﴾ يقول إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ يقول: فإذا أنزلناه عليك ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآَنَهُ﴾ يقول: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ يقول أنه نُبينهُ بلسانك فتقرأه، فكان رسول الله بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق واستمع، فإذا ذهب جبريل قرأه كما أقرأه الله تعالى. أخرجه البخاري ومسلم. ﴿كَلَّا﴾ ردع للرسول صلى الله عليه وسلم عن عادة العجلة أو عن الإنسان من الاغترار بالعاجل فيقول: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي التمتعات الحاضرة في الدنيا ﴿وَتَذَرُونَ الْآَخِرَةَ﴾ وتتركون الآخرة ولا تهتمون بأمورها، مع أن الآخرة خير وأبقى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ بهية مستبشرة متهللة ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تراه مستغرقة في أنوار جماله غافلا عن أحواله.

والجمهور يستدلون بهذه الآية الجميلة على وقوع رؤية الله في الآخرة بالعيون. ويكشف هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر)).

وما عارضَنَا به المخـالفُ من الشـواهد الدالـة على امتنـاع رؤيتـه تـؤوّل بامتناع رؤيته تعالى من الكـافرين، أو في هـذه الـدنيا لا في الآخـرة، أو مؤول برؤية استيعابيةٍ إلى أقصى درجة كشفية. على أن المخالف بــنى خلافه على اعتبار شرائط الرؤية بيننا في هـذه الـدار معتـبرة في رؤيـة الباري تعالى في تلك الدار، وليس ذلك أمـرا معقـولا معتـبرا، لأن ذلـك مبني على قياس الغائب على الشـاهد، وذلـك غـير مفيـد قطعـا. فنحن جمهور المسلمين نـؤمن برؤيـة البـاري تعـالى بأعيننـا في الآخـرة على استناد هذه الآية والحديث الشريف.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ شديدة العبوس ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَـاقِرَةٌ﴾ أي داهية تكسر عظام فقرة ظهره. وهي نائب فاعـل يفعـل أي اذا أراد أن ينظر إلى ربه تعالى أتته حالة فظيعة وداهية شديدة لا يمكنه معها رفــع الرأس والنظر إلى الرئيس. وتلك قوة غضـبية انتقاميـة من ربـه تعـالى تمنعه من نيل هذا المقام لما تحمله في الدنيا من الكفر والآثام.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ أي إذا بلغت النفَس أعـالي الصـدر ﴿وَقِيـلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي من يرقيــه ممــا بــه من المحنــة ليخلص منهــا ﴿وَظَنَّ﴾ أي المحتضـر ﴿أَنَّهُ الْفِـرَاقُ﴾ لـه من الـدنيا ومـا فيهـا من الأولاد والأحبـاب والأموال ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّـاقِ﴾ أي والتـوت سـاقه بسـاقه بحيث لا يقدر أن يميز بينهما وقوله ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَـاقُ﴾ أي سـوقه دليـل على جواب الشرط المحذوف، أي انكشف حينئذ للمرء جزاؤه وصفاؤه ومجازاته وجفاؤه لأنه يسـاق إلى اللـه تعـالى فيحاسـب وتتـبين الأمـور وحينئذ يحاسب الكافر ﴿فَـ﴾ يظهـر انـه ﴿لَا صَـدَّقَ﴾ ومـا آمن بمـا يجب الإيمـان بــه ﴿وَلَا صَـلَّى﴾ في الأوقـات المحـدودة الفـرائض المعـدودة ﴿وَلَكِنْ كَـذَّبَ﴾برسـول ربـه فكـذب بمـا يجب التصـديق بـه ﴿وَتَـوَلَّى﴾ وأعرض عن أداء الواجب صلاة أو صياما أو زكاة

أو غيرهـــا. ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِـــهِ يَتَمَطَّى﴾ يتبخـــتر ويتمشـــى مشـــي المتكبرين ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ أي أولى لـك الهلاك من النجاة فأولى لك هـذا من ذاك، ثم أولى لـك فـأولى. عن سـعيد بن جبير أنّه سأل ابن عباس عن قوله: أولى لك فأولى أشيئ قالـه رسـول الله صلى الله عليه وسلم لأبي جهل من قبل نفسه أم أمـره اللـه بـه؟ قال: بـل قالـه من قِبَـل نفسـه ثم أنزلـه اللـه تعـالى. أخرجـه النسـائي والحاكم وصححه. قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسـلم خـرج من المسجد ذات ليلة فاستقبله أبو جهل على بـاب المسـجد فأخـذ رسـول الله صلى الله عليه وسلم بيد أبي جهل فهزه مرة أو مرتين ثم قال له: أولى لك فأولى. فقال لـه أبـو جهـل: أتهـددني؟ فواللـه إني لَأعَـزّ أهـل الوادي وأكرمه! ونزل على رسول الله صلى الله عليـه وسـلم مـا قالـه النبي لأبي جهل، وهي كلمة وعيد.

﴿أَيَحْسَـبُ الْإِنْسَـانُ أَنْ يُتْـرَكَ سُـدًى﴾ أي مهملا لا يكلـف ولا يجـزي ولا يجازى. والسدى الخيوط الممتدة لصنع الثياب، واللحمـة الخيـوط الـتي تقابلها وترتبط بها ويحصل منهما الثياب ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ أي يمنيها الرجل ويصبّها في الرحم ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي صـار قطعـة دم ﴿فَخَلَـقَ فَسَـوَّى﴾ أي فخلـق منهـا اللحم والعظم والعـروق والأعصـاب فسـواه إنسـانا مسـتويا على حسـب إرادتـه ﴿فَجَعَـلَ مِنْـهُ الـزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين من الآدميين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ أي يعيد خلقهم وتصويرهم وإعادتهم رجـالا ونسـاء فيأخـذ كـل مقامه المناسـب لأعمالـه وأحوالـه في مآلـه. بلى إنـه على كـل شـيء قدير، وبإفاضة الرحمة على عباده حري حقيق جدير. سـبحان ربـك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

سورة الإنسان، مدنية وآياتها إحدى وثلاثون، نزلت بعد الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَـلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَـانِ حِينٌ مِنَ الـدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَـيْئًا مَـذْكُورًا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَـةٍ أَمْشَـاجٍ نَبْتَلِيـهِ فَجَعَلْنَـاهُ سَـمِيعًا بَصِـيرًا (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُـورًا (3) إِنَّا أَعْتَـدْنَا لِلْكَـافِرِينَ سَلَاسِـلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (4) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَـانَ مِزَاجُهَـا كَـافُورًا (5) عَيْنًـا يَشْـرَبُ بِهَـا عِبَـادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَـا تَفْجِـيرًا (6) يُوفُـونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًـا كَـانَ شَـرُّهُ مُسْـتَطِيرًا (7) وَيُطْعِمُـونَ الطَّعَـامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَـا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْـهِ اللَّهِ لَا نُرِيـدُ مِنْكُمْ جَـزَاءً وَلَا شُكُورًا (9) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًـا عَبُوسًـا قَمْطَرِيـرًا (10) فَوَقَـاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11)﴾

قولـه تعـالى ﴿هَـلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَـانِ حِينٌ مِنَ الـدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَـيْئًا مَذْكُورًا﴾ قالوا إن أصل هل أهل والهمـزة للاسـتفهام، وهـل بمعـنى قـد وهي للتقريب ولما كثر استعمالها كذلك أفادت معناها ومعـنى الهمـزة، وصار بمعنى أهل.

وقيل: هي نفسها للاستفهام ولا تقريب. والاسـتفهام للتقريـر. أي جعـل المخاطب مقرا بما ذكر بعدها حتى يقـول المخـاطب نعم قـد أتى على الإنسان أي مادته الأصلية، حين لم يكن ذلك الإنسان شيئا مذكورا فيـه، فإذا أقر المخاطب بذلك قلنا له: فكيف لا تقر بـأن الخـالق الـذي خلقـه بصنعه أساساً قادر على أن يعيده ويبعثه بعد الموت للجزاء؟

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ إذا كان المراد بالإنسـان المـذكور سابقا آدم عليه السلام وجب اعتبار الاستخدام في ضمير خلقنـاه، فـإن آدم لم يكن مخلوقا من النطفة، وإنمـا المخلـوق منهـا نسـله، وإن كـان المراد غيره فالإضمار على العادة الثابتة. يقول الباري تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي أخلاط، فإنه مخلوق من مجموع نطفـتي الرجل والمرأة. فأمشاج جمع مشـيج بمعـنى خليـط وقيـل: إن أمشـاج مفرد كأعشار. وقوله ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ جملة حالية أي حالكوننا نكلفـه ونختـبره ونمتحنه ليتبين هل يعمل عملا نافعا لنفسـه ولغـيره أو لا يعمـل هكـذا؟ ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِـيرًا﴾ حـتى تكـون فيـه قابليـة الاختبـار والابتلاء ﴿إِنَّا هَـدَيْنَاهُ السَّـبِيلَ﴾ أي أرشـدناه سـبيل الخـير والشـر بنصـب الـدلائل المسـتفادة من بعث الرسـول ﴿إِمَّا شَـاكِرًا وَإِمَّا كَفُـورًا﴾ أي فهـو بعـد إرشاده إلى سبيل الخـير والشـر إمـا يكـون شـاكرا لأوامـر اللـه تعـالى ونواهيه بالتزامه لهما، وإما يكون كفورا برفضه لهما.

ثم بين مـا يـترتب على الشـكر أو الكفـر فقـال: ﴿إِنَّا أَعْتَـدْنَا لِلْكَـافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ أي سلاسل بهـا يقـادون إلى جهنم، وأغلالا بهـا يقيدون، وسعيرا فيها يدخلون ويحرقون. هذا حال الكفور، وقدّمه

لأن الإنذار أهم من التبشير وأما الشاكرون فقد بين أحوالهم بقوله ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي يشربون في الجنة من كأس من خمر لذة للشاربين، وما تمتزج به هو الكافور لبرده وعذوبته وطيب رائحته حالكون ذلك الكافور ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي منها ﴿عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يُجرونَها حيث شاءوا اِجْراءً سَهْلاً ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ مما رزقوا منه ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي فاشيا منتشرا ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي على حب الله، أو حب الطعام وذوقهم فيه ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أسر من الكفار إذا كانوا عندنا قائلين ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ ورضاه ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي مقابلا، أو شكرا فإن الخالص لله خالص له ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي نخاف من عذاب يوم عبوس شديد العبوس والعسرة ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي ولما كان غايتهم ذلك فوقيهم الله شر ذلك اليوم العبوس ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ ولقيهم أي وأوصلهم نضرة وسرورا.

﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13)﴾

قوله ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي جزاهم بما صبروا في الدنيا على قبول مشاق التكليف ﴿جَنَّةً﴾ يسكنونها ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونها ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ وهي جمع أريكة وهي السرير في الحجلة ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ والمراد من ذلك أن هواءها معتدل لا حر شمسٍ يؤذي ولا برد هواء يؤذي.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآَنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (15) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22)﴾

قوله ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ﴾ حال معطوفة على الجملة الحالية وهي لا يرون، أي حالكونهم دانية أي متدلية قريبة ﴿عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا﴾ أي وذللت ثمارها ﴿تَذْلِيلًا﴾ أي جعلت سهلة التناول لآخذيها. ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآَنِيَةٍ﴾ جمع إناء، ككساء ﴿مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب عطف على آنية، أي ويطاف عليهم بأكواب ﴿كَانَتْ﴾ تلك الأكواب ﴿قَوَارِيرَ﴾ جمع قارورة وهي إناء رقيق من الزجاج تُصَبُّ فيه الأشربة ﴿قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ بدل والكلام على التشبيه ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي قدروا تلك القوارير في أنفسهم فجاءت حسب ما قدروا بلا زيادة ونقص ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ أي مزاج تلك الكأس الخمرية كان زنجبيلا حالكون ذلك ﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ وكون الزنجبيل اسما لعين في الجنة مروي عن قتادة والظاهر أنهم تارة يشربون من كأس كان مزاجها كافورا، وتارة من كأس كان مزاجها زنجبيلا.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة ﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ أي دائمون على ما هم عليهم ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾ لحسنهم وصفاء ألوانهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أي في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ عظيم القدر من المواد المنورة والمفرحة والأنهار والأشجار.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قيل عاليهم ظرف بمعنى فوق على أنه خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر، أي ثياب سندس خضر واستبرق فوقهم، أي فوق أبدانهم أي يلبسونها. والسندسُ ما رَقّ من الديباج، والإستبرق الغليظ منها.

﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ حلوا فعل ماض للجمع المذكر أصله حُلِّيوا من باب التفعيل، أي وزينوا بحلي هي أساور من فِضّة لائقة بتلك الدار وذلك الدثار ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قالوا هذا نوع آخر من الخمر غير ما مُزِج بالكافور وما مُزج بالزنجبيل، ولذلك أتى بذكر هذا السقي بعد ذكر الكأسين السابقين. والمراد أن الشراب طاهر في ذاته وطهور يطهر قلوبهم، ويأتيهم النداء من جانب الحق جل جلاله ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ﴾ في الدنيا ﴿مَشْكُورًا﴾ مقبولا.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآَنَ تَنْزِيلًا (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آَثِمًا أَوْ كَفُورًا (24) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (28) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31)﴾

قوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآَنَ﴾ أي نزلناه منجما مفرقا مقسما كل جملة منه على بعض الأوقات ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نصرك على كفار

مكة وغيرهم ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آَثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي كل واحد من مرتكب الإثم الداعي إليه ومرتكب الكفر الداعي إليه. فإن قلت: إن النهي عن إطاعة الآثم يكفي عن إطاعة الكفور لأن الآثم منهم كفور قلنا التقسيم باعتبار الدعوة ولا يلزم من الدعوة إلى الإثم الدعوة إلى الكفر ولا العكس، فكانوا منقسمين إلى قسمين، فمنهم من يدعو الناس إلى الكفر والإشراك، ومنهم من كان يدعو إلى الإثم وهو عدم إطاعته الرسول في الخير وعدم المبالاة به، فنهى الله تعالى رسوله عن إطاعة كل من القسمين.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وظاهر الآية ينادي إلى ذكر الله تعالى نحو الله الرحمن الرحيم وغيرها من الأسماء الحسنى فإن التلفظ بها تبركا وإيقاظا للقلب الغافل عن غفلته من المدلولات الأولية لمثل هذه الآية، ومثلها كثير في القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ وقوله ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ وقوله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ وقوله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا﴾ وقوله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ وقوله ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ وقوله ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وقوله ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ وقوله ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ وقوله ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وقوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾... وغيرها من الآيات الجليلة، فإنها كلها تعم لوجوه كثيرة من الذكر كذكره تعالى على سبيل تعداد المفردات المعدودة في التعبير نحو الله، الله، الله... أو على سبيل النداء نحو يا الله، يا الله. أو مع كلمة التوحيد نحو لا إله إلا الله، لا إله إلا الله. أو مع التسبيح والتحميد والتكبير نحو سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم. ونحو سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله اكبر... وغيرها من التعبيرات.

وبيان معنى بعض الآيات بوجه خاص كالبسملة عند الذبح، أو التلبية عند الإحرام بالحج لا ينافي ولا يمنع شمولها لما ذكرنا، فإن العام الوارد على سبب خاص لا يختص به ويبقى على عمومه، وعدم اشتغال الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بذلك النوع لأنه كان عندهم واجبات مهمة، وقد ورد النهي عن مطاوعة الغافلة عن ذكر الله تعالى. وقال ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أو أن معناه الأمر بالدوام على صلاة الفجر والظهر والعصر.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ أي وفي بعض اوقات الليل فاسجد، أي فصل له تعالى لكن التقيد بذكر ركن هو أفيد الأركان لأن أقرب أوقات الإنسان من الله وقت السجود له. ولعل المراد به صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أي وتهجد له مقدارا طويلا من الليل ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ وهي الدنيا ومتاعها ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ تحمله لما فيه من العذاب والعقاب ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي وأحكمنا ارتباط مفاصلهم بعضها ببعض ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هَذِهِ﴾ أي هذه السورة ﴿تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي طريقا يفيد السير عليه الوصول إلى المأمول.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وبيان ذلك أن الله تعالى عالم أزلا وأبدا بجميع المعلومات ولا يتخلف المعلوم عن علمه، ومريد لكل الموجودات ولا يتخلف المراد عن إرادته، ومنفرد بالقدرة فهو الخالق لكل مخلوق من المخلوقات. وقد علم أزلا أنه يخلق العباد مع قوة الاستعداد، وأن فيهم رغبة إلى ما يحبون موافقا للحق أولا، ويريدون جلبه ولما كان هو المتفرد بالخلق التابع للإرادة التابعة لعلمه الحاكي عن أعمال العباد في المستقبل فإذا جاء وقت عمل العبد توجه إلى ما علم أزلا أنه يفعله باختياره وإرادته لو

كان مستقلا.. أراده إرادة متقدمة بالذات على إرادة العبد وخلق المراد لأن الله هو السابق في ميدان الخلق فلا إجبار منه على عباده، لأنه خلقهم سالمين عالمين عاملين مع الحواس السليمة والمشاعر المستقيمة، ولهم أسماع يسمعون بها وأبصار يبصرون بها، ودماغ يتخيلون به، وقلوب يتفكرون بها، ورغبات في مشتهيات، ورهبات عن مكروهات، والجذب والدفع موجودان، والجهاز مناسب للسلب والإيجاب وهو برغبته يحب ذاك، وبكراهته يكره ذلك، وقد علم الله تعالى أزلا كيف يتصرف العبد وإلى أين يميل وعن أي طريق ينحرف. ولا خالقية للعباد لأنهم لو كانوا خالقين لخلق كل كاسب صنعته. من أفضل الصنائع، فكان كرسي ذلك النجار أحسن الكراسي، وكتابة ذلك الكاتب أحسن الخطوط على القرطاس، وإنما هم كاسبون بتفويض الميل الجزئي إليهم ليكون سببا لخلق الباري تعالى مرادهم على حسب إرادتهم وهذا هو حاصل تحقيق أهل العلم بالأصول فمن الله التوفيق على الخير وبه العون للوصول.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأعمالنا ﴿حَكِيمًا﴾ في توديع القوى والمشاعر إلى عباده ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ حسب سعي العبد في تحسين نيته ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ بإضاعة الميل إلى الخير ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أعاذنا الله منه بفضله ورحمته آمين.

سورة المرسلات، مكية، إلا آية 48 وآياتها خمسون

نزلت بعد الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19)﴾

قوله تعالى ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ روي أن هذه السورة نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن. قال ابن مسعود: ونحن معه نسير حتى وصلنا إلى غار مِنى فنزلت، فبينما نحن نتلقاها منه وفُوهُ رَطب بها إذ وثبَت حيّة فَوَثَبنا عليها لنقتلها، فذهبت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

((وقيتم شَرَّها كما وَقِيَتْ شَـرَّكم))، والغـار المـذكور مشـهور في مـنى يسمى غار المرسلات.

وقد أقسم الباري سبحانه وتعالى بصـفات خمسـة موصـوفها محـذوف، فَقَـدّره بعضُـهم الرِّيـاح في الكـلّ. وبعضـهم قـدّره الملائكـة في الكـل. وبعضهم غاير فَجَعَله تـارةً الريـاحَ وتـارةً الملائكـة. ومن جعلـه الملائكـة فقـال: المُرْسَـلات، والعاصـفاتُ طوائـف، والنّاشـرات والفارقـات والمُلقياتُ طوائف اخرى. فالأول طوائف أرْسِلت بـأمره تعـالى وأمـرن بانفاذه أي تنفيذ الأمـر فعَصَـفْنَ بالمُضِـيّ وأسْـرَعن كمـا تعصِـف الـريح تَخَفُّفاً في امتثال الأمر وإيقـاع العـذاب بـالكفرة إنقـاذاً للأنبيـاء ونَصْـرَةً لهم. والثـاني طوائـف نَشَـرن أجنحتهنّ في الجـوّ عنـد نـزولهن بـالوحي فَفَرَّقْنَ بين الحَق والباطل فَأَلْقَيْنَ ذكراً إلى الأنبياء عليهم السلام.

والمعـنى أقسِـمُ بالملائكـة المُرْسـلات بـأمره تعـالى عُرفـاً أي متتابِعـاً بعضهم البعض فَعَصَفْن وَأسْرعن بالحَرَكة إلى محلّهم المقصود.

وأقسْم بالملائكة النّاشرات أجنحتَهن عنـد انحطـاطهن بـالوحي ففـرّقنَ بينَ الحق والباطل فَأَلْقَين ذكراً للأنبيـاء عليهم السـلام. ولعـل من يلقى ذكرا لهم غير مختص بجبريل عليهم السلام بل هو رئيسهم.

وقوله ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أي للأعذار والإنذار وقوله ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِـعٌ﴾ هو الـمُقْسَمُ عليه أي إن الـذي توعدونـه لواقـع متحقـق في الخـارج اِنْ عاجلا أو آجلاً ﴿فَـإِذَا النُّجُـومُ طُمِسَـتْ﴾ أي مُحِي ضـوؤها ﴿وَإِذَا السَّـمَاءُ فُـرِجَتْ﴾ أي شـقَّت ﴿وَإِذَا الْجِبَـالُ نُسِـفَتْ﴾ أي فُتتِّت وسـيّرت ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي جمعت لوقت عند البـاري تعـالى ليشـهدوا على عبـاد الله تعالى الشهادة منهم على الناس ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾

بين الخلق ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي في ذلك اليوم الهائل، وويل في الأصل مصدر بمعنى الهلاك ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ كقوم نوح وعاد وثمود ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ أي كمشركي مكة وَمَن يحذو حذوهم ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي بكل مَن أجْرَم، فإن سنة الله لا تتبدل ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله ومعجزات المرسلين.

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (27) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28)﴾

قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ أي ألم نخلقكم من نطفة قذرة مهينة ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ أي ذلك الماء ﴿فِي قَرَارٍ﴾ أي ﴿مَكِينٍ﴾ مستحكم وهو الرحم ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أي مقدار من الزمان معين عند الله تعالى وهو زمان الحمل ﴿فَقَدَرْنَا﴾ أي ففرضنا ذلك الزمان لنمو النطفة فيه إلى أن يستعد للخروج ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ أي فنعم الفارضون المقدرون ذلك الزمان لبقاء النطفة مع تطوراتها في الرحم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بقدرتنا على ذلك ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ أي ضامّة لكم تضم في كل وقت وزمان ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ فكما تضمكم في الحياة تضمكم في الممات أيضا حيث أنتم مقبورون ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي وخلقنا في الأرض جبالا عوالي ثوابت في الأرض ﴿شَامِخَاتٍ﴾ مرتفعات على سطحها ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ أي ماء عذبا صافيا عن الملوحة والمرارة بأن خلقناه في أصولها وأظهرناه لكم من منابع وعيون فصارت أنهارا ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأمثال هذه النعم المفيدة.

﴿انْطَلِقُـوا إِلَى مَـا كُنْتُمْ بِـهِ تُكَـذِّبُونَ (29) انْطَلِقُـوا إِلَى ظِـلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَـةٌ صُـفْرٌ (33) وَيْـلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَـذِّبِينَ (34) هَـذَا يَـوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَـذِّبِينَ (37) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَـإِنْ كَـانَ لَكُمْ كَيْـدٌ فَكِيـدُونِ (39) وَيْــلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَــذِّبِينَ (40) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُــونٍ (41) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَـذِّبِينَ (45) كُلُـوا وَتَمَتَّعُـوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُــونَ (46) وَيْــلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَــذِّبِينَ (47) وَإِذَا قِيــلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48) وَيْـلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَـذِّبِينَ (49) فَبِـأَيِّ حَـدِيثٍ بَعْـدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)﴾

قوله ﴿انْطَلِقُوا﴾ أي يقال لهم: إنطلقوا ﴿إِلَى مَـا كُنْتُمْ بِـهِ تُكَـذِّبُونَ﴾ من العذاب وشدته ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِـلٍّ﴾ يعـني ظـل دخـان جهنم ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ يتشعب لكثرته وبُعدِ أقْطاره ﴿لَا ظَلِيـلٍ﴾ ذلـك الظـل ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي ليس ذلك الظـل كظـل مفيـد بـرودة مّـا يسـتريح تحتـه المقيمون هنا، ولا يغني الناس أي ولا يدفع عنهم شيئا من اللهب وحره. وهذا تهكم بهم لأن ظل دخان جهنم لا ينتظر منه الخير والراحة مطلقا، كيـف وقـد قـال ﴿إِنَّهَـا تَـرْمِي بِشَـرَرٍ كَالْقَصْـرِ﴾ أي إن نـار جهنم تـرمي بموجات من الشرارة كل شرارة منها كالقصر في عظم حجمها وقولــه ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ يبين لونها

يعني إن تلك الموجات النارية لامتزاجها بالدخان وغلبة النارية فيها تشبه الجمل الكبير الأصفر ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ وجمالت جمع جمل والتاء لتأنيث الجمع، وصفر بضم الصاد جمع صفراء.

﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ﴾ أي وهذا الوقت أعني وقت دخولهم النار وقت لا ينطقون فيه لغلبة الدهشة عليهم بحيث بقوا مبهوتين ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي لا يؤذن لهم في الاعتذار حتى يعتذروا عما اقترفت أيديهم من السيئات ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين المحق والمبطل ﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ فيه ﴿وَالْأَوَّلِينَ﴾ أي من تقدمكم من الأمم حتى نحاسبهم على أعمالهم ونميز المحقين عن المبطلين ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ أي حيلة لطيفة تتخلصون بها من المحاسبة أو من عسرتها أو من إصابة عاقبتها ﴿فَكِيدُونِ﴾ أي فأتوا بذلك الكيد إلينا أو فافعلوها بغية استخلاصكم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث يظهر لهم أن لا ملجأ لهم من الله إلا إليه.

ولما بين حال الكافرين أخذ في بيان أحوال المؤمنين وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي عن الكفر والمعاصي ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ جمع ظل وهو فيء بساتين الجنة ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية من البساتين ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة الناشئة من النيات الحسنة.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي العاملين بإحسان ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ الباقين في العذاب الذين يقال لهم في وقت تعذيبهم ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ وقد أجرمتم في الدنيا كما شئتم ونعذبكم اليوم كما نشاء.

وتعبير كلوا وتمتعوا وارد على سبيل التهكم والتحقير، وكذلك قليلا، ومعناه: إن هذا العذاب لشيء قليل لا يضركم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ أي صلّوا ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي ما كانوا يركعون ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أي بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا بذلك الكتاب الهادي إلى الصواب.

الجزء الثلاثون

سورة النبأ، مكية، وآياتها أربعون، نزلت بعد سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَـاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَـإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيـهِ مُخْتَلِفُـونَ (3) كَلَّا سَـيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَـيَعْلَمُونَ (5) أَلَمْ نَجْعَـلِ الْأَرْضَ مِهَـادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًـا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)

قولـه تعـالى: عَمَّ يَتَسَـاءَلُونَ أصـل عم عمـا بحـرف الجـر وأداة الاستفهام، فحذف ألفها على أصل مقرر كما يقول ابن مالك:

وما في الاستفهام إن جُرّت حُذف ألِفها وَأولِها الها إن تقف

ومعنى هذا الاستفهام تفخيم شـأن مـا يتسـاءلون عنـه وهـو البعث بعـد الموت، وضـمير الجمـع في يتسـاءلون راجـع إلى كفـار قـريش وإن لم يتقدم ذكرهم،

لكنهم لما كانوا يبحثون عن هذا الأمر بالاستمرار فكانوا كالحاضرين في معــرض الســؤال عن الآخــرة. وقولــه ﴿عَنِ النَّبَــإِ الْعَظِيمِ﴾ جــواب للاستفهام، وبيـان لشـأن المسـئول عنـه بإبهـام أمـره وتوصـيف النبـأ بـالعظيم ﴿الَّذِي هُمْ﴾ أي كفـار مكـة الـذين هم ﴿فِيـهِ مُخْتَلِفُـونَ﴾ سـلبا وإيجابا فمنهم من يعترف به ويقرره، ومنهم من ينحرف ولا يعترف بــه.
﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردع وزجـر وإبعـاد لمن لا يقـر بـه وينكـره فيقـول: كلا سيعلمون أي أولئك المتسـائلون المسـتهزءون ﴿ثُمَّ كَلَّا سَـيَعْلَمُونَ﴾ مـا يلاقونه من أنـواع العـذاب بعـد المـوت الـذي ينكرونـه، وكيـف ينكـرون البعث الذي هو بالنسبة إلى صنع الكائنـات كحلقـة في فلاة ﴿أَلَمْ نَجْعَـلِ الْأَرْضَ مِهَـادًا﴾ أي ألم نخلـق الأرض وجعلناهـا فراشـا ممهـدا مفروشـا تحت أقدام الماشين عليها ومقرا للقاعدين الساكنين عليها ﴿وَالْجِبَـالَ﴾ الراسية النافذة في أعماقها ﴿أَوْتَادًا﴾ لتوازن أثقال الأرض وتوازنهـا في حركتها ودورانها.

﴿وَخَلَقْنَـاكُمْ﴾ عليهـا حـالكونكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ مؤلّفــة من الــذكر والأنــثى لتتراحموا وتتآلفوا وتتزاوجوا ويستأنس كلّ بالآخر وتعاونوا في المعيشة براحة، وتتوالدوا لبقاء النسل على طبيعة الأصل ﴿وَجَعَلْنَـا نَـوْمَكُمْ﴾ بعـد العمل ﴿سُبَاتًا﴾ أي راحة لأبدانكم واستعادة لقواكم ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ﴾ لكم ﴿لِبَاسًا﴾ يسـتركم عن أعين النـاس ويقيكم عن الأعـداء، لأنـه يسـتركم بظلامه عن هجمات الناس القاصدين لإبادتكم ﴿وَجَعَلْنَـا النَّهَـارَ مَعَاشًـا﴾ أي زمان كسب للمعيشة ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَـبْعًا شِـدَادًا﴾ من السـماوات قوية الخلق محكمة لا يسقط بدون عمد يـرى بـل بجاذبـة إلهيـة ربانيـة ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فيها بل في الأولى منها ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ مشرقا صـافيا متلألأ ليتنور فضاء الكائنات ليكتسب الكاسب ما أعِدَّ له من البركات ﴿وَأَنْزَلْنَـا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾أي من السحب التي هي ذات عصر من ضـغط الريـاح الهابة القوية التي لها ضغط

على السحاب ﴿مَاءً﴾ مقطرا ﴿ثَجَّاجًا﴾ أي منصبا بكثرة ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ من أعماق الأرض ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ أي زراعة تكون ذات سنابل وفي كل سـنبلة حبوب، أو ترتبط بها الحبات مباشرة ونباتا مما يأكله الإنسـان والأنعـام، وسائر الطيور والحشرات والهوام، أو أشـجارا تعلـو وتثمـر مـدة بقائهـا بحسب ما لها من القوام، وقوله ﴿أَلْفَافًا﴾ جمع لفيـف أي ملتفـة يـدخل بعضها في بعض يصـح اعتبارهـا للنبـات على اختلاف أنواعهـا وأصـنافها وأشخاصها، فإنها إذا كثرت وازدحمت دخل بعضها في بعض.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَـأْتُونَ أَفْوَاجًـا (18) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَـرَابًا (20) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (22) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (24) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25) جَزَاءً وِفَاقًا (26) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (27) وَكَـذَّبُوا بِآَيَاتِنَـا كِـذَّابًا (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ شروع في بيان سر تـأخير مـا يتسـاءلون عنه ويقـول إن يـوم الفصـل كـان في علمنـا وتقـديرنا ﴿مِيقَاتًـا﴾ لجمـع المكلفين كلهم وحساب أعمالهم وأخذ كل ما يستحقّه، فلذلك تأخر إلى الوقت الموجود. وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ بـدل من يـوم الفصـل أي إن يـوم الفصـل يـوم ينفخ ﴿فِي الصُّـورِ﴾ النفخـة الثانيـة لبعث المـوتى وحشـر النـاس في المحشـر ﴿فَتَـأْتُونَ أَفْوَاجًـا﴾ أي فـإذا نفخ فيـه أتيتم أفواجـا وجماعات متعددة ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ﴾ لكـثرة الفتح فيهـا ﴿أَبْوَابًـا﴾ والمراد بالفتح الشق، والمقصود أن عند النفخ

لا تبقى السماء على ما كانت، ويختل نظامها فتصير كالنحاس المـذاب، أو الدهن المحمي، كما قال فإذا انشقت السماء فكـانت وردة كالـدهان ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ أي حركت وأزيلت من موضعها ﴿فَكَـانَتْ سَـرَابًا﴾ أي فصارت من أثر هذا التسيير كالسراب.

ولما بعث الناس وحشروا في موضع وحوسبوا وتبينت الأعمال والعمال والجزاء والنكال كان الجزاء ما قاله تعـالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَـانَتْ مِرْصَـادًا﴾ موضــع رصــد وتــرقب للنــاس من الــذي يــدخل فيهــا ومن لا يــدخل ﴿لِلطَّاغِينَ مَآَبًـا﴾ أي مآبـا للطـاغين على اللـه ورســوله وعلمـاء أمتـه ﴿لَابِثِينَ﴾ أي حالكون الناس الـداخلين فيهـا لابـثين فيهـا ﴿أَحْقَابًـا﴾ جمـع حقب وهو زمان ممدود وغير محدود ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَـرَابًا إِلَّا حَمِيمًا﴾ أي ماء حارا جدا ﴿وَغَسَّـاقًا﴾ وهـو صـديد أهـل النـار فجزينـاهم بذلك ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ لأعمـالهم ﴿إِنَّهُمْ كَـانُوا لَا يَرْجُـونَ حِسَـابًا * وَكَـذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ أي تكذيبا ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من الحسنات والسيئات ﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًـا﴾ أي ضـبطنا كـل شـيء ضـبط كتابـة بحيث لا يفوتنـا علم بشـيء ﴿فَذُوقُوا﴾ أيها المشتاقون لمتـاع الهـوى والـدنيا الدنيـة شـراب الحميم والغساق المسـتقذرة والمحميـة ﴿فَلَنْ نَزِيـدَكُمْ إِلَّا عَـذَابًا﴾ على عـذاب وبلاء على بلية.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَـازًا (31) حَـدَائِقَ وَأَعْنَابًـا (32) وَكَـوَاعِبَ أَتْرَابًـا (33) وَكَأْسًا دِهَاقًا (34) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْـوًا وَلَا كِـذَّابًا (35) جَـزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَـاءً حِسَــابًا (36) رَبِّ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَــا بَيْنَهُمَــا الــرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (37) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُــونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (38) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَـاءَ اتَّخَـذَ إِلَى رَبِّهِ مَآَبًا (39) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُـرُ الْمَـرْءُ مَـا قَـدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ شروع في بيان احوال المؤمنين فيقـول ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ من الكفـر والمعاصـي ﴿مَفَـازًا﴾ أي فـوزا وظفـرا بـالخيرات وسعادة لا سعادة فوقها في الأرض والسماوات، أو صحراء واسعة كلها صارت بساتين ورياحين لا تمدح ولا توصـف من كـثرة عطرهـا ونشـرها فقوله ﴿حَدَائِقَ﴾ بـدل من مفـازا بـدل كـل من الكـل وقولـه ﴿وَأَعْنَابًـا﴾ بتقدير المضاف أي حدائق وبسـاتين ذات أعنـاب ﴿وَكَـوَاعِبَ﴾أي حـورا ارتفعت ثدياها وإستدارت حـالكونهن ﴿أَتْرَابًـا﴾ لـدات على ولادة واحـدة وعمر واحد ﴿وَكَأْسًا﴾ من الخمور الطاهرة ﴿دِهَاقًا﴾ مترعة مملـوءة من الشراب ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ من الكلام لا فائدة فيه ﴿وَلَا كِذَّابًا﴾ أي تكـذيبا من بعضـهم لبعض وجـوزوا بـذلك ﴿جَـزَاءً مِنْ رَبِّكَ﴾ حالكونـه ﴿عَطَاءً﴾ أي تفضـلا وإحسـانا ﴿حِسَـابًا﴾ أي كافيـا لهم ﴿رَبِّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ والمراد نفي قدرتهم على أن يخاطبوه عز وجل بشيء من نقص العذاب أو زيادة الثواب من غير إذنه تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُـونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

في بيان المراد من الروح أقوال أرجحها أنه جبريـل عليـه السـلام فقـد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن جبريل لقائم يوم القيامة بين يـدي الجبـار ترعـد فرائصـه فرقـا من عـذاب اللـه تعـالى يقـول: سبحانك لا إله إلا أنت ما عبدناك حـق عبادتـك. وقولـه ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَـهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ بـدل من ضـمير لا يتكلمـون وهـو عائـد إلى أهـل السموات والأرض الـذين من جملتهم الـروح والملائكـة. وذكـر قيـامهم مصطفين لتحقيق عظمة

سلطانه تعالى وكبرياء ربوبيته عز وجل، وتهويل البعث الذي عليه مدار الكلام من مطلع السورة الكريمة إلى مقطعها.

وهذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على نفي الشفاعة من أي نبي أو ولي أو شهيد أو صالح من الصلحاء لأنها تنفي الكلام بدون إذن من الله. وأصحاب الشفاعة لا يتكلمون إلا بإذن من الله سبحانه وتعالى ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ أي قيامهم على الوجه المذكور في ذلك اليوم حتى يعتني به ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآَبًا﴾ يعني فإذا كان الأمر على ما ذكره الله تعالى فمن شاء اتخذ إلى ربه وجواره ﴿مَآَبًا﴾ أي رجوعا وإنابة إليه.

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ هو عذاب الآخرة وقربه لتحقق إتيانه في ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ والمراد يوم يشاهد المكلف المؤمن والكافر ما قدمت يداه من خير أو شر ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ ولا أتحول إلى المواد المأكولة ولا أنقلب نطفة إنسانية ولا أخلق كإنسان مكلف حتى لا أنهمك في شهوات نفسي، ولا أترك رعاية جانب القدس، ولا أرى يوم الحساب ولا أدخل في هذا العذاب، ولا ينفعه هذا التحسر والتأثر لأنه قضى وقته بالغرور وجاء وقت البعث والنشور.

وأما المؤمن فيرتاح في النعم ويتقلب في أمواج وأمواج من الإحسان والكرم، ويقول: الحمد لله الذي خلقني كإنسان، وهداني إلى طريق الخير والإحسان، فعشت ببركات، ومت على خيرات، وفزت بدرجات. فالحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيد فضله، وسلام على جميع المرسلين وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

سورة النازعات، مكية، وآياتها ست واربعون، نزلت بعد سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (9) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (11) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ هذه الأوصاف إما صفات الملائكة المأمورين بقبض الأرواح فيقول أقسم بالملائكة اللاتي ينزعن الأرواح من الأجساد ﴿غَرْقًا﴾ أي نزعا بإغراق أي بقوة ومبالغة في نزعهم لها منها. ﴿وَ﴾ أقسم بـ ﴿النَّاشِطَاتِ﴾ أي بالملائكة التي تنشط الأرواح أي ينزعها بسهولة وسلامة مثل ما تأخذ شعرة من حليب ﴿وَ﴾ أقسم بالسابحات سبحا أي بالملائكة التي تسبح في إخراج الأرواح سبح الغواص الذي يخرج الدر من أعماق البحار

﴿فَ﴾ أقسم بالملائكة ﴿السَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ بالأرواح إلى مقارّها أينما كانت ﴿فَ﴾ أقسم بالملائكة ﴿الْمُدَبِّرَاتِ﴾ التي تدبر أمر الأرواح بالتنعيم أو بالتعذيب في عالم البرزخ. أو المراد بالمدبرات سائر الملائكة المدبرات لأمور العالم حسب تلقي الأوامر من الله تعالى، فإن العالم كلها عالَمُ الأسباب المادية والمعنوية، وذلك ليس لعجز الباري تعالى عن إيجاد أيّ شيء أراده من تأثير ذاته فيه بذاته، فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. بل لتطبيق سنة سنية ربانية أجراها في الكائنات حتى بين الجمادات، فالنبات محتاج إلى الأرض والماء ونموّه إلى أشعّة الشمس في السماء، وبين الحيوانات المتزاوجة للتناسل وبقاء النوع سواء ذوات الولادة أو البيض، وبين الجن والملائكة والإنسان، فجعل بعضا من العارفين ليفيدوا مَنْ عداهم بالرَّوْح أو المادة على طريق التعاون في الأمور، وكل ذلك جائز وواقع وسليم بلا مانع، إلا فيما نهى عنه الشارع نهيا خاصا أو عاما. ومع ذلك كله فهذه الأسباب ليس لها تأثير بالخلق والإيجاد والإبداع في مثقال ذرة في الأرض والسماوات وغيرها. كما قال تعالى: ﴿وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ والتأثير مختص به بذاته الجليل ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

والله سبحانه وتعالى أقسم بكل ذلك على أن مجيئ البعث والحساب حق، وحذف المقسم عليه لأنه يدل عليه قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ أي أن البعث سيتحقق يوم ترجف كل راجفة أي كل ما من شأنه أن يرجف كالأرض والجبال والأشجار والأحجار ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي وإذا رجفت الرواجف السفلية تتبعها الرادفة أي الأجرام العلوية. يعني أنه بعد زلزال الأرض كلها تتزلزل الأجرام السماوية أيضا ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي شديدة الاضطراب والقلق ﴿أَبْصَارُهَا﴾ أي أبْصار أصحابها ﴿خَاشِعَةٌ﴾.

وقوله تعـالى: ﴿يَقُولُـونَ أَئِنَّا لَمَـرْدُودُونَ فِي الْحَـافِرَةِ﴾ جملـة مسـتأنفة حاكيـة لأقـوالهم في إنكـار البعث. يعـني أنـا أقسـمنا بـالأمور السـابقة الواقعيــة على أن البعث الموعــود ســيتحقق فلا تنظــروا إلى أولئــك المشــركين البســطاء الســذَّج يقولــون في حــال الإنكـار للبعث أإنــا لمــردودون في الحــافرة أي في الأرض ذات الحفــر أو في المحفــورة ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ أي بالية متفتتة ﴿قَـالُوا﴾ أي أولئـك المشـركون ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِـرَةٌ﴾ أي قـالوا تلـك الرجعـة رجعـة خاسـرة أي ذات خسارة يعني إن صحت فإنـا خاسـرون حيث أهملنـا واجبنـا وكسـبنا في سبيل نيل السعادة وأنكرناها حـتى جاءنـا اليـوم بهـذه الداهيـة العظمى ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْـرَةٌ وَاحِـدَةٌ﴾ أي لا تستعصـبوها فإنمـا هي صـيحة واحـدة ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي فإذا هم أحياء على وجه الأرض يمشـون عليهـا فيعلمون أنـه جـاءهم الأمـر الموعـود وهـو البعث من القبـور للحسـاب والميزان ثم النشور.

﴿هَلْ أتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَـدَّسِ طُـوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَـوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُـلْ هَـلْ لَـكَ إِلَى أَنْ تَـزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآَيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَـالَ أَنَـا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَـذَهُ اللَّهُ نَكَـالَ الْآَخِـرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَعِبْـرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26)﴾

قوله تعالى ﴿هَلْ أتَاكَ حَـدِيثُ مُوسَـى﴾ أي أليس قـد أتـاك حديثـه حتّى تتسلى به وتعلم أنه ما من إنسـان لـه شـأن في خدمـة الحـق وإرشـاد الخلـق إلا عارضـته الموانـع والمفاسـد وأصـحاب الضـلال من الجاحـد والحاسد؟ وحديثه وقع ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَـدَّسِ﴾ من شـعاب جبـل طور، وهو المشهور

المعـروف بـ ﴿طُـوًى﴾ وقـال لـه ربـه: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَـوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ وتجاوز عن حد العبودية بادعاء الألوهيـة، ولا يفهم أن العبـد ذليـل أمـام المقتدر الجليل ﴿فَقُلْ﴾ له ﴿هَـلْ لَـكَ﴾ الميـل ﴿إِلَى أَنْ تَـزَكَّى﴾ وتتطهـر من الأخلاق الدنية ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَـى﴾ بـأداء الواجبـات وتـرك المعاصي فطلب منه المعجزة ﴿فَأَرَاهُ الْآَيَةَ الْكُبْرَى﴾ وهي قلب العصـى الخشـبية حيـة تسـعى ﴿فَكَـذَّبَ﴾ فرعـون موسـى ﴿وَعَصَـى﴾ ولم يهتم بالحيـة ولا العصـا ﴿ثُمَّ أَدْبَـرَ يَسْـعَى﴾ لجمـع النـاس لتأييـده على انيـة الشيطان ﴿فَحَشَرَ﴾ جميع السحرة الموجودين في بلاده ﴿فَنَـادَى﴾ فيهم وفي من اجتمعوا حولهم ﴿فَقَالَ﴾ أيها الناس ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ولا رب سواي وكلكم تحت أمـري وقـوتي ﴿فَأَخَـذَهُ اللَّهُ نَكَـالَ الْآَخِـرَةِ وَالْأُولَى﴾ النكال بمعنى التنكيل كالسـلام بمعـنى التسـليم وأخـذ أيضا فيـه معـنى النكال أي فنكل الله به وعاقبه نكـال الآخـرة والأولى أي عقـاب كلمتـه هذه أعني قوله أنـا ربكم الأعلى وكلمتـه الاولى مـا علمت لكم من إلـه غيري أو بالعكس فأغرقه وشتت قومه ومزقه، وأغرق ركبه ثم أحرقــه، وجعلهم مثلا للعالمين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الحادث المهم الخـارج عن العـادة الداخل في عقول أهل السعادة ﴿لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾.

﴿أَأَنْتُمْ أَشَـدُّ خَلْقًـا أَمِ السَّـمَاءُ بَنَاهَـا (27) رَفَـعَ سَـمْكَهَا فَسَـوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَـا (30) أَخْـرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَـامِكُمْ (33) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (35) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (36) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَـإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَـأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَـافَ مَقَـامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَـوَى (40) فَـإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَـأْوَى (41) يَسْـأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَـا (44) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَـاهَا (45) كَـأَنَّهُمْ يَـوْمَ يَرَوْنَهَـا لَمْ يَلْبَثُـوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)﴾

قوله تعالى ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ خطاب مع الجمع المصدر بهم السورة، وبعد بيان آثار قدرته في دحر أشد أعداء الأنبياء والمرسلين، وهو فرعون فيقول لهم مذكرا ببيان بعض آثار قدرته: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي أقوى وأحكم ﴿أَمِ السَّمَاءُ﴾ التي وردت عليها التصرفات الآتية ﴿بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي علاها إلى الفوق بقدر ما تعلقت به قدرته ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي جعلها مستوية كاملة حسب حكمته وتقديراته ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي وأظلم ليلها ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي وأبرز نور نهارها، وخص الضحى لصفاء النور فيه وميله إلى التزايد ﴿وَالْأَرْضَ﴾ منصوب على الاشتغال أي دحا الأرض ﴿بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أي بسطها ووسعها، فإن بناء أصل مادتها قبل السماء ودحوها قبل ذلك ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ بتفجير عيونها ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ أي مواضع الرعي فيها بأن خص بعض المواضع بمزيد النبات والعشب التي ترعى وتعيش منها الحيوانات ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أي وأرسى الجبال وأثبتها وأحكمها، وفعل ذلك ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ فإن من المأكولات ما هو مشترك بين الإنسان وغيره، ومنها ما يخص الأول، ومنها ما يخص الثاني، ومنشأ الكل عبارة عن الأرض.

والذي ذكرنا لكم متعلق بمعاشكم وانتعاشكم في الدنيا ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ أي الداهية التي هي أعظم الدواهي وهي الساعة، فإنها من طمّ بمعنى علا وفي المثل جَرَى الوادي فطَمَّ على القُرى، وجاء السيلُ فَطم الرُّكى، وأبدل منها يوم في قوله ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ فهل

عنده شيء ينفعه أولا؟ ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ أي لمن يمكن منه الرؤية كائنا من كان. روي أنها تتكشف مدة من الزمان على أعين الناس حتى يراها كل راءٍ مزيدا في حسرة الكافرين على ما فرطوا، وفي شكر المؤمنين على أنعم الله تعالى عليهم حيث نجاهم من الجحيم وأوصلهم إلى جنان النعيم ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ وتجاوز عن حد الشرع ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي عظمته وشأنه وهيبته أو أوامره ونواهيه والخزي بين عامة مشاهديه ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ أي عن اتباعه والعمل على مقتضاه ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي متى إرساؤها أي إقامتها وثبوتها ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ أي في أيّ شيء أنت من أن تذكُرَ لهم وقتَها، ولماذا تقبل سؤالهم لتجيب عنه؟ فإنهم لا يسألونك استرشاداً، وإنما يسألون استنكارا وعنادا. والجواب المسموح به هو أنه ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ أي العلم بوقتها ونهاية الزمان السابق على وجودها عائد إلى ربك ومخصوص به، وهذا من الغيب الذي لا يظهر عليه إلا من ارتضى من رسول ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ أي ما أنت برجل مكلف ببيان المغيبات للناس لاسيما الغيب الذي في بيانه هتك الأستار وكشف الأسرار، وإنما أنت مكلف بإنذار من يخشى مجيئ الساعة والحساب والميزان فيه لعله يسترشد بكلامك ويتوجه إلى إطاعة ربه العزيز العلّام. والساعة تأتيهم بغتة ومفاجأة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أي ولَيْسَ الاهتمام للعاقل الهمام بقرب الساعة وبعدها فإن الساعة آتية لا ريب فيها، وإن زمان العمر، وإن طلال جدا فهو لا قيمة له بالنسبة إلى من تأتيه حيث أنه لو بقي ألف سنة في الدنيا فإذا جاءته الساعة تحولت حالته إلى استقلال حياته الألفية وكأنه لم يلبث في الدنيا إلا ساعة من الزمان وكأنهم لم يلبثوا إلا عشية أو ضحيها.

سورة عبس، مكية، وآياتها اثنتان واربعون، نزلت بعد النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16)﴾

قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ روي أن عبدالله ابن أم مكتوم وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها، واسمه عمرو بن قيس، وأم مكتوم كنية أمته، واسمها عاتكة بنت عبدالله المخزومية، وتكنيتها بأم مكتوم لكون ولدها عبدالله وُلد أعمى. وقد جاء إلى رسول الله وعنده صناديد قريش: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل، والعباس بن عبدالمطلب، وأمية بن خلف،

والوليد بن المغيرة، يناجيهم ويدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى، وكرر ذلك، ولم يعلم انشغاله بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس، وأعرض عنه. فنزلت، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ويقول إذا رآه: ((مرحبا بمن عاتبني فيه ربي)) ويقول: ((هل لك من حاجة؟)) واستخلفه صلى الله عليه وسلم على المدينة فكان يصلي بالناس ثلاث عشرة مرة كما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب فنزل على واقعة سؤاله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ أي من أن جاءه الأعمى وهو عبد الله ابن أم مكتوم يسأله الإقراء والتعليم ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ أي يتزكى من أوساخ الجهل ويتطهر بما يتلقّن من الشرائع أو يذكر أي يتعظ ﴿فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أي ذكرك وموعظتك ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ عن الإيمان بالله ورسوله وسائر المعارف القدسية ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ أي تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده وتُتعبُ نفسك لإرشاده ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾ أي ولا بأس عليك في أن لا يتزكى ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ أي حالكونه مُسْرِعاً طالبا لما عندك من أحكام الرشد وخصال الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ أي يخاف الله تعالى ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ أي تتشاغل عنه وعن تفهيمه.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن معاودة مثل ذلك الإهمال ﴿إِنَّهَا﴾ أي القرآن، والتأنيث نظراً إلى الآيات ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي موعظة تذكر الإنسان أحكام الدين ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي القرآن العظيم وقوله ﴿فِي صُحُفٍ﴾ متعلق بمضمر هو صفة لتذكرة أي مثبتة ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ عند الله مرفوعة أي مرفوعة القدر ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ أي منزهة عن مساس أيدي الشياطين ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي كتبة للقرآن الكريم ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ نعتان للسفرة، والمراد بهم إما الملائكة الكتاب للقرآن الكريم المستنسخون له من اللّوح المحفوظ، أو العلماء المستنسخون

للقرآن الكريم بعد نزوله واستقراره في العالم الإسلامي، وهذا إخبار بالغيب لأن القرآن الكريم لم يكن مكتوبا في الصحف كذلك في صدر تأريخ الإسلام. وإنما حدثت كتابته بعدُ كما هو معلوم للمتتبع.

﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)﴾

قوله تعالى ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ﴾ دعاء على الإنسان المشرك اللدود الفاسد، يَقول قُتِلَ هذا الإنسان الفاسد ما أَكْفَرَه صيغة التعجب أي ما الذي جعله كافرا بأنعم الله تعالى؟ لماذا لا ينظر إلى فرحه بإفاضة نعم الله تعالى عليه التي لا يمكن تعدادها؟ ولم لا ينظر إلى الحقائق؟ لم لا يتفكر أنه من أي شيء خلق ذلك الإنسان المشرك الداعي إلى الكفر والإشراك ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ لا من غيرها ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ اي هيأه لما يصلح له من الأعمال والأحوال

والكيفيات وغيرها ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ ثم يسر له سلوك سبيل الهدى والرشد بالعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب والأمر بمجاورة العاقلين وصحبة الصالحين الصادقين، ونهاه عن أضداد ذلك فعمل بما اختاره ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ بأن هيأ أناسا لحمله ودفنه في تربته ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ﴾ في المستقبل ﴿أَنْشَرَهُ﴾ أي أحياه وبعثه بعد عروض التغيرات على جسده. ﴿كَلَّا﴾ ردع الإنسان عما هو عليه من كفران النعم الكثيرة من لدن خليقة آدم عليه السلام إلى يومنا ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ لم ينجز ما أمره الله تعالى به إلا من شذ وفذ فإن لكل إنسان قصورا في الأعمال أو لم ينجز من أول رشده إلى وقت موته ما أمره الله به بل اشتغل بما يوافق هواه ويخالف هداه.

واذا كانت النعم الكثيرة السابقة المتوالية على نوع الإنسان كثيرة لا تحصى أو خفية لا تدرك بسهولة ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ الذي يطعمه لعله يعتبر به ويتذكر حقوق ربه ويتوجه إلى الله الذي رزقه به وقوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ بدل عن طعامه بدل اشتمال لأن أسباب الشيئ لها به علاقة تامة وبيانه ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ﴾ من السماء ﴿صَبًّا﴾ مناسبا للإنبات والتنمية ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ بالنبات النامي من الماء ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿حَبًّا﴾ أي زراعة ذات حبّ ﴿وَعِنَبًا﴾ أي وكرما يثمر عنبا ﴿وَقَضْبًا﴾ أي ونباتات رطبة تؤكل بالذات أو بعد المعالجات من جانب الإنسان أو غيره من الحيوان أو كليهما بعادة أهل الزمان ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ﴾ مشتملة على أصناف الأشجار ﴿غُلْبًا﴾ أي عظامة ﴿وَفَاكِهَةً﴾ تؤخذ من الحدائق ﴿وَأَبًّا﴾ أي كلأ يؤخذ مِنَ المَراعي وقوله ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ مفعول له لفعل محذوف مستفاد من الكلام أي خلقنا ذلك متاعاً لكم ولأنعامكم وتعيشون على الأرض كذلك ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ أي الداهية العظيمة، من صَخَّ بمعنى أصاخّ أي استمع والمراد بها النفخة الثانية. وجواب إذا

محذوف أي تبعثون ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَـرْءُ مِنْ أَخِيـهِ﴾ الملازم لـه في الحيـاة ﴿وَأُمِّهِ﴾ الـتي احتضـنته في الصـغر ﴿وَأَبِيـهِ﴾ الـذي سـعى في إعاشـته ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ التي تستريح نفسا بمجاورتها ﴿وَبَنِيهِ﴾ وقولـه ﴿لِكُـلِّ امْـرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي أمر يشغله عن بـاقي الواجبـات، وإذا أردت أن تعـرف أحـوالهم عنـد ذلـك فـاعلم أنـه ﴿وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْـفِرَةٌ﴾ أي مضيئة متهللة ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي مسرورة بما تشــاهد من النعيم المقيم. ﴿وَوُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَـا غَبَـرَةٌ﴾ أي غبـار وتـراب ﴿تَرْهَقُهَـا﴾ أي تــراكم عليهــا ﴿قَتَـرَةٌ﴾ كـدورة أو ســواد وظلمة ﴿أُولَئِكَ﴾ النــاس أي أصحاب الوجوه التي عليهـا الغـبرة ﴿هُمُ الْكَفَـرَةُ الْفَجَـرَةُ﴾ أعاذنـا اللـه ونجّانا وقَبل دُعاءّنا ورجاءنا.

سورة التكوير، مكية، وآياتها تسع وعشرون، نزلت بعد المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (14)﴾

قوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إذا ظرف للزمان المستقبل والعامل فيها وما بعدها من المتعاطفات جوابها أعني علمت نفس ما أحضرت، والشمس مرفوع بفعل يفسره كورت لأن إذا الشرطية تطلب الفعل، وكوّرت بصيغة مجهول ماضي باب التفعيل، يعني لُفّت وأديرت، لأن مادة الفعل للإدارة والجمع، والمقصود ذهابها لقيام الساعة ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أي انقضت <476>

وسقطت. ومنه انكدر البازي إذا نزل بسرعة على مـا يأخـذه. روي عن ابن عباس أنه قال لا يبقى يومئذ نجم إلا سـقط في الأرض. وسـرّ ذلـك انحلال القـوة الجاذبيـة الـتي فيهـا، فلا يبقى دورانهـا، إذا كـانت من السيارات، ولا استمساكها لشخصها إذا كانت من الثوابت ﴿وَإِذَا الْجِبَـالُ سُـيِّرَتْ﴾ أي أزيلت عن أماكنهـا من الأرض بالرجفـة الأرضـية العامـة القوية وسيرت في الفضاء بعد أن تمـزقت وكـانت كـالعهن المنفـوش. ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ جمع عشراء كنفاس جمع نفساء وهي الناقة التي أرسل عليها الفحل وأتى عليهـا عشـرة أشـهر وقـاربت ولادهـا، وهي من أحب الحيـوان إلى أصـحابها مـع أنهـا ﴿عُطِّلَتْ﴾ وأهمـل أمرهـا لابتلاء النـاس بزلـزال السـاعة ﴿وَإِذَا الْوُحُـوشُ حُشِـرَتْ﴾ أي الحيـوان البَـريّ غـير المستأنس بالإنسان، وعادتها إذا سمعت صيحة تجمعت مخافة الإصـابة بالأذى ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي أحميت بتأثير البراكين والزلازل الناتجة من أعماق الأرض في كـل جهـة من جهاتهـا ﴿وَإِذَا النُّفُـوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي كل فرد مع من يناسبه وكل طبقة مع ما يوافقهـا، فالأنبيـاء مـع الأنبيـاء والصلحاء مع الصلحاء، والأشقياء مع الأشـقياء، ولكن هـذا إنمـا هـو في الموقـف لا في أول السـاعة، ومنهم من فسـرها بـتزويج النفـوس مـع الأبدان أي أعيدت إلى أبدانها وهذا إنما يكون في النفخة الثانيـة ويمكن التزامها لأن المقصود من الآيات انتهاء العالم والدنيا ومجيئ عالم جديد يسمى بعـالم الآخـرة وقولـه ﴿وَإِذَا الْمَـوْءُودَةُ سُـئِلَتْ﴾ وهي البنت الـتي تدفن في الحفرة وهي في حال الحياة سئلت ﴿بِـأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ وذلـك كناية عن حلول موعد تعذيب الوائـدين على ذلـك العمـل الفاسـد ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ﴾ التي كتبت فيها أعمـال المكلفين ﴿نُشِـرَتْ﴾ لمحاسـبتهم على ما فيهـا ﴿وَإِذَا السَّـمَاءُ كُشِـطَتْ﴾ وقلعت وأزيلت عن محلهـا أي أمحيت وتلاشت ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي أوقدت فـالتهبت وطـارت شـراراتها ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي قـربت من المتقين كمـا قـال تعـالى ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ <477>

وإزلافها بمعنى عرضها على المتقين، أو اقتراب وقت دخولها، وهو بعـد نهاية حساب الأعمال وقوله ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ جـواب إذا على أن المراد بها زمان واحد ممتد يسع الأمور المذكورة كلها. أي عند ذلـك الوقت علمت نفوس المكلفين بأجمعهن ما أُحْضِرت لهن من الحسنات والسيئات، أو من الجحيم والجنات، أو من الدرجات والدركات.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَـرِيمٍ (19) ذِي قُـوَّةٍ عِنْـدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَـاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَـا صَـاحِبُكُمْ بِمَجْنُـونٍ (22) وَلَقَدْ رَآَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَـنِينٍ (24) وَمَـا هُـوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَـالَمِينَ (27) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29)﴾

ولمـا ذكـر البـاري سـبحانه وتعـالى أمـورا مهمـة تحـدث من بـدء قيـام الساعة إلى استقرار الفريقين في المكان المعدّ لهما، وفي ذلك قــدرة وعظمة ظاهرة..

أضاف إليهمـا الإقسـام بأوضـاع سـماوية عجيبـة لا يقـدر عليهـا إلا اللـه القادر المقتدر على الكائنات وجعل المقسـم عليـه صـحة رسـالة سـيد الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليـه وسـلم بإسـناد الكلام المـنزل عليه إلى رسوله السفير بينه وبين حبيبـه وقـال ﴿فَلَا أُقْسِـمُ بِـالْخُنَّسِ * الْجَـوَارِ الْكُنَّسِ﴾ وهـذه الألفـاظ جمـوع فـالخنس جمـع خـانس بمعـنى الراجع من نقطة إلى مبدأ حركته، والكنس بمعنى الكانس أي المختفي المتستر، والجواري جمع الجارية بمعنى المباشرة للحركة والسير.

وهذه الأوصاف، وإن احتملت لأشياء كثيرة لكنها اشـتهرت في إسـنادها إلى الكـواكب الخمسـة المشـهورة أعـني: زحـل، وعطـارد، والمـريخ، والزهرة، والمشتري. فإنهـا تعـرض لهـا بحسـب مـا رآهـا أهـل الأرصـاد السـابقون أحـوالا ثلاثـة: الأول سـرعة السـير، وتسـمى في عـرفهم بالاستقامة. والثاني الوقوف في بادئ النظر ويسمى بالإقامـة. والثـالث الرجوع يعـني بينمـا يراهـا الـرائي تتحـرك نحـو المغـرب بتغـير اتجاههـا وتتحرك نحو المشـرق ويسـمى بـالرجوع، فعبـارة الخنس جمـع خـانس بمعنى الرواجع، وعبارة الكنس جمع كـانس بمعـنى الواقفـات، وعبـارة الجواري جمع الجارية بمعنى السائرات سيرا محسوسا ملحوظـا. وسـر تلك الأحوال مذكور في علم الهيئة، ولا يفهمه الا علماؤها وهـو بالنسـبة إليهم شيء بسيط. والمعنى المقصود هو أن الله تعالى يقول فلا أقسم بـالكواكب الخنس الرواجــع من اتجــاه حركاتهــا في بعض الأوقــات والجواري السريعة في بعض الأوقـات، والكنس الواقفـات بحيث يراهـا الناظر إليها بالرصد كالواقف.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ أي ولا أقسم بالليل ﴿إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي أقبل بعـد ضـوء النهـار واستولت ظلمته على سطح الكـرة ﴿وَالصُّـبْحِ﴾ ولا أقسـم بالصـبح ﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي ظهر منه نسيم كنفس له يسـتريح عنـده النـاس. والمقسـم عليه قوله ﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن الكريم ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ بين الله وبين عباده المرسلين ﴿كَرِيمٍ﴾ ذي كرامة عنده ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ بخلـق اللـه كمـا وصـفه بشـديد القـوى ﴿عِنْـدَ ذِي الْعَـرْشِ مَكِينٍ﴾ أي ذي مكانـة واحـترام عنـد صاحب العرش وهو الله تعالى، وإسناد القول إليـه على وجـه السـفارة بين الله وبين الرسل وإلا فالقرآن كلام الله تعالى المكتـوب في اللـوح بنقوش كتابته الموجودة عند الله بالصورة العلمية الأزليـة، لا علاقـة ولا دخـل فيـه لغـيره تعـالى لا للملائكـة ولا الجن والإنس، وكـل نجم من نجومه نزل به جبريل الأمين، إما أخذه من بيت العزة بأمره تعالى، أو

أخذه من اللوح، أو تلقاه روحيا من الله الكريم وقوله ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ صفتان لرسول معناه أن ذلك الرسول مطاع للملائكة بـأمر اللـه وأمين على الوحي والتبليغات إلى الرسل ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ أي وكما أن القرآن قول بلغه الرسول السفير وهو جبريل ليس صاحبكم الذي نـزل عليه ذلك القرآن بمجنون أي بمختل العقل.

﴿وَلَقَدْ رَآَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أي ولقـد رأى محمـد صـاحبكم ذلـك الملـك الكريم بالأفق الأعلى المبين الواضح ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي صـاحبكم أي سـيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾ أي على بيان الوحي المنزل بالغيب ﴿بِضَنِينٍ﴾ بخيل يبلغ بعضـه ويـترك تبليـغ بعضـه، وإنمـا هـو أمين عليـه فيبلغـه آيـة فآيـة وجملـة فجملـة. وقـرأ بعضـهم (بظـنين) بالظـاء المعجمة المشالة، أي وما هو على إلقـاء القـرآن في الغيب بظـنين أي بمتهم، ولا يجوز أن يتهم، وليس بمقام التهمة ﴿وَمَا هُـوَ بِقَـوْلِ شَـيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ أي ومـا هـو بقـول واحـد من الشـياطين الأفـاكين المتقـوّلين المسترقين للسمع، ولا بقول شـيطان رجيم أعـني إبليس، فإنـه إبليس المطرود من ميدان الرحمة والتقديس ﴿فَأَيْنَ تَـذْهَبُونَ﴾ وأين استضـلال لهم فإن كلام الشـياطين يـدعو للاعوجـاج والانتهـاج شـرّ المنهـاج وهـذا القرآن يدعو إلى صراط الله العزيز الحميد.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي وما هو أي القرآن الكريم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ذكـر للـه من العالمين يذكرون الله تعالى بتلاوته وبالعمل بما فيه من الأحكام، أو ما هو إلا ذكر وتذكّر وموعظة وعبرة وإرشادٌ للعالمين ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ على الصراط المستقيم ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ الاستقامة لسـبب من الأسباب ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مشيئتكم وتقـدم مشـيئته تعالى على مشيئة المكلفين مبنيّ

على ما قررنا في آخر سورة الإنسان وهو أن الله تعالى علم في الأزل أن عبده الفلاني يتوجه إلى الأعمال الصالحة ويختـار ذلـك ويشـاؤه في المستقبل، فلمـا جـاء وقت تحقـق تلـك المشـيئة تقـدمت مشـيئة اللـه تعالى على مشيئته لأن الإنسان ليس بخالق وإنمـا هـو كاسـب بصـرف الإرادة إلى أعماله المعلومة لله أزلا فيبادر الباري بالمشيئة فيشـاء هـو فيتبعه تبعية ذاتية بتأخر ذاتي مشيئة العبد لعملـه المحكي في علم اللـه الأزلي والله هو الموفق والمعين.

<481>

سورة الانفطار، مكية وآياتها تسع عشرة،

نزلت بعد سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَـرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَـارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَـا قَـدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5) يَـا أَيُّهَـا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَـدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُـورَةٍ مَـا شَـاءَ رَكَّبَـكَ (8) كَلَّا بَـلْ تُكَـذِّبُونَ بِالـدِّينِ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُـونَ (12) إِنَّ الْأَبْـرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَـوْمَ الـدِّينِ (15) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (16) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَـوْمُ الـدِّينِ (17) ثُمَّ مَـا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18) يَـوْمَ لَا تَمْلِـكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَـيْئًا وَالْأَمْـرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)

قوله تعالى: إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ أي انشقت لنزول الملائكة كما في قوله تعالى يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَـامِ وَنُـزِّلَ الْمَلَائِكَـةُ تَنْـزِيلًا ويـوم القيامة

<482>

لا تبقى السماء ولا كواكبها ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ أي تساقطت متفرقة كالدراري المنتشرة ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي وإذ البحار سجرت فعلت وفارَت وفاضت ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي قلب ترابها الذي سترته الأموات ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أي علمت كل نفس عند ذلك ما قدمته أو أخرته وتركته من الأعمال.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أي ما الذي خدعك وجعلك مغرورا في مقابل أوامر ربك ونواهيه، فلا تهتم بها ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ الرب الذي إذا تأملت قليلا علمت أنه هو الذي خلقك من مادة حقيرة فطوّرها وجعلها أساسا لخلقك بهذه الصورة والسيرة ﴿فَسَوَّاكَ﴾ بأن جعل أعضاءك سوية سليمة متناسبة قابلة لاستفادة ما خلق لها منها ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي فساوى برعاية النسبة بين أعضاء بدنك ورجليك، وخديك، وشفتيك، وعينيك، وأذنيك... وإلا لو جعل إحدى يديك أطول من الأخرى، واحدى رجليك أقصر من الأخرى، وإحدى عينيك صغيرة كخرزة والأخرى كبيرة طافية كعنبة، أو إحدى أذنيك مساوية للرأس والأخرى عالية متدلية لرأيت منك أعجوبة يضحك منها والناس يفدون عليها للتفرج بالنظر إليها.

وقوله ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أي وركبك في صورة إنسان ما لا على التعيين بحسب اقتضاء مشيئته وحكمته وإلا فلو جعلك على صورة شخص آخر بحيث لا تتمايزان لاختلفت الأفكار واختل الحساب والميزان.

﴿كَلَّا﴾ ردع من الاغترار أي ليس الأمر على الاغترار مع بقاء الإيمان بالجبار والقادر القهار ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أي بجزاء الأعمال والعدالة في

الموازين وسره التكذيب بوجود رب العالمين، أو بوجود نظام إلهي أرسلَه مع المرسلين.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ أي والحال أنه مع تكذيبكم بيوم الجزاء للأعمال قد قرر الله عليكم ملائكة حافظين وضابطين لأعمالكم ﴿كِرَامًا﴾ لدينا ﴿كَاتِبِينَ﴾ لها ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ قليلا كان أو كثيرا. وفي ذلك تجهيل وتسفيه المشركين حيث أنهم يكذبون بالجزاء وكتّاب أعمال الجزاء يلازمونهم. ثم إن هؤلاء الحافظين غير المعقبات في قوله تعالى ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ فمع الإنسان عدد من الملائكة. روي عن عثمان أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: كم من ملك على الإنسان؟ فذكر عليه الصلاة والسلام عشرين ملكا.

وقوله ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ استئناف مسوق لبيان نتيجة الحفظ والكتابة. وخلاصة ذلك أن الأبرار أي المحسنين، وكذا المحسنات، لفي نعيم الجنة، وأن الفجار أي الخارجين من طريق الدين وكذا الخارجات لفي جحيم ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي يدخلون أولئك الفجار الجحيم يوم الدين أي يوم القيامة ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا﴾ أي عن الجحيم ﴿بِغَائِبِينَ﴾ والمراد بذلك استمرارهم ودوامهم في تلك المحنة العظيمة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ بطريق القوة والنصر كما يدعيه الكفار المشركون من إسناد العفو القسري إلى أصنامهم ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ أي والحكم النافذ يومئذ لله لا لغيره قطعا.

وليس في هذه الآية الكريمة نفي الشفاعة ومنفعتها لأهل الاستحقاق فإنها تنفي نفي الملك والسلطة لأي واحد على إيصال المنفعة لغيره والشفاعة

ليست مبنية على استعمال السلطة والقوة في إنفـاع الغـير، وإنمـا هي دعـاء واسـتغفار واسـتعفاء. وقـد دلت الأحـاديث الكثـيرة على وجودهـا ومنفعتها في مواضع كثيرة، كما هـو مـذكور في فتح البـاري وغـيره من الكتب المعتمدة.

ونسأله تعالى قبول شفاعة حبيبه سيدنا محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم صـاحب الكـرم والجـود والمقـام المحمـود وعلى آلـه وصـحبه وأتباعـه الصلاة والسلام.

<485>

سورة المطففين، مكية، وآياتها ست وثلاثون نزلت بعد العنكبوت وهي آخر سورة مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْـلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَـالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْـتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِـجِّينٍ (7) وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا سِـجِّينٌ (8) كِتَـابٌ مَرْقُـومٌ (9) وَيْـلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الـدِّينِ (11) وَمَـا يُكَـذِّبُ بِـهِ إِلَّا كُـلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَـا قَـالَ أَسَـاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَـلْ رَانَ عَلَى قُلُــوبِهِمْ مَــا كَــانُوا يَكْسِــبُونَ (14) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَـالُو الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقَـالُ هَـذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17)﴾

قولـه تعـالى: ﴿وَيْـلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ الويـل شـدة الشـر والهلاك وواد في جهنم، وهـو مبتـدأ وسـوغ الابتـداء بـالنكرة وقوعهـا في موقـع الـدعاء، وللمطففين خــبره. والمطففــون هم ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَـالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ لأنفسهم ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي يأخذونه وافيا كـاملا ﴿وَإِذَا كَـالُوهُمْ﴾ أي كـالوا لهم المكيــل ﴿أَوْ وَزَنُـوهُمْ﴾ أي وزنــوا لهم المــوزون ﴿يُخْسِـرُونَ﴾ أي يخسرونهم، أي يجعلـونهم في خسـارة أي يعطـونهم ناقصـا. فـيزجرهم البـاري تعـالى عن هـذا العمــل الفاســد ويقــول ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا يقادر قدر عظمه ويحاسبون على أعمــالهم، فالظن بمجيء ذلك اليوم، وإن كان ضعيفا كاف لردعهم عن هذا العمل السّخيف، فضلا عن أن يكون ظنا صاعدا إلى اليقين، وذلك ﴿يَوْمَ يَقُــومُ النَّاسُ لِـرَبِّ الْعَـالَمِينَ﴾ الـذي لا تخفى عليـه خافيـة وهـو شـديد القـوة وسريع الحساب.

وصح من رواية الحاكم والطبراني وغيرهما عن ابن عبـاس رضـي اللـه عنهما وغيره مرفوعا: ((خمسٌ بخمس)) قيل: يا رسول الله وما خمس بخمس؟ قال: ((ما نقض قوم العهـد إلا سـلط اللـه عليهم عـدوهم ومـا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت. ولا طففوا الكيل إلا مُنِعوا النباتَ وأخذوا بالسنين. ولا منعوا الزكوة إلا حُبس عنهم القطر)).

﴿كَلَّا﴾ ردع عما كانوا عليه من التطفيف ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِـجِّينٍ﴾ في موضـع التعليـل للـردع ﴿وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا سِـجِّينٌ * كِتَـابٌ مَرْقُـومٌ﴾ وسجّين عَلَم لكتاب جامع وهو ديوان الشرّ دُوِّنَ فيه أعمال الفَجَـرَة من الثقلين ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَـا يُكَـذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ متجاوز عن حدود الله كثـير الإثم. ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْـهِ آيَاتُنَا﴾ الناطقة بوجوب اتباع الحق ورعاية العدالة والشعور بمسئولية

العباد أمـام اللـه ﴿قَـالَ﴾ من فـرط غباوتـه وشـدة شـقاوته: ﴿أَسَـاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي حكايات الأولين ولا يفهم أن الحـق كيـف كـان يجب اتباعـه في كل زمان ومكان فضلا عن أن يبلغه رسول من خالق الكائنات مؤيد بالمعجزات.

﴿كَلَّا﴾ ردع لذلك ولأمثاله عن القول بالباطل ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي ركبها وتراكم عليها كأوساخ ترسـخت ﴿مَـا كَـانُوا يَكْسِـبُونَ﴾ ولا يزالـون يكتســـبون ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُـــونَ﴾ لا يـــرون ربهم ولا يخلّون أن يَرَوه مع أنه حاضر ظاهر ويراه أهل الأبصار بالعيون والبصائر ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ علاوة على عذاب الحجب عن رؤية الـربّ ﴿لَصَـالُو الْجَحِيمِ﴾ أي لـداخلون قسـرا وقـوة في الجحيم ليتشـرفوا برؤيـة النـار وإدراك العـذاب للأشـرار ﴿ثُمَّ يُقَـالُ﴾ لهم ﴿هَـذَا﴾ المحـل هـو ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِـهِ تُكَذِّبُونَ﴾ فـذوقوا العـذاب الـدائم الأليم مـع الغسـاق والحميم بمـا كنتم تكتسبون.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (19) كِتَـابٌ مَرْقُـومٌ (20) يَشْـهَدُهُ الْمُقَرَّبُـونَ (21) إِنَّ الْأَبْـرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُـوهِهِمْ نَضْـرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْـقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَـامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُـوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُـوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَـالُوا إِنَّ هَـؤُلَاءِ لَضَـالُّونَ (32) وَمَـا أُرْسِـلُوا عَلَيْهِمْ حَـافِظِينَ (33) فَـالْيَوْمَ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْـحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُـرُونَ (35) هَـلْ ثُـوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)﴾

قوله ﴿كَلَّا﴾ تكرير للردع السابق حتى يبقى الاتعاظ به في قلب المسلم الصـادق ﴿إِنَّ كِتَـابَ الْأَبْـرَارِ﴾ أي المؤمـنين المحسـنين للأعمـال ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَـابٌ مَرْقُـومٌ﴾ أي كتـاب مكتـوب فيـه أعمال جميـع المحسـنين من الثقلين و﴿يَشْـهَدُهُ الْمُقَرَّبُـونَ﴾ أي يحضـر عند تثبيت أعمال المحسـنين فيـه الملائكـة المقربـون من اللـه تعـالى. والظاهر من قوله صلى الله عليه وسلم ((يتعاقبون فيكم ملئكة بالليـل وملئكـة بالنهـار)) أن أولئـك الملائكـة هم الكـرام الكـاتبون ويتعـاقبون بالليل والنهار فجمع يأتون صباحا يبقـون عنـد العبـد إلى المسـاء فتـأتي ملائكة الليل وتصعد ملائكـة النهـار إلى المحـل المعين فيقـدمون كتـاب الأعمال الحسنة إلى جمع من مقربي الملائكة فيثبتون تلك الأعمال في عليين وهو علم لديوان الخير الجامع للخيرات. وإذا كـانت من السـيئات سلمت إلى الملائكة المأمورين على السجين فأثبتوهـا فيـه. وفي لفـظ العليين آراء والظاهر أنه جمع للمذكر العاقل كالصديقين جمع للصديق، وكان وصفا للمبالغـة في علـو جمـع من الصـلحاء ومفـرده علّيّ بكسـر العين وتشديد اللام والياء من العلو، كسـر فـاؤه، وضـعف عينـه، وقلب ياؤه واوا، وأدغم فيه على القاعدة وجمع بالواو والنون حسب الأصـول، ثم أطلق على كتاب الأعمال الحسنة تسمية للكتاب باسم أصحابه.

وقولـه ﴿إِنَّ الْأَبْـرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ بيـان لمحاسـن أعمـالهم فيقـول ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ أي أصـحاب الـبر والحسـنة ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ الجنـة متمكنـون فيـه تمكن المظروف في ظرفه ويقعدون ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة بمعنى الكرسي ﴿يَنْظُرُونَ﴾ أي إلى ما يرغبون في منظره من الحور، أو بـاقي الرغائب حالكونهم ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي بهجة وحسنا وجمالا يحدث من اللقاء بـالنعيم ﴿يُسْـقَوْنَ مِنْ رَحِيـقٍ﴾ أي كـأس خمـر ﴿مَخْتُومٍ﴾ لم يَمَسّ شفاهَ الكأس غيره من الناس و﴿خِتَامُهُ مِسْـكٌ﴾ أي والذي سدّ به أفواه الكئوس من مـادة المسـك لتعطـير الرحيـق ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ أي وفي نيل ذلك والحصول عليه ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ لا في نيل المواد الدنيوية الدنية أعلاها تورث الرذيلة وتجعل النفـوس مريضـة عليلـة ﴿وَمِزَاجُـهُ﴾ أي والمـاء الـذي يجعـل مزيجـا لـذلك الرحيـق ﴿مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ حالكونـه، أو أعـني ﴿عَيْنًـا﴾ في الجنـة ﴿يَشْـرَبُ بِهَـا﴾ أي منهـا ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ السابقون.

ثم يستعرض أحوال الكافرين في الدنيا حتى يـبين جـزاءهم في الآخـرة بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أي جاءوا بالإجرام ومباشرة قبائح العمل من رءوساء المشركين كـأبي جهـل والوليـد بن المغـيرة والعـاص بن وائـل وأشياعهم ﴿كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ اسـتهزاءً بهم ﴿وَإِذَا مَـرُّوا بِهِمْ﴾ أي مـر المؤمنـون بـالمجرمين ﴿يَتَغَـامَزُونَ﴾ بينهم أي يغمـز بعضـهم بعضـا ويشـيرون بـأعينهم إليهم ﴿وَإِذَا انْقَلَبُـوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُـوا فَكِهِينَ﴾ أي متفكهين متلـذذين باسـتخفافهم بـالمؤمنين ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ طريق العيش السعيد ولا يفهمون الدنيا ومتاعها ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا أُرْسِلُوا﴾ أي المجرمون ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على المؤمـنين ﴿حَـافِظِينَ﴾ عليهم أحـوالهم ولا علاقـة لهم بهم، فليس من حقهم أن يتكلموا بنقدِهم وفقدِهم ﴿فَالْيَوْمَ﴾ وهو يوم

القيامة ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ بالله ورسوله في الـدنيا ﴿مِنَ الْكُفَّارِ يَضْـحَكُونَ﴾ أي يضـحكون منهم ويسـخرون بهم جـزاء لمـا سـخروا بهم في الـدنيا ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي هم على الأرائـــك أو ﴿يَنْظُـــرُونَ﴾ إلى المجــــرمين متفرجين على الأرائك وقوله ﴿هَلْ ثُـوِّبَ الْكُفَّارُ مَـا كَـانُوا يَفْعَلُـونَ﴾ إمـا كلام المؤمنين في شأن المجـرمين، أو كلام البـاري سـبحانه. وعلى أيّ الحالين فالجواب: نعم ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون. كما ثوب المؤمنون بالجنة والأرائك. والجواب الذّ وأنعَم، والله أعدل وأحكم.

<491>

سورة الانشقاق، مكية، وآياتها خمس وعشرون، نزلت بعد الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15).

قوله تعالى: إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ أي بالغمام ويشهد له قوله تعالى: وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا. وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا أي استمعت لربها وأطاعت وَحُقَّتْ أي جعلت حقيقة بالاستماع والإطاعة وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ أي بُسطت وتَوَسَّعَت باندكاك الجبال عليها وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا من الدفائن والكنوز، أو من سائر المواد الثقيلة، فإن

الزلزال يحول باطن المتزلزل إلى ظاهره ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ عنها ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ كررها للتأكيد. وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي ساع إلى ربك لنيل جزاء الأعمال فملاقيه أي فتلقى ربك سواء قصدت ذلك أو لم تقصد، فإن الله خلق الجنّ والإنس ليَعْبدوه، ولا بد أن يحشروا ليوم لا ريب فيه، فمن عمل بما خلق له من الطاعة أخذ أجر البضاعة ومن لم يعمل كما أمر أخذ وزر المخالفة والإضاعة كما قال تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ والحساب اليسير هو السهل الذي لا مناقشة فيه كما قيل، وفسره عليه الصلاة والسلام بالعرض وبالنظر في الكتاب مع التجاوز، فقد أخرج الشيخان والترمذي وأبو داود عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ليس أحد يحاسب إلا هلك)) فقلت: يا رسول الله جعلني الله فداك أليس الله تعالى يقول: فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا؟ قال: ((ذلك العرض يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك)) وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بعض صلاته: ((اللهم حاسبني حسابا يسيرا)) فلما انصرف عليه الصلاة والسلام قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال: ((أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه)).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي يوتاه بشماله من وراء ظهره.

قيل: تغلّ يُمناه إلى عُنُقه، وتجعل شماله وراء ظهره، فيؤتى كتابه بشماله ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ ويقول: يا ثبوراه! وهو الهلاك ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ﴾ في الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ بالمال والجاه كفرا وبطرا ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أي لن يرجع إلى الله تعالى بعد موته ﴿بَلَى﴾ إيجاب لما بعد لن ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ عالما بحركاته وسكناته وأعماله ونياته.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (19) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآَنُ لَا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)﴾

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ الحمرة التي ترى في الأفق بعد غيبوبة الشمس، وعن أبي حنيفة رحمه الله أنه البياض الذي يليها ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي وما جمعه من الحشرات والدواب تدخل أكنافها ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أجزاؤه وأطرافه وتم نوره، وهو فيما إذا كان بدرا ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ أي حالا بعد حال وشدة بعد شدة. والصيغة بضم الباء جمع للمذكر المخاطب، فإن كان المراد جماعة من الإنسان مطلقا فالمراد مراتب من الشدة بعد المراتب وهي الموت وأهوال البرزخ والبعث والحشر والحساب والميزان والصراط، أو المراد تلك المراتب وما قبلها من الشدائد في الدنيا من المرض والفقر والذل والغربة والكربة والأذى. وإن قرئ بفتح الباء خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم فالمراد إما شدائد نالها من الكفار والمعاندين من إيذاء نفسه وإيذاء أتباعه ثم إخراجه وعشيرته إلى شعب أبي طالب ثم هجرته وغيرها مما أصابه صلى الله عليه وسلم. ويجوز أن يراد بالطبق بعد الطبق المراتب العالية التي نالها في أيام نبوته ورسالته ككثرة الأتباع، وانتشار دينه في الآفاق، وفتحه لمكة وغيرها من الأماكن وبقاء دينه وعدم اجتماع أمته على الضلال ونزول القرآن عليه. والمقصود بالآية تقوية داعي الرسول صلى الله عليه وسلم وتأييد معنوياته في خدمة الإسلام. يعني كلما مر عليك الزمان فأنت في <494>

حال أقوى من الحال السابق ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء الكفرة المشركين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله ورسوله وبيوم القيامة الذي فيه الحساب ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ سجود التعظيم لله تعالى ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ أي بيوم القيامة بل بالقرآن الذي فيه جميع المهمات ومنها يومها ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ منهم ﴿بِمَا يُوعُونَ﴾ أي بما يضمرونه في صدورهم من الكفر بالله ورسوله ووضع العثرات في طريق وصوله. ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي قل لهم استهزاء: أبشروا بعذاب أليم يأتيكم من الله العليم ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع والاستثناء منقطع. <495>

سورة البروج، مكية، وآياتها اثنتان وعشرون، نزلت بعد الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَـوْمِ الْمَوْعُـودِ (2) وَشَـاهِدٍ وَمَشْـهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُـودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَـا قُعُـودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُـوا فَلَهُمْ عَـــذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَـــذَابُ الْحَرِيـــقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُـــوا وَعَمِلُـــوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11)

قوله تعالى وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ أي أقسم بالسماء المحتوية للـبروج الإثني عشر المعروفة للحسـاب، الـتي تحتـوي على ثلاثمائـة وخمس أو ست

وستين يَوْما بميزان السنة الشمسية البادئة من الربيع: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. ﴿و﴾ أقسم بـ ﴿الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وهو يومُ القيامة اليوم المستمر الذي لا ليل فيه، والأرض تشرق بنور الله وتستمر بإرادة الله، ويوم قيام الساعة، ويوم البعث، ويوم الحشر، ويوم الحساب والميزان، ويوم استقرار أهل الإيمان في الجنان، ويوم دخول أهل العذاب في النيران. كل ذلك بعض من الأوقات وداخل في اليوم الموعود، ويسمى بيوم القيامة، لأنه يوم قيام المكلفين إلى نيل الجزاء ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ فسر الشاهد بمن يحضر في ذلك اليوم، والمشهود بما يقع فيه من الأحوال والأهوال والإذلال والإجلال والإدبار والإقبال. ويفسر الشاهد بالرسول الشاهد على أمته بالإطاعة والعصيان، وبرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم الشاهد على الصدق لأولئك الشهداء الشرفاء قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أو الشاهد على صدق أمة نفسه في الشهادة على الأمم كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وفي قوله الكريم ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ويجوز أن يراد بالشاهد كل من يرى ربه يوم القيامة، وبالمشهود ذاته الكريم.

وقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ بتقدير (لقد) جواب القسم أي لقد قتل أصحاب الأخدود، أو الجواب محذوف أي لقد قتل المشركون المعاندون لك كما قتل أصحاب الأخدود، فقد قتل صناديد الإشراك في بدر الكبرى كما قتلوا في وقت إهلاكهم. والأخدود جمع خد بمعنى الشق.

روي مرفوعا أن ملكا كان له ساحر فلما شاب ضـم إليـه غلامـا ليعلمـه السحر مخافة أن يموت ولا يبقى السـاحر في بلـده، وكـان في طريـق الغلام راهب، فمال إليه قلبه، وآمن بالله العظيم على توجيهاتـه. فـرأى في طريقه يوما حية قد حبست الناس عن المـرور، فأخـذ الغلام حجـرا وقـال: اللهم إن كـان الـراهب أحب إليـك من السـاحر فاقتلهـا فقتلها، وكان الغلام بعد يبرئ الأكمه والأبـرص بـإذن اللـه. وعمى جليس الملك فدعا له وشفاه الله ورد عليه بصره، فسـأله الملـك عمن أبـرأه فقـال: ربي. فغضب الملك فعذبه، فدل على الغلام، فعذبه فدل على الـرّاهب، فقده بالمنشار! وأرسل الغلام إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا، فرجف بالقوم فهلكوا ونجا، وأجلسه في سفينة ليغرق، فدعا فانكفأت السفينة بمن معه فغرقوا ونجا. فقال للملك: لسـت بقـاتلي حـتى تجمـع النـاس وتصـلبني، وتأخـذ سـهما من كنـانتي، وتقـول: بسـم اللـه رب الغلام ثم ترميني به، فرماه فوقع في صـدغه فمـات، فـآمن النـاس بـرب الغلام. فأمر بأخاديد أوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبي، فتقاعست فقال الصبي: يا أماه اصـبري فإنـك على الحق! فاقتحمت.

وقوله ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ بدل من الأخدود بدل الاشتمال، والوقود هـو الحطب الموقد به النـار ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَـا قُعُـودٌ﴾ قاعـدون ﴿وَهُمْ عَلَى مَـا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُـهُودٌ﴾ يشـهد بعضـهم لبعض عنـد الملـك بـأنهم لم يقصروا فيما أمروا به، أو يشهدون على ما يفعلـون يـوم القيامـة ﴿وَمَـا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي وما أنكروا منهم ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ شَـهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُـوا فَلَهُمْ عَـذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أي العذاب الزائد في الإحراق بفتنتهم

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ لأن الدنيا حقيرة بالنسبة إليها.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآَنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ البطش الأخذ بالصولة، أي إن أخذ ربك لشخص أو صنف أو نوع لشديد لا يستهان به ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ جملة استئنافية ويستفاد منها التعليل للجملة الأولى، أي ووجه كون بطشه شديدا أن الله هو المبدئ للموجودات والمعيد لها بعد إماتتها، وكل من كان له قدرة كذلك فإذا أراد الأخذ والانتقام كان أخذه وانتقامه شديدا جدا ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ أي لمن يشاء ﴿الْوَدُودُ﴾ المحب كثيرا لمن أطاعه ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ العظيم في ذاته عز وجل وصفاته ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ لا يتخلف عن ارادته أي مراد ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ أي الجنود الذين أخذناهم بذنوبهم ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أي جنود فرعون وقوم ثمود، فإن جنود الطرفين كانت كثيرة مع أنه لما أراد إهلاكهم أهلكهم ولم تفدهم الجنود ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قومك ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾لك ولما جئت به ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ <499>

رد لتــأثير كفــرهم وعنــادهم فيقــول إن اللــه محيــط بهم من أمــامهم وخلفهم ولا ينفلتون من قدرته أبدا ﴿بَلْ هُوَ قُرْآَنٌ مَجِيدٌ﴾ أي أعرض عن ردهم وتكذيبهم فأولئك لا قيمـة لهم فـإن القـرآن المـنزل عليـك قـرآن مجيـد شـريف عظيم القـدر وهـو ﴿فِي لَـوْحٍ مَحْفُـوظٍ﴾ ذلـك اللـوح عن تعرض أي مفسد له هناك، والآيات المنزلة منه أيضا محفوظة. إنــا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون. <500>

سورة الطارق، مكية، وآياتها سبع عشرة، نزلت بعد سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّـمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُـرِ الْإِنْسَـانُ مِمَّ خُلِـقَ (5) خُلِـقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْـرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّـلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِـهِ لَقَـادِرٌ (8) يَـوْمَ تُبْلَى السَّـرَائِرُ (9) فَمَـا لَـهُ مِنْ قُـوَّةٍ وَلَا نَاصِـرٍ (10) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَـوْلٌ فَصْـلٌ (13) وَمَـا هُـوَ بِـالْهَزْلِ (14) إِنَّهُمْ يَكِيـدُونَ كَيْـدًا (15) وَأَكِيـدُ كَيْـدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17)

قوله تعالى: وَالسَّمَاءِ المـراد بـه معلـوم، وقيـل: المـراد هـو المطـر وَالطَّارِقِ أي الكواكب البادية بالليل وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ أي هـو النجم الخـارق بضـوئهِ حجـاب الظّلام، وجـواب القسـم قوله إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَـا حَافِـظٌ يعـني إن الخـالق الـذي قـدر أن يخلق سـماوات متعـددة أثيريـة ويخص كلا منهـا بصـفات وآثـار، ويـزين السماء الدنيا منها بكواكب لامعة

وأنجم ثاقبة تخرق حجاب الظلمة في الجو وتجعل في جو السماء الأثيرية شهبا ونيازك نارية مستطيلة بحيث تكون كحجر العثرة في طريق الصواريخ والصواعد العلوية، ولا تجتاز طريقها إلا بسلطان وقوة فوق تلك القوى قادر على أن يخلق لكل نفس منفوسة حافظا لها يحفظها ويحرسها، وإلا فالإنسان النائم في محل خالٍ يمكن دخول الحشرات والهوام في منافذ رأسه من الأذنين والفم والأنف ويبتلى بكثير من الآلام والأسقام.

وكلمة ﴿إِنْ﴾ في صدر الآية الكريمة نافية، و﴿لَمَّا﴾ بمعنى الا أي ما كل نفس الا عليها حافظ. أو مخففة من الثقيلة، ولام لما للتأكيد، وما زائدة أي أن كل نفس لعليها حافظ، أو ما موصولة وعليها صلتها، وحافظ خبر أي إنه كل نفس للذي يراقب وحارس عليها حافظ له من الأذى إلى وقت مقدر معلوم، وهذا الحافظ يحفظها كما في قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وكما في الحديث المروي عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب)) وبعض الناس فسره بالحافظ لأعماله أي من الكرام الكاتبين الذين يكتبون ما يعمله وهذا أو ذاك مبني على جريان سنة الله في الكون بقاعدة الأسباب وإلا فالله عالم بكل شيئ ولا يحتاج إلى الكرام الكاتبين لضبط أعمال العباد، وقادر على صيانة كل شيء فلا يحتاج إلى إرصاد الحراس والحفاظ لأيّ حيّ. وما دام الله سبحانه ترحم على عباده بإرسال الحفاظ الحراس إليه فليتق الإنسان ربه ولا يغتر بنفسه وبسلامة بدنه وكثرة ماله أو جاهه أو أولاده، وليتفكر في مبدأه ومعاده.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ أي ماء المني الذي هو ذو دفق وذو حركة في الخروج من محله، أو مدفوق منه ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ﴾ أي من بين أجزاء صلب كل رجل ﴿وَالتَّرَائِبِ﴾ أي ومن بين ترائب

كل امرأة أي عظام صدرها، وهي جمع تريبة، وتوجد لكل امرأة تريبة واحدة لكن جمعت باعتبار ما حولها منها. ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ أي كما أنه خلقه من ماء كذلك ورباه وأعاشه مدة من الزمان وأماته كذلك على رجعه وإحيائه بعد الموت وبعثه من القبر لقادر وذلك الرجع ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي يتعرف ويتصفح السرائر أي ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وما أخفي من الناس من الأعمال وما لا يعلمه إلا الله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ أي فما لذلك الإنسان الراجع عند رجوعه وحساب أعماله ووقوعه في تهلكة العقاب والعذاب من قوة يمتنع بها ولا ناصر خارج ينصره وينتصر به ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي المطر أو النبات الراجع في المواسم على عروقها ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ والانشقاق لنبات النوابت، أو لانفجار العيون والأنهار، أو لإبراز المعادن السيالة. أي اقسم بخالق تلك المخلوقات على تلك الأوصاف ﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن المنزل عليك ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أي فاصل بين الحق والباطل. أو قول مفصول مقطوع به ليس محل الشكوك والأوهام، ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي بما يتكلم به في اللهو، وإنما هو جد وبيان من الله وشفاء لما في الصدور ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي إن كفار مكة ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي يعملون المكائد لإطفاء نور الإسلام بكل اهتمام ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي وأنا أقابلهم بكيد وكيدي متين. ونسبة الكيد إلى الباري للمشاكلة، وإلا فالكيد لا ينسب إليه بالحقيقة، فإن الكيد عمل دقيق خفي المدرك يباشر للوصول إلى الظفر بالعدو، والله تعالى قادر على كل شيء في كل لمحة وأوان ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ ولا تشتغل بالانتقام منهم حتى تعلم كيف اكسرهم من الفقرات وأنصرك عليهم في الكائنات، ولما كان الأمر مطلقا ولم يقيد بزمان قريب، وذلك مما لا يطاق الصبر له أوضحه بقوله ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أي أمهلهم إمهالا قريبا قليلا فلم يلبث صلى الله عليه وسلم كثيرا حتى وجد الله تعالى نصيرا ورأى يومها على الأعداء عسيرا.

سورة الأعلى مكية، وآياتها تسع عشرة، نزلت بعد سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (13) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)﴾

قوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي نزه اسم ربك الأعلى أي اسم كان عما لا يليق به فلا تؤول مما ورد منها شيئا من غير مقتض، ولا تطلقه على غيره سبحانه وتعالى إذا كان من الأسماء المختصة، ولا تستعمله في مقام

يغتاظ الناس من استعماله، ولا تحلف به إذا كان في صدق حلفك شبهة. ولا تحمله معك إذا دخلت الخلاء، ولا تستعمله في الدعاء بالشر على من لا يستحقه ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي خلق ما خلقه من العلويات أو السفليات فسوى خلقه وأبرزه كما تقتضيه الحكمة. والموصول مع صلته صفة ثانية للرب، كما أن الأعلى صفة أولى له ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أي جعل الأشياء على مقادير مخصوصة فهدى أي فوجه كلا منها إلى ما يناسبه فهدى الإنسان إلى معرفة الخالق والمخلوق وعيش إنساني محترم والحيوان إلى طريق العيش ورعاية الشئون اللازمة لنفسه ولأولاده وهدى النبات إلى طريق استفادة الرطوبة لعروقه والرياح لأغصانه ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أي النبات الذي هو محل الرعي للحيوانات ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ أي فجعله حشائش يابسة لا قوة لها ولونه بالسواد أو لون يضرب إلى السواد، وقال بعض أسمر، ومن جزئيات ما هدى الإنسان بل أشرف نوع الإنسان إليه ما أفاده بقوله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ أي سنقرئك ما يوحى إليك الآن أو في المستقبل على لسان الملك جبريل فلا تنسى ما تأخذه منه وكرره وراعه حق الرعاية لفظا وتلاوة وتطبيق أحكام، فإن الألفاظ للمعاني والمعاني لنيل المقاصد ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن تنساه من سهو البشر أو بسبب نسخ جاء على تلاوته ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ من أمورك وغيرها ويعلم ما يوافق الحكمة من التذكر والنسيان.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ أي ونوفقك توفيقا مستمرا للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين علما وعملا وتعليما وهداية واهتداء. وكان عليه الصلاة والسلام يختار من الأمور أيسرها ويقول: ((أنا وأمتي براء من التكلف)) ﴿فَذَكِّرْ﴾ الناس بالواجبات والمحرمات وسائر الأحكام ونيل الجزاء عند اللقاء يوم القيامة ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ وأما إذا صادقت كافرا

عنودا أو إنسانا فاسدا حسودا، أو جاهلا عدوا لدودا فلا تذكره لأنه كلما ذكرت استدبر وكلما عظمت أيام الله استصغر. والإنسان قسمان سعيد يخشى ربه ولا يترك دربه، وشقي ينسى ربه ولا يخشى ضربه. ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ ويتعظ بوعظك وإرشادك ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ أي الشديدة الالتهاب وهي الدرجة السفلى ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ ليخلص ﴿وَلَا يَحْيَا﴾ ليستأنس فيبقى في النار المسعرة الملتهبة حسبما شاء الله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي تطهر عن أوساخ الكفر والشرك ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ بلسانه وأدى العبادة بإحسانه ﴿فَصَلَّى﴾ الصلوات الخمس على مقتضى الشرع وبيانه ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إلتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ فطوبى لمن اهتدى إلى الصواب ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي ما ذكر من أول سورة الأعلى إلى هنا ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ والأنبياء إخوة أشقاء في أصول الدين فما عندهم فهو عندك، وما عندك فهو عندهم بلا تفاوت.

سورة الغاشية مكية وآياتها ست وعشرون، نزلت بعد سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)﴾

قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ المختار أن هل للإستفهام، لكن الاستفهام هنا فيه معنى التعجب مما بعده. أي هل أتاك حديث المحنة التي تغشى العباد بشدائدها وأهوالها وأحوالها؟ والمراد يوم القيامة ونفخ الصور مرتين؛ مرة لإماتة الأحياء وزلزلة الأرض وقلع الجبال وسائر الأمور الأخرى، ومرة لبعث الموتى وإحيائهم وسوقهم إلى المحشر. والناس عند ذلك نوعان:

أحدهما من الكفار المخلدين في النار. وأحدهما من الفائزين بالجنة والنعيم في دار القرار. وعبر عن النوعين بالوجوه لأن الحزن والفرح يظهران على الوجوه فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ أي خائفة ذليلة حقيرة عليلة ﴿عَامِلَةٌ﴾ بجر السلاسل والأغلال ﴿نَاصِبَةٌ﴾ أي ذات نصب وتعب فيما يشق عليها من الأعمال ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ أي تدخل نارا قوية الحرارة ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ حارة جدا قطاعة للأمعاء ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ شجرة شائكة ترعاه الإبل ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ يعني إن طعامهم ليس من نوع طعام الإنس الذي يطعم للإغناء عن الجوع وتسمين البدن، فلا يفيد شيئا منهما. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ ذات بهجة وحسن تدرك فيها نضرة النعيم ﴿لِسَعْيِهَا﴾ في الدنيا وكسبها الخير فيها ﴿رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ مصدر بمعنى اللغو أي لا تسمع فيها كلاما لغوا لا فائدة فيه ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ قيل: تجري دائما بلا انقطاع ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ رفيعة السمك أو المقدار ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ بين أيديهم ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ أي وسائد ضم بعضها إلى بعض ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ أي بسط فاخرة ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)﴾

قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ معناه أن عند بني آدم أشياء معلومة لو نظر فيها كانت تدلهم على الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له فيقول:

﴿أَفَلَا يَنْظُـرُونَ إِلَى الْإِبِـلِ كَيْـفَ خُلِقَتْ﴾ خلقـا دالا على حكمـة خالقهـا ومدبر أمرها حيث خلقها لحمل الأثقال إلى البلاد النائيـة فجعلهـا باركـة للحمـل، صـابرة على الأحمـال الثقيلـة مـع العطش، قانعـة بالأشـواك والنوى، نافعة بالحليب والنسل والوبر واللحم إلى غير ذلك من المنـافع المعلومة ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْـفَ رُفِعَتْ﴾ بلا عمـاد ولا استمسـاك وتتبلـور فيهـا الكـواكب اللامعـة كالشـموع في مجـالس الجمـوع ﴿وَإِلَى الْجِبَـالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ وجعلت كأوتاد الأرض في الطول والعرض، وجعلت حاجزة عن طغيان الناس في مجـاري العـادات وجعلت منـابع للمعـادن وأنـواع الأشجار والنبات ونبعت منهـا عيـون متفجـرات، وأنهـار وشـلالات، وإلى الأرض الكروية كيف سطحت بحيث يـرى كـأرض مسـطحة بالاسـتدارة ومن النـيرين في اسـتنارة ﴿فَـذَكِّرْ﴾ عبـاد اللـه المتبصـرين ليتـذكروا ويتفكروا ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ أي بمستول غـالب بالمادة حسب العادة ﴿إِلَّا مَنْ تَـوَلَّى وَكَفَـرَ﴾ أي لكن كـل من تـولّى عن الحق وكفر به وبحقوقه ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَـرَ﴾ بالنسـبة إلى كـل عذاب في الدنيا، فإن الآخرة خـير وأبقى ومن شـقى فيهـا فهـو أشـقى ومن سـعد فيهـا فهـو أسـعد وأعلى وأرقى. ولا تهتم بـأحوال المعانـدين ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أيّ رجوعهم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ فانظر أيها العاقل إلى التخصيصـات والتأكيـدات تـرى لهم أسـفل الـدركات وللمسـلمين أعالي الدرجات. والحمد لله على كل الهبات.

سورة الفجر، مكية، وآياتها ثلاثون، نزلت بعد سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْـوَتْرِ (3) وَاللَّيْـلِ إِذَا يَسْـرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5) أَلَمْ تَـرَ كَيْـفَ فَعَـلَ رَبُّكَ بِعَـادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَـقْ مِثْلُهَـا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُـودَ الَّذِينَ جَـابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)﴾

قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم سبحانه وتعالى بالفجر الذي هو مطلع نور الصباح وانشراح الأرواح وانتباه الناس إلى كسب المعاش ووسائل خير المعاد بالطاعة والعبادة للرب سبحانه وتعالى كما أقسم بـه في قولـه: والصبح إذا تنفس ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ الليالي جمـع الليـل أصـله ليـالي على صيغة منتهى الجموع فأعل إعلال قـاض، والمـراد بهـا العشـر الأول من ذي الحجة الحرام.

أخرج أحمـد والبخـاري عن ابن عبـاس مرفوعـا: ((مـا من أيـام العمـل فيهن أحبُّ إلى الله عز وجلّ وأفضل من أيام العشـر. قيـل: يـا رسـول الله ولا الجهاد في سبيل الله قال: ولا الجهـاد في سـبيل اللـه إلا رجـل جاهد في سبيل الله بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء)).

وروي أنهن العشر الأواخر من رمضان وأيدوا ذلك بالحديث المتفق على صحته قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر تعني العشر الأخير من رمضان شدّ مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله. وعن جماعة أنهن العشر الأول من رمضان، ويؤيد بأنّ الإنسان يصعب عليه المبادرة بما خالف عادته في أوائل المباشرة حتى يألف به ويتعوّده. وعن جماعة أنهن العشر الأول من المحرّم وفيها يوم عاشوراء.

وقد ورد في فضله ما ورد. أخرج الشيخان وغيرهما قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة واليهودُ تصوم يوم عاشوراء. فقال عليه الصلاة والسلام: ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ قالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله تعالى فيه موسى، وأغرق آل فرعون فيه فصامه موسى عليه السلام شكرا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((فنحن أحق بموسى منكم)). فصامه صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه. وصح في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم أرسل غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة ((من كان أصبح صائما فليتم يومه، ومن كان أصبح مفطرا فليصم بقية يومه)) فكان الصحابة بعد ذلك يَصُومُونَه، ويُصَوِّمونه صبيانهم الصغار، ويذهبون بهم إلى المسجد ويجعلون لهم اللعبة من العهن؛ فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطوه إياها حتى يكون الإفطار.

وأخرج أحمد وغيره عن الحبر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود وصوموا قبله يوما وبعده يوماً)). ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ هما يوم النحر ويوم عرفة. وقالت جماعة:

إن خلق الله هو الشفع أي الذكر والأنثى، والله هو الوتر ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أقسم بالليل إذا يسري بما فيه من الظلام أو من طاعة العباد من الأنام. أو ليلة النحر يسري فيها الحجاج من عرفات إلى مزدلفة أو الليل الذي سرى فيه الحبيب إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى ما شاء الله من الدرجات ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ أي هل في الإقسام بما ذكر وما يحتويه من آثار قدرة الباري عز وجلَّ قسم وتأكيد للمقسم عليه لذي حجر أي عقل يحجره ويمنعه عن السوء والمقسم عليه لنهلكن الطغاة بقرينة قوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ وقوله ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان للإشعار بأن المراد بعاد عاد الأولى وقوله ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ فسر بذات القامة الطويلة، كما يقال رجل عمدان إذا كان طويل القامة. أو المراد ذات الأعمدة الطوال في المخيمات، لأنها كانت سيارة ولها خيام يسكنونها ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ صفة أخرى لعاد أي القبيلة التي لم يخلق مثلها من جهة الهيكل وطول القامة واليدين والصدر والهامة.

ومن المحققين من قال: إن إرم اسم مدينة لهم بين عمان وحضرموت، وهي أرض رمال وأحقاف فأحكموا بناءها بالعمدان القوية الطويلة الغائصة في الأرض جدا حتى لا تتزلزل بالرياح والعواصف، وكانت مدينة ذات أبنية رفيعة، وقلاع منيعة وأعمدة طويلة، وقصور جميلة وحدائق ذات بهجة جميلة. فلم يكن لها مثيل في تلك العصور السابقة في جزيرة العرب. ويروى أنه كان لعاد ولدان هما شديد، وشداد. ومات الشديد وصفا الجو لشداد، وملك واستولى على العباد والبلاد، وبنى تلك المدينة في بعض صحارى عدن في مدة طويلة من الزمن، ولما أكملها وأراد أن يدخلها دمرها الله وإياهم برجفة هائلة مخيفة، وخسف بالجميع الأرض وبقي الملك لله الواحد القهار، قهرهم لطغيانهم وتمردهم على الله تعالى ورسوله هود عليه السلام.

وقوله ﴿وَثَمُودَ﴾ عطف على عـاد يعـني ألم تـر كيـف فعـل ربـك بثمـود ﴿الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ﴾ أي قطعـوا الصـخر في الجبـال ونحتوهـا وصـنعوا فيها بيوتا حصـينة منيعـة. وقولـه ﴿بِـالْوَادِ﴾ أي وادي القـرى في مملكـة الأردن. وبقوا مالكين مدة حتى أرسـل اللـه إليهم صـالحا، فأهلـك اللـه ديارهم بالرجفـة والزلـزال ﴿وَفِرْعَـوْنَ﴾ عطـف على ثمـود أو على عـاد ونعت بـ ﴿ذِي الْأَوْتَـادِ﴾ لأنهـا شـعار ظلمـه المشـئوم، فكـان اذا عـاقب شخصا شد يديه ورجليه بأربعة أوتاد حتى لا يقدر على الحركة فيحرقـه، أو يكويه حتى يموّته.

وقوله ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ نعت للمذكورين المشـهورين بالطغيـان فقرره عليهم بالموصول وصلته المعهودة لأصـحاب التـواريخ المعـدودة ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ باضلال العباد وتحريفهم عن عبادة الله وتوحيده وبإذلال من عصاهم وبإشباع نفوسـهم الأمـارة من هـواهم. فكـان ذلـك عقباهم ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَـذَابٍ﴾ دمـرهم في الـدنيا بالعـذاب، وقرر لهم في الآخرة أشد العقاب، والله سريعُ الحِسـاب. والسَّـوط في الأصـل مصـدر سـاط يسـوط بمعـنى الخلـط، وشـاع عرفـا في الجلـد المضفور الذي يضرب به لكونه مخلوطا من طاقات عديدة، لتكون آلــة للتعذيب شديدة. وقولـه تعـالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَـادِ﴾ تعليـل لمـا قبلـه وإشعار بأن كفار مكة أيضا لما كانوا يمشون مشية السابقين الفاسقين يقربون من ورود مثل ذلك العذاب عليهم، لأن سـنة اللـه تعـالى دائمـة ونافذة في اللاحقين كما نفذت في السابقين. والمرصاد في أصل اللغة اسم لآلة الرصد والمراقبة، والمقصـود أنـه سـبحانه وتعـالى ينظـر إلى الناس كيف يعملون كالرصدي لما يترصده، فلا يفوتُه الذين يظلمون.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْـرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَـا ابْتَلَاهُ فَقَـدَرَ عَلَيْـهِ رِزْقَـهُ فَيَقُـولُ رَبِّي أَهَـانَنِ (16) كَلَّا بَـل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَـامِ الْمِسْـكِينِ (18) وَتَـأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَـــالَ حُبًّا جَمًّا (20) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَـاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَـكُ صَـفًّا صَـفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَـذَكَّرُ الْإِنْسَـانُ وَأَنَّى لَـهُ الـذِّكْرَى (23) يَقُـولُ يَـا لَيْتَنِي قَـدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26) يَـا أَيَّتُهَـا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِـيَةً مَرْضِـيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ له اتصال بما بعده فكأنه تعالى يقـول: إنـا لبالمرصـاد للعبـاد حـتى يعملـوا للمعـاش ويعملـوا للمعـاد، ولكنهم على الأغلب يغلبون الأولى على الآخرة ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَـانُ إِذَا مَـا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ أي عامله معاملة. المختبر وأكرمه ونعّمه، وهنـاك يحصـل الاختيـار لـه هـل يشكر على النعم أو لا؟ ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ بحـذف اليـاء أي أكرمـني وسكت عنـد ذلـك ولم يـذكر من فضـله ورحمتـه فكأنـه يـدعي أنـه هـو المستحق لذلك بالذات لا من فضل خالق البريـات ﴿وَأَمَّا إِذَا مَـا ابْتَلَاهُ﴾ أي عامله معاملة الممتحن ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي فقلله عليـه ﴿فَيَقُـولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ أي حقرني ورذلني وليس كـذلك لأنـه ربمـا يكـون في فقـر الإنسـان حكم ومصـالح كثـيرة لا يعلمهـا إلا اللـه فليس الإغنـاء إكرامـا وإجلالا، ولا الإفقـــار تحقـــيرا وإذلالا وذلـــك ظن الجـــاهلين. ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن قوليه كليهما، فإن ذينك القولين من الأقوال الفاسـدة كمـا أن بعض أعمالكم من الأعمال الفاسدة وأبرزها بقولـه الكـريم: ﴿بَـل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾

لقساوة القلب اللئيم ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾ أي ولا يحض بعضكم بعضا ﴿عَلَى﴾ إطعام ﴿طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ الواصل إليكم من الموروثين بدون تقسيم صحيح ﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ أي أكلاً ذا لمٍّ وجمع للحرام والحلال ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي كثيرا ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ردع للناس عن الأقوال الفاسدة والأعمال الباطلة، والغفلة بالعاجلة عن الآجلة. ويقول إذا دكت الأرض دكّا على دك أي دكا متتابعا من انشقاقها وانقلاع الجبال عليها وخروج ما فيها من الأثقال والأحمال ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي ظهر ذاته الحي القيوم لمحاسبة العباد ﴿وَ﴾ جاء ﴿الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ مصطفين صفا تلو صف ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أي وبرزت وعرضت لأهل الحساب طرا أجمعين فرأوها ونارها ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ أعماله الفاسدة العاطلة وآماله الهوائية الباطلة بعد أن خاب الأمل وضاع العمل ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي ومن أين تكون له الذكرى النافعة؟ ﴿يَقُولُ﴾ إذ ذاك من تيقن خسرانه هناك ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي قدمت الأعمال الصالحة وقت حياتي الدنيا أو في وقتها أو لأجل حياتي الطيبة بعد البعث ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ﴾ أي مثل عذاب الله ﴿أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ﴾ أي ولا يشد مثل شد وثاقه ﴿أَحَدٌ﴾ ومعنى الكلام ان الله تعالى يتولى تعذيب أولئك الكافرين بعد شدّ وثاقهم بالسلاسل والأغلال، ولا يتولى عمليات التعذيب والتوثيق أحدٌ مثلَه، بل هو أشد المعذبين وأقوى الموثقين. ومن الذي يعمل عملا مثل رب العالمين؟ فهذه أحوال أصحاب النفوس الأمارة بالسوء.

وأما أحوال أصحاب النفوس المطمئنة فهو ما يستفاد من قوله الكريم ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أي بذكر الله وباستمرار الحضور ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ أي إلى محل عناية ربك وإفاضة أنواره ﴿رَاضِيَةً﴾ من الله ﴿مَرْضِيَّةً﴾ عنده ﴿فَادْخُلِي فِي﴾ زمرة ﴿عِبَادِي﴾ المقبولين ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

سورة البلد، مكية، وآياتها عشرون، نزلت بعد ق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَـدٍ (4) أَيَحْسَـبُ أَنْ لَنْ يَقْـدِرَ عَلَيْـهِ أَحَـدٌ (5) يَقُـولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَـلْ لَـهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَـدَيْنَاهُ النَّجْـدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَـةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَـةٍ (16) ثُمَّ كَـانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَـدَةٌ (20)﴾

قوله تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَـدِ * وَأَنْتَ حِـلٌّ بِهَـذَا الْبَلَـدِ﴾ أي لا أقسـم بهذا البلد الذي جعلته أول بيت وضـع للنـاس، وحرمـا آمنـا للصـيانة من الجنة

والناس، ولاسيما أنت حال وثابت بهذا البلد تضـيء الأطـراف والأكنـاف كالنبراس ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ أي ولا أقسم بوالد شريف نشر التوحيد في العالم وهو إبراهيم خليل الرحمن واسماعيل ومحمـد سـيد بـني عـدنان وإسـحاق ويعقـوب والأسـباط الـذين دعـوا النـاس إلى طاعـة الـدّيان، والمقسم عليه ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي خلقنا الإنسان المعهود المشار إليه بأنامل السعود في كبد ونكد ومحن ضاربة للقلب والجسـد، فالإنسان من واجبه طاعة الرحمن ونشر الأمان والإيمان، وكل من هــو كذلك اعترضت دونه عداوة الإنسـان الفاسـد والعـدو المعانـد والجاهـل الحاسد والكافر الجاحد، وكل منهم يرمونه بما عندهم من السهام، ولــو كان سهما واحدا كان يتقي فلا مجال إلا الصّبر والعزم. ومنهم من فسر الكبد بظلمة الرحم والمشـيمة وبطن الأم والآلام الـتي تـرد عليهـا بعـد الانفصال.

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ الانسان ﴿أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَـدٌ﴾ يعـني بَعـد أنْ بينـا شرفكم التالد ووضعكم مع أهل المكايد أيحسب الإنسان المغرور الذي يؤذيك أن لن يقدر عليه أحد حتى ينتقم منه؟ مع أنـه أخـف شـيء تحت قدرتنا، ولا قيمة له تحت صـولتنا، ويتوعّـد ويهـدد، ويغـتر بمـا عنـده من الإمكانية والمعونـة في سـبيل الكفـر والإشـراك. و﴿يَقُـولُ أَهْلَكْتُ مَـالًا لُبَـدًا﴾ في سـبيل جمـع النـاس والمكالمـة معهم في معارضـة الرسـول ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ عند وقوفه بين الناس وتكلمه بما ألقي إليــه من شيطان الوسواس؟ ألا يخاف ذلك الجاهل ربـه المنعم عليـه بـالنعم الكثـيرة؟ ﴿أَلَمْ نَجْعَـلْ لَـهُ عَيْنَيْنِ﴾ يبصـر بهمـا مـا يحتـاج إلى الإبصـار ﴿وَلِسَانًا﴾ يتكلم بـه عنـد الحاجـة إلى بيـان مـا في ضـميره ﴿وَشَـفَتَيْنِ﴾ يسـتر بهمـا فـاه ﴿وَهَـدَيْنَاهُ النَّجْـدَيْنِ﴾ أي نجـد حجـاز ونجـد تهامـة، أي طـريقي الخـير والشـر، أو ثـديي أمّـه فهـل يناسـب مقابلـة هـذه النعم الجليلة بكفران الرب وإنكـار رسـوله ومنـع النـاس عن سـلوك سـبيله؟ ومع <517>

ذلك كله فذلك الإنسان اللدود ليس له قيمة واقعية اجتماعية ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ لحد الآن ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي عتق عبد ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي ذي مجاعة ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي فقر وقوله ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ عطف على المنفي المذكور أي فلا اقتحم العقبة ﴿وَ﴾ لا كان من الذين آمنوا بالله الواحد العظيم، ولا كان من الذين ﴿تَوَاصَوْا﴾ أي أوصى بعضهم بعضا ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على الإيمان والثبات عليه ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي ولا كان من الذين تواصوا بالمرحمة أي بالرحمة على عباد الله تعالى.

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الإيجابيات الحسنة ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي جهة اليمين التي هي شعار السعداء ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ والشؤم والخسارة في دار القرار ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي غلبت عليهم نار مطبقة أبوابها لا تفتح كما قدره الله تعالى أبد الآبدين.

<518>

سورة الشمس، مكية، وآياتها خمس عشرة، نزلت بعد القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالشَّـمْسِ وَضُـحَاهَا (1) وَالْقَمَـرِ إِذَا تَلَاهَـا (2) وَالنَّهَـارِ إِذَا جَلَّاهَـا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَـا (5) وَالْأَرْضِ وَمَـا طَحَاهَـا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)﴾

قوله تعـالى ﴿وَالشَّـمْسِ وَضُـحَاهَا﴾ أي أقسـم بالشـمس هـذا الكـوكب النهاري المنور لأزيد من نصـف كـرة الأرض منـذ خلقت ومـا أودع فيهـا من الأجزاء الشعاعية التي انبهـرت العقـول في تحقيـق حقيقتهـا، ومن جملة مـا أودع فيهـا ضـوؤها والضـوء هـو الـذاتي للمضـيئ، والنـور هـو العرضي المستفاد من الغير ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي تبعها في الطلوع إذا طلع في الأفق الشرعي بعد طلوعها، أو تبعها أي خلفها فإذا غربت هي طلع هذا، أو تبعها أي كان فرعا لها، فـإن ضـياء الشـمس ذاتي والقمـر عرضي وتبعي ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أي أظهرها، فإن طلوع الشمس علة لوجود، ووجود النهار علة للعلم بطلوع

الشمس ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي إذا يستر نورها وضياءها وهذا الإسـناد مجازي ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ أي والسماء وبنائها إذا كانت مـا مصـدرية. وأما إذا كانت موصولة فهي مسـتعملة للبـاري سـبحانه لانبهـام حقيقتـه ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ أي وطحوها وبسطها من كل جانب ﴿وَنَفْسٍ وَمَـا سَوَّاهَا﴾ أي وتسويتها أي إنشائها مستوية مستعدة للأعمال التي أودعها ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ اي وأفهمها فجورها وتقواهـا ببعث الرسـل، وبيان السبل وتمييز الرشـد من من الغي، أو جعلهـا مسـتعدة ومتمكنـة من فهم الزيغ والفجور وفهم التقوى والأجور ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ أي أقسم بكل ما اقسمت به أنه قد أفلح وفاز بالفلاح وسعادة الدارين من جعل نفسه زكية بأن تطهر من دنس الهـوى واتبـع هـدى الرسـول وفتح بـاب الوصـول، وقـد خـاب وخسـر من دسـيها أي أخفاهـا أي لم يعالجهـا ولم يظهرهـا حـتى غمسـت في دنس المعاصـي وخفيت فيها. وقد ظهر ظهور الشمس في رابعة النهار من هذه الآيـات الكريمـة أن تزكيـة النفس عن الرذائـل والأمـراض الباطنيـة واجب من الواجبـات، بـل أهمهـا لأن النفس مـدار التصـور والتصـديق والإخلاص والتوجه الصادق، فيجب عليه اتباع الشرع الشريف خالصـا لوجـه اللـه، فإن تنور وتزكى فذلك خير وبركة، وإلا وجب عليـه السـعي في حصـول صديق رفيق يستأنس به ويستفيد منه، فإذا وجده وجب أن يستمر معه لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَـا (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْـقَاهَا (12) فَقَـالَ لَهُمْ رَسُـولُ اللَّهِ نَاقَـةَ اللَّهِ وَسُـقْيَاهَا (13) فَكَـذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَـا فَدَمْـدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أي بسبب طغيانها وتمردها عن إرشاد أخيها الصالح صالح عليه السلام. وقوله ﴿إِذِ انْبَعَثَ﴾ ظرف للمصدر السابق والطغيان كان عند انبعاث أشقى قوم ثمود وهو قدار بن سالف فتهيأ واستعد لعقرها ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح عليه السلام: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي ذروا ناقة الله وسقياها ولا تمسوها بسوء ولا تمنعوها شربها وإلا حل بكم عذاب الله ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في هذا التحذير ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي فقطعوا قوائمها فمات ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي فأطبق عليهم ربهم العذاب وجعلهم في عذاب عام شامل ﴿بِذَنْبِهِمْ﴾ الكبير ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي فسوى الدمدمة وطبق عليهم ما أراد من العذاب ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ الباري جل شأنه عاقبة هذه الدمدمة وسوء نتيجتها، فإن الله لا يخاف لا من الإرسال ولا من الإيقاف.

<521>

سورة الليل مكية وآياتها احدى وعشرون نزلت بعد الاعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11)﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ أي أقسم بالليل إذا يَغشى ضوءُ النهار وفي الإسناد ما سبق ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ أي ظهر بزوال ظلمة الليل لطلوع الشمس ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ أي والقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى أقسم بذلك كله ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ أي على وجوه عديدة متفرقة ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي أعطى ماله للناس المستحقين سواء كان البذل واجبا أو مستحبا واتقى محارم الله أو اتقى عقابه فأخلص نيته في بذل ماله ﴿وَصَدَّقَ﴾ بالكلمة ﴿الْحُسْنَى﴾ وهي لا إله إلا الله أو أن الدين عند الله الإسلام أو كل كلمة موافقة للحق ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ أي

نهيئه ونعده ﴿لِلْيُسْرَى﴾ أي للخصلة التي تؤديه إلى يسر وراحة ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بصرف المال وما أنفق المال الذي يجب إنفاقه في حقوق الله أو حقوق الناس ولا تصدّق منه في سبيل الله ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ بما عنده من الحطام عن المثوبة الحسنى عند الملك العلام أو استغنى بشهوات النفس والهوى في الدنيا وترك حظه في الآخرة ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ أي بالخصلة الحسنى المعهودة المذكورة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ ونهيئه ﴿لِلْعُسْرَى﴾ أي للخصلة العسرى العسيرة جدا، وهي عذاب النار في دار القرار ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي ادخره لنفسه ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ أي هلك واستحق العذاب وتردى في نار جهنم إذ ليس الوقت وقت الفداء.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآَخِرَةَ وَالْأُولَى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ أي إن علينا بموجب قضائنا المبنيّ على الحكمة الهدى والإرشاد لكم إلى الحق وتمييز طريق الخير والشر ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآَخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ أي وإن داري الدنيا والآخرة لنا نتصرف فيهما كيف نشاء، لكن قررنا أن نعمة الدنيا وهي الدار الأولى قد تكون لأهل الكفر كما قد تكون لأهل الإيمان، وأما نعمة الدار الآخرة فلا يمكن إعطاؤها إلا للعباد المخلصين ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ أي تتلظى وتتلهّب بقوة وشدة ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ أي خالداً ﴿إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ﴾ بالحق ﴿وَتَوَلَّى﴾ عنه ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾ للمستحقين حالكونه ﴿يَتَزَكَّى﴾ عن حب الدنيا

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ حتى يتوهم أن صرف المال له في مقابل تلك النعمة ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ أي لكن يبتغي ويطلب وجه ربه الأعلى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ بما يعطيه ربه.

وقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لما اشترى بلال بن رباح من سيده، وهو أمية بن خلف، وكان الصديق رضي الله عنه يبتاع الضعفة فيعتقهم، فقال له أبوه: أي بُنَي لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك؟ فقال: منعَ ظهري أزيد. فنزلت الآية.

وبلال ابن رباح الحبشي واسم امه حمامة، كان صادق الإسلام، طاهر القلب، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الشمس فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد! فيقول وهو في تلك الحال: أَحَدٌ! أَحَدٌ! فمر النبي صلى الله عليه وسلم به فقال: ((أحَد ينجيك)) يعني الله تعالى ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: ((إن بلالا يعذب في الله)) فعرف أبو بكر الذي يريده رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف إلى منزله، فأخذ رطلا من ذهب ومضى إلى أمية بن خلف فقال له: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ قال: أنت أفْسَدْتَه فأنقذه بما ترى. ففي رواية أنه فداه برطل من ذهب. وفي رواية أنه قال له: عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، وهو على دينك فأعطاه، وأخذ بلالا فأعتقه. وكان قد أعتق قبله ست رقاب، وهم: عامر بن فُهَيرة شهد بدرا وأحدا وقتل يوم بئر معونة شهيدا. وأعتق أم عميس زهرة فأصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى. فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضر اللات

والعزى وما ينفعان فرد الله تعالى عليها بصرها. وأعتق الفهيرية وبنتها وكانتا لامرأة لبني عبد الدار فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما تحتطبان لها وهي تقول لهما: والله لا أعتقكما أبدا. فقال أبو بكر: كلّا يا أم فلان. فقالت: كلا انت أفسدتهما. قال: فبكم؟ قالت: بكذا وكذا. قال: قد أخذتهما وهما حرّتان. ومرّ بجارية من بني المرسل وهي تعذب فابتاعها فأعتقها. ولما أعتق أبو بكر بلالا قال الكفار: إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده. فنزل ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ بما يُعطى من الثواب فتبين من المقام أن المراد بالأتقى أبو بكر رضي الله عنه كما أن المراد بالأشقى أمية بن خلف.

واستشكلت هذه الآية في مقابل الآية السابقة ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ فإن مفهوم الأولى لا يدخل النار الشقي كافرا أو مسلما، ومفهوم الثانية أنه لا يجنبها التقي غير الأتقى وهو التقي والشقي وهما متعارضان! وأجيب عنه بأجوبة.

الأول: أن الصلي هو الدخول في أتعس الدركات في النار فتلك مختصة بالأشقى الذي كذب وتولّى، ثم قال: وسيجنبها أي يبعَّدُ من صَليها الأتقى. وأما التقي والشقي فيجوز أن يعذبا في غير تلك الدركة سواء خرج منها بعد، وذلك إذا كان مسلماً، أو لم يخرج، وذلك إذا كان كافرا.

الثاني: أن المراد بالصلي الصلي المخلد كما قيدناه به بقرينة الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وأمثالها من الآيات.

الجواب الثالث: أن من لم يعتبر مفهوم الكلام فلا إشكال عليه، وأما من اعتبره فقد اشترط أن لا يكون الوصف أو القيد لموافقة الواقع كما في

قوله تعالى ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن الآية نزلت في قوم والوا اليهود دون المؤمنين، وإلا فمن اتخذهم أولياء مع المؤمنين أيضا كذلك، أي إن عمله حرام، وهنا واقع الحال أن أبا بكر وهو الأتقى اشترى العبد وأعتقه وسيجنب النار في دار القرار، ومقابله وهو الأشقى أي أمية بن خلف يصلاها في أشد عذاب بالنار. ولا يعتبر هنا حكمُ الشقي بعد الأشقى ولا حكم التقي مع الأتقى. وهذا ظاهر الحال واندفع الإشكال، ولله الحمد في كل مقام وحال.

<526>

سورة الضحى، مكية، وآياتها إحدى عشرة، نزلت بعد الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآَوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى﴾ ولما نزلت كبر صلى الله عليه وسلم آخرها وروي الأمر بها خاتمتها وخاتمة كل سورة بعدها وهي الله أكبر. وفي رواية لا إله إلا الله والله اكبر. وفي رواية ثالثة لا إله الا الله والله أكبر ولله الحمد وعليها العمل.

والضحى الوقت بعد الإشراق إلى الزوال. أقسم الباري سبحانه وتعالى بالضحى والوقت المعتدل المبارك الذي فيه ينشط كل عامل لعمله، وهو وقت كسب زاد المعاش وزاد المعاد ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أي غطى بظلامه ضوء

النهار وفي مجيئ ذلك الـوقت أسـرار كراحـة العبـاد بعـد العمـل طـول النهـار، وفـراغ الإنسـان للطاعـة والعبـادة والابتهـال إلى ربـه الغفـار، والاستتار من الأعداء والأشرار... إلى غير ذلك فأقسم بالأمرين أنه ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أي مـا تركـك تـرك تعسـف ﴿وَمَـا قَلَى﴾ ك أي مـا أبغضـك بعضا خارجا عن التلطف.

واختلف في سبب نزول هذه الآية على أربعة أقوال:

الأول: ما روي من أنه صـلى اللـه عليـه وسـلم اشـتكى ليلـتين أو ثلاثـا فجاءت أم جميل امرأة أبي لهب وقالت: يا محمد إني لأرجـو أن يكـون قرينك تركك! لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث فنزلت.

الثاني: أنه أبطأ الوحي حتى شق عليه، فجـاءه وهـو واضـع جبهتـه على الكعبة يدعو وأنزل عليه الآية.

الثالث: ما روي من أن خولة كانت تخدم النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم قالت: إن جرواً دخل البيت، فدخل تحت السـرير فمـات، فمكث النـبي صلى الله عليه وسلم أياما لا ينزل عليه الوحي فقـال صـلى اللـه عليـه وسلم يا خولة هل حدث في بيـتي؟ إن جبريـل لا يـأتيني. قـالت خولـة: فكنسـت فـأهويت بالمكنسـة تحت السـرير، فـإذا جـرو ميت فأخذتـه فألقيته خلف الجدار فجاء نبي الله صلى الله عليه وسـلم ترعـد لحيـاه. وكان إذا نزل الوحي استقبلته الرعدة فقال: يا خولة دثريني فلمـا نـزل جبريل سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن التـأخر فقـال: أمـا علمتَ انّا لا ندخل بيتا فيه كلبٌ ولا صورة؟

الرابع: ماروي من أن اليهود سـألوا النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم عن الروح وذي القرنين، وأصـحاب الكهـف فقـال صـلى اللـه عليـه وسـلم: سأخبركم غداً، ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس منه الوحي إلى أن نــزل جبريل عليه السلام

بقوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ﴾ ثم أخبره بما سأل عنه ونزلت.

والصحيح أن هذه الحادثة أي فتور الوحي حدثت مرتين مرة بعـد نـزول الوحي عليه السلام في غار حراء حيث توقـف نـزول الـوحي عنـه مـدة واختلف الناس في حسابها فمنهم من قال: ثلاثة أيام بلياليها ومنهم من قال: كانت خمسة عشـر يومـا. ومنهم من قـال خمسـا وعشـرين يومـا ومنهم من قال أربعين يوماً وهذه المرة كانت في مكة المكرمة. ومـرة انقطع الوحي عنه بعد سؤال اليهـود عنـه عن الـروح وأصـحاب الكهـف وذي القرنين. وهذه المرة كانت في المدينة بعد الهجـرة وكـانت المـدة مدة وجيزة.

وقوله ﴿وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أي إن آخر مدة نبوتك خير لك من أول مدتها، حيث يتم فيها النصـر المـبين وانتشـار الـدين. أو إن الآخـرة خير لك من الأولى لأنها تصفو لارتقاء الروح، والفوز بالفتوح، والوصـول إلى كل ما وعد الله بـه عبـاده المؤمـنين، وتحصـل لـك رتبـة الشـفاعة ومقام الوسـيلة والفضـيلة والمقـام المحمـود ﴿وَلَسَـوْفَ يُعْطِيـكَ رَبُّكَ﴾ الآخرة ودرجاتها وبركاتها من لقاء الله تعالى ورؤية وجهـه الكـريم وإذن الشـــفاعة الكـــبرى لجميـــع الأمم في الخلاص من وقـــوف الموقـــف والشفاعة لبعض العصاة المستحقين للعذاب بالعفو، وللمستحقين لرفع الدرجات إلى غير ذلك من اللطائف. ويجوز تفسير العطاء بما قلنا وبما خصه به في الدنيا من هجرته واستقراره في دار الهجرة، ومـا نالـه من العز والنصرة، وإلقاء الرعب في قلوب أعدائه من مسيرة شهر، ووفور الصلاح والتقوى، ومزيد العلم واكتساب الكمالات في أمته المرحومة.

وقد أخرج مسلم، كما في الـدر المنثـور، عن ابن عمـر أنـه صـلى اللـه عليه وسلم تلا قول الله تعـالى في إبـراهيم عليـه السـلام ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وقوله <529>

تعالى في عيسى ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾... الآية فرفع رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم يديـه، وقـال: ((اللهم أمـتي أمـتي)) وبكى فقـال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقل له إنا سنرضيك في أمتـك ولا نسـوؤك. ثم أشـار البـاري إلى الاسـتدلال على شمول النعمة عليه في المستقبل بشمولها له في الماضي فقـال ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآَوَى﴾ أي ألم يجدك يتيمـا بفقـد الأب قبـل ولادتـك فـآواك وأرجعـك إلى من تكفـل تربيتـك من جـدك عبـدالمطلب ثم عمـك أبي طالب على توصية جدك فكنت تعيش فارغ البال واسع الحال ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي خاليا عن الشريعة والأصول الاعتقاديـة والعمليـة ﴿فَهَـدَى﴾ ك إليها هداية بـالتوفيق والعنايـة والرعايـة؟. وليس المـراد عن الحـق إلى الباطل، وحاشاه فإنه ولـد نظيفـا شـريفا متوجهـا إلى ربـه، ولم يسـجد لصنم قط، ولم يعتمد على غير البـاري تعـالى، لكن لم تكن لـه شـريعة إلى أن بعثه الله تعـالى وأنـزل عليـه القـرآن الهـادي للطريـق الأقـوم، فالمراد من الضلال الابتعاد عن الشرع والخلـو عنـه إلى أن صـار ينبـوع الفضل والعلم والحكمة ومنبع الخير والكرم والرحمة، ﴿وَوَجَـدَكَ عَـائِلًا﴾ أي عديم الثروة والمال على ضنك من الفقر وقلة ذات اليـد فـأغنى أي فاوسع لك الثروة وما تحتاج اليه وذلك قبل بعثته صلى الله عليه وسـلم بما حصله من أرباح التجارة، وبعده بما صار له من الفيئ الواصل إليـه، كما هو مقرر في الدين. فلما أدركت تلك الأحوال مباشرة ووصلت إلى مقا بلها من فيضان رحمة الحق سـبحانه ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَـرْ﴾ اليـتيم منصوب بالفعل بعده أي فلا تقهر اليتيم أي اصنع مع يتامى عبـادي كمـا صنعت معك ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ والسائل منصوب بمـا بعـد، أي ولا تنهر السائل ولا تزجره. والمعنى إما أن تطعمه أو تـرده برفـق ولطـف ولين كلام ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي ومتى نظرت إلى نعمـة ربـك الواصـلة إليـك منـه تعـالى ﴿فَحَـدِّثْ﴾ بهـا بيانـا لفضـله وكرمـه وفيض نعمـه ولا تسترها، <530>

فإن التحدث بها كذلك من جملة شكرها، كما أن صرفها فيما يناسبها من شكرها.

عن جابر بن عبدالله مرفوعا من أعطي عطاء فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليثن به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور.

ونسأل الله تعالى أن يحفظنا عن لبس ثوبي الزور وأن يلبسنا لباس الأدب والتقوى والنور بمنه وفضله آمين.

سورة الشرح، مكية، وآياتها ثمان، نزلت بعد الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ الشرح في الأصل بسط اللحم ونحوه، يقال: شرحت اللحم أي بسطته وشققته. وشاع استعماله في الإيضاح. ومنه شرحت الكتاب، وشرحت المقصود، أي أوضحته، والمراد هنا توسعة صدره صلى الله عليه وسلم بالأنوار الإلهية، وإفاضة العلوم اللدنية عليه، وإكمال قوته المعنوية، ليكون قابلا للصبر على المكروهات، والثبات عند مزيد الهبات، والتمكن من مقابلة المهمات، وقابليته لمناجاة الحق سبحانه، ومداراة الخلق ليقبلوا شرحه وبيانه. وهذه المعاني تدور على شرح الصدر غيبا فالمعنى: ألم نفسح صدرك حتى عالمي الغيب والشهادة؟ وجمع بين ملكتي الاستفادة والإفادة، فما منعك العلائق الجسمانية عن اقتباس

أنــوار الملكــات الروحانيــة، ومــا عاقــك العلاقــة بمصــالح الخلــق عن الاستغراق في شئون الحق.

وفسـره بعض بشـق صـدره الشـريف شـقا غيبيـا ملكيـا. فقـد روي أن جبريل عليه السلام أتاه وهو عند مرضعته حليمة، وهـو ابن ثلاث سـنين أو أربع، فشق صدره وأخرج قلبه وغسله ونقاه، وملأه علما وإيمانــا، ثم رده في صدره. وحكمة ذلـك لينشـأ على أكمـل حـال، وشـق أيضا بعـد بلوغه عشر سنين ليـأتي عليـه البلـوغ ودور المراهقـة، وهـو على حالـة جميلة فائقـة. وشـق أيضا عنـد البعثـة ليتحمـل القـرآن الشـريف بقلب لطيف نظيف، وليلة الإسراء ليتهيأ له مناجاة الحق سبحانه وتعالى وهــو على أطيب الأحــوال وكــل ذلــك مــذكور في كتب الســير المفصــلة، كالمواهب اللدنيـة وغيرهـا ومن أراد الاطلاع على روايـة ذلـك فليطـالع تلك الكتب.

وســر دوران الأمــر على الصــدر هــو أن الصــدر كرســي القلب أي من جـوانب القلب، وليس الكلام في القلب وهـو لحم صـنوبري، بـل الكلام فيما أودع فيه من أسرار الحق وأنواره، وكيف جعل مظهر لآثـار الـروح الإنسانية فإن الإنسان ممتاز عن أنواع الحيوان بالروح الإنسانية المعـبر عنها بالنفس الناطقة. وهـذه الـروح الإنسـانية ممـيزة بـإدراك الكليـات والجزئيات المجردة والمادية وعليـه مـدار السـعادة، وهـذا الإدراك علم وصفة نفسـانية من أهم أسـبابها القـوة العاقلـة، والقـوة العاقلـة صـفة للروح الإنسانية وآثار الروح تظهر في القلب ومحله الصدر، ولذلك كرر في القرآن الكريم الصدر وينوه بشأنه بآيـات مثـل قولـه تعـالى ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَـدْرَهُ لِلْإِسْـلَامِ فَهُـوَ عَلَى نُـورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ ومثـل قولـه تعـالى ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّـرْ لِي أَمْـرِي﴾ وقولـه ﴿فَمَنْ يُـرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْـلَامِ﴾ وقولـه ﴿أَلَمْ نَشْـرَحْ لَـكَ صَـدْرَكَ﴾ وقولـه ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

فشرح الصدر أساس لكل عز روحي وفخر إنساني وعلاقـة ربانيـة وقـد شرح الله صدر حبيبه محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم للنبـوة والرسـالة، وكفى بشـرح صـدره لتحمـل أعبـاء الرسـالة بين أولئـك المشـركين المعاندين وتحمل أذاهم في كل وقت وحين، واستمراره مـع ذلـك على دعوة العباد إلى الله ونشر حقائق الدين.

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الوضـع إذا تعـدى بعن فهـو للإزالة، كمـا أنـه إذا تعـدى بعلى فهـو للتقريـر. والـوزر الشـيئ الثقيـل، والانقاض التصويت، فإن الإنسان إذا حمل شيئا ثقيلا على كتفه فالكتف يحصل منها نوع تعب عند اعتماد ذلك الشيئ الثقيل عليها. وهـذا الـوزر كـان عبـارة عن كلفـة مواجهـة المشـركين ودعـوتهم إلى توحيـد اللـه وصعوبة مقاومته لكلامهم البذيء في الرد عليه والصبر على ما يسمعه من أقوالهم الباطلة، وخوف إبـادة أتباعـه الفقـراء من الغيـظ والعـداء، وكلفـة حمـل أقاربـه الأقـربين من بـني عبـدالمطلب لهجمـات سـائر المشركين، وضيق صدره من قلة أعوانه في ابتـداء الـدعوة. وقـد رفـع الله تعالى كل ذلك عنه، فسـهلت عليـه مواجهـة الكفـار، والكلام معهم والنصح لهم، وسهلت مقاومته لهم، وحصل لـه الصـبر الكامـل على مـا يسمعه منهم، ولم يبق عنده خوف إبادة أتباعه المؤمنين، وتحمل أقاربه كلفة الذهاب الى شعب أبي طالب، وصارت له سعة الصدر في مقابـل الناس كيفما كانوا. وهذا الأمر وهذه المرونة حصل له بعد اسلام حمـزة عمـه، وعمـر بن الخطـاب، وعـدد من رجـال قـريش واشخاصـهم قبـل الهجرة. والحقيقة أن وضع الوزر عنه صلى اللـه عليـه وسـلم وإن كـان موجودا في أول عصر النبوة لكنه تحقق بعـد الهجـرة ولـذلك أيـد بعض العلماء ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه السورة مدنية. وحاصل المعنى: أزلنا

عنك تلك الكلف والمخاوف وضيق الصدر الموجود أول البعثة بما يسرناه لك من أسباب الفوز والنجاح.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي ألم نرفع لك ذكرك بأن سماك الله بالرحمة للعالمين وخاتم النبيين، وقرن اسمك مع اسمه في كلمتي الشهادة، وفي الأذان والإقامة يوميا خمس مرات افتراضا أو استحبابا، وفي كل تشهد في الصلوات المفروضة والمندوبة، وفي الخطب المنبرية وغيرها، وفي الصلوات المشروعة للكسوف والخسوف والعيدين، وفي الأمر بإطاعة الله ورسوله وإرجاع بعض الأمور إلى الله ورسوله، وفي صحف الأنبياء والرسل السابقين، وفي تأريخ أعيان البشر، وفي كثير من الآيات القرآنية؟ وكفى بجعلك صاحب المقام المحمود والشفاعة الكبرى للأنام رفعا للذكر.

ومادام خصك الله بهذا المقام الرفيع اللائق بالنبي الشفيع فلا تنزعج من أذاهم وهواهم أبدا، فانها أشياء مؤقتة تزول ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ قالوا: قد تقرر ان إعادة الشيئ المعرف لتوحيد الثاني مع الأول، فعليه يلزم أن يكون كل عسر محفوفا بيسر قبله ويسر بعده، مع أنه لا يطرد فإن كثيراً من المسلمين وقعوا في عسر وشدة واستمروا فيها إلى أن ماتوا متحسرين! وأجيب عنه بأجوبة منها: أن الاستغراق الموجود في الآية عرفي، أي غالب من وقع في العسر أتاه اليسر بعد مدة وجيزة. ومنها أن هذا الحكم مقيد بمشيئة الله تعالى نظير سائر الأمور المطلقة، أي إن شاء ذلك كان كذلك. ومنها أن التنوين في يسرا للتنويع، ومعناه أن مع كل عسر يسراً ما، فإنه سبحانه لا يسد أبواب الخير على المبتلى، فإذا ابتلاه بعسر أنعم عليه بيسر كيفما كان. وقوله ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ أي إذا فرغت من الصلاة فانصب واتعب في العبادة ﴿وَإِلَى رَبِّكَ﴾ لا إلى غيره ﴿فَارْغَبْ﴾ أو إذا فرغت من تبليغ الدين وجهاد الكافرين فانصب واتعب في العبادة وإلى ربك فارغب.

سورة التين، مكية، وآياتها ثمان، نزلت بعد سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُـونِ (1) وَطُـورِ سِـينِينَ (2) وَهَـذَا الْبَلَـدِ الْأَمِينِ (3) لَقَـدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَـاهُ أَسْـفَلَ سَـافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8)﴾

قوله تعالى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ في المراد بهما أقوال كثيرة للمفسـرين أسـبها بسـبب المقارنـة مـع طـور سـينين والبلـد الأمين أنهمـا اسـمان لجبلين. في تفسير الفخـر الـرازي رحمـه اللـه تعـالى قـال ابن عبـاس رضي الله عنهما: هما جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية: طور تينا وطور زينا، لأنهما منبتـا الـتين والزيتـون، فكأنـه تعـالى اقسـم بمنـابت الأنبيـاء فالجبـل المختص بـالتين لعيسـى عليـه السـلام، والبلـد المختص بالزيتون الشام مبعث أكثر أنبياء بني إسرائيل. والطـور مبعث موسى عليه السلام، والبلد الأمين مبعث محمد

صلى الله عليـه وسـلم فيكـون المـراد من القسـم في الحقيقـة تعظيم الأنبياء وإعلاء درجاتهم. إنتهى.

يعني أن الله تعالى أقسم بالأماكن التي ولد وظهر فيها الأنبيـاء الكـرام المعهودون وحقيقته ترجع إلى الإقسام بذاتـه الجليلـة أي أقسـم بـذاتي الـذي بعث عيسـى بلا أبٍ من طـور تينـاء، وبعث كثـيرا من أنبيـاء بـني إسرائيل من طور زينا، وبعث موسـى من طورسـينا، وبعث محمـدا من البلد الأمين مكة المكرمة أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم.

القول الثاني: أنهما اسـمان للشـجرتين المعروفـتين، أو ثمرهمـا ووجـه الإقسام بهما احتواء الثمرتين لمنافع مهمة.

أما التين فلأنه فاكهة لطيفة سريعة الهضم لا تمكث في المعـدة كثـيرا، وتلين الطبع، وتقلل البلغم، وتطهر الكليتين، وتزيـل مـا في المثانـة من الرمل وهو مرض يستولي على مقـر البـول فيحجـز المـاء عن الخـروج بأجزاء دقيقة كالرمل يعسر معه البول ويتأذى به الإنسان، فإذا زاد صار حصاة، وتفتح سدد الكبد والطحـال، وتسـمن البـدن، وتقطـع البواسـير، وتطول الشعر... إلى آخر ما قاله المجربون حسب تجاربهم.

وأما الزيتون فهو من شجرة مباركـة فيـه إدام ودهن يؤكـل ويستصـبح. والمقسم عليه قوله الكريم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي في أحسـن تعـديل لصـورته وسـيرته، أمـا صـورته وهيكلـه فأحسـنيته معروفة من مقايسته بسائر الأنواع من الزحافات والمشـاة على أرجـل كثيرة، أو على أربع، أو على رجلين من الطيور. وأما تعديل سيرته فهـو أنه لو خلي وطبعه وترك وخليقته اقتضى عقله أن يعـترف بربـه ويطيـع أوامره ويجتنب منهياته. وإذا ألقيت إليه التعليمات الدينية القويمة تقبلها وعمل بها ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي إلى <537>

سيرة هي أسفل سير السافلين بواسطة تبعيته للقوى النفسية المخلوقة فيها من الطمع والشهوة والغضب الداعية إلى الانحراف عن السبيل القويم ﴿إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ بالله حق الإيمان ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بإخلاص وإتقان ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أي بعد أن علمت أن الإنسان مخلوق بقدرة الله على أحسن تقويم صورة وسيرة وأعطاك الله قابلية للخير والشر وهداك ببعث الرسول وبالقرآن المنزل عليه إلى ما فيه سعادة الدين فأي شيء يدعوك إلى أن تكذب بالدين وتزعم أو تقول أنه لا جزاء في الآخرة، على معنى أنه لا تأتي الآخرة حتى يتسلم كل عامل حقه أو تأتي، ولكن غرورهم يجعلهم بحيث يدعون أنهم لا جزاء عليهم ولا تمسهم النار مطلقا أو إلا أياما معدودات ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ أي اليس الخالق الذي فعل كل ما ذكر وظهرت قدرته على كل ما أراد فعله بأحكم الحاكمين؟ ولا مجال في الجواب إلا بكلمة بلى، وإلا فنعم يجلب أشد البلاء أعاذنا الله منه. <538>

سورة العلق، مكية، وآياتها تسع عشرة وهي أول ما نزل من القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8)﴾

قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ هذه السورة التي تسمى سورة اقرأ، وسورة العلق هي أول ما نزل من القرآن ثم بعده ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ ثم ﴿الْمُزَّمِّل﴾ ثم ﴿الْمُدَّثِّر﴾ وهكذا قال الخازن، ولكن المشهور عن غيره إن أول ما نزل بعد اقرأ سورة المدثر. وهذه السورة صدرها إلى ما لم يعلم أول ما نزل من القرآن، وذلك بغار حراء رواه البخاري وعبارته عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصّالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصباح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يخلو بحراء ويتحنّث فيه الليالِيَ ذواتَ العَدد، ثم يرجع إلى خديجةَ ويتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء؛ فجاءه الملك

فقال له: ﴿اقْرَأْ﴾ قـال: مـا أنـا بقـارئٍ فأخـذني فغطّـني حتّى بلـغ مـني الجهدَ ثم أرسلني فقال إقرأ، قلتُ: ما أنا بقارئ فغطّني الثانية حتى بلغ منّي الجهـد، ثم أرسـلني فقـال: إقـرأ فقلت: مـا أنـا بقـارئ، فأخـذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال ﴿اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْـرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْـرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. فرجـع بهـا صـلى اللـه عليـه وسلم يرجف فـؤاده، فـدخل على خديجـة بنت خويلـد فقـال: زمّلـوني، زمِّلوني، فزملوه حتى ذهب الروع. فقال لخديجـة وأخبرهـا الخـبر: لقـد خشيتُ على نفسي. فقالت له: كلّا أبشر فوالله لا يُخزيك اللهُ أبدا، إنك لتَصل الرَّحِم، ولتَصْدُق الحَديث، وتحمِلُ الكَلّ، وتكسِبُ الـمُعْدِمَ، وتقري الضّيفَ، وتُعين على نوائِبِ الحق.

فانطلقتْ به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العـزى بن قصي وهـو ابن عم خديجـة، وكـان ممن تنصّـر في الجاهليـة، وكـان يكتُب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيـل بالعبرانيـة مـا شـاء اللـه أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي فقالت له خديجـة: يـا ابن العم اسـمع من ابن أخيك. فقال له: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره صلى اللـه عليـه وسلم خبَرَ ما رأى. فقال له ورقة: هذا النـاموس الـذي أنـزل اللـه على موسى يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك. فقـال لـه رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَوَ مُخْرجيَّ هُمْ؟ قـال: نعم لم يجيء رجل قط بمثل ما جئت به الا عُـودِيَ، وان يـدركني يومـك حيّـاً أنصـرك نصرا مؤزَّراً. ثم لم يلبث ورقة أن تُوفي وفتر الـوحي فـترة حـتى حـزن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما بلغنا، حزنا شديدا غدا منه مِــراراً إلى أن يتردّى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يُلقيَ نفسه منه تبدّى له جبريل فقال: يا

محمد إنك رسول الله حقا، فيسـكن لـذلك جأْشُـه، وتَقـرّ عينُـه، فـيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثـل ذلـك، فـإذا أوفى بـذروة الجبـل ليُلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك. ومعنى قوله تعـالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إقرأ مبتدئاً باسم ربك الذي خلق الخلائق كلها.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي ربك القـادر المقتـدر الـذي خلـق الإنسـان وهو أشرف مخلوق ممتاز بالعقـل والعلم من علـق أي دم جامـد، فـإن النطفة تبقى في الرحم على حالها أربعين يوما، لكن مع تحول تدريجي حتى تصير في آخر المدة دمـا، ويبقى دمـا إلى أربعين يومـا. والـدم دم ماكث جامد ليس بسائل لأنّه في صدد التحـول إلى مضـغة وهي قطعـة لحم. والمراد بالإنسان النوع، وذلك النوع مخلوق من علق وإن كان أبـو النوع وهو فرد منه خلق من تراب لا من علق. ومن الناس من قـال إن المراد بالإنسان آدم، والمراد بالعلق الطين يتعلق به اليد فيتصرف فيـه ويصـوره حسـبما أراد، ولكن تفسـيره بـه ممـا يخفى على العقـول. واستدل المثبتون للبسملة جزءً من السور بهذه الآية الكريمة حيث قال إقرأ باسم ربك أي إقرا مفتتحا باسم ربك، وقل بسم الله ثم اقـرأ وهـو ظاهر في أنه لو افتتح بغير اسمه عـز وجـل لم يكن ممتثلا. وقـد أخـرج الواحدي عن عكرمة والحسن أنهما قالا: أول ما نزل من القـرآن بسـم الله الرحمن الرحيم، وأول سورة نزلت اقـرأ، وكـذلك أخـرج جريـر عن طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قـال: أول مـا نـزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسـلم قـال يـا محمـد اسـتعذ ثم قـل بسم الله الرحمن الرحيم. وَقَد عدّ القول بأنها أول ما نزل أحد الأقـوال في تعيين أول منزل من القرآن.

﴿اقْـرَأْ﴾ كـرره للتأكيـد ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْـرَمُ﴾ الزائـد في الكـرم وحـده على الحقيقـة ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِـالْقَلَمِ﴾ أي علم الخـط والكتابـة باسـتعمال القلم ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ بالوحي إلى الأنبياء وإلهامهم وإلهام الأولياء، وتوفيق

المتفكرين الأذكياء وتنوير الصالحين الأتقياء، وبالتجاريب العديدة في الأمور الحيوية العالمية في الدنيا، وبزيادة قوة الاستنباط واستخراج المفاهيم الدقيقة الخفية من النصوص السماوية والدساتير المقررة، فهذه الأمور كلها كما ذكرنا من أسباب تعليم الإنسان وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، ولما ذكر تلك النعمة العظيمة وهي نعمة التعليم التي عليها أساس الترقي والفوز بسعادة الدارين، أو معرفة وجوه الطاعات والعبادات، وكان الواجب على الإنسان العاقل الخضوع والتذلل مع أنهم عاملوا على خلاف ذلك، وكانوا يعادون الرسول صلى الله عليه وسلم على الصلاة التي هي أشرف العبادات البدنية.. ردعهم الباري وزجرهم بقوله ﴿كَلَّا﴾ ردع لمن كفر من نوع الإنسان لاسيما المشركين الموجودين في مكة وقت النزول ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ أي ليتجاوز الحد في المعصية ﴿أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى﴾ من أجل أن رأى نفسه استغنى بقوته، أو ثروته، أو عشيرته، أو أولاده، أوجاهه، أووظيفته، أوجهالته... ونسي ضعفه وحاجته إلى ربه ولا حق له في ذلك الطغيان فإن الأحوال سجال، والدنيا دولة، والآخرة دار الجزاء ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ أي رجوعه ورجوع غيره إلى الباري فينال جزاء شره وخيره، وينتقم منه على سوء سلوكه وفساد سيره.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)﴾

ثم ذكـر بعض آثـار الطغيـان المتحقـق في بعض بـني الإنسـان وقـال ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ والعبد المصلي هو الرسول سـيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والناهي هو الكافر أبو جهل. أخـرج أحمـد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة رضي اللـه عنـه أن أبـا جهـل حلف باللات والعزى: لئن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصـلّي لَيَطأن على رقبته، وليعفّرن وجهه! فأتى رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم وهو يصلي ليفعل، فمـا فجـأهم منـه إلا وهـو ينكص على عقبيـه، ويتقي بيديه! فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحـة. فقـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: ((لـو دنـا مـني لاختطفته الملائكة عضـوا عضـوا)) فـنزلت الآيـة ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ إلى آخر السورة ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَـرَ بِـالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ أي أخـبرني لـو كـان المنهي عن الصلاة ثابتا على الهدى ومتمكنا فيه أو أمر الناس بتقـوى اللـه وطاعتـه أو كان على خلاف ذلك وكذب بالحق وتـولى واسـتدبره ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِـأَنَّ اللَّهَ يَـرَى﴾ كـل ظـاهر من الأحـوال وبـاطن من طبيعـة الإنسـان؟ فـأي علاقة له بذلك الإنسان وربه يراقبه كيف كان؟ فلم يزجـره عن الصـلاة والعبـادة؟ ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَـهِ لَنَسْـفَعَنْ بِالنَّاصِـيَةِ﴾ أي لنأخـذن بناصـيته ولنسحبنه إلى النار يوم القيامة، والسفع الجذب بقـوة وشـدّة. ﴿نَاصِـيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ بدل من الناصية السابقة ﴿فَلْيَـدْعُ﴾ ذلـك الكـافر النـاهي المعاند ﴿نَادِيَـهُ﴾ أي أهـل ناديـه لنصـره ومعونتـه ﴿سَـنَدْعُ الزَّبَانِيَـةَ﴾ أي ملائكة العذاب ليجـروه إلى النـار، وهـو في الأصـل الشـرط أي أعـوان الولاة، وهي جمع لا واحـد لـه من لفظـه كعباديـد، وقيـل: مفـرده زبنيـة كعفرية، أو زبني كأنـه نسـب إلى الـزبن وهـو الـدفع ﴿كَلَّا﴾ ردع للنـاهي الغريـق في المنـاهي ﴿لَا تُطِعْـهُ﴾ ودم على مـا أنت عليـه من مخالفتـه ﴿وَاسْجُدْ﴾ وواظب غير مكترث به على أداء الصلوات لربـك ﴿وَاقْتَـرِبْ﴾ وتقرب بذلك إلى ربك.

سورة القدر مكية وآياتها خمس نزلت بعد عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن الكريم وهو وإن لم يسبق ذكره قريبا لكن شهرة أمره وعظم قدره جعله كأنه مذكور وحاضر ومسطور. والإنزال متعلق به باعتبار إنزال الملك الموكل به وهو جبريل، أو أن الإنزال بمعنى الإيحاء. ونوقش بأنه لم ينزل كله مرة واحدة فكيف قال أنزلناه؟ والجواب: أنه مبني على إنزال كله مرة واحدة من اللوح إلى بيت العزة في السماء الدنيا، أو المراد ابتدأنا إنزاله والشيئ المتتابع اللامنقطع بعضه عن بعض إذا نزل بعض منه فكأنه نزل كله ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ إما بمعنى ليلة الشرف والعظمة، أو بمعنى ليلة تقدير الأمور المستقبلية، فإنها تقدر المتعلق بكل سنة من السنين في هذه الليلة، وما يقال من أنها قدرت في ليلة النصف من شعبان، فجوابه أنها قدرت في نصف شعبان، ولكن نفذت من ليلة القدر في رمضان. روي أنه ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني

إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل اللـه عـز وجـل ألـف شـهر تعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك وتمنى لأمته فقـال: ((يـا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعمارا، وأقلها أعمالا)) فأعطـاه اللـه ليلـة القدر فهي من خصائص هذه الأمة، وهي باقيـة على الصـحيح، والعبـادة فيها خير من العبادة في ألف شهر وهي ثلاث وثمانون سنة.

وإنزاله كان في ليلة القـدر إلى بيت العـزة مـرة واحـدة، ثم نـزل على النبي صلى الله عليه وسلم نجوما متفرقـة في مـدة في مـا بين البعث ووفاته صلى الله عليه وسلم. ومعنى إنزالـه من اللـوح إلى بيت العـزة أن جبريل أملاه على ملائكة السماء الـدنيا فكتبـوه في صـحف، وكـانت تلك الصحف في محل من تلك السماء يقال له بيت العـزة. فـإن قلت: إن البعثة كانت على رأس الأربعين وميلاده صلى الله عليه وسـلم كـان في ربيع الأول؟ فكيف يكون مبدأ الوحي في رمضـان في ليلـة القـدر؟ أجيب بأن مبدأ الـوحي كـان بالرؤيـا في سـتة أشـهر، وبـدأ بربيـع الاول وانتهى بأوائل رمضان. ثم نزل الوحي عليه صلى اللـه عليـه وسـلم في رمضان.

والذي يظهر من الأحاديث الشريفة أن ليلة القدر ليلة شـريفة خـير من الف شـهر، وتكـون في رمضـان المبـارك، وتنتقـل أي قـد تكـون الليلـة الأولى وقد تكون غيرها من الليالي. والظـاهر من أقـوال المحققين في الحديث الشريف أنها في العشر الأواخر من رمضان، فقد أخـرج أحمـد والبخاري ومسلم والترمـذي عن عائشـة رضـي اللـه عنهـا قـالت: قـال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم: ((تحـروا ليلـة القـدر في الـوتر من العشر الأواخر من شهر رمضان)).

وحكمة انبهـام عينهـا أن يـرغب النـاس في إحيـاء ليـال كثـيرة من هـذا الشهر المبارك. وإذا أمكن لشخص أن يحيي ليالي رمضان كلهـا فـذلك بركة لا يساويها بركة أخرى من إحياء الليالي بالطاعة.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ وهذه الآية بيان إجمالي لشأنها وشرفها عند الله تعالى، ودرجات الأجور لأهل الأحياء فضلٌ من الله تتبع درجات نياتهم، ومن أحوالها أنه ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ الملئكة: وإن كان اسما للنوع لكن المراد جمع مخصوص مأمورون بالنزول في تلك الليلة. والروح: هو جبريل عليه السلام. ونزولهم يكون بأمر صادر من ربهم سبحانه وتعالى. وقوله: من كل أمر أي من أجل كل أمر يتعلق به التقدير وقوله ﴿سَلَامٌ﴾ خبر لقوله ﴿هِيَ﴾ أي سلام مبالغة في تعظيم الليلة كأنها عين السلامة، لكثرة البركات النازلة إلى أهل الأرض وقوله ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ غاية تبين تعميم السلامة فيها لكل من أسلم لله.

ونقل الطحاوي عليه الرحمة في حواشي الدر المختار عن بعض الشافعية أن أفضل الليالي ليلة مولده عليه الصلاة والسلام، ثم ليلة القدر، ثم ليلة الإسراء والمعراج، ثم ليلة عرفة، ثم ليلة الجمعة، ثم ليلة النصف من شعبان، ثم ليلة العيد، هذا هو المنقول فإذا ثبت هذا الترتيب بدليل فعليه التعويل. وإلا فأحي الليالي الفاضلة وتوكل في ثوابها على الله الجليل.

وبعض المحققين شبهوا الأزمنة والأمكنة الشريفة باللباس الناعم الجميل، ونية العامل هي لابس الألبسة فإذا كان اللابس حسن الصورة والسيرة فنعم اللابس والملبوس، والإ فلا قيمة له حسب ما تحقق من الأدلة الشرعية. جعلنا الله تعالى من أصحاب النيات الحسنة وأفاض علينا من هباته برحمته إنه أرحم الراحمين.

سورة البينة مدنية وآياتها ثمان، نزلت بعد الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَـأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُـحُفًا مُطَهَّرَةً (2) فِيهَـا كُتُبٌ قَيِّمَـةٌ (3) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُـوا الصَّـلَاةَ وَيُؤْتُـوا الزَّكَـاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَـرُوا﴾.. الآيـة نقـل وبيـان لمـا زعم أهـل الكتاب من اليهود والنصارى وأهل الإشراك من أنهم أناس طيبون ولهم نوايـا حسـنة، وأنهم عنـدما بعث الرسـول الموعـود في جزيـرة العـرب وأتاهم بالبينة من الله أسلموا ودخلوا في الإسلام مع أنه لما أتاهم ذلك النبي الموعود المسعود كفروا به وعاندوا فقال تعـالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَــرُوا مِنْ أَهْــلِ الْكِتَــابِ﴾اليهــود والنصــارى ﴿وَ﴾ من ﴿الْمُشْــرِكِينَ مُنْفَكِّينَ﴾ عن دينهم الأساسي وعن تقاليـدهم السـابقة المتوارثـة ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي الحجة الواضحة

والبرهان القاطع. وقوله ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ عطف بيان للبينة أو بدل منه. وقوله ﴿يَتْلُو﴾ نعت له، أي يتلو على الناس ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ من إلقاء شياطين الجن والإنس ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي فيها فرائض محكمة وعزائم ثابتة، أو فيها أحكام مكتوبة على صحف أمته قيمة مستقيمة ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ما تفرقوا عن الإيمان حيث آمن قليل منهم وكفر كثيرون ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ المعهودة المسعودة، مع أنّه ما كلّفهم بما لا يطاق، وما أمرهم بشيء خارج عن الأدب والأخلاق كما قال ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده لا شريك له ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ بدون شوب شائبة أخرى.

﴿حُنَفَاءَ﴾ مائلين من الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن العصيان إلى الطاعة والإحسان ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي ويؤدوا الصلوات المفروضة ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَذَلِكَ دِينُ﴾ الملة ﴿الْقَيِّمَةِ﴾ المستقيمة وهو دين الاسلام الذي ارتضاه للعالمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8)﴾.

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استئناف لبيان خلود أهل الكفر في النار سواء كانوا من أهل الكتاب أو المشركين ومن الموجودين في عصر النزول أو اللاحقين، لأنّ أساس الاستحقاق هو الكفر وقد تحقق، فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ <548>

أي شر الخليقة. ومادام أهل الكفر المنقسم إلى ما سبق مستحقين لذلك فأهل الإيمان والأعمال الصالحة يستحقون النعيم الخالد وقد قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وأفضل من هذا الجزاء ما يستفاد من قوله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فلم يبق عنده سخط عليهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي ولم يبق عند الله تعالى ملل عنهم. وليس ذلك مختصا بقوم مخصوصين بل ﴿ذَلِكَ لِـ﴾ كل ﴿مَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ لأن الخشية ملاك الأمر. <549>

سورة الزلزلة، مدنية وآياتها ثمان، نزلت بعد سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)﴾

قوله ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي إذا حركت الأرض تحريكا عنيفا مشتدا متكررا، وزلزلت ذلك الزلزال الذي يليق بها عند نفخ الصور في المرة الأولى المدمرة للكائنات بأرضها وسمائها ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي الأثقال المكنوزة فيها، أو المدفونة فتشمل الموتى والمعادن والكنوز التي دفنت فيها ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ﴾ أي كل فرد من الموجودين إذ ذاك: ﴿مَا لَهَا﴾ تزلزلت هذه الدرجة من الزلزال وأي سبب حدث لها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذا كان ذلك ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ الأرض بانطاق الباري لها أو الملائكة المأمورة عليها أو بلسان الحال مجيبة عن الاستفهام السابق <550>

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ أيها الإنسان السائل مالها ﴿أَوْحَى لَهَا﴾ أي أمَرَها أو سخرها لذلك ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ جمع شتيت بمعنى أفواجا متفرقة أي يخرجون من قبورهم أفواجا وجماعات متفرقين ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي ليحاسبوا عليها وليُبْصَروا جزاء أعمالهم، فإن كانت الزلزلة ناشئة من النفخة الثانية فالامر واضح، وإن كانت من نفخ الصور في المرة الأولى ففيه مسامحة، لأن صدور الناس من المقابر لا يتصل بالنفخة الأولى بل بالثانية، لكن لما كان الفصل قليلا كان كَأَنَّه متصل بها ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ والذرة نملة صغيرة حمراء دقيقة جدا. ويجوز أن يراد بها المعنى المشهور وهو الجزء الذي لا يتجزأ. وهذه الآية أبلغ ما يقال في المحاسبة مع أي شخص، لأن الذرة بأحد المعنيين لا يقبلها الميزان حتى يدخل في الحساب والله أعلم بالصواب. <551>

سورة العاديات، مكية، وآياتها إحدى عشرة، نزلت بعد سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَادِيَـاتِ ضَـبْحًا (1) فَالْمُورِيَـاتِ قَـدْحًا (2) فَـالْمُغِيرَاتِ صُـبْحًا (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4) فَوَسَـطْنَ بِـهِ جَمْعًـا (5) إِنَّ الْإِنْسَـانَ لِرَبِّهِ لَكَنُـودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَـا فِي الْقُبُـورِ (9) وَحُصِّـلَ مَـا فِي الصُّـدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)﴾

قوله تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾.. الآية قال ابن عباس رضي اللـه عنهمـا: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى أناس من بني كنانة فأبطـأ عليه خبرها، واسـتمرت شـهرا لا يعلم عنهـا شـيئا، ولم يأتـه منهـا خـبر، وكان استعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، فقال المنافقون: إنهم قتلوا. فنزلت هذه السورة إخباراً للنبي صلى الله عليـه وسـلم بسـلامة السرية وبشارة له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم. أخرجـه الـبزار والدار قطني.

أقسم الباري سبحانه بالخيل تعدو في ميدان الحـرب وتضـبح ضـبحا أي تصوت أجوافها إذا عَدَتْ وركضت بقوّة فالعاديات هي الافراس العاديـة ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ وأقسم بالخيول التي تضرب بنعالها الأحجار الناريـة فتوري النار فالمورياتُ المشـعلاتُ نـارا حين تقـدح قـدحاً ﴿فَـالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ وأقسم بالخيول التي تغير على العـدو عنـد الصـباح ﴿فَـأَثَرْنَ بِـهِ نَقْعًا﴾ أي فهيّجن في مكان عدوهن غبارا، والنقـع الغبـار ﴿فَوَسَـطْنَ بِـهِ جَمْعًا﴾ أي فوقعن مع ملابسة الغبار والعجاج وسط الأعداء بدون مبـالاة بأيّ بلاء، وعطـف الفعـل على الأوصـاف لأن اللام عليهـا موصـول فهي في معنى الموصول، وصلة من جملة فعلية أقسم بها متلبسـة بقيودهـا على مقسـم عليـه وبينـه بقولـه ﴿إِنَّ الْإِنْسَـانَ لِرَبِّهِ لَكَنُـودٌ﴾ أي إن نـوع الإنسان لكفور بالرب الذي خلقه وجحود لنعمته حيث أنعم عليه ورزقـه ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي الإنسان ﴿عَلَى ذَلِكَ﴾ الكنود والجحـود الثـابت لـه ﴿لَشَـهِيدٌ﴾ يشهد على نفسه ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْـرِ﴾ أي المـال والـثروة ﴿لَشَـدِيدٌ﴾ أي قوي العـزم ثم يزجـره على ذلـك ويقـول ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِـرَ﴾ أي بعث وأخـرج ﴿مَـا فِي الْقُبُـورِ﴾ من المـوتى وأحيـاهم اللـه تعـالى للحسـاب ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّـدُورِ﴾ وأظهـر وأخـرج وأوضـح مـا في الصـدور من الكفر والجحود وشـدة حب الخـير ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ﴾ أي بـأحوالهم ﴿يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ ويجازيهم جزاء وفاقا.

سورة القارعة، مكية، وآياتها إحدى عشرة، نزلت بعد سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْقَارِعَةُ (1) مَـا الْقَارِعَـةُ (2) وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا الْقَارِعَـةُ (3) يَـوْمَ يَكُـونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُـــهُ (6) فَهُـــوَ فِي عِيشَـــةٍ رَاضِـــيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)﴾

قوله تعالى ﴿الْقَارِعَةُ﴾ هي في الأصـل الصـوت الشـديد ويـراد بهـا هنـا حادثـة مجيء يـوم القيامـة بـالنفخ في الصـور، لأنهـا تقـرع القلـوب والأجساد الكبـيرة بـالفزع، فإنهـا تـؤثر في السـموات بالانشـقاق، وفي الأرض بالتبـديل، وفي الجبـال بالـدك والتفـرق والتلاشـي، والكـواكب بالانتشـار، وفي الشـمس والقمـر بـالتكوير، والقارعـة مبتـدأ، ومـا استفهامية للتعجب والتهويل مبتدأ ثان، والقارعـة خـبره، والجملـة خـبر للمبتدأ الأول. واستغنى عن الضـمير بتكـرار نفس المبتـدأ ﴿يَـوْمَ يَكُـونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ﴾ يوم ظرف لمضمر دلت عليه القارعة أي تقـرع يـوم، أو لتأتي مقدرا أي القارعة تأتي <554>

وتتحقق يوم يكون النـاس كـالفراش ﴿الْمَبْثُـوثِ﴾ المنتشـر في الأرض، والفراش جمع فراشة وهي التي تطير وتتهافت في النار. وقيل هو طير رقيق يقصد النـار ولا يـزال يقتحم على المصـباح ونحـوه حـتى يحـترق. وقيل هو الجراد المنتشر في الأرض ويركب بعضه بعضا. والمقصـود أن الإنسان في ذلك الوقت يحتار ويضطرب من الدهشة والخوف ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُـوشِ﴾ كالصـوف المنـدوف في خفـة سـيرها حـتى تستوي مع الأرض. وقوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بيان لأحــوال المكلفين في ذلـك اليـوم، وفيـه إيجـاز الحـذف، أي فيمـوت المكلفـون وغير المكلفين ثم يبعث الجميع ويحاسب المكلف منهم، فأما من ثقلت موازينه أي موازين حسناته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِـيَةٍ﴾ أي راض صـاحبها بهـا ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُـهُ﴾ أي مـوازين حسـناته ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَـةٌ﴾ أي فمسكنه هاوية وتؤويه كـالأم الحنـون لولـدها ﴿وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا هِيَـهْ﴾ أي الهاوية ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ والهاوية في الأصل البقعة النازلة السافلة، والمراد هنــا درك من دركــات الجحيم أســفل الــدركات، وهي ملأى من النــار فجعلها نفس النار تسمية للحال باسم المحل. أعاذنـا اللـه منهـا بكرمـه وإحسانه آمين. <555>

سورة التكاثر، مكية، وآياتها ثمان، نزلت بعد سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَـاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَـابِرَ (2) كَلَّا سَـوْفَ تَعْلَمُـونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُـونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَـرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)﴾

قوله ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ ألهى من باب الإفعال، والضمير مفعوله. والتكاثر فاعـل ألهى، والمعنى شغلكم التباهي بكثرة الأنفس والأفـراد عن اللـه تعـالى والإيمـان بـه وبرسـوله وتوحيـده وتحميـده ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَـابِرَ﴾ أي توسلتم إلى التكاثر بـالأموات المـدفونين في المقـابر، فزيـارة المقـابر كناية عن التفكر في عدد الأموات وتعدادهم للحصـول على الغلبـة على المقابل في كثرة.

روي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عددا فكثرتهم بنـو عبد منـاف، فقـالت بنـو سـهم: إن البغي أهلكنـا في الجاهليـة، فعادّونـا بالأحياء والأموات، فكثرتهم بنو سهم. ومنهم من فسر الآية بأنه أغفلكم عن الطاعة لله والإيمان به وبرسوله التكـاثر بـالأموال والأولاد والأمـور الدنيوية

حـــتى متم وزرتم المقـــابر. وفيـــه إشـــارة إلى التهكم بهم والســـخرية بعقولهم، حتى صرتم كالموتى ووصل بكم الناس إلى المقابر للدفن.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاسـتمرار في الغفلـة عن الحـق ﴿سَـوْفَ تَعْلَمُـونَ﴾ مـا أمامكم من الحساب والمـيزان، ومن العـذاب والعقـاب ﴿ثُمَّ كَلَّا سَـوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، وكرره للتأكيد في التـوبيخ ﴿كَلَّا لَـوْ تَعْلَمُـونَ عِلْمَ﴾ الأمـر ﴿الْيَقِينِ﴾ المتيقن الغـير المشـوب، أو علمـا يتحقـق في ضـمن القسـم الكامـل وهـو اليقين أي الاعتقـاد الجـازم الثـابت المطـابق للواقـع في أحوال الآخرة وأهوالها وحالها ومآلهـا ﴿لَتَـرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أي لصـرتم إلى حالة نفسانية وتحـولتم إلى حالـة إنسـانية كـأنكم تـرون الجحيم بعيـون أبصـار فتكـون الرؤيـة رؤيـة البصـر، أو أدركتم وعلمتم بـأحوالكم في الآخـــرة علم اليقين لأن العلم بالنتيجـــة تـــابع للعلم بالمقـــدمات، فلـــو تفكرتم بالنظر الصحيح في صدق الرسول في كلامه وأحكامـه لوصـلتم إلى العلم بالنتيجة وصولا فعليا بدون اشتباه. وقوله ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ جملـة مســـتأنفة معناهـــا أنكم تفكـــرتم أولا أو غفلتم عن الآخـــرة أولا ســـتأتي القيامة وترون الجحيم ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ لأن الإبصار بالعين يُزيـل الاشـتباه في البين.

قالوا: إن الإنسان يمتاز عن غيره بالعقل والعقـل أسـاس العلم، والعلم إما بديهي لا يحتاج إلى الدليل، أو نظري يحتاج إليه، وما حصـل بـالنظر الصحيح القطعي يسمى علم اليقين، وما لم يحصل بـه يبقى في مقـام النظـر إلى وقت التّبـيين. وأمـا العلم البـديهي فإمـا يحصـل بـالحواس السليمة من العين أو السمع أو غيرهما فتسـمى حسـيات وقـد تسـمى عين اليقين بتغليب العين على غيرهـــا من الحـــواس فالصـــوت الـــذي تسمعه من عين اليقين، كما أن العلم بالشيئ الذي تبصره يسـمى عين اليقين. وإن لم يكتسب من الحواس فإمـا يسـتغنى عمـا عـدا تصـورات الأطراف والنسبة فهو موسـوم بـالعلم الأوّلي والكـل عنوانـه الأوليـات، وغيرها فطريات ووجدانيات، وتجريبيات، ومتواترات

وحدسيات، والأوّليّ إذا لم يغب عن الذهن إلا في فترات فهو علم أوّليّ ضروري ويسمى حق اليقين كعلمك بوجود نفسك، وعلى هذا المنوال استعمال كلمة حق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين.

ثم إني جعلت قوله تعالى لترون الجحيم جوابا لكلمة لَوْ وحملته على ما في الدنيا على معنى لو تعلمون علم اليقين صدق الرسول فيما جاء به من الله تعالى لترون الجحيم ولتعلمنَّ بوجودها في هذا العالم قبل الموت علم اليقين أو تكونَّ كمَن يَرَوْنها عين اليقين فكونوا على البصيرة من هذا البيان.

وأصل تَرَوُنَّ ترأيون كتعلمون نقلنا حركة الهمزة إلى ما قبلها وحذفناها للتخفيف وقلبنا الياء ألفا، وحذفناها لدفع إلتقاء الساكنين، ثم أكدناه بالنون الثقيلة فحصل التقاء الساكنين بين النون الأولى وواو الجمع فضممنا الواو لدفعه ولم نحذفها لعدم وجود دليل قبلها فاحفظه.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ﴾ أي والله لتسئلن كلكم يومَ إذ جاء العِلمُ بعد الخبر ﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾ الذي تنعمتم به في الدنيا، لأن الكائنات مخلوقة لله، وما خلقها عبثا وإنّما خلقها للعبودية له لا من جهة الاحتياج بل لاستحقاق الكامل المطلق للعبادة المطلقة، فمن أوْفى بما خُلق له أو قارب فهو في أمان من عذاب الرحمن، ومن لم يوف فيوفى حسابه حسبما يقتضيه كتابه. نسأل الله أنه يحاسبنا حسابا يسيرا بمنه ورحمته آمين.

سورة العصر، مكية، وآياتها ثلاث نزلت بعد الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَصْــرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَــانَ لَفِي خُسْــرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُــوا وَعَمِلُــوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ هذه السورة جمعت من العلوم ما جمعت فقــد روي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه لو لم ينزل غـير هـذه السـورة لكفت النـاس، لأنهـا شـملت جميـع علـوم القـرآن. وروى الـبيهقي في الشعب عن أبي حذيفة وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحـدهما على الآخر سورة العصر ثم يسلّم أحدهما على الآخر. والمـراد بالعصـر صلاة العصر لفضلها لأنها الصلاة الوسـطى عنـد الجمهـور لقولـه صـلى الله عليه وسلم: ((شغلونا عن الصلاة الوسـطى صـلاة العصـر شـغلهم الله تعالى)) وفي الحديث: ((من فاتته صـلاة العصـر فكأنمـا وتـر أهلَـه ومالَه)) وقيل: المراد به عصر النبوة، وكأنه عني بـه وقت حياتـه صـلى الله عليه وسلم، وقيل: المراد الوقت الباقي من الدنيا لأمة <559>

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويـؤذن بـذلك مـا رواه البخـاري عن سالم بن عبدالله عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم: ((يقول إنمـا بقـاؤكم فيمن سـلف قبلكم من الأمم كمـا بين صـلاة العصـر إلى غروب الشمس)) وقيـل: المـراد بـه العصـر والزمـان لكـثرة الحـوادث والتقلبات فيه بإذن الله تعالى والمقسم عليه ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أي في متـاجرهم ومسـاعيهم وصـرف أعمـارهم في مطـالبهم الـتي لا ينتفعـون بهـا في الآخـرة بـل ربمـا تضـرّهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ﴾سواء كانت من الإيجابيـات كـأداء الواجبـات والمنـدوبات أو السلبيات كترك المحرمات والمكروهات، فإنهم في تجارة تأتيهم وتعـود عليهم بالخير في المساء والصـباح. وهاتـان المتعاطفتـان تشـملان كـل خير اعتقـادي أو عملي فعلا أو تركـا، ولكنـه لمـا كـان التواصـي بـالحق والصبر من أهم الأمور تعرض لهما بالخصوص وقال ﴿وَتَوَاصَوْا بِـالْحَقِّ﴾ أي وصى بعضهم بعضا باتباع الحق في نفسه وفي كل ما يمكنه تنفيـذه قولا أو عملا ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي وصى بعضهم بعضا بملازمـة الصـبر عند فعل كل ما يشق فعله، وتـرك كـل مـا يشـق تركـه، وليس المـراد بالصبر حبس النفس عما تشتاق إليه من فعل أو ترك وإنمـا المـراد بـه السعي في تحويل نفسه إلى مقام الرضا بكل ما يـأتي عليـه من اللـه.

سورة الهمزة، مكية، وآياتها تسع، نزلت بعد القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ عن ابن إسحاق قال: كان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه، فأنزل الله فيه هذه السورة أخرجه ابن المنذر وفي بعض الآثار: إن هذه السورة نزلت في أمية بن خلف وفي بعضها في الأخنس بن شريق. وفي بعضها في جميل بن عامر الجمحي وعلى كل فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وهمزة صيغة مبالغة في اتصاف صاحبه. والهمز الكسر كالهزم، واللمز الطعن كاللهز، شاعا في الكسر من أعراض الناس، والغض منهم واغتيابهم، والطعن فيهم ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ الموصول بدل من كل همزة بدل كل من الكل ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ <561>

وكان أحد من روي أن السورة نزلت فيه وهو أخنس بن شـريق عنـده عشرة آلاف. ومعنى قوله ﴿عَـدَّدَهُ﴾ أنـه عـدّه مـرة بعـد أخـرى حبـا لـه وشغفا به ﴿يَحْسَـبُ أَنَّ مَالَـهُ أَخْلَـدَهُ * كَلَّا﴾ ردع لـه عن ذلـك الحسـبان ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ أي في النار التي شأنها أن تحطم كـل من يلقى فيها ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَـا الْحُطَمَـةُ * (5) نَـارُ اللَّهِ الْمُوقَـدَةُ﴾ بـاذن اللـه عـز وجل ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ أي تعلو أواسط القلوب وتغشاها. وفي الحديث أنها تأكل جـزء من الجسـد حـتى تنتهي إلى فـؤاده، فـإذا بلغت فؤاده ابتدأ خلقه ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي إن تلك النـار مطبقـة عليهم حالكونهم ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ وحاصل المعنى أن المعذبين موثقون في عمد طوال حتى لا يخلصـوا، والنـار مسـتولية مطبقـة عليهم بـأمر اللـه تعالى. <562>

سورة الفيل، مكية، وآياتها خمس، نزلت بعد الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل من تمكن منه الرؤية، وليست الرؤية رؤية معاينة، بل علم حصل للناس من الروايات الكثيرة التي وصلت حد التواتر فصار كالمعاينة ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ المعنى أنه فعل بالفيل واسمه محمود، وبصاحبه وهو أبرهة ملك اليمن من جهة أصحمة النجاشي وبجيشه وهذه الحادثة كانت من تباشير طلوع شمس طلعة الرسول المختار من أفق العالم، وقد ولد عليه السلام في تلك السنة.

والقصة ان أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القُلَّيْسَ وأراد أن يصرف الحاج إليها، <563>

فخرج رجـل من كنانـة فقعـد فيهـا ليلا، فأغضـبه ذلـك فحلـف لَيَهْـدِمَنَّ الكعبة! فخرج بجيشه ومعه فيل قوي اسمه محمود، وفيلة أخرى. فلمـا تهيأ للدخول وعبأ جيشه، قَدَّمَ الفيل، وكان كلما وجّهوه إلى الحرم برك ولم يبرح. وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى جهة أخرى هرول، فأرسل اللـه طيرا كل واحد في منقاره حجر، وفي رجليه حجـران أكـبر من العدسـة وأصغر من الحمصة فترميهم فيقع الحجر في رأس الرجـل فيخـرج من دبره فهلكوا جميعا ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ في تضييع الكعبة وتخريبها ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ وإبطال ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيـلَ﴾ أي جماعـات جمـع إبّالـة وهي الحزمة الكبيرة ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ من السـماء ﴿بِحِجَـارَةٍ مِنْ سِـجِّيلٍ﴾ أي من طين متحجّـر ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْـفٍ مَـأْكُولٍ﴾ أي كـورق زرع وقـع فيـه الأكال وهو أن يأكله الدود أو أكل حبه فبقي صـفرا منـه، أو كتبن أكلتـه الـدواب وراثتـه. وبـذلك الجيش السـماوي أهلـك ذلـك الجيش الأرضـيّ بدون أن يتصوره أحد، ومعنى ذلك أن الله إذا أراد صيانة شيء حفظـه، وهو على الله سهل يسير. <564>

سورة قريش، مكية، وآياتها أربع، نزلت بعد التين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)﴾

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ جعل بعض المفسرين هـذه اللام متعلقـة بقوله تعالى فجعلهم أي فجعلهم كعصف مأكول لايلاف قريش ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ يعني جعلهم كذلك لبقاء ألفـة قـريش بتجـارتهم ورحلتيهم السـنويتين: رحلـة إلى الشـام في وقت الصـيف، ورحلـة إلى اليمن في الشتاء. فإنه لو لم يهلك جيش أبرهـة لاسـتولوا على الحجـاز وما والاها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وأفسـدوا فلم تبـق تجـارة، ولا جلب عيش لهم، ولا أمان من الظالمين ﴿فَلْيَعْبُـدُوا﴾ أي ومـادام الأمـر كـذلك ووجب عليهم الشــكر فليعبــدوا ﴿رَبَّ هَــذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ من أصحاب الفيل، أو من أهل الإفساد والسوء من أي قبيلة وجيل.

<565>

سورة الماعون، مكية، إلا ثلاث آيات الأولى منها وهي سبع آيات نزلت بعد التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَـذِّبُ بِالـدِّينِ (1) فَـذَلِكَ الَّذِي يَـدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَـامِ الْمِسْـكِينِ (3) فَوَيْـلٌ لِلْمُصَـلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَـلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7)﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ نزلت في العاص بن وائــل، أو الوليـد بن المغـيرة، وصـدر الكلام اسـتفهام معنـاه التعجب ورأيت إمـا بصـرية متعديـة لمفعـول واحـد هـو الموصـول أو إخباريـة متعديـة إلى مفعولين الأول الموصول، والثاني محذوف. أي من هو؟ والدين يراد بـه الجزاء في الآخرة أو الحساب. أي هل عرفت ذلك المفصول الموصول فإن لم تعرفه ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي يدفعه دفعـا عنيفـا إذا جـاءه ويطلبه حاجة ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي يمنـع نفسـه وغـيره عن إطعام المسكين، مع أنه يجب على الأغنياء إطعامه إما تبرعـا وهـو الأحسـن، أو بنيـة الرجـوع عليـه بالبـدل إذا امكن، وعليـه فليشـهد ذوي عدل لأداء الشهادة في وقتها. وقوله ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ لفظ ويل مبتــدأ وللمصلين خبر. فإذا أريد به الموصول السابق

فالمراد به من يجب عليه الصلاة وكلف بها وإن كان كافرا ولم يؤمن حتى يصلي بناء على أن الكافر مكلف بالفروع. وإن أراد به غيره من المصلين الكسالى كما يدل عليه قوله ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ فالأمر سهل، والمعنى فويل للكافرين الذين تجب عليهم الصلاة ولم يؤدوها إلا اذا وقعوا في مجتمع وصلّوا رياء، أو الويل للمؤمنين ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ أي عن فعلها ﴿سَاهُونَ﴾ أي غافلون، أي معرضون عنها وتاركون لها إلا ما ندر مما وقع وصادف لهم في جماعة. ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ في الصلاة، وكالصلاة غيرها من العبادات التي يرائي فيها صاحبها فيسقط ثوابها، كلا عند بعض، وبعضا بمقدار ما قصده من الرياء عند آخرين.

وقوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ جاء الماعون بمعنى المال وبمعنى المعونة وبمعنى القصعة التي فيها الطعام وبمعنى الزكاة وبمعنى الظروف والأدوات البيتية التي يعتاد الناس أخذها من الجار لاستعمالها في أوقات مخصوصة ثم ردها إلى أهلها. وليس المراد بها الأواني النفيسة التي يصعب على أصحابها استعمالها عندهم فضلا عن غيرهم أبدا. والكلام من قوله فويل إلى آخر السورة ترقى الباري تعالى من المعرف إلى معرف أقوى أي إذا كان دع اليتيم وعدم الحض بتلك المثابة فما بال المصلي الذي هو ساه عن صلاته التي هي عماد الدين والفارق بين الإيمان والكفر؟ ومرتكب للرياء في اعماله الذي هو شعبة من الشرك، ومانع الزكاة التي هي شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام، ومانع لإعارة الشيئ الذي تعارف الناس إعادته فضلا عن إخراج الزكاة من ماله فذلك العَلَم الأوضح الأوفى على التكذيب الذي قد يخفى، والغرض <567>

التغليظ في أمر هذه الرذائل التي ابتلى بها الكثير من الناس، وأنها لما كانت من سيما المكذب بالدين كان على المـؤمن المعتقـد المخلص أن يبعد عنها بمراحل ويظهر أن أم كـل معصـية التكـذيب بالـدين، والمـراد بالمكذب على هذا الجنسُ، والإشارة لا تمنع منه كمـا لا يخفى، وإن ورد في موارد معينة كما روي أن المورد عاص بن وائل أو وليد بن المغـيرة أو أبو جهل، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وفقنا الله للوفـاء بالدين وحقوقه المميزة للمسلمين آمين. <568>

سورة الكوثر، مكية، وآياتها ثلاث، نزلت بعد العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)﴾

وسبب نزولها أن العاص بن وائل السهمي تلاقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد عند باب بني سهم فتحدثا، وناسٌ من صناديد قريش جلوس في المسجد، فلما دخل العاص قالوا له: من الذي كنت تتحدث معه؟ فقال: ذلك الأبتر، يعني به النبي صلى الله عليه وسلم. وكان قد توفى ولده القاسم فنزل ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي أنا بجلالنا وعظمتنا ولتشريفك في العالم أعطيناك الكوثر وهو نهر في الجنة، أو حوضه المشهور بالحوض المورود يرد عليه المؤمنون قبل الدخول فيها، أو الكوثر الخير الكثير من النبوة والرسالة، والقرآن الكريم، والخلق العظيم، وانتشار دينه في الآفاق، ووقوع الرعب منه في قلوب الأعداء مسيرة شهر، وأن أمته خير الأمم، وإجماعهم حجة على مر الزمان، وأنهم لا يجتمعون على ضلالة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أي فما دمت أنت وربك يهتم بشئونك أينما كنت فصل لربك صلاة عيد النحر وسائر الصلوات المفروضة وانحر الإبل في الأضحية، <569>

وهذا يؤيد أن السّورة مدنية لأن الصلاة المفروضة كـانت ليلـة الإسـراء قبيل الهجرة وكذلك صلاة العيدين والنحر في عيد الأضـحى، وإذا كـانت مكية فمعنى الآية صل وانحر اذا فرضنا عليك، وهذه بشارة قدّمت إليك من إحسانه ﴿إِنَّ شَـانِئَكَ﴾ أي مبغضـك الـذي يبغضـه العـالِمُ في العـالَم ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ المنقطع عن كل خـير لا أنت وانت ينبـوع الحكمـة ورسـول الرحمة، وترد عليك من الله النعمة تلو النعمة وستسـتمر المـواهب من فياض الخير، وتنزل عليك وعلى كل من تبعك بإحسـان إلى يـوم الـدين والحمد لله. <570>

سورة الكافرون، مكية وآياتها ست، نزلت بعد الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُـدُ مَـا تَعْبُـدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِـدُونَ مَـا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَـا عَبَـدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِـدُونَ مَـا أَعْبُـدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ هذه السورة نزلت عندما قال رهط من المشركين لرسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم: تعبـدُ آلهتَنـا سـنة، ونَعبُدُ إلهَك سنة. وورد في فضلها أحاديث منها أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم أوصني فقال ((اقرأ عند منامك قل يـا أيهـا الكـافرون، فإنها براءة من الشرك)) ومنها قول ابن عباس رضي الله عنهمـا: ليس في القرآن أشدّ غيظا منهـا لأنهـا توحيـد وبـراءة من الشـرك وإنمـا زاد الإخلاص في الثواب عنها لأنها مشتملة على صفات اللـه تعـالى صـريحا مع دلالتها على الإخلاص في التوحيـد. والكـافرون الـذين نـاداهم صـلى الله عليه وسلم جماعة مخصوصـون من الكفـار علم اللـه تعـالى عـدم إيمانهم أصلا. والجملتان المكررتان بالعطف تكرارهما للتأكيد والمبالغـة في المتاركة والمباعـدة، وأن الفـريقين متباينـان في العقيـدة والإيمـان إلى أن ختم السورة بقوله المبين ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي

لكم اعتقادكم وأعمالكم والجزاء المترتب عليهما ولنا اعتقادنا وأعمالنـا والجزاء المرتب عليهما. فتكون السورة للمنابذة والمعانـدة والمفارقـة الأبدية. ثم نسخت بالإذن في الحرب والقتال بعـد أن هـاجر صـلى اللـه عليه وسلم ومضت مدّة، وإن كانت الجملتان المكررتان على اعتبـارات مختلفـة كمـا قـالوا: إن النفي الأول في قولـه الكـريم ﴿لَا أَعْبُـدُ مَـا تَعْبُدُونَ﴾ محمـول على الحـال، والثـاني على الاسـتقبال أي لا أعبـد في الحال ما تعبدونه من الأصنام ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِـدُونَ﴾ أيضـا في الحـال ﴿مَـا أَعْبُـدُ﴾ وهـو اللـه الـذي لا إلـه إلا هـو الحي القيـوم ﴿وَلَا أَنَـا عَابِـدٌ﴾ في المستقبل أبدا ﴿مَا عَبَدْتُمْ﴾ فيه من الآلهة ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِـدُونَ﴾ فيـه ﴿مَـا أَعْبُدُ﴾.

إذ ذاك فإنهم كانوا قوما علم الله حرمانهم من الإيمان والأمان. ولـذلك وقعت هـذه المنابـذة بينهمـا فـ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ والحكم للـه رب العالمين.

سورة النصر، نزلت في منى في حجة الوداع، فهي مدنية باعتبار أن ما نزل بعد الهجرة مدنية، وآياتها ثلاث

نزلت بعد التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَـــاءَ نَصْـــرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَـــدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)﴾

هذه السورة مدنية بالإجماع على ما ذكرنا، وتسمى سـورة التوديـع لمـا فيهـا من الدلالـة على توديـع الـدنيا. واتفقت الصـحابة على أن هـذه السورة دلّت على نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلـك لأمـور منها: أنه صلى الله عليه وسلم خطب وقال إن عبـدا خيّـره اللـه تعـالى بين الدنيا ولقائه فاختار لقاء الله تعالى. فقال أبو بكر: فـديناك بأنفسـنا وأموالنا وآبائنا وأبنائنا. ومنها أنه لما ذكر حصـول النصـر والفتح ودخـول الناس في دين الله أفواجا دل على حصول الكمالات، وآنَ الأوانُ للّقـاء ونيل البركات.

فيقول ﴿إِذَا جَاءَ﴾ أي تحقق فعلا وتقرر بإذن الله ﴿نَصْـرُ اللَّهِ﴾ لـك على أعدائك في الدين فأيدكم بـالعون والعزيمـة وأبـادهم بـالهون والهزيمـة ﴿وَ﴾ جـاء ﴿الْفَتْحُ﴾ أي فتح مكـة المكرمـة الـتي كـانت عاصـمة الحجـاز وصارت مسلمة مؤمنة مطمئنة بـذكر اللـه ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَـدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي في ملة

الإسـلام وقبـول القـرآن الكـريم وبيانـك قـولا وفعلا وتقريـرا للأحكـام ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي جماعـات بعـد فـرادى متفرقـات ﴿فَسَـبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ﴾ أي فسـبّح ربـك متبركـا بحمـده معـه. وقـل: سـبحان اللـه والحمـد للـه ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ وقل استغفر الله ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًـا﴾ أي إن اللـه كـان توابـا رجاعا إلى عباده بالستر والعفو والقبول وفتح باب الوصول، وذلك آخـر محصـول. متعنـا اللـه والمسـلمين بهـذه الكرامـات برحمتـه إنـه أرحم الراحمين.

وكان فتح مكة في رمضان سـنة ثمـان من الهجـرة وتـوفي صـلى اللـه عليه وسلم في ربيع الأول سنة عشر منهـا. وعن ابن عمـر رضـي اللـه عنهما نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ثم نـزل ﴿الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فعاش النبي صلى الله عليـه وسـلم بعدها ثمانين يوما، ثم نزلت آية الكلالة فعاش بعـدها خمسـين يومـا، ثم نزل ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُـوَفَّى كُـلُّ نَفْسٍ مَـا كَسَـبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فعاش بعدها واحدا وعشرين يوما، وقيل سـبعة أيـام، ثم توفي ولقي الرفيق الأعلى.

سورة المسد مكية، وآياتها خمس، نزلت بعد الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)﴾

روي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا صلى الله عليه وسلم قومه ولاسيّما الأقربين فأنذرهم وقال لهم إني نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ.

فقال أبو لهب: تبا لك ألهذا دَعَوْتَنا؟ وأخذ حجرا ليرميه به فنزلت هذه السورة. فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رضي الله تعالى عنه وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله فلم تر إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، والله إني لقائلة:

مذمّما عَصَينا، وأمرَه أبَينا، ودينَه قلينا. ثم انصرفتْ فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ قال: ما رأتني، لقد أخذ الله بصرها مني، وكانت قريش يسمى رسول الله مذمما ثم يسبونه أي ذو ذمة وعهد صادق.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أي خسرت وهو كناية عن هلاكه بالجملة، ونسبة التباب إلى يديه لأنهما من أقوى مظاهر العمل في الأخذ والدفع وغيرهما. وقد أخذ الحجر بيده ليرميه بها إليه صلى الله عليه وسلم ﴿وَتَبَّ﴾ أي خسر هو وهذا إخبار بحصول التباب الذي دعا به عليه. ولما خوفه النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب قال: إن كان الذي يقوله ابن أخي حقا فإني أفتدي منه بمالي وولدي فنزل: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ والمراد مكسوبه من النتائج والأرباح والوجاهة والأتباع أو ولده عتبة، وقد افترسه أسد في طريق الشام، ومات أبو لهب بعد واقعة بدر بأيام معدودات بالعدسة، وهي قرحة. فمات وترك ثلاثة أيام حتى أنتن، فاستأجروا بعض الناس حتى دفنوه ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي ذات اشتعال ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ عطف على الضمير المستتر في سيصلى لوجود الفصل بينهما، وهي أم جميل أخت أبي سفيان.

وقوله ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ منصوب على الذم أي اشتم، أو أعني والمراد بحملها الحطب التفتين بين الناس أو إثارة المشركين على الرسول صلى الله عليه وسلم، أو أنها كانت تحمل حزمة من الأشواك بحبل من الليف لتضعها في طريقه صلى الله عليه وسلم كي يتأذى بها، وقوله ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ أي من الليف كالنص في هذا الأخير لولا رواية أنها تؤمر في جهنم لحمل الأحطاب بحبل في عنقها لتلقيها في جهنم كوقود هناك. والله المتعال اعلم بحقيقة الحال.

سورة الإخلاص، مكية، وآياتها أربع، نزلت بعد سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)﴾

روي أن قريشا قالوا: يا محمد صِف لنا ربك الذي تدعونا إليه. فنزلت أي إن الذي أدعوكم إلى عبادته وتوحيده ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ أي الذات الواجب الوجود الموصوف بالكمال، والمنزه عن النقص، وهو ضمير الشأن كما في هو زيد عالم، ومرجعه مضمون الجملة الواقعة بعده. والتركيب مغتفر وإن كان فيه الإضمار قبل الذكر لفظا ورتبة لنكتة احتواء المقام على الإجمال والتفصيل، ويقع مبتدأ، والله مبتدأ ثان، وأحد خبره. والجملة خبر للمبتدأ الأول واستغنت عن الضمير لكونها عينه في المعنى. ولفظ ﴿أَحَدٌ﴾ يدل على مجامع الصفات الجلالية السلبية كما يدل لفظ الجلالة على الصفات الذاتية الكمالية، وذلك لأن الواحد الحقيقي لابد أن يكون منزها عن التركيب والتعدد والاحتياج إلى الغير ومماثلة شيء مما سواه. وقوله ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ مبتدأ وخبر وبيان كونه مرجعا لحوائج ما سواه لأن الصمد هو السيد الذي ليس فوقه أحد ويصمد الناس إليه في قضاء الحوائج.

وما عدا الجملة الأولى كالبيان لها لأنه لما كان لفظ الجلالة رمزا لاحتواء الصفات الذاتية الإيجابية ولفظ احد رمزا للصفات السلبية كانت الجملة

الأولى مستوعبة لكل ما يناسب مقام الذات الواجب الوجود لأن صفاته تعالى عشرون صفة: الأولى هي الصفة النفسية وهي الوجود. والثانية إلى الثامنة صفات المعاني وهي الصفات الكمالية التي يعبر عنها بالحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام. والتاسعة إلى الخامسة عشرة هي الصفات المعنوية ككونه تعالى: حيا، عليما، قديرا، مريدا، سميعا، بصيرا، متكلما، وتستفاد من الصفات الكمالية التي تسمى بصفات المعاني. والسادسة عشرة إلى العشرين هي الصفات الخمس السلبية أعني القدم، والوحدة، والبقاء، والقيام بنفسه، ومخالفة الحوادث، والكل مستفاد من مفهوم أحدٌ.

والجُمَل الباقية كالبيان لما سبق فإن الله الأحد لابد أن يكون صمدا ومرجعا لجميع ما سواه ومن لوازم حقيقة ذلك الذات أنه ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأنه لا يحتاج إلى فرد من نوعه يحفظ به ذلك النوع إذ هو فرد مطلق مجرد عن التركيب، وأنه ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن المولودية معناه الحدوث بعد العدم وسبق مرجع له يعود إليه وهو تعالى واجب الوجود وقديم ذاتا وزمانا ﴿وَ﴾ أنه ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا﴾ أي مكافئا مماثلا ﴿أَحَدٌ﴾ لأن مماثلة الحوادث مسلوبة عنه تعالى وفي الحقيقة أن الدين يسر وآيات الكلام المجيد نزلت على مقاربة فهم الناس ومناسبتهم ليستفيد الناس منها ما يحتاجون إليه من العقائد والأعمال، ولذلك صرح بتلك الجمل الأربع بعد جملة ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وإلا فهذه الجملة كافية في فهم صفاته تعالى مطلقا.

وبالجملة إن هذه السورة العظيمة جامعة لصفات الباري تعالى الثبوتية والسلبية، وحقيقتها ترجع إلى ما يستفاد من لفظ الجلالة بالذات ولذلك اعتبرت (لا إله إلا الله) شعار التوحيد والله أعلم.

سورة الفلق، مكية أو مدنية، وآياتها خمس، نزلت بعد الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ نزلت هذه السورة والتي بعدها لما سَحَر اليهوديُّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وذلك بإجماع الصحابة.

وحاصل الموضوع أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذي الحجة، ودخل المحرم سنَة سبع، وفرغ من واقعة خيبر جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم، وكان حليفا في بني زريق، وكان ساحرا، فقالوا له: أنتَ أسحَرنُا، أي أَعلَمُنا بالسحر، وقد سَحَرنْا محمداً فلم يؤثر فيه سحرنا شيئا، ونحن نجعل لك جعلا على أن تسحَرَه لنا سحرا يؤثر فيه. فجعلوا له ثلاثة دنانير. فأتي غلاماً يهوديا كان يخدِم النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يَزَل به حتى أخذ مشاطة رأس النبي صلى الله عليه وسلم، وعدة أسنان من مشطه، وأعطاه له، فسحره بها. وكان من جملة

السحر صورة من شمع على صورة رأس رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم. وقد جعلوا في تلك الصورة أبـرا مغـروزة إحـدى عشـرة، ووتـرا فيها إحدى عشرة عقدة.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم كلما قرأ آية انحلت عقدة، وكلما نـزع ابرة وجد لها ألماً في بدنـه، ثم يجـد بعـدها راحـة، وكـانت مـدة سـحره صلى الله عليه وسلم أربعين يوما.

إن قلت: كيف يؤثر السحر فيه صلى الله عليه وسـلم مـع أنـه معصـوم بنص قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؟ أجيب بأن المعصوم منـه ما أدى لخبل في عقله، أو لضياع شرعه، أو لموتـه. وأمـا مـا عـدا ذلـك فهـو من الأعـراض البشـرية الجـائزة في حقـه كمـا أن جرحـه وكسـر رباعيتـه لا يقـدح في عصـمته. إنتهى المقصـود. وقـد روي الواقعـة في البخاري.

فيقول الباري آمراً حبيبه محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ أَعُـوذُ بِـرَبِّ الْفَلَقِ﴾ والفلق الصبح. وقيل: الرحم لانفلاقه عن الولـد. وقيـل: كـل مـا انفلق عن جميع ما خلق من الحيوان والحب والنوى وكـل نبـات. وقيـل غير ذلك. وقوله ﴿مِنْ شَرِّ مَـا خَلَـقَ﴾ أي من شـر مـا خلقـه من حيـوان مكلف وغير مكلف، وجماد كالسم وغير ذلك ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ﴾ أي من شر الليـل ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي اشـتد ظلامـه، أو القمـر إذا غـاب ﴿وَمِنْ شَـرِّ النَّفَّاثَـاتِ فِي الْعُقَـدِ﴾ أي ومن شـر النفـوس السـواحر الـتي تنفث في العقد التي تعقدها في الخيـط وتنفخ فيهـا بشـيء تقولـه من غـير ريـق ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي ومن شر حاسد أي من له قوة الحسد، وهو حب زوال النعمة عن المحسود إذا أظهـر الحسـد، وأمـا إذا أهملـه فلا يضر احدا لكنه يحترق بناره في قعر داره أعاذنا الله تعالى منه ومن كل داء.

سورة الناس، مكية، أو مدنية وآياتها ست. نزلت بعد الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُـلْ أَعُـوذُ بِـرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِـكِ النَّاسِ (2) إِلَـهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَـرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْـوِسُ فِي صُـدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هذه السورة قال بعض إنهـا مكيـة ولكن الصحيح أنها مدنية، وكذلك سورة الفلق لأنّ سبب نزولهما واقعـة السحر، وهي كانت بالمدينة المنوّرة بعد واقعة الحديبيّة سنَةَ سبع.

وقال الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وإن كان هو ربّ الخلائق كلهم لأن النـاس بـالمعنى المشـهور أي الإنس هم أشـرف المكلفين، وهم الـذين وقعـوا في معـرض الهلاك من دسـائس النفس ووسـاوس الشياطين والملائكة لهم أمان من ذلك لعصـمتهم. والأنبيـاء، وإن كـانوا معصـومين لكن لهم النفس ومخافـة الخطـر من الظفـر ولـذلك قـال سيدنا يوسف عليه السلام ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ والرب هو المربي والـمُدَرِّجُ من طـور إلى طـور، والحافـظ لمـا يربّيـه، والناس إما من النوْسِ بمعـنى التحـرك لأن البشـر يتحـرك على الأرض وصار متحركا في الجو، أو من الأنس ضدّ الوحشة،

وهو مختص بالبشر، خلافا لمن قال إنـه يطلـق على الجن أيضا، فيقـال كما نقل عن بعض أهـل اللغـة: نـاس من الجن كمـا يقـال نفـر ورجـال منهم إذ المعروف عند الناس خلاف ذلـك، ثم كـرر النـاس في السـورة باعتباراتٍ مختلفة، فالناس في قوله ﴿بِـرَبِّ النَّاسِ﴾ يـراد بـه الكـل لأن الكل في أشد الحاجة إلى التربية والتنمية والإيصال إلى الحد المناسـب حسب الحكمة الفائقـة الربانيـة. وفي ﴿مَلِـكِ النَّاسِ﴾ يجـوز النظـر إلى اعتبار القوة والغلبة فيهم عند الشـباب والاسـتواء الداعيـة إلى الحاجـة الملحـة إلى ملـك مهيمن مسـيطر عليهم وفي ﴿إِلَـهِ النَّاسِ﴾ ينظـر إلى اعتبار الكهولة وما فوقها المناسبة للعبادة والإنابة والطاعـة. وفي قولـه ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ إلى قسـم خـاص من النـاس المفسـدين الموسوسـين في قلـوب البشـر الـدافعين لهم إلى الخطـر، وبتلـك الاعتبارات حسن التكرار.

﴿قُلْ أَعُـوذُ بِـرَبِّ النَّاسِ﴾ أي خـالقهم ومـربيهم ومالـك أمـورهم ﴿مَلِـكِ النَّاسِ﴾ المصيطر على كل قوي إذ لا قوة في مقابلة الله القوي العزيز ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ ومعبودهم الذي يليق بالمعبودية لكونه خالقـا رازقـا معينـا مُوفقـا ﴿مِنْ شَـرِّ الْوَسْـوَاسِ﴾ أي الوسوسـة كـالزلزال بـالفتح بمعـنى الزلزلة والمراد بـه الموسـوس الملقي لهـا إلى القلـوب ﴿الْخَنَّاسِ﴾ أي الموسوس الذي عادته أن يخنس ويتأخر إذا عارضه شـيء، فالشـيطان الموسوس يتأخر عند مدافعة نور القلب لـه سـواء حصـل من الـذكر أو الفكـر، والإنسـان الموسـوس يتـأخر إذا صـادف عقلا سـليما وفكـرا مسـتقيما يـدقق مـا ألقي إليـه حـتى لا يقـع في المهالـك ﴿الَّذِي﴾ نعت للوسواس بمعنى الموسوس ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ وقوله ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان للوسـواس. والجنـة اسـم جنس جمعي يفـرق بينـه وبين واحده

بالياء، فيقال جن وجني كما يقـال زنج وزنجي. والتـاء لتـأنيث الجماعـة، وظاهر الآية الشريفة أن الوسواس كما يوجد في الجن فهو موجود في الإنس، وغالب ذلك يحصل من المجاورة والمحاورة. فعلى المســلم أن يختار أهل الصدق لصحبته بقدر الإمكان قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ وَكُونُـوا مَـعَ الصَّـادِقِينَ﴾. جعلنـا اللـه تعـالى معهم في الـدنيا والآخرة مع سلامة البصيرة وصحة الباصرة.

<583>

هذا آخر ما يسر الله تعالى، ووفقني عليه من تفسير كتابه الكريم آخذا من تفاسير المفسرين، وتقارير الأساتذة المتفكرين، جزاهم الله تعالى بالخير يوم الدين.

وقد صادف الختام ضحوة يوم الخميس السابع والعشرين من رجب سنة ألف وأربعمئة وأربع هجرية الموافق لسنة ألف وتسعمأة وخمس وثمانين ميلادية، في بلدة بغداد التي كانت عاصمة الخلفاء والأئمة المجتهدين والأولياء العرفاء، وكنت مدرسا في مدرسة حضرة سيدنا القطب الرباني الشيخ عبدالقادر الحسني الحسيني الكيلاني، نور الله ضريحه، وروّح روحه، ونفعنا ببركاته ونفحاته وأنواره القدسية آمين.

وأنا الخادم للعلم والدين عبد الكريم بن محمد بن فتاح بن سليمان بن مصطفى بن محمد الشهرزوري من عشيرة القاضي القاطنين في ناحية سيد صادق رحمه الله. وأحمد الله الكريم على أن وفقني لطبعه ونشره، كما وفقني على جمعه وتأليفه في مدة سنتين. والله على كل شيء قدير وبإجابة دعاء المضطرين جدير. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين. وقد عاصرت زمان نقابة النقيب الجليل السيد يوسف عبدالله الكيلاني والسيد أحمد مظفر الكيلاني حفظهما الله تعالى بفضله وإحسانه آمين.

فهرس الكتاب

كبير.	
هو الذي جعل لكم الارض ذلولا.	373
قل هو الذي انشأكم وجعل لكم السمع والابصار والافئدة.	375
قل ارايتم ان اهلكني الله ومن معي او رحمنا.	376
سورة القلم.	377
القلم المقسم به	378
ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله.	379
سنسمه على الخرطوم ووليد بن المغيرة.	380
انا بلوناكم كما بلونا اصحاب الجنة.	381
مصير اصحاب الجنة الظالمين.	382
ان للمتقين عند ربهم جنات النعيم.	383
يوم يكشف عن ساق.	384
ام تسألم اجرا فهم من مغرم مثقلون.	385
سورة الحاقة.	387
ثمود وعاد ومصيرهما.	388
فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة.	389
فاما من اوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقراوا كتابية.	390
فلا اقسم بما تبصرون.	391
ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخنا من باليمين.	393
اعلى مراتب حق اليقين.	394
سورة المعارج.	395
سبب نزول سأل سائل بعذاب واقع.	396
ان الانسان خلق هلوعا.	397
فمال الذين كفروا قبلك مهطعين.	398
سورة نوح.	400
تأخير الاجل وتقديمه.	401
دعوة نوح قومه.	402